رسائل إخوان الصفاء
وخلان الوفاء

الجزء الثالث

عني بتصحيحه

خير الدين الزركلي

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة العربية بمصر

١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م

الرسالة الثانية عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

في قول الحكماء ان الانسان عالم صغير

﴿ وهي الرسالة السادسة والعشرون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

﴿ فصل ﴾

اعلم أيها الاخ أيدك الله وإيانا بروح منه بانا قد فرغنا من ذكر مسقط النطفة وبيان ما يتعلق بذلك من رباط النفس بها وتقلب الحالات التى تظهر شهراً بعد شهر وتأثيرات أفعال الكواكب فى أحكام بنية الجسد وقد بينا بعد ذلك الغرض الاقصى من وجود الانسان ومكثه في العالم زمانا فنريد أن نذكر فى هذه الرسالة معنى قول الحكماء ان الانسان عالم صغير فنقول

اعلم ان الحكماء الأولين لما نظروا الى هذا العالم الجسماني بأبصار عيونهم وشاهدوا ظواهر أموره بحواسهم وتفكروا عند ذلك فى أحواله بعقولهم وتصفحوا تصرف أشخاص كلياته ببصائرهم واعتبروا فنون جزئياته برويتهم فلم يجدوا جزءاً من جميع أجزائه أتم بنية ولا أكمل صورة ولا بجملته أشد تشبيها من الانسان

وذلك انه لما كان الانسان هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية وجدوا فى هيئة بنية جسده مثالات لجميع الموجودات التى فى العالم الجسماني من عجائب تركيب افلاكه واقسام ابراجه وحركات كواكبه وتركيب اركانه وامهاته واختلاف جواهر معادنه وفنون اشكال نباته وغرائب هيا كل حيواناته

ووجدوا أيضا لاصناف الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والانس والشياطين ونفوس سائر الحيوانات وتصرف أحوالها فى العالم تشبيها من النفس الانسانية وسريان قواها فى بنية الجسد.

فلما تبينت لهم هذه الامور عن صور الانسان سموه من أجل ذلك عالما صغيراً ونريد أن نذكر من تلك المثالات وتلك التشبيهات طرفا لكيما يكون دليلا على صحة ماقالوه وبيانا لما وصفوه ، وليقرب أيضا على المتعلمين فهمها ويسهل على الباحثين تأملها

﴿ فصل ﴾

في اعتبار أحوال الانسان باحوال الموجودات حسب مانبين هاهنا

فنقول أن الموجودات لما كانت كلها جواهر وأعراضا مجموعا منهما هيولى وصورا ومركبا منهما كما بينا فى رسالة الهيولى وكانت الاعراض كلها جسمانية أو روحانية كما بينا في رسالة العقل والمعقول

وكان الانسان انما هو جملة مجموعة من جوهرين مقرونين أحدهما هذا الجسد الجسماني الطويل العريض العميق المدرك بطريق الحواس والآخر هذه النفس الروحانية العلامة المدركة بطريق العقل

فلما كان الجسد بنية مؤلفة من أعضاء مختلفة الاشكال كاليدين والرجلين والرأس والرقبة والظهر والوركين والركبتين والساقين والقدمين. وكانت كل واحدة منها أيضاً مركبة من أعضاء مختلفة الصور متشابهة الاجزاء كالعظم والعصب والعروق واللحم والجلد وما شا كلها كما بينا في رسالة تركيب الجسد. وكانت هى

أيضا مكونة من الاخلاط الاربعة التي هي الدم والبلغم والمرتان

وهي أيضا متولدة من الكيموس والكيموس من الغذاء والغذاء من النبات والنبات من الاركان الاربعة كما بينا في رسالة النبات وكل واحدة مقومة من طبيعتين من الطباع الاربع المعلومة كما بينا في رسالة الكون والفساد وكل واحدة منها صور متممة للجسم وصور مقومة لشيء آخر من الاجسام الطبيعية كما بينا في رسالة الهيولى والصورة

ولما كان الهيولى والصورة أيضا جوهرين بسيطين روحانيين معقولين مخترعين مبدعين كما شاء باريها جل جلاله للفعل والانفعال قابلين بلا كيف ولا زمان ولا مكان بل بقوله كن فكان كما بينا في رسالة المبادىء العقلية

ولما كان الانسان حاله ما ترى وهو كما أخبرنا انه جملة مجموعة من جسد ظلماني ونفس روحانية صار اذا اعتبر حال جسده وما فيه من غرائب تركيب أعضائه وفنون تأليف مفاصله يشبه دارا لساكنها .

واذا اعتبر حال نفسه وعجائب تصرفاتها في بناء هيكل جسده وسريان قواه في مفاصل بدنه يشبه كأنها ساكنا في منزله مع خدمه وأهله وولده

ومن وجه آخر اذا اعتبر وجد بنية جسده مع اختلاف اشكال أعضائه وافتنان تأليف مفاصله يشبه دكانا للصانع

فهكذا نفسه من أجل سريان قواها في بنية هيكل جسده وعجائب افعالها من أعضاء بدنه وفنون حركاتها في مفاصل جسده يشبه صانعاً في الدكان مع تلامذته وغلمانه كما بينا في رسالة الصنائع العملية

ومن وجه آخر اذا اعتبر بنية جسده مع كثرة تأليفات طبقات بناء هيكله وغرائب تركيب مفاصل بدنه وكثرة اختلاف أعضائه وتشعب فروع عروقه وامتدادها الى اطراف أعضائه وتباين أوعيته التي في عمق جسده وتصرف قوى النفس يشبه مدينة مملوءة أسواقها من الصنائع كما بينا في رسالة تركيب الجسد .

ومن وجه آخر اذا اعتبر من أجل تحكم النفس على أحوال الجسد وحسن سياستها وسريان قواها وتصرفاتها فى بنيةهذا الجسد يشبه ملكا فى تلك المدينة بجنوده وخدمه وحاشيته كما بينا في رسالة العقل والمعقول .

ومن وجه آخر اذا اعتبر حال الجسد وتكوينه وحال النفس ونشؤها مع الجسد يشبه الجسد الرحم والنفس كالجنين كما بينا فى رسالة نشؤ النفس الجزوية وخروجها من القوة والفعل

ومن وجه آخر اذا اعتبر وجدمثل الجسد كالسفينة والنفس كالملاح والاعمال كالامتعة للتجار والدنيا كالبحار والموت كالساحل والآخرة كمدينة التجار والله تعالى الملك المجازى هناك

ومن وجه آخر اذا اعتبر وجد الجسد كالدابة والنفس كالراكب والدنيا كالميدان والعمال كالسباق

ومن وجه آخر اذا اعتبر وجد النفس كالحراث والجسد كالمزرعة والاعمال كالحب والثمر والموت كالحصاد والدار الآخرة كالبيدر كما بينا في رسالة حكمة الموت

ومن وجه آخر اذا اعتبر وجدعجيب بنيةالجسد كما ذكرنا فى كتب التشريح وكثرة ماتستفيد النفس العلوم بمقارنتها الجسد يشبه مكتباً للعلوم والنفس كالصبي في المكتب كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس

ومن وجه آخر اذا اعتبر تركيب الجسد وسريان قوى النفس فيه وتصرف أحوال الانسان كأنه دفتر مملوء من العلوم ويقال انه مختصر من اللوح المحفوظ وقد ضربت الحكماء لذلك أمثالا كثيرة ونريد أن نذكر من ذلك طرفاً مرموزاً مختصرا حسب مايليق بنا

فصل

في ان الانسان مختصر من اللوح المحفوظ

ذكر انه كان ملك من الملوك ، حكيم من الحكماء ، سيد من السادات وكان له

أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل ايصالهم الى مجلسه لانه لايليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمرتاضون في العلوم المتخلقون بالاخلاق الجميلة المبرؤون من العيوب فرأى من الرأي الرصين والحكمة ان يبنى لهم قصراً على أحكم ما يكون من البنيان فأفرد لكل واحد منهم مجلساً وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه في جوانب ذلك المجلس وصور فيه كل شيء أراد أن يهذبهم به ثم أجلسهم في ذلك القصر وأجلس كل واحد منهم في حصته المعدة له ووكل بهم الخدم والجوار والغلمان وقال لاولئك الاولاد انظروا الى ما صورت لكم بين أيديكم واقرؤا ما كتبت فيه من أجلكم وتأملوا مابينته لكم وتفكروا فيها لتعرفوا معانيها وتصيروا من ذلك حكماء أخياراً فضلاء أبراراً فأوصلكم الى مجلسي فتكونوا من ندماي مكرمين سعداء منعمين أبداً مابقيت وبقيتم معي وكان مما كتب لهم فى ذلك المجلس من العلوم ان صور في أعلى قبة المجلس صورة الافلاك وبين كيفية دورانها وأبراج طلوعاتها وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها

وصور فى صحن المجلس صورة الارض وأقسام الاقاليم وخطط الجبال والبحار والبراري والانهار وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك وكتب فى صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها وبين خاصيتها ومنافعها ومضاردا

وكتب فى الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والاسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات

وكتب فى الجانب الآخر علم الدين والملل والشرائع والسنن وبين الحلال والحرام والحدود والاحكام

وكتب فى الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة وبين كيفية جباية الخراج

والكتاب والدواوين وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والاعوان .

فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك وهذا مثل ضربته الحكماء وذلك ان الملك الحكيم هو الله تعالى والاولاد الصغار هى الانسانية والقصر المبنى هو الفلك بأسره والمجالس المتقنة هي صورة الانسان والآداب المصورة هى عجيب تركيب جسده والعلوم المكتوبة فيه هي قوى النفس ومعارفها ونحن نبين هذا فصلا فصلا فيما بعد بأوجز الوجوه .

فصل

في فضيلة جوهر النفس

فنقول اعلم ان لجواهر النفوس عند الله منزلة وكرامة ليست لجواهر الاجسام وذلك لقرب نسبتها منه وبعد نسبة الاجسام وذلك ان جواهر النفوس حية بذاتها علامة وفعالة وجواهر الاجسام ميتة منفعلة لامثال لها

وقد بينا في رسالة المبادىء العقلية ان نسبة الموجودات من الباري تعالى كنسبة العدد من الواحد والعقل كالاثنين والنفس كالثلاثة والهيولى الأولى كالاربعة والطبيعة كالخمسة والجسم كالستة والفلك كالسبعة والاركان كالثمانية والمولودات كالتسعة

ومن وجه آخر نسبة النفس من العقل كنسبة ضوء القمر من نور الشمس ونسبة العقل من الباري كنسبة نور الشمس من الشمس وكما ان القمر اذا امتلأ من نور الشمس حاكى نوره نورها كذلك النفس اذا قبلت فيض العقل فاستتمت فضائلها حاكت أفعالها أفعال العقل وانما تستتم فضائلها اذا هي عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها وانما تستبين لها فضائل جوهرها إذ هى عرفت أحوال عالمها الذى هو صورة الانسانية لان البارىء تعالى خلق الانسان في أحسن تقويم وصوره أكمل صورة وجعل صورته مرآة لنفسه ليتراءى فيها صورة العالم الكبير

وذلك أن البارى جل جلاله لما أراد أن يطلع النفس الانسانية على خزائن علومه ويشهدها العالم بأسره علم أن العالم واسع كبير وليس في طاقة الانسان أن يدور في العالم حتى يشاهده كله لقصر عمره وطول عمران العالم فرأى من الحكمة ان يخلق لها عالماً صغيراً مختصراً من العالم الكبير وصور في العالم الصغير جميع ما في العالم الكبير ومثله بين يديها وأشهدها إياه فقال عز من قائل وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بأجمعهم بلى فمن كان منهم شاهداً عالماً عارفاً حقيقته كانت شهادته عليه حقاً ومن كان جاهلا كانت شهادته مردودة لأنه قال عز وجل الا من شهد بحق وهم يعلمون ألا ترى أنه لا يقبل الا شهادة أهل العلم

ثم اعلم ان افتتاح جميع العلوم هو في معرفة الانسان نفسه ومعرفة الانسان تكون من ثلاث جهات أحداها أن يعتبر أحوال جسده وتركيب بنيته ومايتعلق عليه من الصفات خلوا من النفس والآخر اعتبار أحوال نفسه وما يوصف من الصفات خلوا من الجسد والآخر اعتبار أحوالها مقترنين جميعاً وما يتعلق على الجملة من الصفات . وقد بينا فى رسالة تركيب الجسد طرفاً من هذه الاعتبارات ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفاً آخر فنقول

﴿ فصل ﴾

في اعتبار أحوال الانسان بأحوال الفلك

اعلم أن البارى تعالى جعل في تركيب جسد الانسان أمثلة واشارات الى تركيب الافلاك وأبراجها والسماوات وأطباقها وجعل سريان قوى النفس في مفاصل جسده واختلاف أعضائه كسريان قوى أجناس الملائكة وقبائل الجن والانس والشياطين في أطباق السماوات والأرض في أعلى عليين الى أسفل السافلين

وأما مماثلة تركيب جسد الانسان بتركيب الأفلاك وذلك أنه لما كانت الافلاك تسع طبقات مركبة بعضها جوف بعض كما بينا في الرسالة التى فى مدخل النجوم

كذلك وجد في تركيب جسد الانسان تسع جواهر بعضها جوف بعض ملتفات عليها مماثلة لها وهي العظام والمخ واللحم والعروق والدم والعصب والجلد والشعر والظفر فجعل المخ في جوف العظام مخزوناً لوقت الحاجة اليه ولف العصب على مفاصله كيما يمسكها فلا ينفصل وحشى خلل ذلك باللحم صيانة لها ومد في خلل اللحم العروق والاوردة الضاربة لحفظها وصلاحها وكسا الكل بالجلد ستراً لها وجمالا لها وأنبت الشعر والظفر من فضل تلك المادة لمآربها فصار مماثلا لتركيب الافلاك بالكمية والكيفية جميعا لانها تسع طباقات وهذه تسع جواهر وتلك بعضها جوف بعض وهذه مثال ذلك

ولما كان الفلك مقسوماً اثنى عشر برجاً وجد في بنيـة الجسد اثنى عشر ثقباً مماثلا له وهي العينان ، والاذنان ، والمنخران ، والثديان ، والفم ، والسرة والسبيلين .

ولما كانت الابراج ستة منها جنوبية ، وستة منها شمالية ، كذلك وجدت ستة ثقب التي في الجسد في الجانب اليمين ، وستة في الجانب الشمال مماثلة لها بالكمية والكيفية جميعاً

ولما كان في الفلك سبعة كواكب سيارة بها تجري أحكام الفلك والكائنات كذلك وجد سبع قوى في الجسد فعالة بها يكون صلاح الجسد

ولما كانت هذه الكواكب ذوات نفوس وأجسام لها أفعال جسمانيـة في الاجسام وأفعال روحانية في النفوس كذلك وجدت في الجسد سبع قوى جسمانية وهي القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة وسبع قوى أخرى روحانية وهي القوى الحساسة أعني الباصرة ، والسامعة ، والذائقة ، والشامة ، واللامسة ، والقوة الناطقة العاقلة ، والقوة الحساسة ، مناسبة للخمسة المتحيرة ، والقوة الناطقة مناسبة للقمر ، والقوة العاقلة مناسبة للشمس وذلك ان لكل واحد من الكواكب الخمسة بيتان في الفلك أحدهما في حيز

الشمس والثاني فى حيز القمر ، والنيران لكل واحد منهما بيت كما بينا فى رسالة النجوم

كذلك وجد فى بنية الجسد لكل واحد من القوى الحساسة مجريان أحدهما فى الجانب الأيمن والآخر فى الجانب الايسر فالقوة الباصرة مجراها فى العينين والقوة السامعة مجراها فى الأذنين ، والقوة الشامة مجراها فى المنخرين والقوة اللامسة مجراها في اليدين والقوة الذائقة الشهوانية مجراها في الفم بالجانب الايمن أشبه والفرج بالجانب الايسر أشبه

وأما القوة الناطقة فمجراها الحلقوم الى اللسان والقوة العاقلة فمجراها وسط الدماغ ونسبة القوة الناطقة الى القوة العاقلة كنسبة القمر الى الشمس

وذلك ان القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه من منازل القمر الثمانية والعشرين ، وذلك ان القوة الناطقة من العقل تأخذ معاني الفاظه بجريانه في الحلقوم فيعبر عنها بثمانية وعشرين حرفا ونسبة ثمانية وعشرين حرفا للقوة الناطقة كنسبة ثمانية وعشرين منزلا للقمر

ولما كان فى الفلك عقدتان وهما الرأس والذنب وهما خفيا الذات ظاهرا الافعال بهما سعادات الكواكب ونحوساتها كذلك وجد في الجسد أمران خفيان الذات ظاهرا الافعال بهما صلاح بنية الجسد وصحة الافعال للنفس وهما صحة المزاج وسوء المزاج وذلك انه اذا صح مزاج أخلاط الجسد صحت أعضاؤه واستقامت افعال النفس وجرت على الامر الطبيعي .

واذا فسد المزاج اضطربت البنية وعيقت افعال النفس عن جريها على السداد وأضر مايكون نحوسة العقدتين على النيرين لانها أوكد الاسباب في كسوفهما وكذلك أضر مايكون سوء المزاج على القوة الناطقة والقوة العاقلة لانه يعوقهما من أفعالهما أكثر وأشد

والعينان في الجسد مناسبتان لبيتى المشترى في الفلك والاذنان في الجسد مناسبتان لبيتى عطارد في الفلك والمنخران في الجسد والثديان مناسبتان في

الجسد لبيتى الزهرة والسبيلان لبيتى زحل والفم لبيت الشمس والسرة لبيت القمر والسرة كانت باب الغذاء في الرحم قبل الولادة والفم باب الغذاء في الدنيا والسبيلين مقابلان لهما كتقابل بيتى زحل لبيتى النيرين

وكما ان في الفلك بروجا فيها حدود ووجوه ودرجات لها أوصاف مختلفة كذلك للجسد أعضاء ومفاصل وعروق وأعصاب وعظام مختلفة يطول شرحها ومناسبتها بحدود الفلك وقد تركنا ذكر ذلك

فصل

في مشابهة تركيب جسد الانسان بالاركان الاربعة

فنقول اعلم انه لما كان تحت فلك القمر أربعة اركان وهي الامهات التى بها قوام الاشياء المولدات والتى هي الحيوان والنبات والمعادن.

وكذلك وجد في بنية الجسد اربعة أعضاء هى تمام جملة الجسد وأولها الرأس ثم الصدر ثم البطن ثم الجوف الى آخر قدميه فهذه الاربعة موازية لتلك وذلك ان رأسه مواز لركن النار من جهة شعاعات بصره وحركات حواسه وصدره مواز لركن الهواء من جهة نفسه واستنشاقه الهواء. وبطنه مواز لركن الماء من جهة الرطوبات التى فيه . وجوفه الى آخر قدميه مواز لركن الارض من قبل انه مستقر عليه كاستقرار الثلاثة الباقية فوق الارض وحولها

وكما ان من هذه الاركان الاربعة تنحلل البخارات فنها تتكون الرياح والسحب والامطار والحيوانات والنبات والمعادن

وكذلك بهذه الاعضاء الاربعة تحلل البخارات في بدن الانسان مثل مايخرج المخاط من المنخرين والدموع من العينين والبصاق من الفم والرياح التى تتولد في الجوف والرطوبات التى تخرج مثل البول والغائط وغيرهما

فبنية جسده كالارض وعظامه كالجبال والمخ فيه كالمعادن وجوفه كالبحر وامعاؤه كالانهار وعروقه كالجداول ولحمه كالتراب وشعره كالنبات ومنبته

كالبرية الطيبة وحيث لا ينبت الشعر كالارض السبخة ووجهه الى القدم كالعمران وظهره كالخراب وقدام وجهه كالمشرق وخلف ظهره كالمغرب ويمينه كالجنوب ويساره كالشمال وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق وضحكه كضوء النهار وبكاؤه كالمطر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل ونومه كالموت ويقظته كالحياة وأيام صباه كأيام الربيع وأيام شبابه كأيام الصيف وأيام كهولته كأيام الخريف وأيام شيخوخته كأيام الشتاء وحركاته وأفعاله كحركات الكواكب ودورانها وولادته وحضوره كالطوالع وموته وغيبوبته كالغوارب واستقامة أموره وأحواله كاستقامة الكواكب وتخلفه وأدباره كرجوعاتها وامراضه واعلاله كاحتراقاتها وتوقفه وتحيره في الامور كتوقفها وارتفاعه في المنزل والشرف كارتفاعها في أوجاتها واشراقها وانحطاطه في المنزل والسقوط كهبوطها وسقوطها في حضيضها واجتماعه مع امرأته كاجتماعها ومواصلته كاتصالاتها وانفصاله كانصرافاتها واشارته كمناظرتها.

وكما ان الشمس رأس الكواكب فى الفلك كذلك في الناس ملوك ورؤساء وكاتصالات الكواكب بالشمس وبعضها ببعض كذلك اتصالات الناس بالملوك وبعضهم ببعض وكانصراف الكواكب من الشمس بالقوة وزيادة النور وكذلك انصرافات الناس من الملوك بالولايات والخلع والمراتب وكنسبة المريخ من الشمس كذلك نسبة صاحب الجيش من الملك وكنسبة عطارد من الشمس كذلك نسبة الكتاب والوزراء من الملوك وكنسبة المشترى من الشمس كنسبة القضاة والعلماء من الملوك وكنسبة زحل من الشمس كذلك نسبة الخزان والوكلاء من الملوك وكنسبة الزهرة من الشمس كذلك نسبة الجوارى والمغنيات من الملوك وكنسبة القمر من الشمس كذلك نسبة الخوارج من الملوك وذلك ان القمر من الشمس يأخذ النور من أول الشهر الى ان يقابلها فيحا كيها فى نورها ويصير كالمماثل لها في هيئاتها وكذلك حكم الخوارج من الملوك يتبعون أمرهم ثم يخلعون الطاعة وينازعونهم في الملك.

وأيضاً ان أحوال القمر تشبه أحوال أمور الدنيا من الحيوان والنبات وغيرها وذلك ان القمر يبتديء من أول الشهر بالزيادة في النور والكمال الى ان يتم في نصف الشهر ثم يأخذ في النقصان والاضمحلال والمحاق الى آخر الشهر

وهكذا حالات أهل الدنيا تبتديء من أول الامر بالزيادة فلا تزال تنمو وتنشؤ الى ان تتم وتستكمل ثم تأخذ في الانحطاط والنقصان الى ان تضمحل وتتلاشى ٠

فصل

في تعداد قوى النفس

فنقول : ان هذا الجسد من كثرة عجائبه وترتيب أعضائه وطرائق تأليف مفاصله يشبه مدينة والنفس كملك تلك المدينة وفنون قواها كالجنود والاعوان وأفعالها في هذا الجسد وحركاتها فيها كالرعية والخدم وذلك أن للنفس الانسانية قوى كثيرة لا يحصى عددها الا الله تعالى ولكل قوة منها مجرى في عضو من أعضاء الجسد غير مجرى القوى الأخر ولكل قوة منها الى النفس نسبة خلاف نسبة الأخرى

ونريد أن نذكر منها طرفاً ليكون دليلا على الباقية منها وذلك أن لها خمس قوى حساسة كأنها أصحاب الأخبار وأن النفس قد ولت كل واحدة منها ناحية من مملكتها لتأتيها بالأخبار من تلك الناحية من غير أن تشترك معها قوة أخرى بيان ذلك أن القوة السامعة التي مجراها في الأذنين فان النفس قد ولتها ادراك المسموعات فحسب وهي الأصوات . والاصوات نوعان حيوانية وغير حيوانية فغير الحيوانية كصوت الطبل والرعد والحجر ، والشجر ، والزمر ، والأوتاد وما شاكل ذلك والحيوانية نوعان منطقية وغير منطقية كصهيل الخيل ونهيق الحمار وخوار الثور

وبالجملة فان أصوات الحيوانات غير الناطقة والمنطقية نوعان دالة وغير دالة فغير

دالة كالألحان والنغمات والضحك والبكاء والصراخ والأنين وغير ذلك والدالة هي التي تلفظ بالحروف المعجمة وهي التي تدل على المعاني في أفكار النفوس كما بينا في رسالة المنطق

ولكل نوع من هذه الانواع نوع آخر وتحت تلك الانواع أشخاص لا يعلم عددها الا الله الواحد القهار . وان القوة هي المتولية ادراكها المتصرفة فيها باتيان الاخبار عنها الى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ . وهذه القوة في ادراكها هذه الأصوات واتيانها باخبارها تشبه صاحب خبر ملك يأتي بالاخبار اليه من ناحية من نواحي مملكته

وأما القوة الباصرة التي مجراها في العينين فان النفس قد ولتها ادراك المبصرات وهي تنقسم أنواعاً فمنها الانوار والظلمة ومنها الالوان وهي السواد والبياض والحمرة والصفرة ومايتولد عند التركيب من سائر الالوان ومن المبصرات أيضاً المقادير ذوات الابعاد والاشكال والصور والحركات والسكون وكل نوع من هذه تحته أنواع وتحت تلك الانواع أشخاص وهي كلها تحت ادراك القوة الباصرة وهي المتصرفة فيها والمميزة لها تأتي بالاخبار عنها الى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ونسبة هذه القوة من النفس كنسبة الديدبان وصاحب البريد الى الملك يأتي بالاخبار اليه من ناحية من كل نواحي مملكته

وأما القوة الشامة التي مجراها في المنخرين فان النفس قد ولتها إدراك الروائح والتصرف فيها والتمييز لها وهي نوعان لذيذة وكريهة : فاللذيذة تسمى الطيب والكريهة تسمى النتن وتحت كل نوع من هذه الانواع أنواع ليس لها أسماء مفردة كاسماء سائر المحسوسات ولكن القوة الناطقة نسبت كل رائحة منها الى حاملها الذي يفوح منه فيقال رائحة المسك ورائحة الكافور ورائحة العود ورائحة النرجس وغير ذلك فنسبتها الى الذي تفوح منه وهي كثيرة لا يحصي عددها الا الله تعالى وان القوة الشامة هي المتولية لادراكها والتصرف فيها باتيان أخبارها الى القوة

المتخيلة ونسبتها الى النفس كنسبة أحد أصحاب الاخبار الى الملك مثل ماقلنا في أمر القوة الباصرة والسامعة

وأما القوة الذائقة التي مجراها في اللسان فان النفس قد ولتها أمر الطعوم والادراك لها والتصرف فيها وتمييز بعضها من بعض وهي تنقسم تسعة أنواع : أولها الحلاوة الملائمة لطبع الانسان . والثانية المرارة المنافرة لطبع الانسان ومنها وسائط وهي الحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوصة والعذوبة وكل نوع من هذه تحته أنواع وتحت كل نوع منها أشخاص لايعلم عددها الا الله الواحد القهار وان القوة الذائقة التي هي متولية أمر هذهالطعوم بالادراك لها والتصرف فيها وتمييز بعضها عن بعض راتيان أخبارها الى القوة المتخيلة ونسبتها الى النفس كنسبة أصحاب الاخبار الى الملك مثل أمر السامعة والباصرة والشامة

وأما القوة اللامسة التي مجراها باليدين فان النفس قد ولتها أمر الملموسات وهي عشرة أنواع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة ولكل واحد من هذه تحتهاأ نواع وتحت تلك الانواع أشخاص لايعلمها الا الله الملك الجبار العزيز القهار وان القوة اللامسة التي باليدين هي المتولية أمر الملموسات بالادراك والتصرف فيها وتمييز بعضها عن بعض وباتيان أخبارها الى القوة المتخيلة ونسبتها الى الشمس كنسبة احدى اخواتها التي تقدم ذكرها

ومامثل النفس معقواها هذه الخمس الحساسة واختلاف محسوساتها وماتحت كل جنس منها من الانواع والاشخاص المختلفة الصور المفننة الاشكال المتباينة الهيئات ألا كخمسه من الانبياء أولي‌العزم من الرسل مرسلهمواحد وشرائعهم مختلفة وتحت كل شريعة مفروضات مفننة وأحكام متباينة وسنن متغايرة تحت أحكامها أمما كثيرة لايحصى عددها الا الواجب الوجود الواحد من جميع الوجوه

وكما ان تلك الامم كلهم يرجعون الى الله ليفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . فهكذا حكم المحسوسات كلها مرجعها الى النفس الناطقة لتميز بعضها عن بعض وتعرف واحداً واحداً منها بحقائقها وتحكم عليها وتنزلها منازلها

فصل

واعلم يا أخي ان للنفس الانسانية خمس قوى أخر تنسب نسبتها الى النفس غير نسبة هذه الخمسة التي تقدم ذكرها وسريانها في أعضاء الجسد خلاف سريان أولئك وأفعالها لا تشبه أفعالها

وذلك ان هذه القوى الخمس هن كالشركاء المتعاونات في تناولها صور المعلومات بعضها من بعض وثلاثة منها نسبتها الى النفس كنسبة الندماء من الملك الحاضرين مجلسه دائما المطلعين على أسراره المعينين له في خاصة أفعاله وهي القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ والثانية القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ والثالثة القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ وواحدة منها نسبتها الى النفس كنسبة الحاجب والترجمان عن الملك وهي القوة الناطقة المخبرة عنها معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات ومجراها في الحلقوم الى اللسان

وواحدة منها نسبتها الى النفس كنسبة الوزير الى الملك المعين له في تدبير مملكته وسياسة رعيته وهي القوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع اجمع ومجراها في اليدين والاصابع فهذه القوى الخمس هي كالمتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات

بيان ذلك ان القوة المتخيلة اذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة أدركت وأدت اليها فتجمعها كلها وتؤديها الى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض وتعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ والضار من النافع ثم تؤديها الى القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ لتحفظها الى وقت الحاجة والتذكار

ثم ان القوة الناطقة تناول تلك الرسوم المحفوظة وتعبر عنها عند البيان للقوة السامعة من الحاضرين فى الوقت.

ولما كانت الاصوات لا تمكث فى الهواء الا ريثما تأخذ الاسماع حظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الالهية والعناية الربانية واحتالت الطبيعة بان قيدت تلك الالفاظ بصناعة الكتابة .

وذلك ان القوة الصناعية اذا أرادت تقييدها صاغت لها صوراً من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الالوان وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيداً فائدة من الماضين للغابرين وأثراً من الاولين للاخرين وخطابا من الغائبين للحاضرين وهذا من جسيم نعم الله تعالى على الانسان كما ذكر فى كتابه فقال :
« اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

﴿ فصل ﴾

اعلم يا أخي انه اذا تفكر الانسان العاقل الفهيم في هذه القوة التى تقدم ذكرها وكيفية سريانها في أعضاء الجسم وتصرفها في ادراك هذه المحسوسات وتصورها رسوم المعلومات واطلاع النفس عليها كلها في جميع حالاتها تكون هذه شاهدة له من نفسه لنفسه ودليلا من ذاته على ان للنفس الكلية قوى كثيرة منبثة في فضاء الافلاك وأطباق السموات وأركان الامهات وفي الحيوانات والنبات موكلة بحفظ الخليقة ومرتبة لصلاح البرية وهم ملائكة الله جل اسمه وخالص عباده وصفوته من بريته لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون من غير خطاب ولا كلام فهكذا هذه القوى تتصرف في حوائج النفس من غير كلام منها لهن ولا خطاب

ويتبين له أيضاً بأن الله جل ثناؤه مطلع على أسرار جميع العالمين وأحوالهم لا يعزب عنه من أمورهم مثقال ذرة كما ان نفسه مطلعة على جميع محسوسات حواسها ومعلومات قواها وهن منقادة لامرها في ما يأتين به اليها من أخبار محسوساتها من غير كلام لهن منها ولا خطاب

﴿ فصل ﴾

في اعتبار أحوال الانسان بالموجودات التي دون فلك القمر

فاما اعتبار الانسان بالموجودات التي دون فلك القمر فاعلم ان الموجودات التي تحت فلك القمر نوعان بسيطة ومركبة فالبسائط هي الاركان الاربعة التي هي النار والهواء والماء والارض والمركبات هي المولدات الكائنات الفاسدات أعني الحيوان والنبات والمعادن .

فالمعادن أسبق في الكون ثم النبات ثم الحيوان ثم الانسان ولكل نوع من هذه خاصية قد سبق اليها . فخاصية الاركان الاربعة الطبائع الاربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واستحالة بعضها الى بعض وخاصية النبات الغذاء والنمو وخاصية الحيوان الحس والحركة وخاصية الانسان النطق والفكر واستخراج البراهين وخاصية الملائكة ألا تموت أبداً فان الانسان قد يشارك هذه الانواع كلها في خواصها وذلك أن له طبائع أربع تقبل الاستحالة والتغيير مثل الاركان الاربعة وله كون وفساد مثل المعادن ويتغذى وينمو كالنبات ويحس ويتحرك كالحيوان ويمكنه ألا يموت كالملائكة كما بينا في رسالة البعث

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم يا أخي بان الحيوانات أنواع كثيرة ولكل نوع منها خاصية دون غيره والانسان يشاركها كلها في خواصها ولكن لها خاصيتين تعمها كلها وهي طلبها المنافع وفرارها من المضار . ولكن منها ما يطلب المنافع بالقهر والغلبة كالسباع . ومنها ما يطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور . ومنها ما يطلبها بالحيلة كالعنكبوت وكل ذلك يوجد في الانسان

وذلك أن الملوك والسلاطين يطلبون المنافع بالغلبة والمكديون بالسؤال والتواضع والصناع والتجار بالحيلة والرفق وكلها تهرب من المضار والعدو ولكن بعضها يدفع العدو عن نفسه بالقتال والقهر والغلبة كالسباع وبعضها بالفرار كالأرانب والظباء وبعضها يدفع بالسلاح والجواشن كالقنفذ والسلحفاة وبعضها بالتحصن

في الارض كالفأر والهوام والحيات

وهذه كلها توجد في الانسان . وذلك أنه يدفع عن نفسه العدو بالقهر والغلبة فان خاف على نفسه لبس السلاح وان لم يطقه نفر منه فان لم يقدر على الفرار تحصن بالحصون . وربما يدفع الانسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم فى كتاب كليلة ودمنة . واما مشاركة الانسان للكائنات في خواصها فاعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه أن لكل نوع من أنواع الحيوانات خاصية هى مطبوعة عليها وكلها توجد فى الانسان وذلك أنه يكون شجاعاً كالاسد وجباناً كالارنب وسخياً كالديك وبخيلا كالكلب وعفيفاً كالسمك وفخوراً كالغراب ووحشياً كالنمر وانسياً كالحمام ومحتالا كالثعلب ومسالما كالغنم وسريعاً كالغزال وبطيئاً كالدب وعزيزاً كالفيل وذليلا كالجمل ولصاً كالعقعق وتائهاً كالطاووس وهادياً كالقطاة وضالا كالنعامة وماهراً كالنحل وشديداً كالتنين ومهيباً كالعنكبوت وحليما كالجمل وحقوداً كالحمار وكدوداً كالثور وشموساً كالبغل وأخرس كالحوت ومنطقياً كالهزار داستان والببغاء ومستحلا كالذئب ومباركا كالطيطوي ومضراً كالفأر وجهولا كالخنزير ومشوماً كالبوم ونفاعاً كالنحل

وبالجملة ما من حيوان ولا معادن ولا نبات ولا ركن ولا فلك ولا كوكب ولا برج ولا موجود من الموجودات له خاصية الا وهى توجد في الانسان أو مثالاتها كما بينا قبل من كل شيء طرفاً . وهذه الاشياء التى ذكرنا فى أمر الانسان لا توجد في شيء من أنواع الموجودات التى فى هذا العالم الا فى الانسان

فمن أجل ذلك قالت الحكماء أن الانسان وحده بعد كل كثرة كما أن البارى جل ثناؤه وحده قبل كل كثرة • ومن أجل ما عددنا من عجائب تركيب جسد الانسان وغرائب تصاريف نفسه وما يظهر من جملة بنيته من الصنائع والعلوم والأخلاق والآراء والطرائق والمذاهب والاعمال والأفعال والاقاويل والتأثيرات الجسمانية والروحانية سموه عالما صغيراً

فصل

فانظر يا أخي الى هذا الهيكل المبنى بالحكمة وتأمل هذا الكتاب المملوء من العلوم وتفكر فى هذا الصراط المستقيم الممدود بين الجنة والنار فلعلك أن توفق للخيرات عليه والمر على الصراط المستقيم وتأمل هذا الميزان الموضوع بالقسط فلعلك تعرف وزن حسناتك وسيئاتك واحسب حسابك به قبل فوت رأس مالك فان الجنة من وراء هذا كله

واذكر ما قد نبهك الله له وذكرك اياه بقوله « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » وقوله « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » وقال « ان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه »

فان كنت لا تحسن كيف تقرأ هذا الكتاب وكيف تحسب هذا الحساب وكيف تزن هذا الميزان وكيف تجوز هذا الصراط فهلم مجلس اخوان لك نصحاء أو أصدقاء لك كرماء فضلاء أخياراً علماء محبين لك متوددين اليك فيعرفوك ما لا تنكره ويعلموك ما تتيقنه ولا تشك فيه بشواهد من نفسك وبراهين من ذاتك ودلائل من جوهرك اذا انتبهت نفسك من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ونظرت بعين البصيرة كما نظروا وسرت بسيرتهم العادلة كما ساروا وعملت بسنتهم الحسنة وتفقهت في شريعتهم العقلية ودخلت مدينتهم الروحانيـة وتخلقت بأخلاقهم الملكية وعرفت آراءهم الصحيحة وتعلمت معلوماتهم الحقيقية فحينئذ تؤيد بروح الحياة الابدية وتعيش عيش السعداء منعما مخلداً أبداً بنفسك الباقية الزكية لا بجسدك البالى المستحيل

فصل

ثم اعلم انه قد جعلت الحكمة الالهية والعناية الربانية أعضاء كل شخص من الحيوان مناسبا لجملة جسده كما بينا فى رسالة فضيلة النسب فنريد أن نذكر منها فى هذه الرسالة طرفاً ليتبين تقابل العالم الصغير والكبير

وذلك أن الانسان لما كان أكمل الموجودات وأتم الكائنات التي تحت فلك القمر وكان جسمه جزءاً من أجزاء العالم بأسره وكان هذا الجزء أشبه الاشياء بجملته صارت نفس الانسان أيضا أشبه النفوس الجزئية بالنفس الكلية التي هي نفس العالم بأسره وصار حكم سريان قوى نفسه وأفعالها في بنية جسده مماثلة لسريان قوى النفس الكلية فى جميع العالم

وبيان ذلك ان لبنية جسدها أعني النفس الكلية التي هى جملة العالم سبعة أشخاص فاضلة متحركة مدبرة باذن الملك الجبار عز وجل ولكل واحد منها جرم فيه روح تسمى النفس ولكل واحدمنها أفعال في العالم مخصوصة غير ما للآخر مذكور ذلك في كتب أحكام النجوم

فهكذا أيضا جعل الله تعالى فى بنية جسد الانسان أعضاء بنيتها مناسبة لجملة بدنه بعضها لبعض وجعل لكل عضو منها قوة تختص بها ليظهر بها أفعاله فى بنية الجسد وفى سائر أطرافه وجعل أفعالها مناسبة لافعال قوى روحانيات الكواكب السبعة

بيانه أن نسبة جرم الجسد كنسبة جرم الشمس من العالم بأسره وذلك انه لما كان مركز جرمها فى وسط الافلاك كما بينا في رسالة السماء والعالم هكذا جعل الباري تعالى جرم القلب في وسط الجسد ، وكما أن من جرم الشمس ينبث النور والشعاع في جميع العالم بأسره ومنها تسري قوى روحانياتها فى جميع أجزاء العالم وبها حياة العالم وصلاحه كذلك ينبث من جرم القلب الحرارة وتسير في العروق الضوارب الى سائر أطراف البدن وبها تكون حياة الجسد وصلاحه

وأيضا ان نسبة جرم الطحال من الجسد كنسبة زحل من العالم وذلك أن جرم زحل تنبث مع شعاعه قوى روحانياته وتسرى فى جميع اجزاء العالم وبها تماسك الصور في الهيولى وبقائها باذن الله

فهكذا ينبث من جرم الطحال قوة الخلط السوداوى البارد اليابس وتجرى مع الدم فى العروق الواردة الى سائر أطراف الجسد وبها يكون جمود رطوبة

الدم وتماسك أجزائه ويعرف حقيقة ما قلنا وصحة ما وصفنا جماعة من الحذقة في صناعة الطب والراسخون في العلوم الحكمية

وأيضا ان نسبة جرم الكبد من الجسد كنسبة جرم المشترى من العالم وذلك أنه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته وتسرى في أجزاء العالم وبها يكون ترتيب أجزائه واعتدال أركانه ومناسبة موجوداتها التي في العالم على أفضل الحالات وأكمل الصفات ويعرف حقيقة ما قلنا الحكماء والانبياء وخلفاؤهم الأئمة الذين هم خزائن علم الله والامناء على أسراره

وأيضا فان نسبة جرم المرارة من الجسد كنسبة جرم المريخ من العالم وذلك أنه تنبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته وتسرى في جميع أجزاء العالم وبها تكون عزمات الموجودات وبلوغ النهايات فهكذا ينبث من جرم المرارة قوى الخلط الصفراوي وتجري مع الدم الى سائر أطراف الجسد وهي الملطفة للأخلاط المعيدة لها الى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهايتها

وأيضاً أن نسبة جرم المعدة الى الجسد كجرم الزهرة في العالم وذلك انه ينبث من جرمها مع شعاعها قوى روحانياتها وتسرى في جميع أجزاء العالم وهي المفرحة الملذذة المسرة جميع الخلائق الجسمانية والروحانية التي في العالم وبها زينة الموجودات ومحاسن الكائنات في العالم أعنى عالم الافلاك والامهات جميعاً فهكذا ينبث من جرم المعدة القوة الشهوانية الطالبة للغذاء الذي هو مادة الجسد وهيولى الاخلاط وبها تكون حياة الجسد ولذة العيش وقوام البدن في الاجسام البشرية والاجسام الطبيعية

وأيضاً ان نسبة جرم الدماغ كنسبة جرم عطارد من العالم وذلك انه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته التي تسري في جميع أجزاء العالم وبها يكون الحس والشعور والعرفان في جميع الخلائق من العالمين جميعاً من الملائكة والناس أجمعين والجن والشياطين والحيوانات أجمع فهكذا ينبث من وسط الدماغ قوة بها يكون الحس والشعور والذهن والفكر والروية والمعارف أجمع

وأيضاً ان نسبة جرم الرئة كنسبة جرم القمر من العالم وذلك انه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته التي تسري في عالم الاركان تارة وفي عالم الافلاك تارة كما هو بين ظاهر وذلك ان جرم القمر نصفه أبداً ممتلىء نوراً ونصفه الآخر مظلماً وهو تارة يقبل بوجهه الممتلىء من النور نحو عالم الاركان من أول الشهر وتارة نحو عالم الافلاك من آخر الشهر ويعرف حقيقه ماقلناه وصحة مابيناه الباحثون في علم المجسطي والهيئة فهكذا ينبث من جرم الرئة قوة تجذب الهواء تارة من خارج الجسد وترسله الى القلب ومن القلب تنفذه في العروق الضوارب الى سائر أطراف الجسد وهو الذي يسمى النبض وبها تكون حياة الجسد وتارة ترد من ذلك الهواء من داخل وبها يكون التنفس والاصوات والكلام أجمع

فانتبه أيها الاخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . وفقك الله وايانا وجميع اخواننا للسداد وهداك وايانا وجميع اخواننا سبيل الرشاد انه رؤوف بالعباد

(تمت رسالة قول الحكماء ويتلوها رسالة نشوء الانفس)

الرسالة الثالثة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

فى كيفية نشوء الانفس الجزئية فى الاجساد البشرية الطبيعية

وهى الرسالة السابعة والعشرون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

فصل

اعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه انه لما فرغنا من بيان قول الحكماء ان الانسان عالم صغير نريد أن نذكر فى هذه الرسالة كيفية نشوء الانفس الجزئية فنقول :

اعلم ان هذا الجسد لهذه الانفس فى المثال بمنزلة الرحم للجنين وذلك ان الجنين اذا استتمت فى الرحم بنيته وتكملت هناك صورته خرج الى هذه الدار تام الخلقة سالم الحواس وانتفع بالحياة فيها وتمتع بنعيمها الى وقت معلوم فهكذا يكون حال الانفس في الدار الآخرة وذلك ان الانفس الجزئية اذا استتمت ذواتها بالخروج من القوة الى حيز الفعل بما تستفيده من العلوم والمعارف بطريق الحواس واستكملت صورتها بما تكتسب من الفضائل بطريق المعقولات والتجارب والرياضات ومايدبر فى هذه الدار من السياسات من اصلاح أمر المعاش على الطريقة الوسطى وتمهيد أمر المعاد على سنن الهدى وتهذيب النفس بالاخلاق

الجميلة والآراء الصحيحة والاعمال الصالحة كل ذلك بتوسط هذا الجسد المؤلف من الدم واللحم

ثم ان فارقته على بصيرة منها ومن أمرها وقد عرفت جوهرها وتصورت ذاتها وتبينت أمر عالمها ومبدئها ومعادها كارهة للكون مع الجسد بقيت عند ذلك مفارقة للهيولى واستقلت بذاتها واستغنت بجوهرها عن التعلق بالاجسام فعند ذلك ترتقي الى الملأ الاعلى وتدخل فى زمرة الملائكة وتشاهد تلك الامور الروحانية وتعاين تلك الصور النورانية التى لاتدركها بالحواس الخمس ولاتتصور فى الاوهام البشرية كما ذكر هذا فى الرموزات النبوية اذ فى الجنة مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر من النعيم واللذة والسرور والفرح والروح والريحان كما قال الله تعالى (فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون) وقال (فلاتعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)

فأما اذا لم تستتم خلقة الجنين فى الرحم ولااستكملت هناك صورته أو عرض له عارض من النفس والاعوجاج فى عضو من الاعضاء فانه لاينتفع بالحياة فى هذه الدار على التمام ولايكمل له نعيمها كالعميان والخرس والطرشان والزمنى والمفاليج وأشباههم فهكذا تكون حال النفوس الجزئية عند مفارقة الاجساد البشرية

وذلك ان الجزئية اذالم تستتم بالعلوم والمعارف فانها مادامت مرتبطة بالاجساد البشرية متهيء لها إدراك المحسوسات فلاتستكمل صورها بمعرفة حقائق الاشياء مادام لها العقل والتمييز والروية ولاهي تهذبت بالاخلاق الجميلة مادام يمكنها الاجتهاد والعزيمة ولاهي قومت اعوجاجها من الآراء الفاسدة وقد أرهقتها أعمالها السيئة وأثقلتها أفعالها القبيحة فانها عند مفارقة الاجساد لاتنتفع بجوهرها ولاتستقل بذاتها ولايمكنها النهوض الى الملأ الاعلى من ثقل أوزارها ولايعرج بها الى ملكوت السماء ولاتستأهل للدخول فى زمر الملائكة وتغلق دونها أبواب السماء ويفوتها ذلك الروح والريحان كما ذكر الله عز وجل «لاتفتح لهم أبواب السماء ولا

يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط »لانه لايليق بها ذلك المكان الشريف مادامت النفس مذمومة بهذه الصفات غير مهذبة بالاخلاق الجميلة مقيدة بأخلاق دنية وسيرة جائرة وعادات ردیئة واعتقادات فاسدة وجهالات متراكمة وأعمال سيئة تبقى مربوطة محبوسة لانه لايليق بها ذلك المنزل النوراني والعالم الروحاني كما لايليق بالعميان والزمنى والجهال والبكماء مجالس الملوك ومنادمتهم لنقصانهم فاذا فاتها ذلك المكان الشريف بقيت مقيدة في الهواء تهوى دون السماء وتجرها شياطينها التي تتعلق عليها من الشهوات الجسمانية والآراء الفاسدة والاهتمام بالامور الهيولانية راجعة الى قعر الاجسام المدلهمة وأسر الطبيعة الجسدانية وتدفعها أمواج الشهوات المحرقة المؤدية الى أودية الهاوية حيث لاأنيس لها وتجرها الشياطين كما تجر العميان والزمنى متجنبين طرقات الناس كما ذكر الله تعالى عز وجل « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » وقال « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين أيديهم » وقال « وقال قرينه هذا مالدي عتيد » فيصيبها عند ذلك وهج الاثير تارة وبرد الزمهرير تارة ووحشة الظلام والألم والعذاب الى أن تقوم القيامة

يكون ذلك حالها كما ذكر الله عز وجل (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقال (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) كل ذلك لشدة شوقها الى الجسمانية التي قد اعتادتها وقد فارقتها ولم تحصل لها اللذات الروحانيات وقد خسرت الدنيا والآخرة (ذلك هو الخسران المبين)

﴿ فصل ﴾

أعلم أيها الأخ الكريم البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ان العلم والحكمة للنفس كتناول الطعام والشراب للجسد

وذلك ان الاجساد ترضع أولا ثم تناول الطعام والشراب اللذين هما غذاء

الاجساد لينشو صغيرها وينمو ناقصها ويسمن مهزولها ويقوي ضعيفها ويكتسي رونقها وكمالها ويبلغ الى اقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها ومحاسنها باللبن ثم بالطعام والشراب اللذين هما غذاؤها ومادتها

فهكذا أيضاً حالات الانفس مماثلة لحالات الاجساد بالطعام والشراب الذي هو غذاؤها ومادتها في تصاريفها لاقتران ما بينهما في كون الحياة

وذلك ان الانفس الجزئية تتصور بالعلوم جواهرها وتنمو بالحكمة ذواتها وتضيء بالمعارف صورها وتقوى بالرياضيات فكرها وتنير بالآداب خواطرها وتتسع لقبول الصور المجردة الروحانية عقولها وتعلو الى اشتياق الامور الخالدة همتها ويشتد على البلوغ الى اقصى مد غاياتها عزماتها من الترقي في المراتب العالية بالنظر في العلوم الالهية والسلوك في المذاهب الروحانية الربانية والتعبد في الامور الشريفة من الحكمة على المذهب السقراطي والتصوف والتزهد والترهب على المنهج المسيحي والتعلق بالدين الحنيفي وهو التشبه بجوهرها الكلي ولحوقها بعالمها العلوي والتوصل الى علتها الاولى والاعتصام بحبل عصمته وابتغاء مرضاته وطلب الزلفى لديه بالاتحاد بابناء جنسها في عالمها الروحاني ومحلها النوراني في دارها الحيواني كما قال الله تعالى « وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »

فاذا كانت الدار هي الحيوان فما ظنك يا أخي باهل الدار كيف تكون صفتهم ونعيمهم الا كما قال الله تعالي وتقدس « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فافهم هذه الاشارات والمرامي والمرموزات

ثم اعلم ان النفس اذا انتبهت من نوم الغفلة واستيقظت من رقدة الجهالة واجتهدت والقت من ذاتها القشور الجسمانية والغشاوة الجرمانية والعادات الطبيعية والاخلاق السبعية والآراء الجاهلية وصفت من درن الشهوات الهيولانية تخلصت وانبعثت وقامت فاستنارت عند ذلك ذاتها وأضاء جوهرها وأشرقت أنوارها واحتد بصرها

فعند ذلك ترى تلك الصورة الروحانية وتعاين تلك الجواهر النورانية وتشاهد تلك الامور الخفية والاسرار المكنونة التى لا يمكن ادراكها بالحواس الجسمانية والمشاعر الجرمانية ولا يشاهدها الا من تخلصت نفسه بتهذيب خلقه اذا لم تكن مربوطة بارادة طبيعية ومقيدة بشهوات جسمانية يلوح فيها فيعاينها

فاذا عاينت تلك الامور تعلقت بها تعلق العاشق بالمعشوق والتزمتها التزام الحبيب المحبوب واتحدت بها اتحاد النور بالنور فتبقى معها ببقائها وتدوم مع دوامها وتفرح بروحها وريحانها وتشم بنفحتها وتلذ بلذاتها التى عجزت الالسن الانسانية عن التعبير عنها وقصرت أوهام المتفكرين عن ان تتصورها بكنه صفاتها كما قال تعالى :

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال : فيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون »

فصل

ثم اعلم انه اذا خرج الجنين من الرحم سالماً من الآفات العارضة صحيح الحواس قوى البدن واشتدت اركانه وانبسطت قوى النفس في الجسد باشرت القوى الحساسة ذوات المحسوسات وادراكها على هيآتها

ثم أدت رسومها الى القوة المتخيلة التى فى مقدم الدماغ ودفعتها المتخيلة الى المفكرة.

ثم غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس وبقيت آثار تلك الرسوم مصورة فى فكرة النفس فاستقلت بذاتها واستغنت بجوهرها عن حواسها وتصرفت فيها من غير أن يشاركها شىء خارج من ذاتها ويتأملها من غير أن يحتاج الى غير نفسها

فاذا تأملتها النفس وميزتها بعقلها لاتجد شيئاً سوى صور تلك المحسوسات منتزعة من هيولاتها ومصورة فى جوهر النفس فيكون جوهر النفس لتلك

المصورة فى ذاتها كالهيولى وتلك الرسوم فيها كالصورة

وهكذا أيضاً حكم صور المعقولات في النفس ، وذلك انها ليست شيئاً سوى صور الاجناس والانواع انتزعتها النفس بقوتها المتفكرة وصورتها في ذاتها وحملتها كما حمل الهواء صوت المسموعات ، وذلك ان الهواء يحمل الاصوات والنغمات المختلفة ويؤديها الى المسامع

ويحمل أيضاً الروائح ويؤديها الى المشام بهيئاتها لا يغير منها شيئاً الا بعارض يعرض لها لان الهواء جسم لطيف روحاني حافظ للصورة .

وهكذا الضياء أيضاً يحمل الاشكال والالوان ويؤديها الى الابصار ولا يخلط بعضها ببعض

فهكذا أيضاً النفس تقبل صور المعلومات من المحسوسات والمعقولات في ذاتها وتصورها بفكرها وتحفظها بالقوة الحافظة من غير أن تخلط بعضها ببعض لان جوهر النفس أشد روحانية من جوهر الهواء وجوهر الضياء جميعاً فاستغنت بنفسها واستقلت بذاتها وفرحت بنجاتها واستبشرت بخلاصها وساحت فى الملكوت وتبوأت من الجنة حيث شاءت فنعم أجر العاملين

ثم اعلم انه كما يعرض للاجسام امراض واعلال تخرجها من الاعتدال وتميل بها عن صحة مزاجها حتى تسقمها فلا تنتفع بالحياة فى هذه الدار ولا تنتفع بنعيمها على التمام ولا يهنيها عيشها على الكمال

فهكذا يعرض للنفوس الجزئية الحيوانية امراض تخرجها عن الاعتدال والطريقة الوسطى والصحة والحق والصراط السوي والهدى وتميل بالانسان عن قصد سنن الهدى حتى لا تنتفع بالحياة في الاولى ولا تنال السعادة فى الاخرى

وان أمراضها أربعة أنواع وهي الجهالات المتراكمة والاخلاق الردية والآراء الفاسدة والاعمال السيئة

ثم تتفرع هذه كلها للنفوس الجزئية البشرية لشدة ميلها الى الشهوات الجسمانية التي هي نيران واقدة تتوقد على الافئدة بانواع الغموم المقلقة والهموم المحرقة لشدة غرورها باللذات الجرمانية التي هى استراحات عن الالام الطبيعية والمؤذيات الهيولانية

فصل

ثم اعلم ان لمرض النفوس علاجات وطباً تدواى بها كما أن لمرض الاجساد طبا يعالج به وعقاقير يداوى بها ولها كتب وضعتها الحكماء موصوف فيها علاجاتها .

فهكذا أيضا لمرض النفوس كتب وقوانين علمية جاءت بها الانبياء والحكماء مذكور فيها علاجات الامراض النفسية وهو الاقتداء بسنة الناموس واجتناب المحارم والانتهاء عن المناهي والأخذ بسنته الحسنة والسير بسيرته العادلة ولزوم طلب المعارف والتخلق بالاخلاق الجميلة ولزوم سنة الهدى على الطريقة الوسطى فى طلب معيشة الحياة الدنيا والسعي بالاعمال الصالحة فى طلب نعيم الآخرة ومداواة النفوس المريضة بتذكيرها أمر مبدئها وماقد نسيته من أمر معادها بضروب الامثال بالوعد والترغيب في جزيل الثواب والمدح والثناء لمن تاب وأناب لعلهم يذكرون .

ثم اعلم انه ذكر فى كتب الطب أصل تركيب الجسد ومزاج الاخلاق واسباب الامراض وكيفية المداوات من مفردات الادوية ومركباتها التى تختلف شرباتها بحسب اختلاف الامزجة والاهوية والعادات

فهكذا ذكر وتبين في كتب الانبياء المنزلة عليهم السلام الذين هم أطباء النفوس وبيان ماهية النفس وبدء كون العالم وسبب كون عصيان النفوس التى هي مرضها وسقطها عن مراتبها الذى هو موتها الاول وسبب صحتها وسبب تغيرها وفسادها وأنواع أمراضها

ووصف كيفية مداواة النفوس المريضة بالندم والتوبة وحسن الاخلاق والافعال الحسنة والاجتناب عما نهى الله تعالى ورسوله وبالتذكار لامر المعاد والافعال الحسنة والتوكل على الله في جميع الامور كما قال تعالى :

« يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » وقال « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » وقال « بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » « ليهلك من هلك على بينة ويحيى من حي عن بينة »

ثم اعلم أن طائفة من العقلاء قد مالوا وأعرضوا عن الحق والديانات النبوية الى الاراء الحكمية وذلك لقصور فهمهم عن صور تلك الامور التي أشارت اليها الانبياء عليهم السلام في أشاراتهم ورموزهم فعجزوا عن ادراك حقائق تلك المعاني التي القتها اليهم الملائكة من الوحي والالهام والتأييد والاشارات

وانما قبلت الانبياء الوحي من الملائكة بصفاء جوهر نفوسها ومجانسة رواحها لارواحهم لا لقياسات منطقية ولا لرياضات حكمية مثل الادوية الشافية والعقاقير النافعة يدرون سبب شفائها وخاصية منفعتها.

ثم اعلم ان من سنة الناموس والاداب الحسنة تناول الطعام الذي هو غذاء الجسد بثلاثة أصابع فهذه السنة كأنها اشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها والحث على انه واجب طلب العلوم من ثلاث طرقات لان العلم غذاء النفس كما ان الطعام غذاء الجسد وأحوال النفس مماثلة لاحوال الجسد لشدة اقتران ما بينهما فاحد الطرق التي تنال بها النفس العلوم قوة الفكر الذي تدرك به النفس الموجودات المعقولات

ومن هذه الطريق أخذت الانبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة

والطريق الآخر السمع الذي تقبل به النفس معاني اللغات وما تدل عليه

الاصوات من الاخبار الغائبة والآخر طريق النظر الذي به تشاهد النفوس الموجودات الحاضرة فهذه الثلاث الطرقات يجب أن تتناول العلوم بها كما بينا وكما نبهنا الله عز وجل وقال :

« جعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون » وذم من لاينتفع بالنعم فقال « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم آذان لايسمعون بها ولهم أعين لايبصرون بها أولئك كالانعام بل هم أضل » وقال «صم بكم عمى» فهم صم عن الحقائق بكم عن الدقائق عمي عن المبصرات المعنوية العقلية بعين القلب وليس يريد بهذا الذم بحيث انهم لايسمعون الاصوات ولايبصرون الالوان ولايعرفون ولايفقهون أمر المعاش بل انما ذمهم بحيث انهم لايعقلون أمر المعاد كما قال تعالى « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»

واعلم ان العلم قنية للنفس كما ان المال قنية للجسد لان المال يراد لصلاح أمر الجسد والعلم يراد لصلاح أمر النفس فمتى لم تنل النفس العلم من هذه الطرقات الثلاث وذلك تناوله بثلاثة أصابع الا من طريقة واحدة أى باصبع واحد فمثله كمثل المريض الذي ليس له حظ من ماله الا الثلث لان المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات وهذا مثل أهل التقليد الذين لايعرفون أمر الدين الا من طريق السمع فهم موقوفون بين الشك واليقين والشك مرض النفوس واليقين صحتها فهؤلاء ليس لهم من العلم الا الشك من أجل مرض نفوسهم

ثم اعلم ان السائلين اثنان سائل سأل حاجة من عرض الدنيا لصلاح الجسد المستحيل الفانى وسائل سأل مسئلة من العلم يكون فيه خلاص النفس من ظلم الجهل واصلاح الدين وأمر المعاد وطلب نعيم الآخرة الباقي

وهكذا المجالس اثنان : مجلس للاكل والشرب والغناء واللذات الجسمانية من نبات الارض ولحوم الحيوان لصلاح هذا الجسد المستحيل المتغير الفاني ومجلس للعلم والحكمة والسماع واللذات من نعيم الآخرة الباقية للنفوس الخالدة التى لايبيد جوهرها ولاتفنى لذتها ولاينقطع سرورها

ثم أن كل مايؤكل من الطعام والشراب يتبين النقصان في مال صاحبه واذا أكل وشرب قدر مابلغ الشبع والري وزاد على ذلك صارت اللذة ألماً وإذا مكثت تلك المأكولات المشتهيات في المعدة ساعة واستمرأت وأخذت الاعضاء كل واحد قسطاً منها تغير مابقي واستحال واحتيج الى اخراجها والا صارت اللذة ألماً ومشقة ومرضاً واعلالا

وأما مجالس العلم والحكمة والاستماع منها فليست تمل النفس منها لانها لذات روحانية من نعيم الآخرة وانموذجها ولاينقص من علم العالم المرشد وان كثر المتعلمون والسامعون لانها من كنوز رموز الآخرة

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم انه ليس في كثرة الاكل افتخار ولا يحتاج من الأكل والشرب الا الى مقدار مايسكن الجوع والعطش فاذا سكن ذلك كان سكونه بألوان من المأكولات أو بكسرة من خبز الشعير أو بشرب الماء القراح كما قال عيسى عليه السلام للحواريين ان أكل خبز الشعير وشرب الماء القراح اليوم في الدنيا لكثير لمن يريد أن يدخل الفردوس غداً

ثم ان الافتخار والثناء ينبغي أن يكون في اقتناء الفضائل الحكمية وفي الاستضاءة بنور العلم والاستبصار بالآيات والدلالات على معرفة حقائق الاشياء والحكمة والتأله والزهد والتصوف ولزوم مذاهب الربانيين والتهاون بأمر الجسد والاهتمام بأمر النفس والحرص على خلاصها من ظلمة الجهالة واستنقاذها من بحر الهيولى وعتقها من أسر الطبيعة والخروج من قعر الاجسام والصعود الى عالم الارواح والدخول في زمر الملائكة كما ذكر الله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) يعنى به روح المؤمنين وقال (ان الابرار لفي نعيم) وقال « ان كتاب الابرار لفي عليين وما أدراك ماعليون » يعنى به أنفس الابرار وقال « حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم

فادخلوها خالدين » وقال « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

واعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه أن الجسد اذا خرج من الرحم سالما من الآفات العارضة صحيح الحواس وقوى بدن الطفل استتبت وانبسطت قوى النفس فى الجسد وباشرت القوى الحساسة ذوات المحسوسات وأدركتها على هيئتها . ثم أدت رسومها الى القوى المتخيلة التى في مقدم الدماغ وأدتها المتخيلة الى القوة المتفكرة. ثم اذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصورة في فكر النفس فاذا تأملتها النفس وميزتها بعقلها فليست تجد شيئاً سوى صورة تلك المحسوسات منتزعة الى هيولاها ومصورة في جوهر النفس فيكون جوهر النفس لتلك الصورة فيها كالهيولى وتلك الرسوم فيها كالصورة .

وهكذا أيضاً حال الصور المعقولة في النفس فانها ليست شيئاً سوى صور الاجناس والانواع انتزعتها النفس بقوتها المفكرة وصورتها في ذاتها وحملتها كحمل الهواء صور المحسوسات.

وذلك ان الهواء يحمل الاصوات المختلفة ويؤديها الى المسامع ويحمل الروائح ويؤديها الى المشام بهيئتها لا يغير منها شيئاً الا أن يعرض عارض لها لان الهواء جسم لطيف روحاني حافظ للصورة

وهكذا الضياء يحمل الالوان ويؤديها الى الابصار باصباغها ولا يخالط بعضها ببعض . لان جوهر النفس أشد روحانية من جوهر الهواء والضياء جميعاً

ثم اعلم يا أخي أن النفوس الجزئية يفضل بعضها على بعض باحدى هذه الخصال الأربع

احداها معارفها التى استفادتها بكونها مع الجسد ، والثانية أخلاقها التى عددناها . والثالثة آراؤها التى اعتقدتها . والرابعة أعمالها التى اكتسبتها

فاذا كانت النفس كثيرة المعارف في العلوم وحسنة الاخلاق صحيحة الآراء صالحة الاعمال صورتها هذه الخصال صورة حسنة صحيحة بهية بهجة روحانية فاذا فارقت الجسد واستقلت بذاتها واستغنت بجوهرها عن التعلق بالاجسام وانجلت عنها أصداء الطبيعة أبصرت ورأت عند ذلك ذاتها وتراءت لها صورتها فعاينت جمالها ورونقها فرأت كل ماعملت من خير محضراً وكلما لاحظت ذاتها ازدادت فرحاً وسروراً ولذة وذلك هو جزاؤها ونعيمها وجنتها لانقلة لها أبداً كما قال تعالى (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً)

واذا كانت أعمالها سيئة وسيرتها جائرة وآراؤها فاسدة وأخلاقها ردية ومعارفها باطلة أكسبتها هذه الخصال صورة قبيحة سمجة وحشة وهي لاتحس بها مادامت مربوطة بالجسد مشغولة بالمحسوسات مستروحة الى بهجة الطبيعة وزينة الهيولى فاذا جاءت سكرة الموت وحسرة الفوت بالحق التى لابد لكل شخص من ذلك ولكل أجل مسمى وهي مفارقة النفس الجسد فارقته على رغم منها جبراً وقهراً وبطلت آلات الحواس التى تنال بها اللذات الجسمانية وبقيت فارغة نظرت عند ذلك الى ذاتها فرأت ماعملت من سوء محضراً وتحيرت وهي صورة قبيحة سمجة وحشة واغتمت وحزنت واستوحشت (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) وودت أن لو كان بينها وبينه أمداً بعيداً وتبقى على تلك الحالة متألمة معذبة في ذاتها فذلك هو جزاؤها وأليم عذابها وجحيمها وعقابها كما قال النبى صلى الله عليه وسلم انما هي أعمالكم التى ترد اليكم وكما قال الله تعالى (وأن ليس للانسان الا ماسعي وأن سعيه سوف يرى) (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) فأما أصحاب اليمين ففى سدر مخضود وأما أصحاب الشمال ففى سموم وحميم . وفقك الله وإيانا وجميع اخواننا للسداد وهداك وايانا وجميع اخواننا سبيل الرشاد وصلى الله على النبى محمد وآله الامجاد

(تمت رسالة نشوء النفس ويتلوها رسالة طاقة الانسان فى المعارف)

الرسالة الرابعة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

في بيان طاقة الانسان فى المعارف والى أى حد هو ومبلغه من العلوم
والى أي غاية ينتهى وأي شرف يرتقى

﴿ وهي الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

﴿ فصل ﴾

اعلم أيها الاخ أيدك الله وإيانا بروح منه بانا قدفرغنا من بيان كيفية نشوء الانفس الجزئية فى الاجساد البشرية فنريد أن نذكر في هذه الرسالة طاقة الانسان في المعارف والى أي حد ينتهى فنقول .

اعلم ان الله تعالى لما خلق جسد آدم عليه السلام أبي البشر من التراب وصوره في أحسن تقويم وأحسن صورته وأحكم بنيته ثم نفخ فيه من روحه صار ذلك الجسد الترابى بتلك الروح الشريف حياً عالماً قادراً ثم فضله بما علمه من الاسماء على بعض الملائكة لاعليهم كلهم وأمرهم بالسجود له من أجل تلك الروح الشريفة التى نفخ فيه لامن أجل الجسد الترابي وابليس اللعين لما نظر الى الجسد الترابي وعرف ورأى تلك الروح الشريفة الفاضلة العالمة قال (أنا

خير منــه خلقتني من نار وخلقتــه من طين) اذ النار خير من التراب لان النار جسم مضيء متحرك يطلب العلو والتراب جسم مظلم ساكن يطلب السفل وكان هذا منه قياساً خطأ لان السجود لم يكن للجسد الترابي بل لتلك الروح الشريفة لان الانسان انما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد ويتحرك ويحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله

ثم اعلم ان العلم غذاء للنفس وحياة لها كما ان الطعام وجميع المتناولات غذاء وشراب للجسد وحياة له

ثم اعلم ان العلم بالاشياء بعضه طبيعي غريزي مثل مايدرك بالحواس ومثل مافي أوائل العقول وبعضه تعليمي مكتسب مثل الرياضات والآداب ومايأتي به الناموس .

فمن الناس من لايرغب في التعليم والتأدب بل يتكل على ماتدركه الحواس أو مافي قرائح العقول

ومنهم من يرغب في التعلم والتأدب لكن من الناس من لايقبل من العلم الا مايتصور في نفسه أو يقوم عليه برهان هندسي أو منطقي.

ومنهم طائفة لاتقبل الا مايدل عليه قول الشاعر وطائفة لاتقبل الا برواية وخبر ، ومنهم طائفة لاتقبل الا بالاحتجاج والجدل .ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك.

وينبغي لنا أن نبين مبلغ قوة الانسان في ادراك المعلومات والمحسوسات الى أي نهاية وهي جهده وطاقته في معرفة حقائق الأشياء والى أي حد ينتهي لان في الناس طائفة من العقلاء لما تفكروا في حدوث العالم وبحثوا عن العلة الموجبة لكونه بعد ان لم يكن لم يعرفوها ولم يتصوروا في عقولهم بدء كون العالم فدعاهم جهلهم عند ذلك الى القول بقدم العالم ومنهم من لاح له شيء غير ما لاح للآخر فاختلفت أقاويلهم في حدوث العالم والعلة الموجبة لكونه بحسب ما لاح لواحد واحد ونحن قد بينا في رسالة لنا في المبادىء ما تلك العلة فأعرفها من هناك

فصل

ثم اعلم أن من تفكر في كيفية حدوث العالم وعلة حدوثه بعد ان لم يكن ويريد أن يعرفها أو يتصور كيف كان ذلك وهو جاهل لا يعرف كيفية تركيب جسده ولا يتفكر في بنية هيكله ولا يدري كيف كان بدء كون ذاته ولا يعلم ماهية جوهر نفسه ولا كيفية ارتباطها بجسده ولا لأى علة ربطت به بعد إن لم تكن مربوطة ولا لأى علة تفارق الجسد فى آخر العمر عند انقضاء الاجل ولا تدرى أين تذهب اذا فارقت الجسد ولا من أين جاءت قبل ذلك هو يريد أن يعرف بدء كون العالم وكيفية حدوثه وما تلك العلة الموجبة لكونه مع جهله بما ذكرنا من هذه الاشياء التى هي أقرب الى فهمه وأسهل لتعليمه وأمكن لتصوره فمثله كمثل رجل لا يطيق حمل مائة رطل فهو يتكلف حمل الف رطل أو كمثل من لا يقدر على المشى وهو يريد أن يعدو أو من لا يبصر يده اذا أخرجها وهو يريد أن يرى ما وراء الحجب

ثم اعلم أنه اذا اعتبر أحوال الانسان ومجارى أموره من ذلك وحال جثته فانه متوسط بين الصغر والكبر فلا صغير جداً ولا كبير مفرطاً ، فهكذا حال بقائه فهو لا طويل العمر في الدنيا ولا قصير المدة فيها

وهكذا حال وجوده فلا هو متقدم الوجود على الأشياء ولا متأخر عنها لأن من الموجودات ما هو أقدم وجوداً منه كالاركان والافلاك ومنها ما هو متأخر الوجود عنه كالموجودات الصناعية

وهكذا حال مكانه متوسط فلا هو من الطرف الاقصى من العالم ولا هو في المركز سواء

وهكذا حال رتبته في الشرف والدناءة متوسط لأن من الموجودات ماهو أشرف منه كالملائكة المقربين ومنها ما هو أدون منه كالبهائم

وهكذا حاله في القوة والضعف متوسط ، فلا هو قوى متين ، ولا ضعيف

مهين لأن من الحيوانات ما هو أقوى منه كالأسد ، ومنها ما هو أضعف منه كالحيوانات الصغار

وهكذا حاله في الجهل والعلم متوسط ، فلا هو راسخ في العلم كالملائكة ولا هو جاهل مهمل كالبهائم

وهكذا حال معلوماته متوسط المقدار بين الطرفين . وذلك ان الانسان غير محيط بالاشياء المفرطة الكثيرة كتضاعف العدد الكثير وهو مدرك للأشياء القليلة كالجزء الذي لا يتجزأ الذي هو في جذر العشرة وما شاكله

وهكذا حال قدرته على الموزونات فانه لا يمكنه وزنها الا المتوسط منها بين الثقيل المفرط الثقل كالجبال وبين الخفيف النذر الخفة كالذرة

وهكذا حال قدرته على مساحة الابعاد والمقادير لا يقدر على مساحة الا المتوسط منها بين الواسع المفرط السعة كالبراري والبحار وبين الضيق اللطيف كجرم الابرة وجرم الخردلة

وهكذا حال قوة حواسه على ادراك المحسوسات فلا يحس منها الا المتوسطات بين الطرفين

وذلك ان القوة الباصرة لا تقوى على ادراك الألوان في الظلمة الظلماء ولا على ادراكها في النور الباهر كالنظر الى عين الشمس في نصف النهار في يوم الصيف

وهكذا قوة السمع لا تطيق استماع الصاعقة لشدتها وجلالتها ولا تقوى أيضا على ادراك دبيب النملة لخفائها وخمولها

وهكذا القوة الذائقة والقوة الشامة والقوة اللامسة لا تقوى على ادراك محسوساتها الا المتوسطات منها وذلك أن الحر المفرط والبرد المفرط يفسدان المزاج ويخرجانه عن الاعتدال

وهكذا الطعم المفرط. وهكذا الرائحة المفرطة يفسدان آلات الحواس ويغيران

المزاج والاحساس وهذا يكون من اعتدال المزاج وقد بينا فى رسالة لنا كيفية ادراك الحواس لمحسوساتها واحدا واحدا فاعرفه من هناك

وهكذا قوة علم الانسان ومعرفته بالامور الماضية وأخبار الماضين مع الزمان البعيد لا يمكنه علمها الا ما قرب كونه من زمانه مثل معرفتنا بآبائنا وأجدادنا القريبين منا ومثل علمنا بأخبار بنى اسرائيل وما كان بعد الطوفان أو قبل ذلك الى آدم عليه السلام

فأما ما كان قبل آدم عليه السلام من أخبار الملائكة وقصة الجان الذين كانوا يفسدون في الارض قبل خلق آدم عليه السلام فليس للبشر علم بها ولا لهم ميل الى معرفتها الا من طريق الوحي عن الملائكة تسليما

وهكذا علم الانسان بالامور الآتية في الزمان المستقبل لا يمكنه معرفتها والاستدلال على كونها بدلائل النجوم الا ما يكون قريب الكون مثل استدلال المنجمين بالقرانات التى تكون فى كل عشرين سنة مرة وفي كل مائتين واربعين سنة مرة ، وفى كل تسعمائة وستين سنة مرة

وأما القرانات التى تكون فى كل ثلاثة آلاف وثمانمائة واربعين سنة مرة وفي كل سبعة آلاف سنة فليس على معرفة الاستدلال بها على الكائنات سبيل لبعدها من الزمان المستقبل

وهكذا قوة عقل الانسان متوسطة لا يقوى على تصور الأشياء المعقولة إلا ما كان متوسطاً بين الطرفين من الجلالة والخفاء . وذلك أن من الاشياء المعقولة ما لا يمكن عقل الانسان ادراكه واحاطة العلم به لجلالته وشدة ظهوره وبيانه ووضوحه مثل جلالة البارى عز وجل فانه لا يقوى عقل الانسان على ادراكه وإحاطة العلم بماهية ذات جلالته وشدة ظهوره ووضوح بيانه لا لخفاء ذاته وشدة كتمانه

ومثل عجز الانسان عن تصور صورة العالم بكليته لشدة كبره وظهوره لا لصغره

وخفائه ومثل عجزه أيضاً عن ادراك الصور المجردة عن الهيولى لشدة صفائها ولطافتها ونفوذها في الاشياء

ومن الاشياء ما لا يمكن ادراكها وتصورها لخفائها ودقتها وصغرها مثل الجزء الذي لا يتجزأ ومثل الهيولى الاولى المجردة من الصور والكيفيات ومثل عجزه أيضاً عن معرفة كيفية تصور الجنين في الرحم وخلقة الفرخ في جوف البيضة والحب في الغلف والثمر في الاكمام

ثم اعلم أن هذه الاشياء التي تدرك حساً مفروغ من صنعتها فأما في وقت تكوينها فالحس لا يدركها والوهم لا يتصورها فمن يريد أن يعلم كيفية حدوث العالم وعلة كونه فينبغي أن يتفكر أولا في هذه الاشياء فيعلمها ويتصور كيفية حدوثها ثم بعد ذلك يتفكر في كيفية حدوث العالم وعلة كونه فمن ادعى أنه يعرف ذلك فليخبرنا عن صورة العالم كيف هي على ماهي عليه الآن لان حواسه هي تباشرها وتشاهدها ودع ما كان مضى مع الزمان الماضي لنسيانه عن ذلك أو الذي يكون في الزمان المستقبل كيف يكون أو فليخبرنا عن علة كثرة الكواكب وعلة أبعادها ومقاديرها واعظامها وحركاتها وما هي عليه الآن وما العلة في ذلك أو فليخبرنا عن المجرة وما هي فانا لم نجد الى وقتنا هذا أحداً من الحكماء قد قال فيها قولا مرضياً أو فليخبرنا عن شيء واحد وهو الأثر الذي نراه في وجه القمر ماهو والناس يشاهدونه دائماً ودع ما لا يشاهدونه من كون العالم أو فليخبرنا عن علة اختلاف أجناس المعادن وأشكال الناس وهياكل الحيوان عما هي عليه الآن وما العلة في ذلك

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أنه ليس الى معرفة علل هذه الاشياء وصول الا أن تؤخذ من الانبياء عليهم السلام تقليداً كما أخذوها عن الملائكة تسليما

ثم اعلم أن نسبة علم البشر الى علم الملائكة ومعرفتهم كنسبة علم حيوان البحر

الى حيوان البر ومعرفتها بأمورها وكعلم حيوان البر الى علم البشر ومعرفته بأمورها وذلك أن حيوان الماء لها حس وحركة وتمييز تتصرف فيها من طلب غذائها ومصالحها ومنافعها والهرب من عدوها وعرفانها ذكرانها وأناثها وأبناء جنسها

فأما احساسها بأحوال حيوان البر ومعرفتها بأمورها فليس لها الى معرفة ذلك الا شيء يسير

وهكذا حيوان البر بأحوال البشر ومعرفتها بأمور الناس فليس لها إلا شيء يسير

وهكذا علم البشر بأحوال الملائكة ومعرفتهم بأمور الذين فى فضاء الافلاك وطبقات السماوات فليس لهم بها علم الا شيء يسير

وهكذا أحوال الملائكة فى مراتبها ومقاماتها متفاوتة متباينة الاول فالاول والاشرف فالاشرف وفوق كل ذي علم عليم والى ربك المنتهى كما أخبر عز وجل عن أحوال الملائكة في مراتبها ومقاماتها فقال تعالى « قل هو نبوء عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لى علم بالملأ الاعلى اذ يختصمون » وقال في حكاية عن الملائكة « وما منا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون » وقال « لا يعلم جنود ربك الا هو وماهي الا ذكرى للبشر » يعنى أجناس الملائكة وقبائل الجن والانس والحيوانات أجمع

ثم اعلم ان علم جميع الخلائق بالنسبة الى علم الله تعالى ليست الا كالجزء اليسير كما قال تعالى « ولو ان مافي الاوض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » يعنى علم الله قال « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » ونحن قد جعلنا هذه الرسالة تنبيهاً لاخواننا على نهاية مبلغ طاقة الانسان فى العلوم والمعارف وتوبيخاً لأقوام جهال يعارضون العلماء بالكلام والجدال ويسألونهم عن علل أشياء ليس فى طاقة الانسان معرفتها وهم قد

تركوا البحث عن أشياء واجب عليهم تعلمها والبحث عنها ثم لا يسألون عنها ولا يتفكرون فيها لجهلهم

﴿ فصل ﴾

اعلم انه ليس من علم ولا عمل ولا تجارة الا وبين أهلها فيها منازعة وخلف فمن ذلك الخلف الذي بين العلماء في حدوث العلم وقدمه وهما طائفتان الفلسفية والشريعة فالانبياء عليهم السلام كلهم يرون ويعتقدون ان عالم الاجسام محدث لا شك فيه

وهكذا يرى بعض الفلاسفة الفضلاء الراسخون في العلم فأما المتفلسفة الناقصون فشكون فيما يقولون متحيرون فيما يزعمون من قدم العالم

وهكذا حكم كثير من أتباع الانبياء عليهم السلام والمقربون بما خبرت به فانهم شاكون أيضا فيما يقلدون ومتحيرون فيما يعتقدون وأعيذك أيها الاخ الفاضل بالله ان تكون منهم لان ما مثلهم في هذه الرسالة وما يختلفون فيها الا كمثل أولئك الصبيان الاغبياء البله الجهلاء

وذلك أنه كان رجل حكيم له أولاد صغار وكان فيهم جماعة أذكياء فهماء نجباء وكان فيهم جماعة أغبياء بله جهلاء فنظر أولئك الاخوة يوماً فى بعض خزائن أبيهم فوجدوها مملوءة بالحلاوة مختلفة الطعام والالوان والروائح والاشكال فتأملوها وفكروا فيها فوقع في أفكارهم ان قالوا ألا ترى من عمل هذه العجائب وصور هذه الاشكال ومن صنع هذه الالوان

فمن كان منهم ذكياً فهما مدركا نجيباً علم انه عمل صانع حكيم . ومن كان منهم غبياً أبله ساهيا خفى عليه ذلك وانغلق

ثم تفكر الذين علموا أنه صنعة الحكيم أترى من أي شيء عملها وبأي شيء صورها . فمن كان منهم أذكى وأفهم علم أنه من شيء آخر عملها . ومن كان دونهم في الفهم والذكاء خفي عليه ذلك

ثم تفكر الذين علموا أنه من أي شيء عملها ترى كيف عملها ولم صورها بهذه الاشكال ، فمن كان منهم أذكى وأفهم وأنجب عقل ذلك وتصورها وتحقق واستغنى عن سؤال لم وكيف . ومن كان منهم دون ذلك في المرتبة خفي عليه وقصر فهمه عنه وتوقف يتفكر ويتروى في ذلك

ثم عند ذلك سألوا اخوة لهم بالغين عاقلين عن هذه الحلاوة فأجابوا أنها عملها الحلواني ، فقالوا من الحلواني ، فقالوا صانع حكيم فمنهم من فهم وعقل وصدقهم ومنهم من خفي عليه لغباوته فكذب وأنكر اذ لم ير الحلواني قبل ذلك ولا سمع بذكره

ثم سأل أولئك الاخوة الصغار اخوانهم الكبار البالغين العقلاء أترى من أي شيء عمل الحلواني هذه العجائب فأجابوهم أنه عملها من السكر والدهن والنشاء ، فمنهم من صدقهم اذ كان موفقاً هادئاً مؤيداً رشيداً ، ومنهم من كذب وأنكر اذ لم يروا هذه الاشياء عياناً ولم يعرفوها عقلا

ثم قالوا أرونا منها شيئاً فقالوا لهم لم يبق للصانع منها شيئاً بل استعملها كلها فمنهم من كان موفقا فصدقهم ومنهم من كذب وأنكر ولم يرشد

ثم أنهم سألوهم كيف عمل الحلواني هذه قالوا بنى الدبكدان وأوقد النار ونصب الطنجير وصب فيه الدهن وطرح فيه السكر وحركها باسطام وعقدها بالنشاء ، فمن كان منهم أذكى فهماً تصوره بجودة ذكائه وحسن رويته وقريحة قلبه وصفاء جوهر نفسه وضياء نور عقله ، ومنهم من عميت عليه الانباء اذ لم يكن له ذكاء ولا لقلبه صفاء ولا لنور عقله ضياء

ثم ان أولئك الاخوة اختلفوا فيما بينهم وصاروا فرقاً يتجادلون فيما بينهم في هذه المسألة ويتنازعون ويتخاصمون وانشبت بينهم نيران الفتنة والبغضاء

ثم ان والدهم الشفيق رثى لهم ورحمهم لما رأى ما وقعوا فيه من المحنة والبلوى وأمر بعض اخوانهم العقلاء المستبصرين أن يكونوا قضاة وعدولا بينهم ويقضوا الحكم بارفق ما يقدرون عليه.

فقال لهم اذا سألكم اخوتكم وتحاكموا اليكم فيم يختلفون فيه فارشدوهم ودلوهم على ذلك فكان من جواب أولئك الاخوة القضاة اذا سئلوا عن عمل هذه الحلاوات اجابوا اخوتهم بانها من عمل أبيهم فسكنت نفوس أولئك الاخوة الصغار الى قولهم لان معرفتهم بابيهم أقرب الى فهمهم من معرفتهم بالحلواني

واذا سألوهم من أي شيء عمل قالوا لا من شيء تعرفونه فسكنت نفوسهم الى قولهم أكثر من سكونهم الى قول من اجاب انه عمل من السكر والشيرج والنشأ لان الصبيان قد تبين لهم بأن أشياء كثيرة ما رأوها بعد ولا عرفوها

واذا سألوهم كيف عملها وكيف صورها قالوا كما شاء وكيف شاء

وكانت هذه الجوابات أسكن لنفوسهم من قول من يطول فيه الخطب وقال كيت وكيت وفعل وصنع

فهذا مثل اختلاف العلماء فى حدوث العالم وقدمه والسائلين لهم واخوتهم المجيبين عنه فمثل العالم بما فيه من العجائب وطرق أجناس الموجودات وغرائبه وصنوف صنائع المصنوعات كمثل تلك الخزانة المملوءة من الحلاوة

ومثل السائلين عن حدوث العالم وكيفية صنعته وعن هيولاه وصانعها كمثل سؤال أولئك الاخوة الصغار الضعفاء العقول القليلي الفهم .

ومثل ذلك الاخوة العقلاء الذين سئلوا فاجابوا بشرح طويل فأوقعوا الخلف بين الاخوة كمثل الفلاسفة في أجوبتهم عن كيفية حدوث العالم والهيولى والصورة والعنصر والطبيعة وما شاكلها من الالفاظ الغريبة المعانى البعيدة التصور

ومثل أولئك الاخوة القضاة والعدول في أجوبتهم كمثل الانبياء عليهم السلام وخلفائهم

ومثل ذلك الاب الشفوق الرحيم هو الباري تعالى باعث الأنبياء عليهم السلام ليكونوا قضاة بين خلقه في مايختلفون فيه من هذه المسائل ويجيبونهم بحسب مايليق بعقولهم ومبلغ فهمهم

فصل

ثم اعلم انا قد اخبرنا عن علة حدوث العالم وبينا كيفية صنعته وماهية هيولاه وصورته في المبادىء العقلية مثل ما ذكر القدماء الفضلاء الموحدون منهم القائلون بحدوث العالم

ولكن يحتاج الناظر فيها والسائل عن هذه المسائل أن تكون له نفس زكية وفهم دقيق وقوة روية وجودة تصور روحانية كما يفهمها فمن لم يفهم ماوصفنا فينبغي له أن يقنع بما قالت الفلاسفة ان العالم معلول وعلته البارى وربما قالت الانبياء باجمعها عليهم السلام ان العالم بأسره مخلوق وان الله عز وجل هو خالقه ومبدعه ومخترعه

فان لم يعقل ماقالت الفلاسفة وما أخبرت عنه الأنبياء عليهم السلام ولم يثق بقولهم ولم تسكن نفسه الى حكمهم ولم يطمئن الى قولهم ويتكل على ما تخيله القوة الوهمية فلا ينبغي له أيضاً أن يثق بحكمها ولا أن يسكن الى تخيلها لانه تخيل ماله حقيقة ومالا حقيقة له فلا يوثق به ولا يحكم بصحته كما لا يثق ولا يحكم بصحة القوة الباصرة اذا أرتك لون شيء من الطعام بأن تحكم على حقيقته الا بعد أن تستعين بالقوة الشامة فان عرفت حقيقته والا استعنت بالقوة الذائقة

فهكذا ينبغي لك ياأخى اذا شككت فى مسألة مشكلة أن لاتثق بنفسك دون أن تستشير فيها اخوانك الكرام الفضلاء كما تستعين في أمور الدنيا اذا لم تنهض بشيء منها باخوانك وجيرانك واصدقائك الفضلاء الكرام

فهكذا يجب أن تكون سيرتك في أمر الدين وطلب الآخرة وفقك الله أيها الأخ للسداد وهداك الى سبيل الرشاد وجميع اخواننا حيث كانوا فى البلاد

فصل

ثم اعلم ان الحكماء الاولين قد تكلمت في فنون من العلوم وضروب من

الآداب وغرائب من الحكم كثيرة لايحصى عددها الا الله الواحد القهار

فنها من تكلم في تركيب الافلاك واحكام النجوم

وتكلموا أيضاً في الطب والطبائع والكائنات التى تحت فلك القمر وقوم من العلماء الشرعيين ينكرون أكثره

أما لقصور فهمهم عما وصف القوم أو لتركهم النظر فيها واشتغالهم بعلم الشرع واحكامه أو لعناد بينهما

وكذلك أيضاً أن أكثر من ينظر في العلوم الحكيمة من المبتدئين فيها والمتوسطين من بينهم يتهاونون بامر الناموس وأحكام الشريعة ويزرون بأهله ويأنفون من الدخول تحت أحكامه الا خوفاً وكرها من قوة الملك الذي هو أخ النبوة .

كل ذلك لقصور فهم الفريقين جميعا عن معرفة حقائق هذه الاشياء المذكورة ولقلة علمهم أيضا بماهيات الكائنات

ولما كان مذهب اخواننا الفضلاء الكرام النظر فيها جميعا والكشف عن حقائق أشيائها أعنى العلوم الحكمية والنبوية جميعا

وكان هذا العلم بحراً واسعا وميدانا طويلا احتجنا أن نتكلم في مادعت الضرورة الى عمل هذه الرسائل التى هي إحدى عشر وخمسين رسالة والكلام فيها بأوجز مايمكن وايراد النكت التى هى اللب ولايفهم ذلك الا بامثال تضرب ليقرب من فهم المبتدي النظر في العلوم وتسهل تصور الحقائق للمتأملين

ثم اعلم ان العلوم الحكمية والشريعة النبوية كلاهما أمران الهيان يتفقان في الغرض المقصود منهما الذي هو الاصل ويختلفان في الفروع

وذلك ان الغرض الاقصى من الفلسفة هو ماقيل انها التشبه بالاله بحسب طاقة البشر كما بينا فى رسائلنا اجمع وعمدتها أربع خصال أولها معرفة حقائق الموجودات والثانية اعتقاد الاراء الصحيحة والثالثة التخلق بالاخلاق الجميلة والسجايا الحميدة والرابعة الاعمال الزكية والافعال الحسنة

والغرض من هذه الخصال هو تهذيب النفس والترقي من حال النقص الى التمام والخروج من حد القوة الى الفعل بالظهور لتنال بذلك البقاء والدوام والخلود في النعم مع أبناء جنسها مع الملائكة

وهكذا الغرض من النبوة والناموس هو تهذيب النفس الانسانية واصلاحها وتخليصها من جهنم عالم الكون والفساد وايصالها الى الجنة ونعيم أهلها في فسحة عالم الافلاك وسعة السموات والتنسم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن فهذا هو المقصود من العلوم الحكيمة والشريعة النبوية جميعا

وأما اختلافهما في الطرق المؤدية اليها فمن أجل الطبائع المختلفة والاعراض المتغايرة التي عرضت للنفوس ، وبذلك اختلفت موضوعات النواميس وسنن الديانات ومفروضات الشرائع كما اختلفت عقاقير الاطباء وعلاجاتها بحسب اختلاف الامراض العارضة للاجساد من الآلام والاوجاع وبحسب اختلاف الازمنة والامكنة

ومثال آخر في اختلاف سنن الديانات النبوية والفلسفية جميعاً وفنون مفروضات النواميس والمقصد واحد كاختلاف طرقات القاصدين نحو بيت الله الحرام وتوجههم شطره بحسب مواضع بلدانهم ومراحلهم ومرافقهم من البيت شرقا وغربا وجنوبا وشمالا كما بينا في رسالة جغرافيا .

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أن الموجودات كلها نوعان كلية وجزئية

فالموجودات الكلية الدائمة الوجود والبقاء لأنها ابتدأت في الترتيب من أشرفها وأتمها الى ادونها وأنقصها كما بينا في رسالة المبادىء العقلية

والموجودات الجزويات دائمة في الكون متوجهة نحو التمام لانها تبتدىء بالكون من أنقص الوجود متوجهة الى أتم الوجود ومن أدون الاحوال مترقية الى أشرفها وأتمها

ثم اعلم ان الانسان هو من الامور الجزوية وهو مجموع من جوهرين أحدهما هذا الجسد الجسماني والاخر هو النفس الروحانية فانقص حالات جسده ابتداؤه

من النطفة متوجها الى أن يصير رجلا جلداً وأنقص حالات نفسه وأدونها أن تكون ساذجة لاتعلم شيئا كما قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاً » وأتم حالاتها أن تخرج كل ما في قوتها من الفضائل الى الفعل وهو أن يصير الانسان مؤمناً حقا عالما ربانيا حكيما فيلسوفا محققا كما قال تعالى « وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » وقال : « علم الانسان مالم يعلم » وقال : كونوا ربانيين

ثم اعلم أن كل عمل متقن فمن صانع حكيم في أولية العقل وكل فاعل حكيم فله في فعله غرض ما والغرض هو غاية يسبق اليها وهم النفس واذا بلغ الفاعل الى الغاية قطع الفعل

ثم اعلم ان دوران الافلاك فعل متقن ففاعله اذا حكيم فله اذاً في ادارة الافلاك غرض ما فان كان قد بلغ الى غرضه فسبيله أن يقطع الفعل ليقف الفلك عن الدوران

فأما الاجسام فان افضلها ما كان يظهر عنه افضل فعل واجل النفوس ما بدا منها العلم وزال عنها الجهل

ثم اعلم ان الذ ما يأكل الانسان هو العسل وانعم ما يلبس هو الابريسم فان كان الفاعل لهما هي الدودة والزنابير فاذاً اصغر الاجسام اكرمها فعلا . وقد قام البرهان بان الجسم لا فعل له البتة

ولا يخفى عليك بان الزرع والشجر فى اخراج الحب والثمر وغايتهما الحصاد وتمام الغرض منهما بعد ذلك تمام الحيوان في الادراك وغايته النتاج وحصاده وصرامه الموت

فالغرض من الحيوان اذاً بعد الموت كذلك الحب اذا لم يتم ولم يستحكم قبل حصاد الزرع لا ينتفع به بعد الحصاد كذلك الثمر اذا لم ينضج وينعقد قبل اخراجه لم ينتفع فيما يراد منه

وهكذا حكم النفس الانسانية اذا هي لم تتم بالمعارف الحقيقية صورتها ولم تستتم بالاخلاق الجميلة جوهرها ولا بالآراء الصحيحة عقلها ولا بالاعمال الزكية ذاتها في الدنيا، لا تنتفع بعد مفارقة الجسد بحياتها ولا تستقل بذاتها ولا تلتذ بالنعيم في الآخرة على التمام والكمال كما أن الجنين اذا لم تستتم في الرحم خلقته ولم تستكمل هناك صورته لا ينتفع بالحياة في الدنيا

فهكذا حكم النفس لأن موت الجسد ولادة النفس كما أن الطلق ولادة الجنين فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة فان الغرض في ذلك أن تصير ملكا بالفعل فاجتهد غاية الجهد وقو ظهرك بالحبل المتين واعتصم بحبل الله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » واجتهد أن تتوجه نحو الصراط المستقيم اذ ذلك أقرب طرق من الخط المعوج الى الغرض الاقصى لتنال بذلك السعادة وبقاء الأبد وتتلذذ بلذات النعيم من الروح والريحان والحور والغلمان وفقك الله وايانا وجميع اخواننا للسداد انه رؤوف بالعباد وبحق محمد وآله الامجاد صلوات الله عليهم الى يوم التناد

تمت الرسالة في بيان طاقة الانسان ويتلوها رسالة حكمة الموت والحياة

الرسالة الخامسة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

فى حكمة الموت والحياة

وهى الرسالة التاسعة والعشرون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

فصل

اعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه انه لما فرغنا من بيان طاقة الانسان في المعارف الى أي حد تنتهي وبينا الغرض من النواميس الشرعية النبوية والعلوم الحكمية الحقيقية وهو تهذيب النفس فحسب واستدعاء الخلق الى الله تعالى فنريد أن نذكر في هذه الرسالة ماهية حكمة الموت والحياة وما الحكمة فى وجودهما

فنقول اعلم أن افتتاح جميع العلوم الحقيقية هو في معرفة الانسان نفسه . ولما كان الانسان هو جملة مجموعة من جوهرين متباينين وأعراض تحلهما أحدهما هذا الجسد الجسماني والآخر هو النفس الروحانية كما بينا فى الرسالة التى ذكرنا فيها أن الانسان عالم صغير وكان جوهر النفس أشرف من جوهر الجسد صار علم الانسان بجوهر النفس وأحوالها أشرف من علمه بجوهر الجسم وأحواله . وقد بينا ماهية الجسم وصفاته المخصوصة به فى رسالة الهيولى ورسالة الحاس والمحسوس

ونريد أن نتكلم ها هنا في علم النفس وأحوالها فنقول :

لما كان علم الانسان ومباحثه بالمعلومات من تسعة أوجه كما بينا في رسالة الصنائع العلمية وهي هل هو ، وما هو ، وكيف هو ، وكم هو ، وأين هو ، ومتى هو ، ولم هو ، ومن هو كما بينا ذلك في رسالة قاطيغورياس

ثم نريد أن نذكر من هذه المباحث في أمر النفس الجزئية الانسانية طرفاً فنقول : ما هي ، وكيف هي ، وكم هي ، مع هـذا الجسد وأين كانت قبل رباطها ، وكيف تكون حالها اذا فارقته ، ولم ربطت بالجسم ، وما الغرض في ذلك ؟

واعلم أنه قد بينا ماهيتها في رسالة العقل والمعقولات وكميتها في رسالة العالم انسان كبير ، وأين كانت النفس الجزئية قبل رباطها بالاجساد في رسالة مسقط النطفة ، وأين تكون اذا فارقت الجسد في رسالة البعث والقيامة ، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقبة بحكمة الموت كيف كونها مع الجسد ولم ربطت بالجسم ولم تفارقه .

ولما كانت الانفس الجزئية قوى منبثة من النفس الكلية في الأجسام الجزئية التى تحت فلك القمر احتجنا أن نذكر أولا النفس الكلية التى هي نفس العالم بأسره ولم ربطت بالجسم الكلى الذى هو جملة العالم من أقصى فلك المحيط الى منتهى مركز الأرض بعون الله تعالى

فصل

(في غرض رباط النفس الكلية بالجسم الكلي حسب ما تبين ها هنا)

فنقول أنه لما كانت الموجودات كلها مرتبة بعضها تحت بعض متعلقة في الوجود بالعلة الاولى الذي هو الباري تعالى كتعلق العدد وترتيبه عن الواحد الذي قبل الاثنين كما بينا في رسالة المبادىء العقلية وكانت النفس أحد الموجودات وكانت مرتبتها دون العقل وفوق الجسم المطلق وكان الجسم فارغاً من الأشكال والصور

والنقوش والحياة قابلا لها بالطبع ، وكانت النفس حية بالذات علامة بالقوة فعالة بالطبع ولم يكن من الحكمة الالهية والعناية الربانية أن تترك النفس فارغة غير مشغولة بضرب من الحكمة وأن يكون الجسم مع قبوله للتمام عاطلا ناقص الحال ولم يكن للنفس أن تتحكم على الموجودات التي فوق رتبتها الذي هو العقل الفعال عطفت النفس بواجب الحكمة على الجسم المطلق اذ كان دونها في الرتبة فتحكمت فيه بالتحريك له والشكل والتصاوير والنقوش والاصباغ ليتم الجسم بذلك وتكمل النفس أيضاً باخراج ما في قوتها من الحكمة والصنائع الى الفعل والظهور والاظهار تشبها بحكمة الباري تعالى اذ لم يقتصر على علمه بالكائنات قبل كونها حتى أخرجها الى الوجود بعد العدم ليظهر الكل للجزء ويشاهد الجزء الكل ويخرج ما في القوة من الحكمة والصنائع الى الفعل والظهور

فمن أجل هذا ربطت النفس الكلية بالجسم الكلي المطلق الذي هو جملة العالم من أعلى فلك المحيط الى منتهى مركز الارض وهي سارية في جميع أفلاكه وأركانه ومولداته ومدبرة لها ومحركة باذن الله تعالى وتقدس

فصل

(في سريان النفس الكلية في الجسم الكلي)

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أنه اذا فاضت قوى النفس الكلية الفلكية في الجسم الكلي الذي هو جملة العالم الجسماني ابتدأت من أعلى فلك المحيط متوجهة نحو مركز العالم وسرت في الأفلاك والكواكب والاركان الاربعة والاوقات الزمانية أولا فأولا حتى اذا بلغت الى منتهى مركز العالم اجتمعت كلها هناك ويكون ذلك سبباً لكون الأجسام الجزئية الكائنة الفاسدة التي دون فلك القمر وهي الحيوانات والنبات والمعادن لأنها إذا علت إلى أقصى مدى غاياتها الذي هو الغرض الاقصى بطول الزمان وعطفت عند ذلك راجعة أعني تلك القوى نحو المحيط فيكون سبب بعث الانفس الجزئية الانسانية

الكلية من الأجسام الفاضلة ، وهذا قول مجمل يحتاج أن نشرحه ونبين أيضاً أن الموت حكمة

واعلم ان الحيوانات كلها تكره الموت وتحب الحياة ولكن من أجل أن كثيراً من العقلاء يقولون أن الموت حق وفي ذلك حكمة ولا يدرون ما تلك الحكمة ويحتجون بقوله تعالى « هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ولا يدرون معنى قوله تعالى وما المراد في ذلك ثم انهم مع اقرارهم بذلك كلهم يحبون الحياة ويكرهون الموت ثم يذمون الحياة عند تنغيص العيش ويتمنون الموت عند الشدائد احتجنا أن نبين ما الموت وما الحياة ولم يكره الموت وتحب الحياة وما الحكمة في خلقتهما

فصل
(في اعتبار الموت والحياة)

فاعلم انه اذا فكر العاقل العالم فى تركيب هذا الجسد وما هو عليه من اتقان البنية وأحكام الصنعة كما ذكر في كتاب التشريح وكتاب منافع الاعضاء بشرح طويل من عجائب تأليف أعضائه وغرائب تركيبه وحسن هندام مفاصله وكيفية تشعب الاعصاب الممتدة على أعضائه وعظامه المؤتلفة عليها المتمكنة بمفاصلها المنتشرة الى أطراف بدنه المنشأة منها الاوتاد اللينة الرقيقة للحس وللشعور وكيفية تشعب العروق الواردة التى منشأها من عمق الكبد المنتشرة في خلل اللحم الموردة للدم الى أطراف البدن وكيفية تشعب العروق الضاربة التى منشأها من القلب المنتشرة فى عمق البدن الموصلة للنبض الى أطراف الجسد وكيفية طبقات بنية بدنه بعضها فوق بعض كما بينا في رسالة تركيب الجسد والاوعية المعدة للأغراض المختلفة لجر المنفعة أو لدفع المضرة وكيفية ابتدائه من النطفة وتتميمه في الرحم ونشوه في أيام الصبى وتكميله فى أيام الشباب وتنضيجه فى أيام الكهولة فيرى أنه غاية الكمال والحكمة والصواب والاتقان

ثم اذا تفكر في أيام الشيخوخة وفي ذهاب قوته وتغييرات رونقه وادباره ونقصانه ثم هدمه بالموت وتغيره بعد ذلك بالانتفاخ والنتن وفساده، ثم كيف يبلى في التراب ويضمحل ولا يعرف ما وجه الحكمة فيه فيتحير ويتشكك ويضل عن الصواب. فمن اجل هذا احتجنا ان نذكر في هذه الرسالة الموت والحياة ونبين ما الحكمة في خلقهما وكونهما

واعلم انه اذا فكر العاقل اللبيب في خلقة الرحم وحال المشيمة وكون الجنين من النطفة وكيفية ذلك المكان وما قد أعد هناك من المرافق والمرافل لتتميم الخلقة وتكميل الصورة فيراها في غاية الحكمة واتقان الصنعة من الصواب وما يتعجب منه أولو الالباب

ثم اذا فكر في حال الولادة وكيف ينقلب في الرحم وتنخرق المشيمة وتنقطع تلك الاوتار وتسترخي تلك الرباطات التي كانت تمسك الجنين هناك وكيف يسيل الدم والرطوبات المعدة التي كانت هناك لمرافقه وما تلقاه الوالدة من الجهد والشدة فانه يرى شيئاً يدهش العقل ويحير أولي الابصار والالباب

ولكن لما كان من حال ماينقل اليه الجنين من فسحة هذا العالم وطيب نسيمه واشراق أنواره وما يستأنف الطفل من العمل في مستقبل العمر من لذة العيش والتمتع بنعيم الدنيا واذاقدر ونجاه الله من ذلك المكان الضيق المظلم الناقص الحال بالاضافة الى أحوال هذه الدار من التصرف والتقلب فيرى ان الحكمة والصواب كان في الخروج من هناك

فهكذا ينبغي لك يا أخي أن تعتبر لتعلم أن حال النفس مع الجسد كحال الجنين في الرحم وان حالها بعد الموت كحال الطفل بعد الولادة لان موت الجسد ولادة النفس

وكذلك ولادة الطفل ليست شيئاً سوى خروجه من الرحم
وكذلك ولادة النفس ليست هي شيئاً سوى مفارقة النفس اياه

فصل

في ماهية الحياة

فنقول اعلم أن الموت والحياة نوعان جسدانى ونفسانى والحياة الجسدانية ليست شيئاً سوى استعمال النفس الجسد والموت الجسدانى ليس شيئاً سوى تركها استعماله كما ان اليقظة ليست شيئا سوى استعمال النفس الحواس وليس النوم شيئاً سوى تركه استعمالها

فاما النفس فحياتها ذاتية لها وذلك انها بجوهرها حية بالفعل علامة بالقوة فعالة فى الاجسام والاشكال والنقوش والصور طبعا وان موتها هو جهالتها بجوهرها وغفلتها عن معرفة ذاتها وان ذلك عارض لها من شدة استغراقها في بحر الهيولى ولبعد ذهابها في هاوية الاجسام ولشدة غرورها فى الشهوات الجسمانية والناس أكثرهم لجهالاتهم بجوهر نفوسهم وغفلتهم عن حياتها الابدية لا يعرفون الا هذه الحياة الدنيا الجسدانية الدنية المنقطعة «وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور» «انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد» فصاروا يريدون البقاء فى الدنيا ويتمنون الخلود فيها كما قال تعالى :

«يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» وقال يريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة (والاخرة خير وابقى) وقال «والاخرة خير لمن اتقى» وقال (وان الدار الآخرة لهي الحيوان لوكانوا يعلمون) وآيات كثيرة في ذم الذين يريدون الحياة الدنيا هي حياة الجسد ويغفلون عن الحياة الآخرة التى هي حياة النفس بالحقيقة وتلك حياة أبداً دائما فاما ماهية حياة الجسم فنقول:

اعلم أن الجسد ميت بجوهره وان حياته عرضية لمجاورة النفس اياه كما ان الهواء مظلم بجوهره وانما ضياؤه باشراق نور الشمس عليه والقمر والكواكب

والدليل على ان الجسد ميت بجوهره مايرى من حاله بعد مفارقة النفس له كيف يتغير ويفسد ويتلاشى ويرجع الى التراب كما كان بديئاً «منها خلقناكم وفيها نعيدكم»

﴿ فصل ﴾

في غرض رباط النفس الجزئية بالجسد الجزئي

فنقول اعلم انما ربطت الأنفس الجزئية كيما تكمل بالرياضة وتخرج ما في جوهرها من الحكمة والصنائع والفضائل من حد القوة الى حد الفعل لتتم الهيولى الجزئية

وتكمل هي أيضاً ويتشبه ذلك الجزء بالكل وهو ان تتعلم النفس الجزئية السياسة والتدبير والتهذيب بالاخلاق الجميلة والاراء الصحيحة والاعمال الزكية والمعارف الحقيقية.

وهكذا تشبه الجزء بالكل كما قيل في حد الحكمة انها التشبه بالاله بحسب الطاقة الانسانية

واذا بلغت النفس الانسانية الى اقصى مدى غاياتها وكملت بما أظهرت من الفضائل وهدم الجسد نقلت هذه الانفس بعد مفارقة الجسد الى حالة أخرى ونشؤا آخر اعلى وأشرف من هذا الجسد المؤلف من اللحم والدم والاخلاط الاربعة القابلة للكون والفساد كما قال الله تعالى « وننشئكم فيما لاتعلمون »

ثم ان الله ينشيء النشأة الاخرة ، فتكون نسبة تلك الحال التي تنقل اليها النفس بعد مفارقة الجسد بالاضافة الى هذه الحال كنسبة حال الجسد في الرحم الى الحال التي نقل اليها بعد الولادة من فسحة هذا العالم وطيب نسيمه واشراق نوره بالاضافة الى ظلمة الاحشاء والمشيمة والرحم التي هي ثلاث ظلمات

ثم اعلم ان النفس لاتحس تلك الحال التي تنقل اليها الا بعد مفارقة الجسد كما ان الجنين لايحس باحوال هذه الدنيا الا بعد الولادة

فمن أجل هذا قال النبي صلى الله عليه وآله الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وانما نومهم غفلتهم عما بعد الموت

فاذا جاءت سكرة الموت بالحق التي هي مفارقة النفس الجسد وعاينت

الحقيقة التي كانوا بها يوعدون كما قال الله تعالى « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

وقال لنبيه عليه السلام « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » يعني الموت بعد مفارقة الجسد وقال « كل نفس ذائقة الموت ثم الينا يرجعون »

فاذا الموت حكمة اذ لا رجوع لها الى ربها الرحمن الرحيم الا بعد الموت ولا وصول للنفس الى ماوعد الله ورسوله الا بعد مفارقتها الجسد « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » فاذا الموت حكمة ومنة من الله تعالى على عباده بل بالموت سبب بقاء الحياة الجسدانية وسبب فناء الجسد

﴿ فصل ﴾

فى حكمة الموت

اعلم بأن لكل كون ونشوء أول وابتداء وله غاية ونهاية اليها يرتقى ولغايتها ثمرة تجتنى فسقط النطفة كون قد ابتدىء ، وغايته الولادة التى اليها المنتهى

والولادة أيضاً كون قد ابتديء ، والموت غايته التى اليها المنتهى ، وكما ان ثمرة مسقط النطفة لا تكون الا بعد الولادة لان الطفل لا يتمتع الا بعد الولادة فهكذا النفس لا تتمتع الا بعد مفارقة الجسد لان موت الجسد ولادة النفس وهي الروح

وذلك أن موت الجسد ليس شيئاً سوى مفارقة النفس له كما ان ولادة الجنين ليست شيئاً سوى مفارقة الرحم فاذاً الموت حكمة كما ان الولادة حكمة

وكما ان الجنين اذا تمت فى الرحم صورته وكملت هناك خلقته لم ينتفع فى الرحم بل ينتفع بعد الولادة فى الحياة الدنيا

كذلك النفس اذا كملت صورتها وتمت فضائلها بكونها مع الجسد انتفعت بعد مفارقتها الجسد فى الحياة الآخرة

فاذاً الموت حكمة اذ البقاء الابدي لايتيسر الا بعد حصول الموت ، فالموت سبب لحياة الابد والحياة الدنيا سبب للموت فى الحقيقة اذ الانسان ما لم يدخل في هذا العالم لايمكن له أن يموت فاذا وجد الانسان فتكون حياته سببا لموته وموته سبباً لحياته الباقية أبد الابدين.

واعلم ياأخي ان مثل النفس مع الجسد كمثل الصبى فى المكتب ليتعلم ويتأدب ويرتاض فاذا تعلم وأحكم ذلك فليس حال أحرى الا الخروج من المكتب والانتفاع عما حصل في المكتب لانه قد تم مايراد منه وبقي الاكرام والمجازات.

فهكذا حكم النفس مع الجسد اذا أحكمت مايراد منها بكونها معه فليس من طريقة الا المفارقة.

وكما ان الصبى اذا أحكم مايراد منه في المكتب استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم وسواده لانه كان يكتب به ويقرأ منه ويمحو ليحصل العلم فى نفسه محفوظا من القرآن والاخبار والاشعار والنحو واللغة وماشا كلها مما يحفظ الصبيان فى المكتب فهكذا حكم النفس مع الجسد اذا هي أحكمت أمر المحسوسات بطريق الحواس وأمر المعقولات بطريق الفكر والروية وعرفت حقائق أمور هذا العالم من الكون والفساد وارتقت بعد ذلك بطريق الرياضيات التى هي البراهين الى معرفة الامور الغائبة عن الحواس وارتاضت فيها وعرفتها حق معرفتها واستبان لها أمر عالمها ومبدئها ومعادها وعاينت بعين البصيرة أحوال أبناء جنسها من السابقين الذين مضوا على سنن الهدى وارتقوا الى ملكوت السماء وفسحة الافلاك وسعتها ، اشتاقت هي عند ذلك الصعود الى هناك واللحاق بابناء جنسها ولا يمكنها ذلك بهذا الجسد الثقيل الا بتركها ومفارقتها اياه وهو الموت فلو لم يكن الموت لكانت ممنوعة من الوصول الى هناك فاذاً الموت حكمة ونعمة ورحمة وفضل ورضوان من الله عز وجل للنفوس الخيرة المستبصرة.

﴿ فصل ﴾

حكمة أخرى من حكمة الموت

واعلم يا أخي بان الجسد كالسفينة والنفس كالملاح والاعمال الصالحة كالبضاعة والامتعة للتاجر والدنيا كالبحر وايام الحياة كالمعبر والموت كالساحل المتوجه اليه والدار الآخرة كمدينة التاجر والجنة هي الربح والله تعالى هو الملك المجازى كما ان التاجر اذا عبر البحر وسلمت امتعته وبضاعته ولما لم يخرج من السفينة لا يمكنه الدخول الى مدينة للتجارة ويفوته ربح بضاعته

فهكذا حكم النفس مع الجسد أيضاً ، وذلك انها اذا قطعت ايام الحياة الدنيا بالاعمال الصالحة وسارت سيرة عادلة وتخلقت بالاخلاق الجميلة واعتقدت آراء صحيحة ونظرت في أمور المحسوسات فعرفتها معرفة صحيحة وبحثت عن حقائق المعقولات وأحكمتها وبلغت آخر العمر ، وهدم الجسد فليس التدبير والحيلة الا الفراق الذى هو موت الجسد فلو لم يكن الموت لما أمكنها الصعود الى ملكوت السماء ولا الدخول في زمرة الملائكة ولا الوصول الى الجنة وكان يفوتها لقاء الله تعالى ونعيم الدار الآخرة كما يفوت الجنين مشاهدة هذا العالم على حقيقته لو لبث في المشيمة ولم يظهر منها فاذاً الموت حكمة ورحمة ونعمة إذ لا وصول لنا الى ربنا الا بعد خروجنا من هذا الهيكل ومفارقة أجسادنا « كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون »

﴿ فصل ﴾

في حكمة الموت

اعلم ان الدنيا كالميدان والاجساد خيل عتاق والنفوس السابقة الى الخيرات فرسان والله تعالى الملك الجواد المجازي وكما ان الفارس السابق اذا بلغ باب الملك ان لم ينزل عن فرسه لا يمكنه الدخول الى حضرة الملك فتفوته جائزته والخلع والكرامة فهكذا حكم نفوس السابقين في الخيرات والاعمال الصالحة اذا قطعوا أيام

الحياة الدنيا سبقاً الى الخيرات كما مدحهم الله تعالى: أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين

فاذا فنى العمر وهدم الجسد وشاخ ونبت النفس وكملت ان لم تفارقه لايمكنه الصعود الى ملكوت السماء لان هذا الجسد الثقيل المتغير الفاسد لايليق بذلك المكان العالى الشريف بل النفس هي التى يمكنها الصعود الى هناك لتجازى بما عملت من خير فاذاً الموت حكمة ورحمة

وأيضاً ان الدنيا مزرعة وأرحام النساء كالحرث كما قال الله تعالى « نساؤكم حرث لكم » والنطفة كالبذر والولادة كالنبت وأيام الشباب كالنشوء وأيام الكهولة كالنضج وأيام الشيخوخة كاليبس والجفاف

فبعد هذه الحالات لابد من الحصاد والصرام وهو الموت والصراط والاخرة كالبيدر فكما ان البيدر يجمع الغلاة من كل جنس ويدرس وينقى ويرمى القشور والورق والتبن والحب والثمر ويجعل علفا للدواب وحطبا للنيران.

فهكذا تجتمع في الآخرة أمم الاولين والآخرين من كل دين وتنكشف الاسرار ويميز الله الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولاهم يحزنون

وهذا كله بعد الموت هو حكمة ورحمة ونعمة من الله تعالى لأوليائه فلأجل هذا يتمنى أولياؤه الموت كما عاتب من ظن انه منهم بغير حق قل ياأيها الذين هادوا ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فدل بهذه الآيات علامة أولياء الله تعالى انهم يتمنون الموت اذا علموا انهم الى ربهم راجعون بعد الموت فاذاً الموت حكمة ونعمة

﴿ فصل ﴾
فى حكمة الموت أيضاً

واعلم ياأخي ان النفوس كالصناع والاجساد كالدكاكين وأعضاء الجسد كالأدوات كما بينا فى رسالة تركيب الجسد

ثم اعلم ان الصناع يجتهدون فى الصنائع ويحملون مشقة العمل لكسب المال وطلب الغناء فاذا استغنى واحد منهم ترك الدكان والادوات واستراح من العمل فهكذا حكم النفوس اذا هي احكمت مايراد منها بكونها مع الجسد من الزاد للآخرة استغنت عن الجسد فاستقلت بذاتها فلو لم يؤخذ منها الجسد لكان وبالا عليها ومانعاً لها من الصعود الى ملكوت السماء والدخول فى زمرة الملائكة والسيحان فى عالم الافلاك والسريان فى فسحة فضاء السموات والتنسم من الروح والريحان فاذاً الموت حكمة ونعمة من الله تعالى لعباده الصالحين

وقال يوسف الصديق « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولِي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين أما ترى انه عليه السلام تمنى الموت بقوله « توفنى مسلما » لما علم ان اللحاق بالصالحين لايكون الا بعد الموت فاذاً الموت حكمة ونعمة

وقال خليل الرحمن عليه السلام « الذي خلقنى فهو يهدين والذي يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتنى ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق في الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم » فاذاً الموت حكمة اذا كانت وراثة الجنة لاتتيسر الا بعد الموت

ثم اعلم ان الكرامة للنفس من الله وارادة للنفس خاصة لا للجسد لان الجسد قد بلى فى التراب وانما ألحقت بالصالحين نفسه

فصل

(فى كيفية خروج النفس من القوة الى الفعل)

فنقول : اعلم أنار الله برهانك بأن نفوس الصبيان عاقلة بالقوة و نفوس البالغين عاقلة بالفعل و نفوس العقلاء علامة بالقوة و نفوس العلماء علامة بالفعل والعلماء نفوسهم فلسفية بالقوة والفلاسفة نفوسهم حكماء بالفعل والحكماء الأخيار

ملائكة بالقوة فاذا فارقت نفوسها أجسادها كانت ملائكة بالفعل فاذا الموت حكمة ورحمة

واعلم يا أخي أن المعادن تستحيل الى أجسام النبات وأجسام النبات تستحيل الى أجسام الحيوان وأشرف الحيوان الانسان ، فصورة النبات صراط منكوس الى العمق وقد جازتها النفس الحيوانية ونجت منها ، وصورة الحيوان صراط ممدود على السطح وقد جازتها النفس الانسانية ونجت منها ، وصورة الانسان صراط مستقيم كالخط قائماً منتصباً بين الجنة والنار وهي أخريات جهنم ، فأي نفس جازتها نجت من جهنم ودخلت الجنة التي هي صورة الملائكة والا ردت الى أسفل السافلين كما ذكر الله تعالى «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون»

فانظر يا أخي في هذا الباب وتفكر فيه فانك على خطر عظيم . وقد بلغت قريباً من باب الجنة فان بادرت قبل مفارقة الجسد للنفس واستعديت وتزودت بالأعمال الصالحة والآراء الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم الحقيقية رجوت لك أن تنجو من نيران الهاوية التي هي عالم الكون والفساد وتصل الى الجنة بالصعود الى عالم الافلاك وفسحة السموات عالم الدوام والبقاء والخلود في النعيم والسرور مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله

فصل

(في غرض السياسات)

اعلم ان الجسد مسوس والنفس سائس فأي نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب أمكنها سياسة الاهل والخدام والغلمان . ومن ساس أهله بسيرة عادلة أمكنه أن يسوس قبيلة أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلهم ومن ساس أهل المدينة كما يجب أمكنه أن يسوس الناموس الالهي ومن ساس الناموس الالهي

أمكنه الصعود الى عالم الافلاك وسعة السموات عالم الدوام ليجازى هناك بما عمل من خير ، فاذا الموت حكمة

فان لم يستوى لك يا أخي سياسة الناموس الالهى فكن حاذقاً فيه فلعلك تنجو من جهنم بشفاعة أهلها وتصعد الى ملكوت السماء بمعاونتهم وتدخل الجنة برحمة الله وفضله وسعة رحمته وفقك الله يا أخي للصواب وهداك الرشاد وجميع اخواننا حيث كانوا في البلاد انه رحيم جواد

فصل

(في عيوب الجسد ومثالبه)

فاعلم يا أخي انا قد بينا في رسالة تركيب الجسد ورسالة الانسان عالم صغير ورسالة الحاس والمحسوس ما تستفيد النفس بكونها معه من الحكمة والعلوم والفوائد وما ترتاض من اتخاذ الصنائع والسياسات والتدبير والربوبية والتشبه بالاله بحسب الطاقة الانسانية اذا أخذت النفس طريق ذات اليمين لأن هذا الجسد لهذه النفس صراط ممدود بين الدنيا والآخرة . فاذا عبرت النفس على هذا الصراط وسلمت من آفاته سهل عليها سائر ما بعد ذلك

فن عيوب هذا الجسد كون النفس كمحبوس في كنيف لأن الكنيف بالحقيقة هو هذا الجسد فهو ينبوع لكل قاذورات من وسخ وبول وغائط ومخاط وبصاق ودم وصديد ولعاب وعرق نتن وبخر وصنان وان كل ما يكون فى الكنيف من القاذورات فمنه يخرج وفيه يتكون فأوله نطفة قذرة وآخره جيفة منتنة وما بين الحالتين مملوء عذرة والنفس على دوام الاوقات في تنظيفه وغسله وتنقيته ومداواته وستر عوراته وحفظه من آفات الحر والبرد والجوع والعطش والصدمة والضربة والآفات العارضة التى لا يحصى عددها

وبالجملة فليس فى العالم نتن ولا نجاسة ولا قاذورة ولا جيفة الا منه ، ومن وجه آخر فنقول مثل النفس مع الجسد كعابد صنم يعبده بالليل والنهار وذلك

أن النفس اذا تركت تعلم العلم وعبادة الله عز وجل والنظر في أمور معادها بعد فراق الجسد والاستعداد له والتزود للرحلة من الدنيا الى الآخرة واشتغلت بما يكون فيه صلاح الجسد من الاكل والشرب واللباس والمسكن والمركب وما شاكلها من أنواع زينة الدنيا فتكون كأنها هوذى يعبد صنما كما ذكر الله تعالى « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون »

ومن وجه آخر فنقول الجسد كأنه كافر محجوب عن الله تعالى لا يعرفه ولا يدري من خلقه ورزقه

ومن وجه آخر كأنه صاحب بدعة يدعي الى هواه ويريد أن تكون الامور بمراده

ومن وجه آخر كأنه جاهل عجول لا ينظر في العواقب ، وأيضاً كأنه عدو للنفس يظهر الصداقة ويكتم العداوة

وأيضاً كأنه شيطان من كثرة الوساوس ، وأيضاً كأنه ابليس يدعو الى العداوة ، وأيضاً كأنه ميت على جنازة حملتها النفس على كتفها لا تستريح منه، ياويلتها حتى اذا دفنته في التراب ، وأيضاً كأنه غيم بين أبصار الناظرين ونور الشمس لان ظلمات أخلاط الجسد تمنع عن النظر الى نور العقل وهو يمطر الآمال وينسى الاجال

وايضاً مثل هذه النفس الجزئية مع شرفها وشرف جوهرها وما هي عليه من غربتها في هذا العالم الذى تحت الكون والفساد وما ابتليت به من آفات هذا الجسد وفساد هيولاه كمثل رجل حكيم خبير في غربة قد ابتلى بعشق امرأة رعناء فاجرة جاهلة سيئة الخلق رديئة الطبع فهي دائم الاوقات تطالبه المأكولات الطيبة والمشروبات اللذيذة واللباس الفاخر والمسكن المزخرف والشهوات الرديئة وان ذلك الحكيم من شدة محنته بمحبتها وعظم بلائه بصحبتها قد صرف كل همته الى اصلاح أمرها وأكثر عنايته بتدبير شأنها حتى نسى أمر نفسه

وصلاح شأنه وبلدته التي خرج منها وأقربائه الذين نشأ معهم ونعمته التي كان فيها بدناً فكأنه قد قرن بشيطان مريد وعدو مبين . فهذا الشيطان هو الذى قال الله تعالى « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» فهو إذاً ابليس الذى أخرج آدم من الجنة

ثم اعلم ان جوهر النفس جوهر سماوي وعالمها عالم روحاني وهي حية بذاتها غير محتاجة الى الاكل والشرب واللباس والمسكن وما شاكل ذلك مما يحتاج اليه الجسد فى قوام وجوده ومادة بقائه ، وان كل ما يحتاج اليه الانسان من أعراض هذه الدنيا فانما هو من أجل هذا الجسد المستحيل الفاسد ولاصلاح شأنه وقوام وجوده وجر المنفعة اليه ودفع المضرة عنه وهو لا يثبت على حالة واحدة طرفة عين

ثم اعلم ان النفس مادامت مع هذا الجسد الى الوقت المعلوم فانها متعوبة بكثرة غمومها لاصلاح أمر هذا الجسد شقية بشدة عنايتها فيما تتكلف من الاعمال الشاقة والصنائع المتعبة لاكتساب المال والمتاع والاثاث وما يحتاج اليه الانسان فى طول حياته الدنيا

ثم اعلم أن النفس ما دامت مربوطة بالجسد لا راحة لها دون مفارقتها هذا الجسد كما أن ذلك الرجل الحكيم المبتلى بعشق تلك المرأة الفاجرة الرعناء لا راحة له مما قد ابتلى به الا بمفارقتها والتسلى عن حبها وعشقها فاذا الموت حكمة ورحمة ونعمة لنفوس الاخيار بعد بوار الاجساد فما الموت الا نعمة وسرور وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور وفقك الله وايانا وجميع اخواننا للسداد انه رحيم رؤوف بالعباد

تمت الرسالة الخامسة عشرة في ماهية الحياة والموت

ويتلوها رسالة اللذات

الرسالة السادسة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

في خاصية اللذات وفى حكمة الحياة والموت وماهيتهما

﴿ وهي الرسالة الثلاثون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

﴿ فصل ﴾

اعلم أيها الاخ أيدك الله وإيانا بروح منه إنا قد فرغنا من بيان حكمة الموت والحياة وبيان ماهيتهما وقلنا ماالحكمة من وجودهما فى عالم الكون والفساد وماالعلة في كراهية نفوس الحيوانات الموت ومحبتها الحياة ونريد ان نذكر في هذه الرسالة ماهية اللذة والألم والغم والفرح والسرور والحزن والراحة والتعب ونبين انها كلها اخوات متضادات أو متشاكلات

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه بأن اللذة والألم نوعان : جسمانية وروحانية وهكذا حكم اخواتها

فأما اللذات الجسمانية فهى الراحة التى تحس بها النفوس الحيوانية عند زوال الآلام . وأما الآلام التى تحس بها النفوس الحيوانية عند خروج المزج عن الاعتدال من الامر الطبيعي الى أحد الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من

الاسباب فهي كثيرة لايحصى عددها الا الله تعالى ولكن نذكر منها طرفاً لتعلم ماهية الآلام واللذة وكيفية حدوثهما

فمن ذلك ماهية لذة الاكل والشرب . أقول : ان حرارة معدة الحيوانات ذوات المعدة والقوانص فيها بمنزلة نار السراج المشتعلة بالفتيلة ، فاذا فنى الغذاء اشتعلت في رطوبات جرم المعدة فأفنتها واحترقت تلك العصبات المنسوجة هناك كما يشتعل نار السراج فى الفتيلة اذا فنى الدهن فعند ذلك تحس تلك النفوس بالألم فتنهض أجسادها في طلب الغذاء لتخلف على المعدة بدلا مما قد فنى وعوضاً عنه فاذا أوردت تلك المواد الى المعدة واشتعلت فيها تلك الحرارة للنضج فيسكن ذلك اللهيب من جرم المعدة ويجد الحيوان عند ذلك راحة ولذة وبحسب شدة لهيب تلك الحرارة وسكونها تكون لذة الاكل

وهكذا أيضاً حكم العطش من لهب حرارة الكبد فلايزال الحيوان يجد لذة الاكل والشرب الى ان تستوفي الطبيعة حاجتها فعند ذلك تزول تلك اللذة وتسكن حتى انه ان زيد على مقدار الحاجة صارت اللذة ألماً فيمسك عند ذلك الحيوان عن الاكل والشرب الى أن يستمرىء ما أكل ويهضم وتمر الى أطراف الجسد تلك المواد لتخلف ماتحلل من هناك لان الحيوان في دائم الاوقات في الذوبان والسيلان لايقف لحظة ولاطرفة عين . يعلم حقيقة ماقلنا وصحة ماوصفنا أهل البصائر من الاطباء والطبيعيين

وأما اللذة التي يجدها الحيوان من الجماع فان تلك المادة التى تسمى المنى وهي زبدة الدم اذا كثرت في بدن الحيوان واجتمت فى المواضع المعدة لها وجدت الطبيعة عند ذلك ثقلا وتمدداً كما تجد عند اجتماع البول فى المثانة والغائط في المعى فتطلقها الارادة عند ذلك للبروز ، فهكذا حكم المنى وقد جعلت الحكمة الالهية والعناية الربانية شهوة مركوزة فى جبلة الذكران للاجتماع مع الاناث من أبناء جنسها وكذلك في طباع الاناث الاجتماع مع الذكران ليكون منهما التناسل والنتاج ليبقى النسل فى بقاء الاشخاص والصورة فى الهيولى اذا كانت الاشخاص

لا بقاء لها دائماً فى عالم الكون والفساد لعلل يطول شرحها . وقد ذكرنا طرفاً منها فى رسالة البعث والقيامة وطرفاً فى رسالة العلل والمعلولات . فاذا خرجت تلك النطفة من بدن الحيوان الفحل خف عن الطبيعة ما كان يجده من الثقل ووجد الحيوان عند ذلك راحة ولذة

وأما اللذة والراحة التى يجدها الحيوان عند السكون والهدوء والنوم فهي من أجل ان الحركة التى تسخن مزاج أبدانها وتجفف رطوبات العضلات والاعصاب المحركة للاعضاء فتضعف عند ذلك عليها الحركة فاذا سكنت وتمددت وهدأت بردت أبدانها وتولدت من السكون برودة ومن البرودة رطوبة فلانت الاعصاب والاوتار المحركة لتلك الاعصاب والعضلات وسهلت الحركة وهكذا أيضاً حكمها عند وضع أحمالها وأثقالها تجد راحة لان الحركة المفرطة والثقل يسخنان المزاج ويخرجانه من الاعتدال

وأما اللذة والراحة التى يجدها الحيوان عند الحر والبرد فهو من أجل ان الحر اذا دام عليها سخن مزاج أبدانها وأخرجها من الاعتدال فيؤلمها ذلك فعند ذلك يطلب مايضادها من برد الظلال والافياء والمواضع الباردة فاذا دامت هناك زماناً طويلاً أفرطت البرودة فى أبدانها وخرجت من الاعتدال الى الجانب الآخر فعند ذلك تطلب الدفء والشمس والنيران ومايضاد البرودة

فقد تبين بما ذكرنا ان الحيوانات فى دائم الاوقات تتفرج وتستريح تارة من ألم الحرارة الى ضده وتارة من ضده اليه ، وتبين أيضا ان اللذات الجسمانية انما هي من خروج الألم فهو خروج من الاعتدال الى أحد الطرفين اما الى زيادة أو الى نقصان أو من حر الى برد أو من برد الى حر أو من حركة الى سكون أو من سكون الى حركة أو من جوع وعطش الى شبع وري أو من شبع وري الى جوع وعطش . وعلى هذا المثال والقياس يوجد حكم سائر اللذات والآلام الجسمانية .

وذلك ان الذي تجده النفس من اللذة بالنظر الى محاسن الموجودات أو

بالاستماع بالنغمات والشم لروائح الطيبات واللمس للملموسات فهي كلها تكون بحسب مشاكلات المزاج الموافقات، وألمها بحسب المخالفات المتضادات وذلك ان كل محسوس يخرج مزاج الحاس من الاعتدال فان الحاسة تتألم منه وتكرهه وكل محسوس يرد الحاس الى الاعتدال والمزاج الطبيعي فان الحاسة تلتذ به وتحبه وتحن اليه

فاذا تأملت يا أخي ماذكرنا علمت وتبين لك بأن هذه الآلام واللذات الجسمانية انما جعلت لنفوس الحيوانات عند خروج مزاج أجسادها من الاعتدال ورجوعها الى الاعتدال لكيما تدعوها تلك الآلام الى حفظ أجسادها وصيانة هيا كلها من الآفات العارضة لها وتحثها تلك اللذات على طلب جر المنفعة اليها أو دفع المضرة عنها اذا كانت الاجساد أجساداً أمواتاً لاتقدر على دفع مضرة عنها ولاجر منفعة اليها ولاتحترز من الاشياء المهلكة لها أو المخرجة لمزاجها من الاعتدال

والدليل على صحة ماقلنا وحقيقة ماوصفنا ان الاجساد لاتقدر على دفع مضرة ولاجر منفعة ماترى من حالها عند مفارقة نفوسها مستسلمة الى المهلكات مما لاخفاء به من حال جثة الموتى

فأما اللذات والفرح والسرور التي تجده عند وجدانها ومنافعها ومحبوباتها وماتجده من الشفقة والتحنن على صغار نتاجها ومايعرض من الغم والهم عند فقدانها أو ضرر ينالها فكل ذلك حث للنفوس على صيانة الاجساد الى وقت معلوم

وأما الشهوات المركوزات في جبلة الحيوانات فقد ذكرنا طرفاً من عللها في رسالة الاخلاق ولكن نذكر هاهنا مالابد من ذكره وذلك ان كل مافي كل طبيعة جسد وجبلة كل مزاج من الشهوات المركوزة هي مايوافق طباعها ويصلح مزاجها وذلك ان الحيوانات الآكلة اللحمان لاتشتهي الحشائش الاعند الضرورة وفقدان اللحم وكالطيور والحيوان الآكل للعشب والحب لايشتهي اللحم ولايلتذ به وهكذا الانسان لايشتهي ولايأكل الا مايوافق طبعه ومزاجه

أو ماقد اعتاد أكله على ممر الايام والاوقات وأماشهوة العليل لمايضره فلاسباب أخر يطول شرحها

فقد تبين ان الجوع والعطش بحسب الحاجة الى الطعام والشراب وان اللذة بحسب الكفاية والشهوة بحسب الموافقة للمزاج والطبع ونريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقبة باللذة والآلام كون العلة في كراهيـة نفوس الحيوانات الموت ومحبتها للحياة فنقول :

اعلم ان لمحبة الحيوانات الحياة وكراهيتهـا الموت علتين : احداهما مايلحق نفوسها من الاوجاع والآلام . والثانية مافي طباع الموجودات من المحبة والبقاء وكراهيتها للفناء هو من أجل ان الباري تعالى لما كان هو علة الموجودات وسبب الكائنات كما بينا في رسالة المبادىء وهو أبدي الوجود دائم البقاء صارت من أجل ذلك في جبلة الخليقة محبة البقاء وكراهية الفناء الذي هو ضد البقاء

ثم اعلم ان الموجودات نوعان كليات وجزئيات فالكليات تبتدىء من أتمها ثم الأدون فالأدون الى آخرها وهي تسعة مراتب أولها وأولاها الباريء تعالى الذي هو علتها كلها ثم العقل ثم النفس ثم الطبيعة ثم الهيولى الاولى ثم الجسم المطلق ثم الفلك ثم الاركان الاربعة ثم المولدات الثلاثة وهي آخرها كما بينا في رسالة المبادىء

والامور الجزئية تبتدىء من أنقص الحالات ثم ترتقي أولا فأولا الى أن تنتهى إلى أفضل الحالات كما بينا فى رسالة مسقط النطفة ورسالة نشوء الانفس الجزئية ورسالة البعث والقيامة ورسالة الكون والفساد فمن أراد علم ذلك فليرجع الى هناك ليعلم صحة ماقلناه وحقيقة مابيناه

فصل

(في ماالعلة في وصول الآلام والاوجاع الى النفوس الحيوانية دون سائر النفوس التى فى العالم)

فنقول : اعلم انا قد بينا ماهية اللذة والآلام وكيفية احساس النفوس بهما

ونريد أن نذكر فى هذا الفصل ماالعلة والحكمة في رباط النفوس الجزئية بالاجساد الحيوانية ووصول الآلام والاوجاع الى النفوس الحيوانية دون سائر النفوس النباتية والموجودات التى في العالم

فاعلم انه لما كانت النفوس الحيوانية من الامور الجزئية ولم يكن للنفوس الجزئية أن تبلغ الى أتم الحالات وأكمل المراتب إلا بأن تقترن بالاجسام الجزئية التى هى أجساد الحيوان وكانت الاجساد تعرض لها الآفات المفسدة قبل تمامها وكمال نفوسها ولم يكن للاجساد مقدرة على دفع تلك الاشياء المفسدة لها لان جواهر الاجسام عاجزة جاهلة ميتة ناقصة الحال منفعلة حسب فبواجب الحكمة الالهية جعل لنفوسها أن تلحقها الآلام والاوجاع من الاشياء المفسدة لاجسادها كيما تدعوها تلك الآلام وتحثها تلك الاوجاع على دفع تلك الاشياء المفسدة لاجسادها وتحفظها من الآفات المهلكة وتصونها عن عوارض التلف الى أن تتم تلك الاجساد وتكمل أيضاً تلك النفوس ثم يجيئها الموت الطبيعي ان شاءت النفوس أو أبت كما يجيء الطلق للولادة ان شاء الجنين أو أبى لان موت الجسد ولادة النفس كما بينا فى رسالة حكمة الموت ولو لم تعرض للنفوس الآلام من الاشياء المفسدة لاجسادها لتهاونت بها وتركتها متعرضة للآفات وكانت تفسد أكثرها قبل تمامها وكمال نفوسها .

وذلك أن النفس الانسانية لم يكن نشؤها ولا تتميمها ولا تكميلها الا بتوسط هذا الجسد المملوء من آثار الحكمة كما بينا فى رسالة تركيب الجسد ورسالة الحاس والمحسوس وقد بينا ذلك في رسالة الانسان عالم صغير فبواجب الحكمة الالهية ربطت بالاجساد البشرية وذلك أن النفس الانسانية لا تعرف حقائق المحسوسات ولا تتصور معاني المعقولات ولا تقدر على عمل الصنائع ولا تتخلق بالاخلاق والاعمال الحميدة الا بتوسط هذا الجسد طول حياته الى آخر العمر كما قال تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » وقال : « فلما بلغ أشده واستوى اتيناه حكما وعلماً » فلو لم يعرض للنفس الالم من الاشياء المفسدة

للجسد لكان الانسان مثلا اذا نام فاستغرق في نومه ثم مد يده ورجله فدخلتا في نار الى جنبه فاحترقتا ولم يكن يحس به حتى ينتبه من نومه فاذا هو بلا يدين ولا رجلين وكان يبقى طول عمره بلا آلة للمشي ولا اداة لاتخاذ الصنائع وعلى هذا القياس حكم نفوس سائر الحيوانات لو لم يكن يعرض لنفوسها الالم من الاشياء المفسدة لاجسادها لتهاونت بها وتركتها متعرضة للآفات والهلاك كما انه لو لم يكن يجعل لها شفقة على صغار اولادها وتحننا عليها لتركتها وتهاونت بها ولم تحتمل المشقة في تربيتها وكانت تهلك كلها قبل التمام وكان مصير ذلك سببا لانقطاع النسل ودثور الصورة من المادة وقيل لبعض الحكماء أي أولادك أحب اليك فقال صغيرهم حتى يكبر وعليلهم حتى يبرىء وغائبهم حتى يرجع . فاذاً بواجب الحكمة جعلت تحس مايلحقها من الآلام لحفظ أجسادها من التلف وتحثها على صيانتها من عوارض الآفات والآلام

﴿ فصل ﴾

في ماهية الالم واللذة وكيفيتها

فنقول ان اللذات والالام التي تحفظ اجسادها من التلف وتحثها على صيانتها نوعان جسماني وروحاني فاللذات الجسمانية هي التي تجدها النفس عند الخروج من الالم، والآلام التي تحسها النفس عند خروج مزاج الاجساد عن الاعتدال الطبيعي الى حد الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الاسباب هي كثيرة لايحصى عددها مثال ذلك الجوع احد الالام تحس به النفس عند خلو المعدة من الطعام وذلك ان الحرارة الغريزية التي تنضج الطعام في المعدة اذا لم تجد هناك طعاما تكون مشتغلة فاذا اشتغلت في جرم المعدة فنيت رطوباتها المعدة هناك لمصالحها فاذا فنيت تلك الرطوبات انفسد جرم المعدة فاذا أحست النفس بالالام انتهض الجسد في طلب القوت ليزيل عنه الفساد وعن ذاتها الالم فاذا وصل ذلك الى المعدة رجعت تلك النار عن جرم الجسد واشتغلت عن ذلك الطعام وسكن

الالتهاب عن جرم المعدة فتجد النفس لذلك راحة فتسمى تلك الراحة لذة وهكذا العطش فانه حرارة تلتهب في جرم الكبد ولا تسكن الا بشرب الماء فتحس النفس عند التهاب تلك الحرارة ألما وعند سكونها راحة فهاتان الخلتان تحثان النفس الحيوانية على طلب مادة اجسادها لتخلف عليها بدل مايتحلل منها اذا كانت ذات الجسد دائماً في الذوبان والسيلان من أسباب خارجة واسباب داخلة ولو لم تعرض لنفوسها الالام والاوجاع عند الجوع والعطش لما نهضت أجسادها في طلب غذائها وفي مادة بقائها وكان يبطل اجسادها الذوبان قبل تمامها وكمالها . فاذاً قد بان من الالم واللذة انما هي حث النفوس على مايصلح الاجساد لان في صلاح الاجساد صلاح النفوس كما بينا قبل وهذه اللذة التي تجدها النفوس الحيوانية عند تناول الغذاء هي ايضاً تجدها النفوس النباتية وهي التي تحثها على جذب الرطوبات الى أصول النبات والى اعلى فروعها فاذا لم تجد ذلك جفت اجسامها وهو موتها ولكن لايعرض لنفوسها الالم عند فقدان الغذاء كما يعرض للنفوس الحيوانية فمن أجل هذا لم تجعل لها حيلة التنقل من مكان الى مكان في طلب الغذاء كما للحيوان ولا فراراً من المؤذيات لانه لايليق بالحكمة الالهية أن تجعل لها ألماً وتمنعها حيلة الدفع

واما النفوس الحيوانية لما جعلت لها حيلة الدفع عن أجسادها الاشياء المفسدة لها جعل لها ألم يحثها على ذلك اما بالطلب واما بالهرب واما بالتحرز كما بينا في رسالة الحيوان

واما لذة الانتقام فهي أيضاً خروج من الالم وذلك ان الغضب نار وحرارة تشتعل في جرم القلب وهو شهوة الانتقام من المؤذي الذي أثار الغضب فان وصل الى الانتقام سكنت تلك الحرارة وخمدت نارها . وان لم يقدر على ذلك ولم يصل اليه صار الغضب حزنا ومصيبة مثال ذلك اذا قتل لاحد قتيل أوقدت نار غضبه على القاتل شهوة القوة فان قتل القاتل سكنت تلك الحرارة وان قتله الموت صار حزناً ومصيبة لانه لايمكن أن يؤخذ من الميت القوة وعلى هذا القياس

سائر الشهوات ، نيران تشتعل في الاجساد وتحس النفوس آلامها

ثم اعلم أن الاجساد كلها نيران بالقوة جامدة فاذا أصابتها نار بالفعل صارت نيراناً بالفعل . والدليل على ذلك انها كلها يمكن أن تحرق بالنار فلو لم تكن من النار لما أمكن احراقها بها . وهكذا حكم ما كولاتها وملبوساتها كانها نيران جامدة كونت من النار والهواء والماء والارض واليها تستحيل بعد مفارقة النفوس لها ومن أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أهل النار خلقوا ومن النار يأكلون وعلى النار يتقلبون) وهذه حال الاجساد ومرافقها ومادتها كلها نيران جامدة اذا اشتعلت التهبت على الافئدة كما قال الله عز وجل « نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة انها عليهم مؤصدة فى عمد ممدة » وهي آمال طوال وآجال قصار « لا بثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميا وغساقاً » اشارة الى ما ذكرنا كلما نضجت جلودهم يعنى أجسادهم بالبلى بدلنا لهم جلوداً غيرها بدلوا بالكون ثانيا

فصل

اعلم يا أخي بان الله عز وجل قد أكثر في القرآن مدح المؤمنين وذم الكافرين لانهما خلتان بينهما بعد بعيد أحداها مجمع الخير كله وفضيلة الانسانية فيها كلها وهي الايمان والاخرى ضدها وهي الكفر وهو مجمع الشرور كلها

وقد بينا في رسالة الناموس ورسالة المؤمنين معنى قولنا ما الايمان ومن المؤمن ونذكر في هذا الفصل ما الكفر ليعلم من الكافرون بالحقيقة فنقول :

اعلم ان الكفر في لغة العرب الغطاء وهو شيء يعرض للنفس من جهة الجسد وذلك أنه اذا استقرت النفس في الجهالة تغطى عليها أمر ذاتها وذهب عليها معرفة جوهرها وتنسى مبدأها ولا تذكر من أمر معادها حتى تبلغ من جهالتها ألا تعلم بأن لها وجوداً خلواً من الجسد حتى تظن أنها جسم كما يظن ويقول كثير ممن يتعاطى النظر في العلوم وهو توهم ان الانسان هو هذا الجسد الطويل

العريض العميق المؤلف من اللحم والدم . ولا يدرون أن مع هذا الجسد جوهراً آخر وهو المحرك له وهي النفس المطهرة به ومنه افعالها

فن لا يعرف جوهر النفس فهو لا يعرف شيئاً من الامور الروحانية ولا يتصورها واذا سمع ذكرها أنكرها لشدة استغراقه في بحر الهيولى وظلمات الجهالات فهؤلاء اذا سمعوا بذكر جهنم لا يتصورونها الا أمراً صناعياً وهو أنهم يظنون أن جهنم هي خندق محفور كبير واسع مملوء من نيران تشتعل وتلتهب وان الله تعالى يأمر الملائكة قصداً منه وغيظاً على الكفار أن يأخذوهم ويرموا بهم في ذلك الخندق

ثم أنه كلما احرقت أجسادهم وصارت فحماً ورماداً أعاد فيها الرطوبة والدم حتى يشتعل من الرأس ثانيا كما اشتعل أول مرة

وهكذا يكون دأبهم أبداً ويحتجون بقوله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ولا يدرون معنى قوله تعالى ولا تأويل كتابه انهم اذا سمعوا ان الله غفور رحيم حنان منان رؤوف ودود وما شاكل ذلك من أسمائه الحسنى وتفكروا فيها انكرت عليهم عقولهم ما اعتقدوا فيه من الحقد وقلة الرحمة لخلقه فعند ذلك يتحيرون ويتشككون فيما اخبرت به الانبياء عليهم السلام اذ لا يعرفون شيئاً عن صفة جهنم وعذاب اهلها ولا يعرفون تأويل كتبهم ولا معاني اشاراتهم ورموزاتهم ودقائق اسرارهم

فهكذا اذا سمعوا ذكر الجنة ونعيمها وسرور اهلها ولذاتهم فلا يتصورونها الاموراً جسمانية شبه بساتين فيها اشجار وعليها ثمار وقصور بينها انهار وفى تلك القصور حور وغلمان وولدان مردان على امثال ابناء الدنيا ونعيم اهلها واذا سمعوا بأن اهل الجنة فى جوار الرحمن حيث قال فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وانهم يزورون رب العالمين فيرونه وينظرون اليه كما قال تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وان الملائكة يزورونهم بالهدايا والتحف كما قال الله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » وما شا كل هذا من وصف اهل الجنة

من شرب الشراب او مباشرة مع الابكار وانهم احياء لايموتون وشبان لايهرمون واصحاء لا يمرضون ولا يجوعون ولا يعطشون ويأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون وما شاكل هذه من الصفات التي لا تليق بأجسام الطبيعة الكائنة الفاسدة فضلا بالاشياء الروحانية

فاذا فكروا فيها تحيروا ايضا فيما يعتقدون من امر الجنة ونعيمها وحالات اهلها فيشكون ايضا في الجنة وما خبرت به الانبياء عليهم السلام من وصف الجنان ونعيم اهلها وحالاتهم وما يقصر الوصف عنها فاذا ذهب عليهم معرفتها وتغطى عليهم علمها انكروها بقلوبهم وان كانوا لا يظهرونها بألسنتهم مخافة السيف والصلب كما قال الله تعالى « الذين يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون»

فهذا هو حقيقة الكفر والضلال والجهالة وعمى البصر لأن هؤلاء لا يؤمنون بظواهر الآيات والأخبار ولا يتفحصون عن حقائق أسرار كلام الله وأسرار الاخبار النبوية حين قالوا وبينوا لجملة ذلك حق وصدق لامردعليه حسب ما اقتضى العقل حقيقة ذلك كما لا يفهم هؤلاء الظلمة الكفرة أعاذنا الله واياك أيها الاخ من الكفر والنفاق والفسق والعصيان ورزقك وايانا الايمان والغفران انه رؤوف رحيم بالعباد

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم وتيقن ولا تشك في ان جهنم هي عالم الكون والفساد الذي هي دون فلك القمر وان الجنة هي عالم الارواح وسعة السموات وان أهل جهنم هي النفوس المتعلقة باجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والاوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم

وان أهل الجنة هي النفوس الملكية التي فى عالم الافلاك وسعة السموات في روح وريحان البريئة من الاوجاع والالام والدليل على ذلك قوله تعالى انطلقوا

الى ظل ذى ثلاث شعب اشارة الى النفوس المتحدة بالاجسام ذي الطول والعرض والعمق الى دون فلك القمر

وذلك أن تلك النفوس لما جنت هناك الجناية التى ذكرت فى قصة آدم عليه السلام « وقيل اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » وقال فيها تحيون يعنى فى الارض وفيها تموتون ومنها تخرجون عند النفخ في الصور.

وانما قيل أن جهنم هي سبع طبقات لان الاجسام التى دون فلك القمر سبعة أنواع أربع منها هي الامهات المستحيلات التى هى الاركان الاربعة وهي النار والهواء والماء والارض وثلاث هي المولدات الكائنات الفاسدات التى هى المعادن والنبات والحيوان

ثم اعلم ان تلك النفوس لما أخرجت من الجنة عالم الافلاك أهبطت الى الارض عالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر وهي ساكنة في عمق هذه الاجساد وغريقة فى بحر الهيولى القابل للكون والفساد وغائصة فى هيا كل هذه المتولدات منقطعة فيها كما قال تعالى « وقطعناهم في الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وقال « ومامن دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم »

وانما قال لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم لان كلما يجرى فى عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة وانما قال عليها تسعة عشر لان دلائلها لاتظهر فى عالم الكون والفساد الا بمسيرها في هذه البروج الاثنا عشر لجملتها تكون تسعة عشر وهي التى بها يكون تقلب أحوال الدنيا وما تقتضيه موجبات أحكامها في مواليد هذه الاجساد وما يدل عليها مما يصيبهم من الآلام والاوجاع والاسقام والامراض والاحزان من الجوع والعطش والحر والبرد والفقر والغنى والذل والعبودية والغموم والهموم ونوائب الحدثان وعداوة الاقران وحسد الجيران وجور السلطان ووساوس الشيطان ونكبات الزمان ومصائب الاخوان وخوف الموت ووعيد مابعد الموت المذكور في القرآن وما

شا كل هذه المصائب التي لايحصى عددها التي هي النفوس المرهونة بها مادامت مع هذه الاجساد

فاذا فكر العاقل اللبيب في حال النفوس المتجسدة ومايلحقها من المحن والمصائب بتوسط هذه الاجساد ومايعرض لها من الآلام والاوجاع والمناحس كما بينا قبل ، وتفكر أيضاً في حالات النفوس التي هي أهل الجنة وعالم الافلاك الذين هم سكان السموات اذا سمع بأنهم أحياءلايموتون وشبان لايهرمونوأغنياء لايفتقرون وجيران لايتحاسدون واخوان على سرر متقابلين متنعمين ملتذذين خالدون فيها آمنون لايخافون ولايحزنون فهم في روح وريحان ورضوانرغبت نفسه الى ماهناك وزهدت في الكون هاهنا

فكلما نظر بعين رأسه الى جسده في عالم الكون والفساد معذباً من أبناء جنسه استعاذ بالله وسأله الخلاص والنجاة مما هو فيه من مشاركة أبناء الدنيا وكلما نظر بعين عقله الى نفسه وأبناء جنسه في عالم الافلاك وماهم فيه من الروح والريحان تمنى الوصول الى هناك وسأل ربه اللحاق بهم كما سأل يوسف الصديق عليه السلام وكذلك ابراهيم عليه السلام وعند ذلك تصير الدنيا عليه سجناً كما قال عليه الصلاة والسلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ويكون عند ذلك من أصحاب الاعراف الذين هم أهل المعارف كما وصفهم الله تعالى « وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار » يعني أهل الدنيا التي في عالمالكون والفساد « قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين » وهؤلاء الرجال الذين على الاعراف هم الذين مدحهمالله تعالى بقوله تعالى « رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » وقال « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » فهؤلاء هم أولياء الله الذين هم يتمنون الموت لما قد تبين لهم مابعد الموت من الوجود المحض والبقاء الدائم

والروح والريحان والنجاة من الآلام والاوجاع والاسقام التى كلها جهنم ونيران

وأما من لا يعرف ما وصفنا له لا يعقل ما بين الله تعالى في كتابه على ألسنة أنبيائه إلا هذه الدنيا التى كلها آلام جسدانية من الشهوات الجسمانية واللذات الحيوانية فهو لا يرغب الا فيها ولا يتمنى إلا الخلود معها كما وصفهم الله تعالى فقال « أيود أحدهم لو يعمر الف سنة وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » فهؤلاء هم الكفار الذين تغطى عليهم الصفات الحقيقية والاسرار الخفية التى كلها رموز أخروية ثابتة للنفوس الناجية من نيران الهاوية . نجانا الله واياك أيها الاخ ورزقنا وإياك الدخول في زمر الملائكة

﴿ فصل ﴾

(فى كيفية وجدان اللذة والآلام معاً في وقت واحد)

فنقول : اعلم ان الانسان في دائم الاوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانيـة وروحانية من عدة وجوه . مثال ذلك العاشق يرى معشوقه وهو على خيانة فتسره رؤيته له ويلتذ بها وتغمه خيانته له وتؤلمه كما قال :

قايست بين جماله وفعاله فاذا الملاحة بالقباحة لا تفي

وكمثل من يأكل طعاماً يشتهيه وله رائحة منكرة تؤذيه مثل الصحناة والماميامه لساكن السواحل فهو يلتذ بأكله وتؤلمه رائحته ومثل من يسمع لحناً طيباً ونغمة لذيذة كغناء أبيات من الشعر فيها هجوله فانه يلتذ باستماع اللحن اللطيف ويغمه هجوه في وقت واحد ومثل من يسمع بموت مورث له تركتـه فيغتم لخبر موته ويسره ماورث ومثل من به جرب مؤذ يحكه فيجد له لذة وغماً في وقت واحد وألمين متضادين وراحة بينهما وكمن هو يعمل عملا متعباً أو صناعة شاقة يرجو عليها ثواباً جزيلا وأجرة وافرة فهو يجد ألماً من عمله المتعب ولذة وفرحاً لما يرجو من ثوابه

وعلى هذا القياس حكم سائر الآلام واللذات الجسمانية كما قال القائل :

ومن نكد الايام ان صروفها اذا سر منها جانب ساء جانب

أو كمن سكن عنه وجع العين وضرب ضرسه فانه يجد ألماً وراحة في وقت واحد وكمن له خلق حسن وخلق سيء فانه يجد من أحدهما راحة ومن الاخر ألماً في وقت واحد ومثل من يرى صديقاً قد غاب دهراً وأخبر بسوء حاله فيسره رؤيته ويغمه سوء حاله . أو كمثل من يضع احدى رجليه في ماء بارد والاخرى في ماء مغلي واحدى يديه في ماء فاتر فانه يجد لذة وألماً في حالة واحدة ومثل من عمل عملا حسناً يرجو جزاء عليه وعملا سيئاً يخاف عقوبة عليه فيكون متألماً ملتذاً في وقت واحد وعلى هذا المثال اذا اعتبر أحوال الناس فلا يخلو من ألم يؤذيه وراحة من ألم قد زال عنه فيكون الانسان الواحد في وقت واحد ملتذاً متألماً معاقباً مثاباً

وانما ذكرنا هذه الاشارات وأوردنا هذه الامثلة من أجل ان كثيراً ممن يتكلم في علم النفس ويبحث عن ماهية جوهرها وكيفية تشخيصها يرى ويعتقد انها أشخاص متباينة كثيرة فأكثر مايقوى رأي من ظن ان النفس أشخاص كثيرة مايظهر من اختلاف أحوالها وأفعالها وأخلاقها وآرائها وأعمالها وان بعضها ملتذة وبعضها متألمة فحكم بهذا الاعتبار انها أشخاص كثيرة منفصلة متباينة كتباين الاشخاص الجسمانية المركبة ثم ناقض رأيه بقوله بأنها جواهر بسيطة كأنه لايدري مامعنى البسيطة ونحن قد أخبرنا بأنها نفس واحدة تجنست أجناسها وتنوعت أنواعها وقد تشخصت بحسب اختصاصها بالاجناس الجسمانية وأنواعها وأشخاصها لانها في ذاتها متكثرة منفصلة متباينة لان اختلاف أفعالها بحسب استعمالها الاجساد المختلفة الاجناس والانواع والاشخاص كما بينا في رسالة تركيب الجسد

ان اختلاف أفعال نفس انسان واحد هو من أجل اختلاف أشكال أعضائه وفنون مفاصله وان نفس الانسان نفس واحدة وقد ظن كثير من أهل العلم ان للانسان الواحد ثلاث نفوس : شهوانية وغضبية وناطقة ونحن قد بينا بأن هذه

الاسماء تقع على نفس واحدة بحسب أفعالها المختلفة وذلك انها اذا فعلت في الجسم الغذاء والنمو سميت نباتية وشهوانية واذا فعلت الحس والحركة سميت حيوانية غضبية واذا فعلت النطق والتمييز والروية والفكر سميت ناطقة كما ان الرجل الواحد حداد نجار بناء اذا كان يحسنها كلها ويعقلها

فصل

فنقول : لما فرغنا من ذكر الآلام واللذات الجسمانية وبينا انها كلها هي راحة تجدها النفس عند رجوع الامزجة الى الاعتدال بعد خروجها من الاعتدال وان الآلام هي احساس النفس بتغيير مزاج الجسد وخروجه عن الاعتدال الطبيعي أو عضو من أعضائه عند ملاقاة الاشياء المفسدة لها كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس وقد بينا أيضاً علة كراهية الحيوان للموت وما العلة في وصول الآلام والاوجاع الى النفس الحيوانية دون سائر النفوس الجزئية التي في العالم بأسرها : نريد أن نذكر في هذا الفصل ما اللذات الروحانية التي تجدها النفس بمجردها وما آلامها التي تنفرد بها دون الجسد التي عبرت عنها الشريعة النبوية بالثواب والعقاب فنقول :

اعلم أرشدك الله تعالى ان اللذات أربع أنواع : شهوانية طبيعية وحيوانية حسية وانسانية فكرية وملكية روحانية فاللذات الشهوانية الطبيعية هي التي تجدها النفس عند تناول الغذاء من الطعام والشراب

وأما اللذات الحيوانية أيضاً فهي نوعان أحدهما ما تجدها النفس عند الالتئام وهي لذة الجماع والاخرى ما تجدها عند الانتقام وهي شهوة تهيج عند الغضب، والفكرية ما تجدها النفس من اللذة عند تصورها معاني المعلومات ومعرفتها بحقائق الموجودات والروحانية الملكية هي ما تجدها النفس من الراحة واللذة بعد مفارقتها الجسد التي هي الروح والريحان

فاللذة الشهوانية مشتركة بين الانسان والحيوان والنبات

والحيوانية الحسية مشتركة بين الانسان والحيوان دون النبات

والفكرية مشتركة بين الانسان والملائكة دون الحيوان

والملكية الروحانية مختصة بالنفوس المفارقة للأجسام الناجية من بحر الهيولى

فالنفوس النباتية لها لذات وليس لها ألم كما قلنا قبل في رسالة كراهية الحيوان للموت

والنفوس الملكية لها أيضاً لذة وليس لها ألم كما قد تقدم بيان ذلك لكن لها الخوف والاشفاق كما قال تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » وقال تعالى « وهم من خشية ربهم مشفقون »

فالنفوس الحيوانية لها لذة وألم جميعاً ولكن لذاتها كلها جسمانية .

فاما الانفس الانسانية فلها كل اللذات والآلام الجسمانية والروحانية جميعاً لذلك نحتاج أن نبين ونشرحها واحدة بعد واحدة لتتضح وتتصور بحقائقها فنقول

اعلم أن جميع اللذات التي تجدها النفس الانسانية نوعان منها ما تجدها بمجردها ومنها ما تجدها بتوسط الجسد وهي سبعة أنواع

أحدها المدركات بطريق النظر من محاسن الألوان والاشكال والنقوش والتصاوير والاصباغ الطبيعية منها والصناعية جميعاً

والثاني المدركات بطريق السمع من الاصوات والالحان والنغم والمدح والثناء وما شاكلها

والثالث المدركات بطريق الذوق من الطعوم الموافقة لشهواتها

والرابع الملموسات المقوية لاخلاط جسدها

والخامس المشمومات الملائمة لمزاج اخلاطه.

والسادس لذة الجماع

والسابع لذة الانتقام

فهذه كلها لذات تجدها النفس بتوسط الجسد مرتين احداهما عند مباشرة الحواس لها والاخرى عند ذكرها بعدها

مثال ذلك اذا رأى المرء وجهاً حسنا أو زينة من محاسن الدنيا فان النفس تجد عند رؤيتها لها سروراً ولذة ثم اذا غابت عن رؤية العين بقيت رسوم تلك المحاسن مصورة في فكر النفس وكلما لحت هى ذاتها ونظرت الى جوهرها رأت تلك الرسوم المصورة في فكرها فسرت بها والتذت وتذكرت تلك المحسوسات التى انطبعت فيها منها هذه الرسوم

وهكذا سائر المحسوسات حكمها اذا تذكرتها النفس التذت وسرت بها من غير شركة الجسد

وهكذا حكم اضدادها التى هي الآلام وذلك ان الانسان اذا رأى منظراً وحشياً أو صورة قبيحة أو سمع صوتاً هائلا مفزعا فانه يؤلمه رؤيته لها فى وقته واستماعها وبعد مغيبها اذا تذكرها وفكرت فيها وليس التذكر والتفكر شيء سوى لحات النفس ذاتها ونظرها الى جوهرها ورؤيتها رسوم تلك المحسوسات مطبوعة في ذاتها كما ينطبع نقش الفص في الشمع المختوم . فهذه الملاذ والآلام وان كانت لاتصل الى النفس الا بتوسط الجسد فقد تجدها بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لها فيدل هذا على ان النفس لها لذة تجدها بعد مفارقة الجسد أيضا كما تجد لذة المحسوسات بعد مفارقتها وغيبتها

فصل

فى اللذات الروحانية

فنقول أما اللذات الروحانية التى تجدها النفس بمجردها فهى نوعان احداهما ماتجدها وهي مفارقة للجسد والثانية ماتجدها وهى مقارنة له فالتى تجدها وهى مفارقة له نوعان أحداهما مايرد عليها من خارج كما بينا قبل هذا والآخر من ذاتها والتى تجدها وهي مقارنة له فهي أربعة أنواع

فنها ماتجدها من اللذة والسرور والفرح عند تصورها حقائق الموجودات من المحسوسات والمأكولات جميعاً

والثانية ماتجدها عند اعتقادها الاراء الصحيحة ومذاهبها الحميدة

والثالثة ماتجدهاعند عذوبة اخلاقها الكريمة وعاداتها الجميلة

والرابعة ماتجده من الفرح والسرور واللذة عند ذكر اعمالها الزكية وأفعالها الخيرة

وهذه اللذات مشتركة بين الانسان وبين الملائكة واضدادها من الآلام ومشتركة بين الانسان والشياطين كما سنبين بعد هذا الفصل

وأما بيان مايلحق النفوس من اللذة والألم في اعتقاداتها ومعارفها وجهالاتها وأخلاقها وأعمالها فاعلم ان الانسان اذا كانت أعماله سيئة وأفعاله قبيحة فان نفسه أبداً تكون مرتابة مرعوبة مضطربة متألمة كما ذكر الله تعالى في صفة المنافقين فقال « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله » فاذا كانت أعمالهم صالحة وأفعالهم جميلة فان نفوسهم ابداً تكون ساكنة هادئة مستريحة »

وهكذا اذا كانت اخلاق الانسان جميلة وسجاياه سهلة ومعاملته طيبة ومخالطته عذبة فان نفسه تكون أبداً في القلوب محبوبة ومن الغوائل آمنة . وان كانت أخلاقه شرية وطباعة وحشية وهمته سبعية يكون من يصحبه أبداً في عناء وهو من نفسه في جهل و بلاء

فهكذا حكم الاعتقادات والاراء وذلك أن بعضها مؤلم لنفوس معتقديها ومحير ومشكك كما قيل (شعراً)

ألم تر اني مذ ثلاثين حجة اروح وأغدو دائم الحسرات

ومثل من يعتقد أن ربه قتلته اليهود ، ومثل من يعتقد ان امامه مختف من خوف مخالفيه . ومثل من يعتقد أن رب العالمين خلق خلقاً وناصبهم العداوة وهو ابليس وجنوده . ومثل من يعتقد ان رب العالمين حقود حنق يغتاظ على الكفار والعصاة من خلقه . ومثل من يرى ويعتقد أن أمر العالم غير منتظم وان

مدبره وصانعه قد أهمل أمر عالمه حتى يجري فيه أشياء على غير مراده ومشيئته.
ومثل من يعتقد ويرى ان رب العالمين الغفور الرحيم الودود البار المحسن الحنان المنان الجواد الكريم الجميل يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكفار والعصاة ويرمون بهم في خندق من النار وكلما احترقت جلودهم وصاروا لحماً ورماداً أعاد فيها الرطوبة والحياة ليذوقوا العذاب

ومثل من يعتقد أنه يباشر فى الجنة مع الابكار ويلتذ منها ويزيل البكارة ثم تعود البكارة

ومثل من يعتقد ويرى أنه يشرب الشراب في الجنة ويكون باريه ساقيه .

ومثل من يعتقد أنه يتمنى في الجنة الطيور المشوية الحاصلة عنده فيتحصل بعد تمنيه في الحال ثم يأكل منها حتى الشبع ثم بعد ذلك تطير الطيور كما تطير فى حال الحياة

ومثل من يعتقد أن الانسان اذا مات بطلت نفسه ووجودها

ومثل من لا يرجو الجنة الا بعد خراب السموات وطيها كطي السجل للكتب

ومثل من يعتقد أن الكواكب تتناثر وتتساقط في القيامة

ومثل من يعتقد أن أعمال الانسان تجعل في كفتين من كفتي الميزان

ومثل من يعتقد سؤال منكر ونكير في القبر من جسد الميت

ومثل من يعتقد ويرى أن فى الجحيم تنانين وثعابين وأفاع يأكلون الفساق ويصيرون أحياء بعد ذلك وما شاكل هذه من الاعتقادات المؤلمة للنفوس معتقديها مع أن جميع ما نطق به الانبياء عليهم السلام من صفة الجنة ونعيم أهلها وعذاب النار والعقاب وأحوال القيامة كلها حق وصدق لا مرية فيها ولكن ليس الامر كما يعتقد هؤلاء الظلمة الكفرة بل أمر وراء ذلك لا يعلمه الا الله والراسخون فى العلم

وأما من يرى ويعتقد ويعلم ان للعالم بارئاً حكيما قادراً حليما جواداً كريماً غفوراً رحيما وانه قد أحكم امر عالمه على أحسن نظام ورتب تدبير الخليقة على أتقن حكمة ولم يترك فيه خللا ولا تخفى عليه خافية في الارض ولا في السماء ولا يرى في خلق

الرحمن من تفاوت فان نفسه أبداً ساكنة هادئة مستريحة من الألم والآراء الفاسدة وأوجاع الاعتقادات الزائفة ومن وحشة ظلمات الجهالات المتراكمة وهو في راحة من نفسه والخلق في راحة منه . ومن جهة في أمان لا يريد بأحد سوءاً ، ولا يرى له عليهم فضلا ولا يطالبهم بحق ولا يشكوهم من جفاء ولا يصيبهم منه أذى. فهذه صفة اخوانك الكرام

فهل لك يا أخي أن ترغب في صحبتهم وتتبع منهاجهم وتسير سيرتهم وتتخلق بأخلاقهم وتنظر في علومهم وسياستهم لتعرف أسرارهم واعتقاداتهم أو تحضر مجلسهم لتسمع كلامهم وأقاويلهم أو تقرأ رسائلنا هذه لعلك توفق لفهم معاني ما تضمنته وتنتبه لنفسك من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة وتنفتح لها عين البصيرة فتحيى حياة العلماء وتعيش عيش السعداء وتصعد الى ملكوت السماء

فصل

ثم اعلم ان من الآراء والاعتقادات ما هو مؤلم لنفوس معتقديها ومؤذ لها ومنها ما هو مفرح ومسر وملذ لها كما بينا قبل هذا ولكن نضرب مثلا لذلك كيما يتضح

(حكاية)

ذكروا أنه كان رجل من أرباب النعم متديناً ، وكان له ابن متجاهر بالسكر وكان الرجل كارهاً لذلك منه .

فقال له يوماً يابني انته عن السكر حتى اعطيك شطراً من مالي وعقاري وافرد لك داراً وازوجك بحسناء احدى بنات ارباب النعم

فقال ابنه يا أبت ماذا يكون ؟ فقال تعيش فرحا مسروراً ملتذا اما بقيت

فقال ابنه ان كان الغرض هو هذا فهو حاصل لي . فقال له ابوه كيف ذلك .

قال لأني اذا سكرت وجدت في نفسي من الفرح واللذة والسرور حتى اظن

معه ان ملك كسرى كله لى واتخيل في نفسي من العظمة والجلال حتى ارى العصفور مثلا قدر البعير

فقال له ابوه ولكن اذا صحوت لا ترى لذلك حقيقة . قال اعود فأشرب ثانيا حتى اسكر فأرى مثل ذلك

فهكذا القياس في حكم المعتقدين ببقاء النفس بعد مفارقتها الجسد في وجدان لذاتهم لانه ان كان الغرض من الحياة في الدنيا ليس الا لاجل اللذة والفرح والسرور والراحة بعد الموت كما قال تعالى « وترجون من الله مالا يرجون » بعد الموت الذي ليس هو شيء سوى مفارقتها الجسد كما بينا قبل هذا وقد بينا ايضا في رسالة حكمة الموت ولا ينقص هذا الاعتقاد من لذاتهم في الدنيا شيئاً

اما معتقدو فنائها فانهم لا يخلوا اما ان يكونوا من سعداء ابناء الدنيا او من ابناء اشقيائها فلو كانوا من ابناء سعدائها فان هذا الرأى والاعتقاد يؤلم نفوسهم ويؤذيها وذلك انهم كلما فكروا في الموت والفناء تنغص عليهم عيشهم وأدخل الحزن على نفوسهم ونقص من لذاتهم في دنياهم لأنهم قد أيقنوا بذهابها وفنائها ولا يرجون غيرها ولا يؤملون سواها وان كان هؤلاء المعتقدين بفناء النفس من أبناء أشقياء الدنيا فهم يعيشون في غم وحزن طول أعمارهم فى الدنيا ويموتون آخره بحسرة ومصيبة

ثم اعلم أن الاعتقادات الرديئة والآراء الفاسدة المؤلمة لنفوس معتقديها المؤذية لها كثيرة لا يمكن احصاؤها وبيان صفاتها ولكن نذكر المحمودة منها ونصفها لتعرف ويتمسك بها وتجتنب سواها وقد بينا فى رسالة النواميس طرفا من ذلك وفي رسالة اعتقاد اخوان الصفا ورسالة ماهية الايمان وخصال المؤمنين المحققين الذين وعدهم الله الجنة وشرحنا طريقتهم وأخلاقهم وآراءهم وعلومهم وأعمالهم فى احدى وخمسين رسالة وبينا فيها صفاتهم وكيفية أحوالهم لكن نذكر جملة هاهنا منها بقول وجيز مختصر

وهو أن الانسان العاقل يرى ويعتقد ان للعالم صانعاً بارءاً حكيما قديما حيا عالما وانه قد نظم امر عالمه نظاما محكما ورتب الموجودات ترتيبا متقناً ولا يخفى عليه من امر عالمه صغيرة ولا كبيرة الا وهو يعلمها ويديرها تدبيراً واحداً بحسب مايليق بواحد واحد من الموجودات والكائنات وبحسب الاستعدادات الحاصلة من الكائنات وان يجري حكم عالمه بجميع خلائقه من الافلاك والبروج والكواكب والاركان والمولودات كجرى حكم انسان واحد وحيوان واحد وان سريان قوى ملائكته في اطباق سمواته وفضاء أفلاكه كسريان قوى نفس انسان واحد في جميع بدنه ومفاصل جسده وهذا قول مجمل قد شرحنا تفسيره وبيناه في جميع رسائلنا اجمع ولكن لابد من أن يصادره المتعلمون في أول الامر والمبتدؤن بالنظر فى هذا الشأن العظيم كما يصادرون سائر العلوم والصنائع ثم في آخر الامر يعرفون حقيقته وتتبين لهم صحته

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أن غرض اقرار المبتدئين واعتقاد المتعلمين في مبدأ كل صناعة على تحقيق أصولها قبل معرفتهم بها تقليداً هو من أجل انه لايبين ذلك الا بعد التبحر فيها والبحث والكشف عنها

واعلم انه كما ان المتوسطين فى كل علم وصناعة لايرضون بالتقليد اذ قد يمكنهم البحث والكشف عنه بالبراهين فهكذا ايضا ينبغى للمقرين بكتب الانبياء عليهم السلام وما فيها من الاسرار والاشارات المكنونة والعلوم الشريفة. والمتوسطون فى العلوم لايرضون بالتقليد مثل الصبيان والنساء وضعفاء العقول بل يجب عليهم البحث عنه والكشف عن الاسرار والاشارات

ذلك بان ليس غرض الانبياء عليهم السلام فيما وصفوا من مجلس الجنان ولذات أهلها هو الاقرار باللسان حسب بلا اعتقاد ولا الاعتقاد حسب بلا تحقيق يظهر لهم ، بل الغرض هو التصور لها بحقائقها كيما تقع الرغبة فيها والطلب لها لان

الانسان لايطلب مالا يرغب فيه ولا يرغب فيما لايتحققه ولا يتحقق مالا يتصوره ولا يتصور الشيء الخفي الغائب الا بالوصف البليغ بالمحاسن فمن أجل هذا اكثر في القرآن من وصف محاسن الجنان وسرور أهلها ولذات نعيمها فتارة وصفها أوصافا جسمانية على قدر طاقة القوم مثل قوله تعالى « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب وأباريق » الآية . ذكر هذا وبين على قدر قبول افهامهم لابمعنى أن هذه الاشياء ستوجد فى الجنة على حالات جسمانية بل ستوجد أشياء روحانية مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال تعالى ايضاً «في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب » وما شاكلها من أوصاف الامور الجسمانية

وتارة وصفها باوصاف روحانية على قدر فهم المتوسطين مثل قوله تعالى « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » وقال « فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال «فيها ماتشتهي الانفس وتلذ الاعين » وقال « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » وماشاكلها من الاوصاف الروحانية التى لاتليق بالاجسام الطبيعية، وتارة وصفها باوصاف هي بين الروحانية والجسمانية مثل قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات »

اما ترى يا أخي أنه قال مثل الجنة على سبيل التشبيه والتمثيل ليقرب من الفهم تصورها لانه يقصر الوصف عنها بحقائقها وانما خاطب كل طائفة من الناس بحسب عقولهم ومراتبهم فى المعارف والفهوم لان دعوة الانبياء عليهم السلام عموم للخاص والعام جميعا ومن بينهما من طبقات الناس وقد صرح المسيح عليه السلام فى وصف الجنان ونعيم اهلها باوصاف غير جسمانية فقال للحواريين في وصية لهم اذا فعلتم مافعلت وما قلت لكم تكونون معي غداً فى ملكوت السماء عند أبي وأبيكم

وترون ملائكته حول عرشه يسبحون بحمده ويقدسونه وانتم هناك ملتذون بجميع اللذات بلا اكل ولا شرب وانما صرح المسيح عليه السلام ولم يرمز لان خطابه كان مع قوم قد هذبتهم التوراة وكتب الانبياء عليهم السلام وكتب الحكماء أيضاً وكانوا غير محتاجين الى الاشارات والتنبيهات بل كانوا متهيئين لصورها مستعدين لقبولها

فاما سيد الانبياء وخاتم المرسلين صلى الله عليه وآله اتفق مبعثه في قوم أميين من أهل البوادى غير مرتاضين بالعلوم ولا مقرين بالبعث والنشور ولا عارفين بنعيم ملكوت الدنيا فضلا عن معرفة نعيم أهل السموات الذين هم ملكوت الافلاك والآخرة وأهل الجنان فجعل أكثر صفة الجنان فى كتابه جسمانية ليقربها من فهم القوم ويسهل تصورها عليهم وترغب نفوسهم بها ونحن قد جعلنا بحثنا عن اسرار الكتب الالهية وبينا في أكثر رسائلنا معنى أسرار التنزيلات النبوية وكشفنا عن أكثر الرموزات والاشارات وعن الموضوعات الناموسية

وذلك لان خطابنا لا يكون الا مع أقوام علماء فضلاء مارسوا اخوان الصفاء ورسخوا في العلم وارتاضوا بالرياضيات الحكمية المقرونة باسرار الكتب الالهية واشارات الانبياء عليهم السلام

فان كنت أيها الأخ واحداً منهم فهلم الى صحبة اخوان لك فضلاء واصدقاء كرماء علومهم حكمية وآدابهم نبوية وسيرتهم ملكية ولذاتهم روحانية وهممهم الهية وأترك صحبة اخوان الشياطين الذين لا يريدونك الا لجر منفعة الاجساد أو لدفع المضرة عنها وكن يا أخى من المؤمنين الذين بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى تكون من الذين أشار اليهم بقوله:

« ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » وتكون من الذين مدحهم الله تعالى بقوله « الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين »

واذ قد فرغنا من ذكر اللذات والآلام الجسمانية التى تجدها النفس بمفارقتها

الجسد وما تجدها بمجردها وهي مع الجسد فنريد أن نذكر ماتجده بعد المفارقة من اللذة والآلام التي هي جزاؤها وثوابها على ماعملت من شر وعرفان وانكار المعبر عنه في الشريعة النبوية بالثواب والجزاء والعذاب الأليم

فصل

في كيفية وصول الآلام الى النفوس الشريرة بعد مفارقة أجسادها وكيف تكون من جنود ابليس وحزب الشياطين

فنقول اعلم ان الانسان العاقل اذا سمع أوامر الناموس ونواهيه ووعيده وزواجره ثم لم يأتمر بحدوده ولم ينقاد لاحكامه، أو سمع العلوم الحكمية فلم يقم بواجبها ، ثم أهمل أمر نفسه وأعرض عن النظر في مصالحها بعد مفارقتها الجسد بل جعل أكثر عنايته في اصلاح شأن هذا الجسد واهتمامه في تربيته واشتغل الليل والنهار بما يصلح الجسد من المأكولات والمشروبات والملبس والمركب والمسكن وجمع المال والأثاث وزينة الدنيا واستغرق في الشهوات الجسمانية وغاص في اللذات الجرمانية لايفكر في غيرها ولايهمه سواها وتمنى الخلود في الدنيا مع انه يتيقن بانه لايترك هاهنا وأفنى عمره كله ساهياً ولاهياً الى الممات

ثم جاءته سكرة الموت بالحق التي هي مفارقة النفس الجسد على كره منها واجبار منها وتلك شربة لا بد من شربها لكل من دخل في عالم الاجساد والاجسام الطبيعية الهيولانية وبقيت عند ذلك نفسه بلا جسد وقد سلبت آلات الحواس التي كانت تنال بها اللذات الجسمانية وقد اعتادتها بطول الدربة فيها فانطبع في همتها النزول اليها ولا وصول لها الا بهذا الجسد وأعضائه وقد منعت ذلك لكون مثلها عند ذلك كمثل من سلت عيناه وصمت أذناه وشلت يداه وقطعت رجلاه وخرس لسانه وشدت منخراه وعمي قلبه وفارقته أحبابه وجفاه أصدقاؤه وتركه اخوانه وهجره جيرانه وظفر به اعداؤه وشمت به حساده وما بقي معه الا الروح في الجسد معذباً فلا هو حي يلذ بالعيش ولاميت يستريح

من العذاب كما قال تعالى « لا يموت فيها ولا يحيى » فتبقى تلك النفوس عندذلك تائهة هائمة بهمومها فى طلب ماقد فاتها بما اعتادته من لذات هـذه المحسوسات وقد منعت الوصول اليها والعود فعندذلك تتمنى وتقول بهمتها ياليتنانرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ياليتني كنت ترابا فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ثم يقول الله سبحانه ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه فعند ذلك تبقى بحسرتها وندامتها متألمة، بذاتها معذبة من سوء عاداتها، عمياء في جهالاتها دون فلك القمر سائحة فى نعر الاجسام المدلهمة غريقة في بحر الهيولى هائمة هاوية في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الامم الخالية اخوان الشياطين وجنود ابليس أجمعين كما ذكر الله تعالى « كلما دخلت أمة لعنت أختها » الى آخر الآية وهم متعلقون بابناء جنسها من النفوس المتجسدة بالوسوسة لها الى مافي طباعها من شهوات هذه اللذات المحسوسات ضالين مضلين في جهنم خالدين كما ذكر الله تعالى « فكبكبوا فيها هم والغاوون » وذلك هو العقاب والعذاب الأليم والجزاء للنفوس الشريرة الجاهلة والغافلة عن الحقائق والعلوم الشرعية

﴿ فصل ﴾

ماهية الشياطين وجنود ابليس اجمعين

اعلم ان النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كما بينا في رسالة صفات المؤمنين المحققين ورسالة البعث كذلك النفس المتجسدة الشريرة هى شياطين بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل

فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها الى الفعل كما قال تعالى « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً » فشياطين الانس هي النفوس المتجسدة الشريرة آنست بالاجساد وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الابصار ،

ومثل وسوسة هذه النفوس المفارقة لهذه النفوس المتجسدة كمثل من قويت شهوته للطعام والشراب وضعفت حرارته الهاضمة عن نضجها فهو يشتهي ولا يستمريء فعند ذلك تكون همته أن يرى الطعام والآكلين لينظر اليهم فيستريح عنها لضعف الآلة وبطلان فعل القوة ، وكمثل من ضعفت آلة جماعه لايقوم عليه فهمته أن يرى الفاعلين لعله يقوي طبيعته وينهض آلته

وهذه حكم النفوس المفارقة ليست لها آلة تنال بها اللذات المحسوسة فهي تحب وتوسوس الى أبناء جنسها ممن لها تلك الآلة على الفعل

فهكذا وسوسة النفوس الشريرة المبغضة اذا فارقت أجسادها تعلقت بأبناء جنسها من النفوس المتجسدة المبغضة الشريرة بالوسوسة لها الى القتال والخصومات والعداوات والى هذه النفوس أشار بقوله تعالى «من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس »

فهكذا حكم أبناء الدنيا يا أخي الجاهلين بأمر المعاد المشتغلين بالاجساد الغافلين عما بعد الموت المنتظرين الى يوم الوقت المعلوم كما ذكر الله تعالى « ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » كما بينا في رسالة البعث والقيامة فاطلب من هناك

واذ قد فرغنا من ذكر الآلام الروحانية التى تصل الى النفوس الشريرة بعد مفارقتها أجسادها التى كانت جنة لها فنريد أن نذكر اللذات الروحانية التى تجدها النفوس الخيرة الفاضلة بعد مفارقتها أجسادها التى كانت كالسجن لها كما بينا في رسالة كراهية الحياة والموت

ثم اعلم يا أخي أن اللذة والراحة والسرور والفرح والنعيم التى تجدها النفوس الخيرة الفاضلة الملكية بعد مفارقتها والجسد المعبر عنها فى الشريعة بالثواب والجزاء يقصر الوصف بحقائقها ولا يبلغ البشر كنه معرفتها لانها روحانية أبدية سرمدية قال تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا

يعملون » وقال عليه السلام فيها من اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الروح والريحان

ولكن نذكر منها طرفاً ونشير اليها اشارة وهمية حسب ما جرت عادة الاخوان الاصدقاء في ذلك ونضرب لذلك مثلا شبه الرموز والاشارة والتنبيه كيما يقرب من فهم المتفكرين ويتصور في أفكار المريدين فنقول

اعلم أنه كان في الازمان الماضية فتى من أولاد الملوك شابا ظريفا حسن الوجه كامل البنية تام الصورة جميل الاخلاق كريم الافعال عادل السيرة عشق جارية حسناء من أقاربه من بنات الملوك فتزوجها وزفها كما يليق بأولاد الملوك من الكرامات وعاش معها زماناً طويلا في عز سلطانه ونعيم مملكته ولذة شبابه وسرور نعمته آمنين هادئين بلا تنغيص من عوارض الحدثان

ثم فرق الدهر بينهما بموتها وزال الفتى عن ملكه بغلبة عدو ظهر عليه واغترب عن بلاده وساح في الارض على حالة الغرباء وافتقر وأصابه الذل والهرم وضعف بدنه وذهبت قوته وكل بصره وثقل سمعه وأصابه العرى والجوع والعطش وتمنى الموت مما هو فيه من المحنة والبلوى والجهد والشدة فدخل خربة ونام فيها على مزبلة ورماد يستريح بلين وطائها فوجد راحة فنام فرأى في منامه كأنه شاب طري كهيئة ما كان عليه في صباه وقد رجعت اليه قوة بدنه ونشاط نفسه وأيام شبابه وكأنه على سرير في ملكه وعز سلطانه ونعيم أثاثه وسرور أيامه اذ هو بتلك الجارية كهيئتها يوم عشقها وزمان تزوجها بحسنها وجمالها فعانقها والتزمها شهوة ونال منها شهوته كما كان يدرك بدءاً وهما على سرير الملك يحملهما الريح حيث أرادا فمن شدة ما وجد من اللذة والفرح اضطرب من نومه وتحرك وانتبه فاذا هو في تلك الخربة وفي تلك المزبلة وكلاب حوله تنبح عليه

فماذا ترى أيها الاخ كم بين حال نفسه في ذلك المنام وما وجد من اللذة

والسرور والفرح وبين حالتها لما استيقظت من الغموم والاحزان والشدائد والبلوى والجهد

فهكذا القياس بين حال النفوس الخيرة وكونها مع الاجساد وبين كونها مفارقة للاجساد من اللذة والفرح والسرور وبالاضافة الى حالها مع الاجساد وما يلحقها من الهموم والغموم والاحزان والمصائب والشدائد نجانا الله واياك وجميع اخواننا من ألم نيران جهنم عالم الكون والفساد وأوصلك وايانا الى نعيم الجنان عالم الارواح والافلاك من ملكوت السماء وجوار الملائكة المقربين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

(تمت رسالة الآلام واللذات ويتلوها رسالة في بيان علل اختلاف اللذات)

الرسالة السابعة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

فى علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات

وهى الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

فصل

اعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه انه لما فرغنا من ذكر اللذات والآلام الجسمانية والروحانية وذكر علة كراهية الحيوان للموت نريد أن نذكر في هذه الرسالة التى في آخر الطبيعيات بيان اختلاف علل اللغات فنقول :

ان معرفة علل اختلاف اللغات والكلام والاصوات ورسوم الخطوط والكتابات وكيفية مبادىء المذاهب واعتقادات الآراء والديانات وأصل تكوينها ومبدئها وظهورها ومنشئها وتزيينها ونموها وكثرتها واختلاف أهلها فيها وآرائهم ومناهجهم ودثور قوم وكون آخرين منهم قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة لاتكون الا بعد البيان والايضاح عن الاصل الذي تفرعت عنه هذه الامور التى ذكرناها والاخبار عن كيفية تركيبها وتحليلها وحركتها في مبدئها وكونها بذاتها وعن اختلاف مجاريها وينبوعاتها في سائر الاجسام وشدة بيانها عن الحواس

وسريانها في الاجناس واثارتها للحواس وصفة حدوثها بسرعة وانتقال وخروجها بحركة واتصال وذهابها بعدم واضمحلال وكيفية وجودها في عالم الانسان وكيف كانت فيه في مبدئها وكيفيتها فيما دونه من الحيوان وغير الحيوان ، تؤديها الى حاسة السمع من جملتها ومن يحملها وكيفية حملها وما السبب الموصل لها الى الحاسة المتحققة بها ولم يدركها من الحواس غير هذه الحاسة وما العلة في ذلك وكيف يعرف الانسان بخاصة هذه الحاسة مفهومها وغير مفهومها بالبرهان

وهذه أمور غامضة نحتاج فيها الى بحث دقيق والاخبار بها من غايات الاسرار ونريد أن نذكر منها في هذه الرسالة طرفاً بحسب التوفيق ليكون مدخلا الى علم ذلك ومقدمة بين يديه ليسهل الباقي ويكون بأوجز قول يؤدي الى الفهم وأوضح دليل يسهل به العلم من غير تطويل يشتبه على قارئه ولا اسهاب يضجر راويه ونبدأ من ذلك في ذكر الاصل والعلم في مبادئه فنقول :

اعلم ان هيولى الحكمة تتحد من ارادة الهيئة لانها هيولى قابلة لجميع الاشياء وهي مادة سماوية وقوة فلكية وأسباب علوية وقوة عقلية متصلة بجواهر روحانية وأشخاص نفسانية ، ترتبط بأفلاك دائرة وتتصل بكواكب سائرة وتشرق على نجوم طالعة وتضيء بأنوار ساطعة وترمي الى ما دونها أنوارها وتودع المصطفين في الاشخاص الانسانية أسرارها وتجعل فيهم ودائع الخيرات وتجعلهم مفاتيح البركات وذلك بما يتخالف اليها ويتعاقب عليها من اتصال وافتراق واختلاف واتفاق من غير خلل في نظام الابتداء ولا تنقص عن تمام البلوغ والانتهاء وان تلك المادة الفاعلة لجميع المكونات لا تدرك الا بلطائف الحواس ولا يبلغ تناولها الا بالالتماس وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو السبب الذي لا تنقضي عجائب مادته ولا تفنى مواد كميته فنقول :

اعلم يا أخي ان المعرفة لها والعلم بها درجة صعبة الارتقاء ومسافة بعيدة الانتهاء وهي درجة العارفين ومقام المستبصرين الناظرين الى آثارها العارفين

بأخبارها من طريق العناية عن الحواس الحيوانية والطريق الجرمانية اذ كانت آثارها روحانية ومواردها نفسانية وعنها صدرت القوة المتصلة بالحكماء وهي روح القدس النازلة على الانبياء عليهم السلام بالوحي من السماء وعليها معول العلماء وربما وردت أشياء كثيرة الاختلاف بعيدة الائتلاف متباينة القوانين مختلفة الموازين

وذلك ان ما كان منها في هذا المكان الارضي والمركز السفلي تضعف الحواس عن ادراك معرفتها وتعجز المشاعر البشرية التي هي من أسباب الهيولى عن بلوغ ادراكها. فاذا كانت الاشياء على هذا المثال منشؤها وبهذا الترتيب مبدؤها وكانت القوة التي هي مادة المعرفة بالحس في العالم الانسي وسبب القبول في الجسم المجبول يعجزان عن البلوغ ويضعفان عن الوصول وكانت مدة الزمانية التي هي سبب الحياة الانسانية تقصر عن الطلب وتفنى قبل بلوغ الارب وتضيق عن الاحاطة بمعرفة ذلك السبب

واذا كان الامر على ما وصفنا كان أول ما قصده العاقل وتوخاه واعتمد عليه الفاضل وتحراه معرفة ما طاوعه عليه حسه وساعده على قبوله جوهر نفسه وتلقاه أيام مدته وأعمل فيه فكرته زادت فيه بصيرته فمن لاحس فيه لامعرفة له ومن لامعرفة له لاجوهر له ومن لاجوهر له لابلوغ له ومن لابلوغ له لامقر له ومن لامقر له لاوجود له ومن لاوجود له فهو العدم

فصل

ثم اعلم ان الغرض من اتحاد المركبات كلها هو معرفة السبب الموجب لذاتها المنشىء لمباديها المؤلف لكيفياتها وكيف كان منشأ الابتداء والى أين تؤول العاقبة في الانتهاء وكيف كان التئام التأليف واتفاق اللطيف بالكثيف وازدواج التركيب وكيف يكون افتراق المجتمع وانفراد المزدوج وانحلال المنعقد واتحاد منفردها ، وعدم وجودها، ونفاد اجزائها بعد صحة وجودها ، وسلامة معهودها ووثاقة معقودها ، فاذا أنت علمته وتصورته وتبينته وتأملته بان لك اذا ساعدك

عليه حسك وأوصلك الى معرفة قبول جوهرة نفسك وتأملته تأمل التحقيق وبان لك كيفية التأليف والتركيب واقتران اللطيف بالكثيف الذين بهما وبصحة معرفتهما، وجود مادتهما واحداهما مادة ارضية وقوة جسمية والاخرى صورة روحانية وشهوة ملكية فيالها من قصة عجيبة ظريفة من اجتماع ما علا مع ما دنا وارتباط مالطف بما كثف، حارت في ذلك عقول الحكماء وتاهت فيه اذهان العقلاء وانسدت الطرقات وانطمست العلامات وتعذرت الدلالات إذ كان من المنكر فى هذا العالم على من له حكمة ونظر أن يقرن العالم بالجاهل وأن يجمع بين الجوهر والحجر فى مقر واحد اللهم ألا يكون أراد تعذيب العالم بالجاهل جزاء له بذنب عمله وجرم قدمه أو مقارنة الجوهر بالحجر وكونهما فى مكان واحد ليكون الحجر ستراً على الجوهر وواقياً له وغطاء عليه وحجابا بين يديه لا أن يكون العالم والجاهل عنده فى مقام واحد.

وكذلك الحجر والجوهر اذا كانا فى مقام من جهة الصورة الجسمانية والهيولى الجرمانية منعكسان فى فىء الهيولى فانهما لا يعرفان ما تحدبهما بفيء الظل والجوهر من المواد المضيئة والرتب العلوية، أعنى العالم، والحجر عدم ذلك فليس يقال بانه عالم

ولما كان ذلك كذلك زالت الشبهة والانكار لوجود معرفة ذلك السبب الموجب الاجتماع ووجب للطالب اذا طلب معرفة ذلك السبب ومن بعد وجود اجتماعها حصول افتراقهما ووجود أحدهما بجملة وعدم الآخر وتفرقته واذا عرفت ذلك بان لك الفرق بين الجسم والعرض وادركت المراد والغرض وسأبين من ذلك طرفا يعينك على ذلك ويبلغك الى معرفة ما وصفت لك. إذ قد فرغنا من ذلك رجعنا الى الابانة عن تركيب الاصوات واختلاف اللغات ومبادىء الخطوط والكتابات والالفاظ والعبارات واستخراج الحروف والمؤلفات ومن أين تخرجت وعمن أحدثت وفى أى مكان وجدت والله ولى التوفيق

فصل

ثم اعلم انه لما سرت القوة النفسانية في الجسم الذي هو العالم باسره بعد كونها لاسريان لها ساكنة في حظيرة القدس في روضة الانس حيث سريان القوة العلوية فيها واشراقها عليها وكونها مرتبة بحيث رتبها باريها كما قال تعالى «ولقد علمتم النشأة الاولى» وهي السكون في وقت الابتداء فلما امتلأت من الفضائل والخيرات وما بلغ اليها من الافاضة وكانت ذات فكر وتخيل فتفكرت ثم تخيلت ثم نظرت فارادت أن تكون ذا منة وتفضل وان تكون رياسة ونفاسة وان تكون مفيدة فبدا لها في ذلك التخيل الذي تخيلته والمثال الذي مثلته وانبث السريان فيه والارتباط به من جسم العالم ومكنها الله تعالى من ذلك وجعله جسداً لها واراها خلاف ماظنته فلما دارت أفلاكه وسارت أملاكه وزهرت كواكبه وبدت عجائبه اقبلت تمثل فيه ما كان ممثلا فيها وتخرجه من القوة الى الفعل ومن المعقول الى المحسوس الشيء بعد الشيء ثم أن جميع الموجودات وسائر المصنوعات لما بدت ووجدت في العالم وقع الاختلاف فيها والسؤال عنها من جهة ثلاثة أنواع يحصرها جنس واحد فأول ذلك الترتيب الاول المرتب كان في النفس أولا بالقوة والامور العقلية المعقولة وهي صورة أعياز بسائط المركبات والموجودات بالترتيب والثاني هي الامور المحسوسة ثم البرهان يقتضي علتها ويبين معانيها ويعرف الناظر فيها والسائل عنها معرفة كيفيتها معقولة في غاية التجرد النفساني وكونها بعدها محسوسة في العالم الجسماني

فاما تفصيل ذلك فنقول أما الصورة العقلية فهي آثار العقل الكلي في النفس الكلي لقبولها منه وكونها بالقرب منه وهي أنوار مضيئة تخرج عن حد الوصف بالعبارة الجسمانية من حيث التركيب اذ كانت في غاية البساطة والتجريد الى الامور المحسوسة فهي صورة في الهيولى تدركها الحواس بالمباشرة لها وتنفعل عنها بخاصة القوة فيها

وأما الامور المبرهنة فهي أشياء لاتدرك الا بمواد العلم وصحة العقل وهي

أمور يكون مبدؤها من أمور الاهية وأشخاص ملكية تضطر العقول الى الاقرار بها والاذعان لصحتها والتمسك بمعرفتها كما بين فى كتب الهندسة وصحة الدليل على ما قد قال أهلها ان اشكال الاشياء لايحاط باطرافها ولاتدرك أقدارها ولا ترى أقطارها ولا يمكن رؤيتها الا مدورة بأي شكل شكلت وأي مثال مثلت كما قال أقليدس فى كتابه ان مقدار ظل أي نهاية، جسما كان أو سطحاً أو خطاً فأنه يمكن أن يوجد منه دائماً ولا يفنى أبداً فهذه حكمة لا تدركها الحواس ولا تتصورها الاوهام البتة من غير تعريف

وقد تكلم اقليدس أيضاً في مقدمات كتابه عن البرهان وقال ان البرهان مقدمات الحجة على تحقيق الخبر

فأما التمام فهو العلم بالمعلوم بجميع ما ذكرنا، قال اقليدس وانما النقطة هى التى لا جزء لها والخط هو طول بلا عرض وطرفا الخط نقطتان والخط المستقيم هو الموضوع في مقابلة كل واحدة من نقطتي طرفيه على سمت واحد فهذا يدل على ان النقطة وهمية لا تتحقق الا بالبرهان ولا تعرف الا بالخبرة فقد تبين اذا ان الامور المبرهنة لا تدركها الحواس ولا تتصورها الاوهام ولكن البرهان الضروري والحجة القاطعة يضطران العقل الى الاقرار بهما لان البرهان ميزان العقل كما ان الكيل والوزن والذرع ميزان الحواس فاعرف ما ذكرنا وتحقق ما وصفنا وأدم فيه فكرك واعمل رويتك فانك بذلك تنال غرضك فتبلغ مرادك وطلبتك

﴿ فصل ﴾

(في معرفة الاصوات الفلكية)

فنقول اعلم أن الاصوات هي الاعراض الحادثة من الجواهر والجواهر جنسان فما علا ولطف قيل جواهر علوية ومادنا وكثف قيل جواهر سفلية وأصوات هي اعراض لايكون حدوثها الا عن الجواهر وحدوثها لايكون الامن

محرك يحركها تارة يطن الصوت ويتصل بسمع الحاضرين وتارة يسكنها فيسكن الصوت .

ولما كان ذلك كذلك وضح البرهان على أن أصل الحركة هو النفس وان الصوت منفعل من حركتها وسريان قواها في الاجسام

ولما كانت الافلاك دائرات والكواكب والنجوم متحركات وجب أن يكون لها أصوات ونغمات

ولما كانت مستوية في نظامها محفوظة عليها صورة تمامها وكمالها وجب أن تكون حركاتها منفصلة واصواتها متصلة وأقسامها معتدلة ونغماتها لذيذة وألحانها بديعة ومقالتها تسبيحاً وتقديساً وتكبيراً وتهليلا تفرح بها نفوس المستمعين لها والحافين بها من الملائكة والنفوس التي تقدم عليها وتصعد اليها وتلك الحركات والاصوات هي مكيال الدهور والازمان التي بها يحكم على عالمها بالبقاء من حيث هي كما ان الاصوات اللذيذة والألحان المطربة والنغمات الحسنة في عالم الابدان تفرح بها نفوس السامعين لها وتحن الى استماع ما كان لذيذاً منها وتسر بقربها وتسلى عنها الغموم وينجلي عنها الهموم ويكون منها سكونات فاصلة بين تلك النغمات والحركات فتصير عند ذلك مكيالا للزمان وذرعا له ومحاكية لحركات الاشخاص الفلكية والاصوات الملكية ومناسبة لها وتلك هي الأصل في جميعها وهذه فروعها وقد استمعتها النفوس وهي في عالم الكون والفساد فتذكرت بها عالم الافلاك ولذات النفوس التي هناك من فسحة الجنان وروضة الريحان ، وعلمت انها في أحسن الاحوال وأطيب اللذات وأتم الاشكال وأدوم السرور لان تلك النغمات والاصوات هي اضعاف هذه الالحان وهي أطيب لان تلك أحسن ترتيبا وأصح تأليفا وأجود هنداما وأقوم نظاما وأصفى جوهراً ومناسبات حركاتها أصح تأليفا

فاذا تخيلت النفوس الجزئية التي في عالم الكون والفساد ما في عالم الافلاك

وتيقنت حقيقة ماوصفنا تشوقت عند ذلك الى الصعود الى هناك والحاق بأبناء جنسها والوصول الى حظيرة الفلك وروضة الانس

ولما بان لنا أن الفلك طبيعة خامسة وانها ليست بمخالفة لهذه الاجسام التي دون فلك القمر في كل الصفات وذلك ان منها ماهو مضيء كالنار وهي الكواكب ومنها صقيل الوجه كوجه المرآة وهو جرم القمر ومنها مايقبل النور والظلمة مثل الهواء وهو فلك القمر وفلك عطارد وهذه كلها أوصاف الاجسام الطبيعية تشاركها الاجسام الفلكية فقد بان بأن الفلك وان كان طبيعة خامسة فليس بمخالف للاجسام الطبيعية في كل الصفات بل في بعض دون بعض وذلك انه ليس بحار ولا بارد ولا رطب ولا يابس بل هو صلب أشد صلابة من الياقوت وأشف من البلور وأصقل من المرآة وانه يماس بعضه بعضاً ويصطك ويحتك ويطن كما يطن النحاس ويكون لنغماته وأصواته مناسبات مؤتلفة والحان موزونة كما بينا في رسالة الموسيقى بأكثر من هذا البيان وأقمنا عليه البرهان من صناعة العود وضرب الاوتار وما يستعمله أهل هذه الصناعة من النسبة وهي أصح نسبة تكون وأفضلها لانها نسبة روحانية

فصل

ثم اعلم انه لو لم يكن لحركات أشخاص الافلاك أصوات ونغمات ولا للملائكة كلام ولا تسبيح ولا تقديس فليسوا اذاً أحياء فهم أموات لان الصمت بالموتى أولى وربما احتك بعض الاحجار ببعض فيحدث من بينهما قرع في الهواء ولو كان الفلك ومن فيه بغير كلام ولا صوت ولا نطق لكان مايكون تحته مشاكلا له وكان من يكون ساكنا بغير حركة

ولما كان هذا من الاصل في البداية وجب أن يكون ماتحته مناسباً له لكن هو الاعلى زيادة عليه اذ كان هو الفاعل وهذا المنفعل وايهما الاولى بالنطق والحركة والكلام والتسبيح والتكبير والتقديس والتهليل أهل السماوات والافلاك أم أهل

الارض من عالم الانسان والحيوان والجمادات وايها أولى بالسمع والابصار والاذهان والافكار والخواطر والاذكار والعلم والعقل أهل السماوات أم أهل الارض فأهل السماوات هم المسبحون المستغفرون لمن في الارض لا يفترون عن التسبيح ولا يسكتون عن التقديس بالحان طيبة ونغمات لذيذة ألذ من نغمات العيدان ونقر الاوتار والطنابير ومجاوبة المزامير في الميادين الفسحية والانبوبات القائمة وان تلك النغمات والالحان تذكر تلك النفوس البسيطة التي هناك سرور عالم الارواح ومحل الاشباح التي فوق فلك الافلاك التي جواهرها أشرف وألطف من جواهر عالم الافلاك الذي هو عالم النفوس ودار الحيوان الذي نعيمها كله روح وريحان في درجات الجنان ولذلك صارت النفوس الجزئية التي في عالم الكون والفساد اذا سمعت الاصوات الطيبة والنغمات اللذيذة مثل قراءة الانجيل وتلاوة القرآن والحان الداودية والحان القراء في المجالس تذكرت رسوم الافلاك ومحل السماوات وتشوقت الى ما هناك ولذلك قالت الحكماء ان الموجودات والمعلومات هي التي تحاكي أحوال الموجودات الاولى التي هي علل لها وقولهم أن الاشخاص الفلكية علل وآلات لهذه الاشخاص التي في عالم الكون والفساد وان حركات تلك علة لحركات هذه وحركات هذه تحاكي حركات تلك فواجب أن تكون أصوات هذه ونغماتها تحاكي ما هو علة لها كمحاكات الصبيان أصوات آبائهم وأمهاتهم وحركاتهم في لعبهم فانهم يحاكون أفعال الآباء والامهات

وهكذا التلامذة يحاكون أفعال الاستاذين وأكثر العقلاء والعلماء من الناس يعلمون ان الاشخاص الفلكية وحركاتها المنتظمة وأصواتها الموزونة على النسبة الفاضلة متقدمة الوجود على الحيوانات التي تحت فلك القمر وحركاتها علة لحركات هذه وان عالم النفوس متقدم الوجود على عالم الاجسام كما بينا في رسالة المبادىء العقلية ولما وجد في عالم الكون والفساد حركات وأجسام ذوات أصوات وحيوانات ناطقة

دل على ذلك ان في عالم السماوات أشخاص ناطقات ولطائف متحركة وان لتلك الحركات نغمات متناسبات مفرحة لنفوسها ومشوقة لها الى فوقها كما يوجد في طباع الصبيان اشتياق الى أحوال الآباء والامهات وفى طباع المتعلمين والتلامذة اشتياق الى احوال الاستاذين وفي طباع الجنود والخدم اشتياق الى احوال الملوك والرؤساء. وفي طباع العقلاء والفضلاء اشتياق الى أحوال الملائكة وتشبه بهم كما قيل في حد الفلسفة انها تشبه بالاله بحسب طاقة الانسان

وقد قيل أن فيثاغورث سمع بصفاء جوهره وذكاء قلبه نغمات حركات الافلاك وأصوات حركات الكواكب واستخرج بجودة فكره أصوات نغمات الموسيقى وأوضاع ألحانها المطربة وهو أول من تكلم في هذا العلم وخبر عن هذا السر من الحكماء ثم تيقوماخس وبطليموس واقليدس وغيرهم من الحكماء تصرفوا في ذلك واتقنوا كما ينبغي

وقد ذكرنا في هذا المعنى واستقصينا البيان باقامة الدلالة عليه في رسالة الموسيقى فقد بان بما ذكرنا وتحقق بما وصفنا ان السماوات عامرة بأهلها مسكونة ولسكانها أصوات ونغمات والاصوات والنغمات والحركات التى هي أعراض تحدث من حركات الاجسام الحيوانية وغير الحيوانية انما تظهر وتبرز بحسب بروز تلك الاصوات في ذلك العالم

وهكذا أيضا تتبع هذه الحركات الجزئية تلك الحركات الكلية. وهذه حركات ناقصة وتلك حركات كاملة وهذه حركات فانية وتلك حركات باقية صالحة وتلك الحركات والاصوات والنغمات كلها مفهومة وهذه غير مفهومة وتلك مستوية وهذه غير مستوية

والعلة في ذلك صفاء هيولى تلك وكدر هيولى هذه، وهيولى هذه فانية فاسدة وتلك باقية صالحة وتلك الحركات مكائل الدهور النفسانية، وهذه مكائل الاوقات الزمانية. وهذه مركبة وتلك بسيطة وهذه فيها اختلاف وتغيير وتلك لا اختلاف فيها ولا تغيير والنغمات اللذيذة والاصوات الطيبة في هذا

العالم قليلة الوجود معدومة على الحال الا كثر يتخصص بها الملوك والكبار ويتنافسون فيها ويكثر غير المخصوص بها لشرفها وجلالتها في النفوس

ولذلك صارت النفوس الجزئية اذا سمعت نغمة طيبة وصوتاً حسناتنجذب اليهوتصبو نحوه وتنصت اليه أسماعها لقلته وكثرة أضداده من الاصوات المنكرة وهكذا ميلها الى الصورة الحسنة والاشخاص المليحة لقلتها وكثرة اضدادها فلذلك صارت المستحسنات مرغوبا فيها محبوبة لكثرة التنافس فيها ولقلة وجودها فأما ذلك العلوي فكله روح وريحان ونغمات لذيذة والحان طيبة وصور حسان وهو مسكن الحور والولدان وسرور وخير معرى من الشوائب المنغصة والاخلاق الموحشة

فلذلك قيل انه لا يصل الى هناك الا من حسنت أفعاله وزكت أعماله فيكون ذلك معيناً له على الارتقاء الى هناك واللحاق بذلك العالم الفاضل الشريف الكامل ، ولذلك قيل حسن الصوت زيادة في الرزق ، وقيل سماحة الصوت نصف الزمانية

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم ان من لدن فلك المحيط الى منتهى فلك القمر اصوات مرتفعة وألحان مطربة ونغمات لذيذة ولغات مختلفة وحركات مؤتلفة ناطقة كلها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد فقد بان لك بهذا الوصف معرفة الاصوات الفلكية والحركات السماوية . وسنذكر بعد ذلك الاصوات الارضية والنغمات السفلية

﴿ فصل ﴾

في معرفة اصول الاصوات الارضية

فنقول اعلم ان اصل الاصوات هوما حدث من تصادم الاجرام وحركات الاجسام والصوت قرع يحدث من الهواء اذا صدمت الاجسام بعضها بعضا

فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتا بأى حركة تحركت ولاى جسم صدمت ومن اى شيء كانت وهذه الاصوات تنقسم قسمين حيوانية وغير حيوانية والحيوانية تنقسم اقساما وتتفرق اجناسا على حسب اختلاف الحيوان في اجناسها وتباينها في اصواتها . وسنأتى على بيان ذلك في موضعه ان شاء الله والاصوات التي هي غير حيوانية ايضا تنقسم قسمين وتوجد في نوعين وذلك انها طبيعية وآلية فالطبيعية كصوت الرعد والريح والبرق وكصوت الاجسام التي لاارواح فيها كالجمادات ومثل صوت الحديد والحجر والخشب وما اشبه ذلك. والالية هي الاجسام الصناعية كصوت الطبل والبوق والزمر والوتر والمناقر وجميع هذه طبيعية وآلية لايحدث فيها صوت ولايسمع لها حركة الا من تصادم بعضها ببعض وامتزاج بعضها ببعض فانه لولا ان الزامر ينفخ في الناي والمغنى يحرك الوتر والناقر ينقر الحجر لم يوجد لذلك صوت ولايسمع له حس.

وأما أصوات الرعد فقد قالت الحشوية انه للملك يزجر السحاب ويسوقه ويفرقه يمينا وشمالا وان الملائكة عن يمينه وشماله يسبحون بتسبيحه ويسكتون بسكوته . سبحانك هذا بهتان عظيم فلم يكن عند علماء هذه الطائفة الحشوية أكثر من هذا العمى ببصيرتهم وقلة عقلهم وتمام جهالتهم

وقال غيرهم ممن يدعى معرفة علم الهيئة انه يحدث من تصادم السحاب واصطكاك الغيوم وهذا خطأ لان السحاب جسم منعقد من البخار يتصاعد من الارض لطيفا ثم يتكاثف من التئام بعضه الى بعض وهو جسم لاصوت له

وقال آخرون هو الريح يخرق السحاب والريح اذا خرق السحاب فرقه وقطعه ولم يحدث من بينهما صوت

بقي القول في الصواب وهو ان يطلع البخار بلطافته حتى يتعلق في عنان الهواء وهو على ضربين رطب ويابس فاذا اجتمعا وتكاثفا امتزجا وتعاقدا فعقد البخار الرطب مع البخار اليابس بقوة كثافته وشدة رطوبته ولا يكون له منفذ الا بشدة شديدة فيجتمع بقوته ويخترق الهواء بلطافته فيحدث منه ذلك الصوت

على قدر كثرته وقلته وربما طلب العلو فلم يكن له منفذ فانعكس البخار اليابس فطلب السفل فقدح ناراً أو يحدث منه صوت هائل وهو الذي يسمى الصاعقة كما يحدث من الزق المنفوخ اذا وقع عليه حجر ثقيل من شاهق وشقه وخرج منه الهواء الذي كان فيه دفعة واحدة وحدث منه صوت هائل، وهو الذي يسمى صاعقة يسمعه من بقرب تلك البقعة وربما يتحول ذلك البخار فيصير ريحا يدور في جوف السحاب ويطلب الخروج منه ويسمع له دوي وقرقرة كما يسمع من أجواف الحيوان والانسان من الريح التي تحدث في الجوف من جهة المأكول الذي يحدث فيه

فصل

ثم اعلم انه لولا العناية الالهية والسياسة الربانية ورحمة الله تعالى بخلقه ورأفته بعباده بأن جعل كرة النسيم عالية عن كرة السحاب، مرتفعة بعيدة من الارض بمقدار الحاجة وجعل من شأن السحاب انه اذا انخرق طلب الصعود الى فوق ومن شأن قرع الهواء اذا حدث أن تكون حركته الى فوق، ولولا ذلك لكانت أصوات الرعد ولمعان البرق تضر بمسامع الحيوان وأبصارها ولاهلكتها كما يكون ذلك في بعض الاحايين

وذلك ان السحاب اذ تزاحم ودفع بعضه بعضا حتى ينضغط فينتقل من قرب الارض وتحدث منه الرعود وتنخرق السحب من أسفل فيحدث من ذلك قرع في الهواء وتدافع منحط في الارض فيكون من ذلك صوت هائل يسمى صاعقة وتقتل كثيراً من الحيوان الذي يقرب من ذلك المكان وربما أحرقت بعض الاجسام الرخوة لانها نار لطيفة

وأما الاجسام الصلبة فانها قل ماتفعل فيها وقد ذكرنا طرفا من هذا في رسالة الآثار العلوية ولولا خروجنا عما له قصدنا لشرحنا ذلك شرحا تاما كاملا

ثم اعلم انه كما لايجوز في العقل أن يكون حيوان الا من مماسة أسباب

أو نكاح أجسام كذلك لاتوجد الاصوات الا في الاجسام ولاتصوت الاجسام الا بحركات .

ثم ان الاصوات اعراض حادثة والجواهر أجسام حاملة لها فان زعم زاعم أو اعترض معترض فقال انه قد توجد أصوات في غير اجسام ومن غير حركات الاجسام ، وذلك انه اذا تكلم متكلم في سفح جبل أو صاح في قعر بئر أو نهر اجابه مجيب بمثل كلامه يسمع المتكلم جوابه من غير جسم ولا حركة جسم

وقد يرى أيضاً حيوان يتكون من غير نتاج ولا نكاح مثل دود الخل وسوس التمر وما يتكون من العفونات ومن النداوات وما أشبه ذلك.

فليعلم هذا المعترض وهـذا القائل انه ليس القول كما زعم فانه جاهل بهذه الاشياء وبهذه الاسباب الموجبة لحدوثها منها وكونها عنها فغلط فيما رأى من موجوداتها وكان قليل المعرفة بمعلوماتها وانه لما سمع الصوت من الجبل والبئر ظن بانه اجابه بجوابه ورد عليه بكلامه إما من حيوان لايراه وشيء لايعاينه أوان الجبل نطق بجوابه وقعر البئر رد كلامه فهذا تخيل من لاعقل له ولا معرفة عنده . فالصوت الذي يسمعه انما هو صوته والحركة التي بدت منه في الهواء وذلك انه صاح في سفح الجبل وقعر البئر الى جانب الحائط تخرج من جوف المتكلم شكل كروي ونقش عرضي يأخذه الهوء الى أن يؤديه الى ذلك الموضع فيصادفه مايمنعه من النفوذ والانتشار فيرتد راجعاً فيسمع منه ذلك الصوت وهو الصدى وسنأتي على شرح ذلك كما ينبغي في موضعه

﴿ فصل ﴾

واعلم أن الاصول في أصوات ذوات الأصوات ان معرفتها تكون بمعرفة الطبائع الاربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والاركان الاربعة المعلومة وكيفية استحالة بعضها الى بعض وامتزاج بعضها ببعض في الازمان والاماكن ومايحدث منها في البقاع والمعادن . فمن بحث عن ذلك بفكره ونافذ

بصيرته وجودة تأمله وثاقب نظره علم ان الاركان الاربعة لها جهات أربع من الشرق والغرب والشمال والجنوب.

ولهذه الجهات أوتاد أربعة وهى الطالع والغارب ووتد تحت الارض ووتد وسط السماء. وهذه الاسباب الاربعة ممثلة على حدود أربعة ترجع الى سبب واحد. ولمعرفة هذه الحدود أقوام اذا سألتهم عنها عرفوك واذا تصدتهم أرشدوك فان الكائنات التى هي من استحالة هذه الاركان اربعة انواع :

فمنها حوادث الجو والتغيرات الهوائية والكائنات منها مثل الرياح والامطار والرعد والبرق والثلج والهالات والشهب وذوات الاذناب واحمرار الشفق والنيران الحادثة في الافق

ومنها الكائنات التى فى باطن الارض كالبخار المحتقن هناك والهواء المنحصر وما يحدث من الزلازل والرجفات والخسف والهدأت وما قد احكمته الطبيعة في باطن الارض وأسخنته ببخارها وطبخته بنارها من مائع وجامد وكاين وفاسد مثل معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزيبق والكبريت والنفط والملح والشب والزاج وسائر المعدنيات الذائبة والجامدة وهذا علم معرفة كثيرة الفائدة

وقد ذكرنا طرفا في رسالة المعادن ومنها الكائنات على وجه الارض التى تسمى النامية وهى على ضربين نام بالقوة وهي سائر النبات ونام بالحياة وهو جميع الحيوان وكون جميع الحيوان على ضربين «نتاج وتكوين» فالنتاج من مماسة الاجسام الحيوانية بعضها لبعض

وقد ذكرنا في رسالة الحيوانات المتكون منها بغير مماسة ما هو من امتزاج الطبائع بعضها ببعض وهو النكاح الاول وهو الاصل فاذا امتزجت الطبائع ونكحت بعضها بعضاً نكاحاً طبيعياً أخذت القوة المنفعلة عن القوة الفاعلة بمقدار هيولى ذلك المكان وما في هيئات ذلك الزمان مما يسهل قبوله فيحدث من بينهما حيوان

والدليل على ذلك ان مافيه طبيعة واحدة لايحدث منه حيوان وسائر الاجسام الصلبة لايوجد فيها حيوان لامتناع الهواء أن يتخللها وكل مكان لايدخله الهواء لايوجد فيه حيوان وانما الهواء يجمع بين قوى الطبائع ويؤلف بينها ويحركها حركة الاختلاط والامتزاج ويكسبها النداوة والعفونة والتحليل والتركيب ويكون الحرارة فيلقح ذلك المكان ويقبل العفونة من الهواء ، فتتحد الطبيعة بالطبيعة وتختلط القوتان فيكون البخار الحار اليابس كالذكر والبارد الرطب كالانثى واجتماعهما كالنكاح فيحدث من بينهما حيوان

وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن إذ يقول «وأرسلنا الرياح لواقح» الرياح هاهنا فاعلة والاصل في هذه الكلمة موضوعها في اللغة العربية على ما اجمع عليه النحويون ملاقح فيصير هاهنا على القلب والتبديل ،والعرب تقلب الشيء الى الشيء وتبدل وتقدم اذا كان المعنى مفهوما وكان المخاطب به يفهم من المخاطب والدليل على انها ملاقح قولهم في اللغة لقحت الارض والنخلة فهي لاقحة والجمع لواقح فجعل لفظة الفاعل هاهنا لفظة المفعول على القلب كما قال تعالى ماء دافق وانما هو مدفوق لان الرباعي الذي اسم الفاعل منه مفعل والثلاثي الذى اسم المفعول منه فعيل وقد يكون الفعيل مرة للفاعل ومرة للمفعول والمعنى يدل عليه كقولك قتيل وجريح وصريع اذا أردت المفعول وكريم ورحيم وعليم اذا أردت الفاعل

وكذلك تجدها في حكم الطبيعة ان الرياح هي الملقحة للشجرة وغيرها فقد تبين اذاً كيف يكون ذلك من الممازجة والاختلاط وبطل أن يكون من غير ممازجة وقولنا نكاحا طبيعياً انما هو على المجاز يعنى به امتزاج الطبائع بعضها ببعض فقد أقمنا الدليل على انه لاحيوان الا من نكاح ولاصوت عرضى الا من جوهر ، ثم نرجع الى الاصل في الاصوات

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أن الاصوات على ضربين مفهومة وغير مفهومة فالمفهومة هي الاصوات الحيوانية وغير المفهومة أصوات سائر الاجسام مثل الحجر والمدر وسائر

المعدنيات ، والحيوانات أيضاً على ضربين : منطقية وغير منطقية فغير المنطقية هي أصوات الحيوانات غير الناطقة وهي نغمات تسمى أصواتاً ولا تسمى منطقاً لأن النطق لا يكون الا في صوت يخرج من مخرج يمكن تقطيعه بالحروف التى اذا خرجت عن صفة الحروف أمكن اللسان الصحيح نظمها وترتيبها ووزنها فتخرج مفهومة باللغة المتعارفة بين أهلها فيكون بذلك النطق الامر والنهي والاخذ والاعطاء والبيع والشراء والتوكيل وما شاكل ذلك من الامور المخصوصة بالانسان دون الحيوان فهذا فرق ما بين الصوت والنطق

فأما مخارجها من سائر الحيوان فانها من الرئة الى الصدر ثم الى الحلق ، ثم الى الفم ثم يخرج من الفم شكل على قدر عظم الحيوان وقوة رئته وسعة شدقه وكلما اتسع الحلقوم وانفرج الفكان وعظمت الرئة زاد صوت ذلك الحيوان على قدر قوته وضعفه

وأما الاصوات الحادثة من الحيوان الذي لا رئة له مثل الزنابير والجنادب والصرصر والجدجد وما أشبه ذلك من الحيوانات فانه يستقبل الهواء ناشراً جناحيه فاتحاً فاه ويصدم الهواء فيحدث منه طنين ورنين يشبه صوتا

وأما الحيوان الاخرس كالحيات والديدان وما يجرى هذا المجرى فانها لا رئة له وما لا رئة له لا صوت له

وأما الحيوان الانسى فأصواته على نوعين دالة وغير دالة فأما غير الدالة فهى صوت لا هجاء له ولا يتقطع بحروف متميزة يفهم منها شيء مثل البكاء والضحك والسعال والانين وما أشبه ذلك

وأما الدالة فهي كالكلام والاقاويل التى لها هجاء في أي لغة كانت وبأي لفظ قيلت

وكل هذه الاصوات مفهومها وغير مفهومها ، حيوانها وغير حيوانها ، انما هى قرع يحدث في الهواء من تصادم الاجرام وعصر حلقوم الحيوان . وذلك أن الهواء لشدة لطافته وصفاء جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الاجسام

كلها ويسري فيها ويصل اليها ويحرك بعضها الى بعض فاذا صدم جسم جسما انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروى يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج

وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت قوة ذلك الصوت الى أن يسكن . ومثال ذلك اذا رميت فى الماء الهادىء الواقف في مكان واسع حجراً فيحدث في ذلك الماء دائرة من موضع وقع الحجر فلا تزال تتسع فوق سطح الماء وتتموج الى سائر الجهات وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب

فمن كان حاضراً في ذلك الموضع أو بالقرب منه من الحيوان سمع ذلك الصوت فبلغ ذلك التموج الذي جرى في الهواء الى مسامعه ودخل صماخه وتحرك الهواء المستقر في عمق الاذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج والحركة التي تنتهى الى مؤخر الدماغ

ثم يقف فلا يكون له مخرج فيؤديه الى الدماغ ثم يؤديه الدماغ الى القلب فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته اليه من ذلك الحادث . فان كان صوتاً مفهوماً يدل على معنى توجهت المعرفة بذلك وان كان غير مفهوم فانه لا بد ان يستدل بصفاء جوهره على ذلك الصوت ومن أى جوهر حدث وعن اي حركة عرض وهو يستدل على ذلك من ماهية الصوت وكيفية التموج والقرع والحركة الواصلة الى حاسة السمع

ومثال ذلك طنين الطاس فانه اذا سمعه الانسان قال هذا طنين الطاس حدث من قرع شيء آخر أصابه . أما من جهة حيوان أو حدوث شيء وقع عليه من غير قصد ولا تعمد

وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك فان أصواتها اذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتباين طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة ومثالها فى ذلك مثال أصوات الحيوانات فكلما كان فى نفسه أمثل ورئته أقوى كان صوته أعظم وأبعد مسافة في الهواء لشدة حركته

وكذلك ما كان من الجواهر المعدنية أشد صلابة وأكثر يبوسة كان أرفع طنيناً وأشد تصويتاً فاذا اتفق ان يكون مصنوعاً لذلك والقصد منه التصويت والطنين مثل الجلاجل والطرجهارات للحصون التي تستعمل على الاسوار والثغور فان أصواتها وطنينها يمكث في الهواء على قدر اتساع تلك الاواني وضيقها وصوت النحاس خفيف صاف ليبسه وصلابته وقوة الحرارة فيه ولا يمكن أن تتخذ من الرصاص آلة الطنين والتصويت كما يتخذ من النحاس. والحديد اذا خالط النحاس كان له أيضاً تصويت وطنين والذهب له صوت يختص به يشابه طبيعته وله طنين يسير وهو معتدل الحرارة لين الطبيعة قد تساوت فيه أجزاء طبائعه والفضة دون ذلك وهي أشف من الذهب وأحسن صوتاً منه اذا نقرت . كذلك الرصاص لا صوت له كصوت النحاس والحديد وذلك لغلبة الاجزاء الارضية عليه وكثافة جسمه وصوته يشاكل صوت الحجر وما بينهما. وعلى هذا المثال وجد منطق الانسان على الاعتدال لا بالجهير الخارج عن الحد كصوت الاسد وصهيل الفرس ونهيق الحمار وما شاكل ذلك ولا صامت كصموت السمك ولا خفيف كخفوت أصوات كثير من الحيوانات لكنه متوسط بين ذلك

ومن أراد ان يكون له صوت طويل يمكث في الهواء فليتعمد ذلك ويجتهد في جمع الهواء حتى يكون ارساله بحسب ما اجتمع فيه فيدرك بذلك ما يريد وان تأذى وتألم وانما كان صوته متوسطا لتوسط طبائعه واعتدالها مثل ما اعتدلت طبيعة الذهب وكان أشرف الجواهر الذائبة بالنار

وكذلك الانسان أشرف الحيوانات المتحركة بالحياة. وللنبات أصوات. منها ما كان أشد صلابة وأكثر اجتماعاً ولا طبيعة لها كبقية الاصوات اذا قرع انقرع كالساج والابنوس وما شاكلها . وما كان يتخلل جسمه ضعيف الحرارة كخشب التين والجميز وما شاكل ذلك يكون أضعف صوتا اذا قرع وتحرك

بجسم يحدث في الهواء من قوة حركة المحرك وكون ذلك الصوت عن المصوت وما هو مجبول عليه من طبيعته . وبحسب قوته يكون اتصال ذلك الحادث فى الهواء بمسامع الحيوان من الانسان وغيره فالانسان اذا سمع صوت الخشب والحديد والماء والريح امكنه ان يخبر عن صوت كل واحد منها وينسبه الى ماحدث عنه وخرج منه . والحيوان لايعرف ذلك ولا يمكنه ان يعبر عنه ويفصل كما عبر الانسان بقوة النطق والبيان عما سمع . وبهذا فضل الانسان على غيره من الحيوان. وكذلك يجرى حاله فى حاسة السمع فانه من جهة الهواء يتصل به ذلك ويخبر عن كل رائحة بما هي به وينسبها الى الذى فاحت منه وكذلك يخبر عن حاسة اللمس اذا لمست الاجسام وعرفت الحاسة ما كان رطبا ويابسا وحارا وباردا ولينا وخشنا وما شاكل ذلك

واما حاسة البصر فانما تحتاج في معرفة محسوساتها الى حواس أخر لأنها ربما كذبتها محسوساتها مثل ما ترى الكبير صغيراً لبعد ما بينها وبينه من المسافة والصغير كبيراً في الأرض الواسعة والمستوى معوجاً كالمجذاف فى الماء وما شاكل ذلك

فصل

ثم اعلم أن منتهى كل حاسة الى القلب مقرها ، وعنده مؤئلها ولكل حاسة محسوسة مختصة بها، مجعولة لها ، لا تتعداها ولا تتعرض لسواها فالبصر مختص بالنظر والاذن مختصة بالسمع والفم مختص بالذوق والانف مختص بالشم وكل حاسة من هذه الحواس تؤدي محسوساتها الى القلب ويفهم منها حاسة القلب ثم ان قوة حاسة القلب اذا أدركت من الحواس شيئاً وقبلته منها أدته الى العقل ليدركه

ولو لا قوة حاسة القلب لبطلت هذه الحواس كما أن الاكمه الذي يولد كذلك لا يمكنه أن يتصور السماء ولا موضعها من الجهات لانه لم ير جهة فتؤديها

الحاسة الناظرة الى حاسة القلب المناسبة لها لأن حاسة البصر تؤدي آثار محسوساتها الى قوة عاقلة مناسبة لها حافظة لما يؤدى اليها ولذلك قال تعالى « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور » وقد بينا في رسالة الحاس والمحسوس شيئاً من هذا بغير هذا الشرح

ثم اعلم ان القلب في الجسد مصور على صورة الانسان ولذلك صار أفضل الاعضاء التى في اجسام الحيوان وذلك ان له بصيرة يبصر بها ما غاب من حاسة النظر من خارج وله مسامع يدرك بها الاصوات ويؤدى الى حاسة السمع ما يدركه بها وله حاسة اللمس فهو يتشوق الى محسوساتها اذا فقدها مثل ما يشتاق العاشق عناق معشوقه والتزامه

وكذلك الاكمه لا يتصور بقلبه صور الاشياء لان حاسة البصر لم تؤد الى الحاسة المختصة بالقلب شيئاً فتبقى تلك الحاسة فارغة معطلة مغلقة الباب لا يطرقها طارق فيكون لها به معرفة . ولكل حاسة من هذه الحواس مدركات بالذات ومدركات بالعرض وهي لا تخطيء في المدركات بالعرض

مثل ذلك البصر فان المبصرات له بالذات هي: الانوار والضياء والظلم

فأما ادراكها الالوان فان ذلك بتوسط النور والضياء. وأما سائر الاجسام وسطوحها وأشكالها وأوضاعها وأبعادها وحركاتها فهي بتوسط الالوان لان كل جسم لا لون له لا يرى ولا يدرك البتة والمحسوسات التى له بالذات لا واسطة بينها وبينه في ادراكها لانه لا يحتاج البصر في ادراك الضياء والنور الى شيء آخر ولا في ادراك الظلمة أيضا وصار بينه وبين النظر الى الالوان واسطة واحدة وهي النور وصار بينه وبين ادراكه كيفية الاجسام وأسبابها النور والالوان ، وكلما كثرت الوسائط بينه وبين النظر كان الخطأ فيها أكثر واحتاجت الحاسة فيه الى دليل آخر يحقق نظرها ويصدق خبرها

من ذلك السراب فانه آخذ من لون الماء بياضه ومن الضياء اشراقه فحار فيه النظر وحال البعد فيما بين النظر وبينه عن الحكم عليه بما هو به فظنه ماء . فلما

جاءه لم يجده شيئاً وكالمجزاف الذى هو غائص في الماء فان البصر لا يدركه الا معوجاً لأنه قد زاد فيما بينه وبينه واسطة أخرى وهي الماء وكذلك مايكون في الماء من الاشياء فان البصر لا يدركها على ما هي به

وكذلك حال الشيء البعيد فان الوسائط بينه وبين البصر كثيرة وهى الضياء والهواء وكلما بعد ازداد في الصغر والتلاشي في البصر الى أن يغيب

وأما حاسة السمع فانها لاتكذب وقلما تخطىء وذلك لانه ليس بينها وبين محسوساتها الا واسطة واحدة وهى الهواء وانما يكون خطؤها بحسب غلظ الهواء ورقته وذلك انه ربما كانت الريح عاصفة والهواء متحركا حركة شديدة فيصوت المصوت في مكان قريب من المسامع فلا يسمع من شدة حركة الهواء وهيجانه فتكون حركة ذلك الصوت يسيرة فى شدة حركة الهواء وهيجانه فيضعف عن الوصول الى الحاسة السامعة

واذا كان الهواء ساكناً وصل ذلك الصوت الى الحاسة اذا كان فى مكان يمكن ان يتصل به ذلك التموج والحركة الحادثة فى الهواء

فأما اذا كانت المسافة بعيدة فانها لاتدركه وتتلاشى تلك الحركة وتنفذ قبل وصولها اليها

وهكذا حاسة الشم فانها تدرك من ذلك بحسب غلظ الهواء ورقته وسكونه وحركته وذلك انه اذا كان الهواء غليظا فانه قل ماتجد الروائح في الجهات وقل ماتسري فيه ، واذا كان صافيا رقيقا والمسافة قريبة فانها تتصل بمشام الحاضرين واذا بعدت تفرقت تلك الروائح فى الجهات ولم يدرك شيء منها ، وأما قبول الهواء للاصوات والروائح فاني أشرحه لك بعون الله

فصل

ثم اعلم أن جميع الجواهر تختلف في أنواعها وتتباين فى عناصرها وتركيبها وكل جوهر هيولاني يكون الطف جوهراً وأشد روحانية وأعم خاصية وانه

يكون لقبول الصورة وحمل الاعراض أسرع انفعالا وأسهل قبولا من غيره

مثال ذلك الماء العذب لما كان الطف جوهراً من الماء المالح وأصفى صار لقبول الطعوم والاصباغ أكثر قبولا . ولابد انه للحيوان أكثر امتزاجا ومخالطة وأكثر نفعاً وصلاحاً وبذلك صار حياة الاجسام ومادة الحيوان والنبات

وهكذا لما كان الضياء الطف من الهواء صار قبوله الألوان والاشكال أسرع انفعالا وأشد روحانية وبساطة والطف سريانا.

وكذلك جوهر النفس الطف وأشد روحانية من جوهر النور والضياء والدليل على ذلك قبوله رسوم سائر المحسوسات والمعقولات جميعها. فلهاتين العلتين صار الانسان يقدر بالقوة المتخيلة أن يتخيل ويتوهم مالا يقدر عليه بالقوى الحاسة لان هذه روحانية وتلك جسمانية ولانها تدرك سائر محسوساتها فى الجواهر الجسمانية من خارج والقوة المتخيلة انما تتخيلها وتتصورها في ذاتها والدليل على ماقلنا أفعال الصناع البشريين

وذلك أن كل صانع يبتديء ويفكر ويتخيل ويتصور في وهمه صورة مصنوعة بلاحاجة الى شيء خارج عنه فاذا أراد اظهار مافي نفسه الى الفعل عمد الى هيولى ما ، في مكان ما، فى زمان ما، فيتصور فيها ما كان متصوراً في ذاته بادوات ما وحركات ما

وذلك ان كل حيوان لايبصر فهو لايتخيل الالوان العرضية والاجسام الجوهرية . وما لاسمع له لايتصور ولايتخيل الاصوات الكلامية ولا يتوهم الالفاظ المنطقية

فأما الانسان الصحيح التركيب السالم الحواس فانه لما كان يفهم الكلام صار يمكنه أن يتخيل المعنى اذا وصفت . و الغرض من الكلام تأدية المعنى وكل كلام لامعنى له فلا فائدة للسامع منه والمتكلم به وكل معنى لايمكن أن يعبر عنه بلفظ مافي لغة ما فلا سبيل الى معرفته وكل حيوان ناطق لايحسن أن يعبر عما فى نفسه فهو كالعدم الزائل والجماد الصامت

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم ان المعاني في الكلام كالارواح، والفاظها أجساد لها، فلا سبيل الى قيام الارواح الا بالاجساد ، والكلام ضربان: مفيد وغير مفيد والفائدة واقعة في الاخبار من جهة المجهول والمجهول هو المخبر عنه والخبر دال وغير دال والخبر هو كل قول جاز تصديق قائله فيه وتكذيبه لغيبته عن العيان أو لمضيه عن الزمان ووصفه انه مسموع من قائله مثل مخبر أن مدينة كذا عامرة بأهلها وان فلاناً الذى مات كان من أمره وصفته كذا فقد جاز لمن يسمعه أن يصدقه وأن يكذبه لغيبة ما ذكره من أمر المدينة عن العيان وغيبة المائت في الزمان

وأيضا فان الاخبار على ثلاثة أقسام اما عن ماض من الزمان او عن غائب عن العيان أو عن موجود فى زمان ومكان وامتحان ذلك بكان ويكون وكائن فكان الزمان ماض ويكون لزمان آت وكائن لما هو موجود في الحال وكل هذه الاقسام تدخلها الموجبة والسالبة والموضوع والمحمول. وهذه أقسام الخبر وهو أيضاً غير خارج من معان ثلاثة واجب وجائز وممتنع فالواجب والممتنع معروفان مستغنيان عن الدلالة على أحوالهما فى الصحة والفساد

مثال ذلك اذا سمع رجل قائلا يقول الارض تحتى والسماء فوقي فانه لا يشك فى صدقه ولا يحتاج الى اقامة دليل على ذلك

وهذا وان كان كلاما مستقيما لا يستغنى عن الدليل على كذبه فانه ما لا يقع منه فائدة ولا فائدة أيضاً في قوله ولا فى سماع ذلك ولا يعد هذا من المتكلم به فضيلة بل ربما من هجو قوله

وكذلك لو سمع قائلا يقول انى قد حملت الجبل وخضت النار ورأيت شجرة على سطح البحر نابتة فانه لا يشك في كذبه وبطلان قوله فهذا القسم الممتنع

وأما الجائز أن يكون صدقا وأن يكون كذبا فهو الذي يجب أن يطلب الدليل عليه والفائدة واقعة فيه وبه يستفيد السامع وعنه يسأل السائل والمعنى الذي به يوصل الى علم الحقيقة ما كان عند الاخبار ممكنا أن يكون صدقاً أو كذباً

وهو ان يكون متيقناً عند من بلغه عنه الكذب والصدق يقيناً ويعلم ان ذلك ثابت بحيث يثبت عليه نظر أهل العقول كمعرفة من أخبر بعمارة المدينة أو حال الميت بما وصف به المخبر عنه فقد صار كذب المخبر منفيا وعند من تقدمت عنه صحته . وكذلك ما حكمت عليه العقول وقضت به البراهين عند العارفين فانهم يعرفون ما غاب كعلم ما حضر وبصير الدليل والبرهان كالمثال لان المثال صورة المخبر عنها المدلول بصفاتها على معنى الخبر فاعلم ذلك

﴿ فصل ﴾

في معرفة أصل الصوت وعن الاجسام التي في الابتداء دون فلك القمر قبل خلق الانسان والحيوان

فنقول معولين على الله تعالى بأنه لما خلق الله السموات بمشيئته واتقنها بصنعته ورتبها بحكمته وجعل الارض بساطاً تحتها وخلق الهواء فسحة فيما بين السماء والارض ثم ارسله يميناً وشمالا على وجه الارض ويسرى على البحار ويحركها ويموجها كان كالارواح السارية في الاجساد فأقام الهواء على تلك الحال والسريان في الجهات الاربع يخالط البحار بالتراب ويمزج الطبائع بعضها ببعض كما ذكر اولا في هذه الرسالة فتحدث بحركته أنواع الاصوات والصفير والطنين ومجاوبة الجبال وأصوات أمواج البحار وهبوب الرياح في الفلوات والقفار فتكونت المعادن في البقاع المخصوصة بكونها فيها وانعقد البخار وارتفعت الانداء وتراكمت الغيوم وارتفعت الى آخر كرة النسيم وتعلقت تحت كرة الزمهرير وعصرها وهيج الاثير واستولت الكواكب المائية فأرسلت الامطار على وجه الارض ولحقها الهواء وسرى عليها وأشرقت الكواكب بأنوارها ولحظتها الشمس وسرت فيها قوة النفس النامية وكان أول ما ابتدأ على وجه الارض بالنمو والزيادة على سطحها صورة النبات وقامت على تلك الحال والارض ليس فيها الا البحار والجبال والنبات والاشجار على ماذكره بعض العلماء ثلاثة آلاف سنة والرياح

تهب عليها والاصوات الهوائية تجيب بعضها بعضاً والنفس سارية في الهواء متصلة بقوة النور والضياء تدبر الامور الجسمانية وتؤلف الطبائع الجرمانية وروحانيات الكواكب متصلة بعالم الهواء فهم سكان الارض قبل آدم عليه السلام فلما تمت هذه المدة المقدرة بهذه الصفة وابتدأ الدور الجديد وأراد الله انشاء النشأة الثانية وابراز الصورة الانسانية خلق آدم وحواء من الطين واسكنهما الجنة الموصوفة وهي الياقوت في ناحية المشرق وكان من امرهما ما كان وقد ذكر هذه القصة من أولها الى آخرها رجل من أهل فارس عالم بحساب النجوم بكتاب بين فيه هذه الامور ولو كان هذا ما قصدنا واياه ما اردنا لذكرنا منه طرفا ولكننا نشير الى بعض ذلك فلما فطر آدم وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكان ظهور آدم وحواء بعد كون الحيوان وعمارة الارض وظهور الاقوات فيها على تمام أجناسها واستيفاء أنواعها وكان ظهور الحيوان بعد ظهور النبات وانبساطه على وجه الارض وعلوه عليها وكان أول بروز النبات بحذاء برج السنبلة وكان في وسط السماء والحيوان بحذاء الثور وآدم وحواء بحذاء الجوزاء من أرض المشرق ولذلك قيل للجوزاء ذات جسدين وكانت البداية من الحمل وقد حل فيه زحل وهو هابط فصار المركز مهيأ من الطين وكان اكثر ه مظلماً وصار ثقيلا رزينا وصارت الجبال راسيات مستقرة وكان أول معدن انعقد في بطن الارض الاسرب ولذلك صارت الارض مقر الثقل ومستقر الكثائف من اجل زحل وكونه في ذلك التقدير بمشيئة الله تعالى فاقام آدم وحواء والحيوان مدة ماذكر في الكتاب من غير مماسة ولا التئام ثم الهم الله تعالى عطارد صاحب المنطق النطق ونطقت حواء وعلم الله آدم الاسماء كلها فصار يعرفها ويلقي على كل جنس وشكل ونوع وشخص من النبات والمعادن والحيوان وجميع المرئيات الاسماء والصفات ثم لم يزالا على ذلك حتى اكلا من الشجرة واهبطا من الجنة الى الارض مسخوطاً عليهما فاقاما في الارض مدة معلومة وكانا مع سائر الحيوانات يأكلان من ثمر الاشجار ويشربان

من ماء العيون والانهار الى أن سلم الحمل الدور الى الثور اذ هو أحد منافع الدنيا وسبب العمارة وهو بيت الزهرة وكانت حسنة الحال مستقيمة في مسيرها صاعدة في أوجها مشرقة أنوارها وكان في هذا الحد اجتماع آدم وحواء ومماستهما فحملت منه وكان ذلك ابتداء النسل وجرى حال الحمل على ماذكرنا في رسالة مسقط النطفة فلما كثرت أولادهما تولى آدم تعليمهم وتأديبهم وتهذيبهم وعلمهم كيفية الحرث والزرع وازدواج الذكور والاناث وعمروا العالم وعاينوا الحيوانات وما تصنعه بعضها ببعض وما يطلب من منافعها فاقتدوا بها في أفعالهم وأيد الله تعالى آدم عليه السلام بوحيه والهامه لما تاب عليه بما يكون له به صلاح ولذريته فلاح وأقام على ذلك مدة ما أراد الله تعالى ، ثم نقله الى رحمته وخلفه من خلفه في ذريته واولاده ولم يزل الامر على ذلك وبنو آدم مع والدهم يتكلمون بالسريانية وقال بعضهم بالنبطية ويفهم بعض عن بعض المعاني وما قصدوا وأرادوا . ووصفوا كل شيء بصفته الا انها لم تكن الحروف مجتمعة بعضها الى بعض ولا مؤلفة بالكتابة وانما كان آدم عليه السلام يعلمهم تلك الاسماء تلقيناً وتعريفا كما يعلم الاشياء ويعرف من لا علم له بالكتابة والهجاء ولذلك يقال لمن لا يكتب ولا يقرأ أمي وكان الخلق يحفظون تلك الاسماء والصفات عن السلف الى أن سلم الدور الثور الى الجوزاء وظهرت الكتابة من أجل انه بيت عطارد وشرف الرأس وهبوط الذنب وصارت الحروف في ذلك أربعة وعشرين حرفا وهي الكتابة اليونانية لانها قسمت لكل برج حرفين فصارت أربعة وعشرين حرفاً فقيدت تلك الالفاظ وكتبت الاسماء بالحروف على لغة أهل ذلك العصر

فانظر أيها الاخ الى هذه الحكمة الصحيحة والصنعة المحكمة المتقنة كيف تأتي بكل شيء في وقته المقدر وزمانه الميسر

وانظر كيف سرت هذه القوى التي هي الاصوات والنغمات أولا في عالم السماوات ثم في حركات الهواء ثم في حركات النبات ثم في اجسام الحيوان ثم في عالم الانسان

فالصوت في الحيوان يسمى بأسماء مختلفة . مثل قول القائل : صهيل الفرس ، ونهيق الحمار ، ونباح الكلب ، وخوار الثور ، وزئير الأسد ، ونعيب الغراب وغير ذلك

وأما الصوت المخصوص به الانسان فانه يقال له كلام ولفظ متكلم كقول القائل فلان يتكلم بالعربية والفارسية والرومية وغير ذلك وسنأتي على شرحه وبيانه ونفرق بين الصوت والكلام

﴿ فصل ﴾

في الفرق بين الصوت والكلام

اعلم يا أخي أن الكلام هو صوت بحروف مقطعة دالة على معاني مفهومة من مخارج مختلفة وأبعد مخارج الحروف أقصى الحلق وهو مما يلي أعلى الصدر والصوت من الجسم في الرئة بيت الهواء كما أن أصل الصوت في العالم الكبير الذي هو بمنزلة انسان كبير الهواء فيما دون فلك القمر والنفس في عالم الافلاك ، ولذلك توجد فى الانسان الذى هو عالم صغير فى الرئة وفى قوة نفسه معانى مايدل عليه الصوت وكذلك الحركات والاصوات التى دون فلك القمر انما هي مثالات ودلالات على تلك الاصوات الفاضلة والحركات المنتظمة وتلك أرواح وهذه أجساد وأصل الاصوات في الرئة هواء يصعد الى أن يصير الى الحلق فيديره اللسان على حسب مخارجه فان خرج على حروف مقطعة مؤلفة عرف معناه وعلم خبره وان خرج على غير حروف لم يفهم كان كالنهاق والرغاء والسعال وماأشبه ذلك فان رده اللسان الى مخرجه المعلوم فى حروف مفهومة يسمى كلاماً ونطقاً بأي لفظة كانت على حسب الموافقة ومساعدة الطبيعة لكل قوم فى اتساع حروفهم وسهولة تصرفهم فى مخارج كلامهم وخفة لغاتهم بحسب مزاج طبائعهم وأهوية بلدانهم وأغذيتهم وما أوجبت لهم دلائل مواليدهم وما تولاهم من الكواكب فى وضع أصل تلك اللغة فى الابتداء الوضعي والمنهاج الشرعي وماتفرع من ذلك الاصل وما ينقسم من ذلك النوع

ثم اعلم أن أصل الاختلاف في اللغات انما هو لما كثرت أولاد بني آدم وانتشروا في جهات الارض ونزلت كل طائفة منهم اقليما من أقاليمها وقطراً من أقطارها من الربع المسكون تولى كل قوم في وقت نزولهم ذلك الاقليم كوكب من الكواكب السبعة المدبرات فعقد لهم عقداً نشأ عليه صغيرهم ومات عليه كبيرهم

ثم اعلم ان الكلام الدال على المعاني مخصوص به عالم الانسان وهو النطق التام بأي حروف كتب والحيوان لا يشرك الانسان فيه من الجهات المنطقية والعبارات اللفظية لكن من جهة الحركة الحيوانية والآلة الجسمانية والحاجة فيها الى ذلك لأنك تجد كثيراً من الحيوانات تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع تارة لانفسها وتارة لأولادها مثل صياح البهائم اذا احتاجت الى الأكل ومنعت منه والى شرب الماء وزيدت عنه . ومثل استدعاء أولادها وما غاب عنها وما شا كل ذلك من الطيور التي تحاكي الانسان ومحاكاة القرد للانسان في جميع أفعاله وأ كثر اعماله

فهذه الاشياء لما يريد الحيوان التطريب والتصويت والصياح لها ومن أجلها فانه لا يقال لها معان علمية وانما يقال لها ارادات طبيعية فأجساد الحيوانات مجبولة عليها وانما استدعاؤها اياها بالتصويت في بعض الاوقات اذا عدمتها وحيل بينها وبين ما تريد وقل ما يكون دالا بأصواتها على الامر الاعم ولا معنى لها ولا يعرف المراد منها ولا القصد كصياح الطيور في أ كثر أوقاتها

منها ما يصوت بالليل ومنها ما يصوت بالنهار وكذلك الحيوانات أ كثرها ولكن المراد بها منها كلها اجتماع الجنس وقيام الشكل الى الشكل وبحسب ما في كل شخص من اشخاصها من قوة الحرارة الغريزية وحركة النفس الحيوانية فان كل شخص أ كثر حرارة وأقوى حركة وأحيي نفسا كان أ كثر صوتا وأدوم كلاما في عموم الاوقات وما كان دون ذلك كان بحسب ما فيه وما هو مجبول عليه

وبالجملة ان الصوت الحادث بحركة نفسانية حيوانية فهو مخصوص به الحيوان وأما ما يسمع من الاصوات من غير الحيوان فانما يقال له قرع ووقع وطنين وصفير وزمير ونقر ودق وقرقعة كصوت البوق وضرب الدف والطبول والدبادب وما شا كل ذلك

فهذه المثالات لهذه الاصوات مخصوصة بما يحدث من حركات الاجساد الصامتة التي لا يحدث صوت وحس عنها الا بمحرك من غير جنسها يرفعها ويضعها وينقرها ويقرع بعضها ببعض فالمحرك لها اما بعمد وقصد كالانسان فيما يتخذه من هذه الآلات للتصويت بالحركة أو كحيوان يحدث ذلك بغير قصد كاحتكاك الدابة بالباب ودفعها للاناء وغيره فيحدث من تلك الحركة وذلك الدفع صوت أو من حركة الرياح والهواء للاجساد والنبات والاشجار وحفيف أوراقها واحتكاك قضبانها وسلوك الهواء بينها وسريانه بين الحيطان والبنيان وخرقه منافذ الجبال والغدران والكهوف فيحدث منه أنواع الصفير والتصويت وما يحدث من أصوات حوادث الجو ماقد ذكرناه مثل مايحدث من حركات المياه اذا انحدرت وتدافعت من أعلى الجبال الى بطون الاودية ومثل أصوات الدواليب والأرحية والطواحين والمجازيف وجريان السفن في البحر وجرى العجل في البر وكل ماء اذا تحرك أو تصرف فيه المحرك ظهر منه الصوت وقرع الهواء

فهذه كلها أصوات فما كان منها عن أجسام الحيوان قيل أصوات ونغمات وما كان منها عن حركة الهواء قيل صفير وزمير وما كان عن حركة الماء قيل دوي وخرير وأمواج وما كان من المعدنيات والاحجار والخشب قيل وقع وطنين ونقرة وماشا كل ذلك. وما كان من جهة الانسان قيل كلام ولفظ ومنطق بالجملة وعند التفصيل والتقسيم فكثرة الالوان والفنون مثل كلام الخطيب وانشاد الشعر وقراءة القرآن وماشا كل ذلك وينسب ذلك الكلام الى المعنى المقصود اليه به

فقد بان بما ذكرنا الفرق بين الصوت الحيواني والكلام الانساني ومايحدث من حركة الهواء ومايظهر من أجسام النبات والمعادن . واذا تأملت ذلك وميزته

بفكرتك وأعملت فيه رويتك ، رأيت تلك الحركات وسمعت تلك الاصوات والنغمات والمجاوبات وتبينت ان العبارات كلها تأدية عن النفوس الجزئية بما أمدتها النفس الكلية

وكذلك الحركات الكلية العرضية أصلها الحركة الذاتية وهذه أعراضها وتلك جواهرها وهذه فانية وتلك الحركات باقية لان مركز هذه سفلي ومقر تلك علوي وهذه منها فاضلة ومنها غير فاضلة وتلك فاضلة كلها وبعض هذه حي وبعضها ميت وتلك كلها حية وبعض هذه متكلمة ناطقة وبعضها مصوتة وتلك ناطقة كلها وبعض هذه أصواتها مفهومة وبعضها أصواتها غير مفهومة وتلك أصواتها كلها مفهومة وبعض هذه الاصوات دال وبعضها غير دال وتلك كلها دالة ومعاني هذه الاصوات مضمنة في حروفها وتلك كلها معاني وأهل هذه يحتاجون الى من يكشف لهم معانيها ويدلهم على مراميها وأولئك لا يحتاجون الى ذلك وهؤلاء يضجرون من الكلام ويملون وأولئك لايضجرون وهؤلاء أكثرهم غير طيبي النغمة ولالذيذي الصوت ولاحسنى الكلام. وأولئك كلهم طيبي النغمة ذوي ألحان لذيذة وبعض هذه الاصوات معكوس يشبه أصوات أهل جهنم وزفيرهم وشهيقهم كنعيق الكلاب ونهيق الحمار وزعقات البوم وصياح السباع ومايحدث في القلوب من الوحشة والنفور والفزع والرعب وماتضجر منه النفوس وماشا كل هذه الاصوات والمصوتات

ثم اعلم ان كل صوت يسمع فانما يخرج عن هيئة الجسم الذى يصوته بحسب قوته وصفاء طبيعته وغلظها ونحتاج هاهنا الى بيان ووضوح برهان ونحن نذكره بشرح مبين

فصل

ثم اعلم ان اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم على حسب اختلافهم في أجسادهم وتركيباتهم وأصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف مخارج الحروف ونقصها

عن تأدية ما يؤديه البليغ منها وقد زعم بعضهم ان فساد الكلام من فساد التركيب وفساد المزاج وليس هو كما زعم وانما هو من اختلاف مخارج الحروف في قوتها وضعفها وهو فساد في اللسان يقلب ويعدل الحروف عن مخارجها ولو كان من فساد المزاج لكانت اللغة كلها في حرف واحد من مخرج واحد ولكانت ترجع الى الاستواء عند صلاح المزاج كما يحدث بالفصيح الكلام ، وضعف الصوت من فساد المزاج وغلبة بعض الطبائع واذا عاد الى الامر السالم عاد كلامه الى المعهود منه أولا واللغة ليست كذلك والناس فيها مختلفون وغير متفقين في الحروف التي يقع الخطأ فيها والعدول بها عن استوائها الى خلافها وهي أعراض كثيرة تختص باللسان وتعرض فتفسد الكلام وهي زمانة لازمة مثل الخلسة والفأفأة والتمتمة والعقلة والحلكة والرتة واللثغة وما أشبه ذلك

واذا كان الكلام يثقل على الرجل قيل في لسانه خلسة واذا أدخل بعض حروف العرب في بعض حروف العجم قيل في لسانه لكنة واذا عجز عن سرعة الكلام قيل في لسانه عقلة والحلكة انما هي نقصان آلة المنطق وعجزها عن أداء اللفظ حتى لا يعرف معناه الا القليل وهو قريب من كلام البهائم والخرس ونحو ذلك

﴿ فصل في المعاني ﴾

فاما افهام المعاني فانها تفهم من الكل من اللكن والفصحاء، وانما يتفاضل الناس في البلاغة وهو عند الحشوية والعوام والنساء والصبيان حسن الصوت وحلاوة المنطق وصفاء الكلام

وليس كل من حسن صوته وصفا كلامه كان بليغاً في ابانة المعنى واقامة الدليل والحجة في ازالة الشبهة عن النفس الساهية وانتباه الجاهل عن رقدته واصحاء السكران من سكرته بالتذكرة والموعظة فان صاحب النغمة الطيبة والكلام الصافي ربما استعمل ذلك في الاغاني والملاهي

وسبب كل ذلك محبة اللذات الدنية والشهوات الحسية وما يتضمن

الكلام من السخف والمجون وأمثاله فان معانيها لا حقيقة لها والكلام بها انما هو تصويت وهذيان لاحق باصوات الحيوان والمجانين والسكارى والصبيان والنسوان ومن لاعقل لهم

وأصل المعاني انها المقالات المدلول بصحتها في الاخبار بهاعن معرفة حقائقها ومقاصد دارائقها وحد المعنى انه هو كل كلمة دلت على حقيقة وارشدت الى منفعة ويكون وجودها في الاخبار بها صدقا والقول عليها حقاً والاخبار على اربعة أقسام خبر واستخبار وأمر ونهي

وقد جعلها قوم ستة وآخرون عشرة وأصلها هذه الاربعة فثلاثة منها مالا يدخله الصدق والكذب وواحد منها يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ويوجد فى ذلك السالبة والموجبة والممكن والممتنع

فصل

ثم اعلم ان جميع هذه المعاني وما يتعاقبها من مدح أو ذم ويدخلها من صدق وكذب وبلاغة وحصر فلابد من أن يقع على مسمى باسم من مدح أو ذم وكل مسمى باسم فيه مدح من سائر المعاني فهو واقع بين اثنين متضادين : عدل بين حاستى جور فالعلم واقع بين أمرين إما علم مالايجب أو جهل مايجب فصار العدل بين حاستين افراط وتفريط

وعلى هذا المثال الفهم عدل بين الاعتراف بما لا يمكن وانكار ما يمكن

واللب أيضاً عدل بين الحصر عن التفهيم والتراخي عن التوهم .والعزم عدل بين التهور والجبن ، والجود عدل بين التقتير والتبذير والشجاعة عدل بين الاقدام والاحجام

وعلى هذا المثال يقع كل اسم من اسماء القصد والحزم وكل وصف يستحق به صاحبه المدح وبازائه مايستحق عليه الذم

واعلم أن حقيقة مطالب معنى العدل بان تصرف فى فنون المسميات وتقسم

في وجوه العبارات وذلك ان القصد هو الذي لايجزي مادونه ولاينفع مافوقه فهو راجع الى معنى العدل الذي ماانتقص عنه كان ضعفاً ومازاد عليه كان اسرافا

وكذلك الحزم أيضاً مالم يمل الى احدى حاشيتيه اللتين احداهما الفشل والاخرى التهور ، وكذلك الحياء الذي طرفاه الفتور والقحة وكل يرجع من العدل الى انقباض بين ازدياد على حدة وانتقاص ويؤول الى انبساط منه وتفريط وافراط

فمن طلب العدل في جميع الصفات وجده متوسطا بين ضدين احدهما يتطرق دونه الى بخس ونقصان والآخر يتطرق فوقه الى افراط وعدوان والعدل فى الطلب هو مالم يمل الى الالحاح في المسألة ولا الى الابتهال والخضوع . والحر لايكون مهينا والكريم لايكون لجوجا

ولهذا قيل القنوع خير من الخضوع والعدل في السياسة مالم يمل الى عبوس موحش ولاملق مدهش فان العبوس يشين المودة ويزيل ما في القلب من صفاء المحبة والملق يذهب برونق المروءة

ولهذا قيل من كثر ملقه لم يعرف وده ، والعدل فى البلاغة مالم يقصر عن درك البغية ، واصابة المعنى وقصد الغرض . ألا ترى ان الهذار فى المنطق بعد بلوغ الغاية لايحتاج اليه ولو كانت البلاغة هى البلوغ الى غايات المعانى لكان العالم كلهم بلغاء خاصهم وعامهم لانه ما من أحد الا وهو اذا عبر عما فى نفسه بلغ غرضه في افهام السامع عنه مايريده منه على حسب استطاعته وماتساعده عليه آلاته . وانما البلاغة هى التوصل الى افهام المعنى باوجز مقال وأبلغ كلام ليعرف به المراد باسهل المسالك وأقرب الطرق بواضح البيان وصادق المقال والايجاز في ذلك مابلغت غاياته بيسير اللفظ . والأطناب مابلغت غاياته بالتطويل فصارت البلاغة حينئذ التوسط بين الحالتين والتوصل الى ادراك الغاية من أقرب الطرق. وقيل البلاغة معرفة مواضع المفاصل المطلوبة بالفاظ مفهومة والبليغ هو الذى لايؤتى سامعه من سوء افهامه والفهيم الذى لا يأتى بسوء فهم

من يريد افهامه بتقصير عن البلاغة في خطابه أو كتابه فيخرق بفهمه وصفاء ذهنه تلك الحجب الحائلة بينه وبين المعنى الذي يقدر على الفهم لانه يجرده من تلك الشوائب المعوقة له عن البيان والايضاح. والبلاغة في اللغة من بالغت في كذا وكذا وهي مشتقة من المبالغة يقال بلغت أبلغ بلوغا فالمصدر منه بلاغة فانا بالغ وتقول أبلغت الكلام وبلغته الى فلان أي أديته اليه

واعلم أن المعاني تنطق بها أفواه السوقة والعوام في الاسواق والطرق ولكن قل من يحسن العبارة عنها وربما اراد المعنى فعبر عن غيره وهو يظن أنه قد عبر عنه والمعاني هي الاصول وهي الاعتقاد الذي أول ما يتصور في النفس والالفاظ هيولى لها والمعاني كالنفوس والالفاظ كالاجسام والمعاني كالارواح والحروف كالابدان

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم ان الهيولى اذا قبلت آثار النفس قبولا تاماً ظهرت أفعال النفس في الغرض والمراد مضيئة بهيئتها وان عجزت عن القبول كانت دون ذلك وكذلك الالفاظ ان قبلت التأدية عن المعاني ببلاغة فهمت المعاني ولاحت دلائلها بغير تطويل ولا اسهاب وان عجزت الالفاظ عن تلك التأدية احتاجت الى التطويل والتطويل ذهاب البلاغة والتقصير هو ضعف الدلالة والحجة وفي الناس من يجول في قلبه المعنى الصحيح فيعبر عنه باللفظ الركيك فيحيله عن معناه وان لم يرد الاحالة ولكنه عجز في اللفظ فيصير اللفظ غير مؤد عن المعنى لا لعجز المعنى ولكن لعجز اللفظ كما أن الطبيعة تفعل أشياء فتعجز عنها الهيولى القابلة فتنقص عن الكمال لا لعجز الطبيعة بل لعجز الهيولى فتأمل هذا الكلام فانه من الاسرار العجيبة والرموز الدقيقة والمعاني الغامضة وفيه غرض غامض

وأنت أيها الاخ ينبغي لك أن تراجع نفسك النائمة الساهية فانتبه من نوم غفلتك وانعم النظر في جميع ما قلناه وافهم جميع ما بيناه من الاشارات والرموزات ولا تظن بنا ظن السوء لان افشاء سر الربوبية كفر

﴿ فصل ﴾

فى كيفية ادراك القوة السامعة للاصوات

فنقول اعلم ان الاصوات نوعان حيوانيـة وغير حيوانية وغير الحيوانيـة قسمان طبيعية وآلية فالطبيعية كالصوت من الحجر والحديد والصفر والخشب والرعد والريح وخرير الماء وسائر الاجسام التى لا روح فيها من الجمادات. والآلية كصوت البوق والطبل والدف والمزمار والاوتاد وما شاكلها. والحيوانية أيضاً نوعان منطقيـة وغير منطقيـة فغير المنطقيـة أصوات سائر الحيوان التى ليست بناطقة

وأما المنطقية فهي أصوات الناس منها دالة ومنها غير دالة فغير الدالة الضحك والبكاء والانين والاصوات التى لا هجاء لها

وأما الدالة فهي الكلام والقول الذي له هجاء . وكل هذه الاصوات انما هو قرع يحدث في الهوام عن تصادم الاجرام

وذلك أن الهواء بشدة لطافته وخفة جوهره وصفاء طبعـه وسرعة حركة أجزائه يتخلل الاجسام كلها فاذا صدم جسم جسما آخر انسل ذلك الهواء وتدافع الى جميع الجهات وحدث منه شكل كما ذكرنا أولا فيصل بمسامع الحيوان

فأما كيفية ادراك الحاسة السامعة للصوت الحيوانى وغير الحيوانى وتمييزها لكل واحد منها كما تميز القوة الذائقة طعوم الاشياء وتخبر الناطقة عن كل شيء بما يخصه من طعمه وكذلك القوة الشامة

فأما الذائقة فهي أكثر تأثراً من الشامة وكذلك الحاسة السامعة فان قواها في تمييزها الاصوات بعضها من بعض ألطف وأشرف والحاسة اللامسة أكثف من الجميع واختلف العلماء في حاسة النظر وحاسة السمع أيهما ألطف وأشرف . فقال بعضهم حاسة السمع أشرف وكان برهان من قال ذلك ان محسوسات السمع كلها روحانية وان النفس بطريق السمع تدرك من هو غائب بالمكان والزمان وان محسوسات البصر كلها جسمانية لانها لا تدرك الا ما كان حاضراً فى ذلك

الوقت وقال ان السمع أدق تمييزاً من البصر اذ يعرف جودة الذوق وجودة الحس والكلام الموزون والنغمات المختلفة والفرق بين السقيم والصحيح والمستوى والمنزحف وصوت الطير من صوت الكلب وصوت الحمار من صوت الجمل وأصوات الاصدقاء من أصوات الاعداء وما يحدث من أصوات الاجسام التي لا روح فيها وأصوات الناس على اختلافهم وأشكال كلامهم فتخبر عن كل صوت بما هو دأبه وتنسبه الى الذي بدا منه ولا يحتاج الى البصر في ذلك وفي ادراكه والبصر يخطىء في أكثر مدركاته فانه ربما يرى الصغير كبيراً والكبير صغيراً والبعيد قريباً والقريب بعيداً والمتحرك ساكناً والساكن متحركا . فصح بهذا القول ان السمع ألطف وأشرف من البصر ولنعم ما قيل :

الشمس تستصغر الاجسام جثتها فالذنب للعين لا للشمس في الصغر

فاذا كان كذلك كانت الحواس الخمس الموجودة في الانسان المستوى البنية التام الخلقة مناسبة للطبائع الخمس في جسم العالم الذي هو الانسان الكبير فحاسة اللمس مناسبة لطبيعة الارض لان الانسان يحس بجسمه كله وحاسة الذوق التي هي اللسان مناسبة لطبيعة الماء اذ بالمائية والرطوبة التي في اللسان والفم تدرك طعوم الاشياء وسنشرحها اذا انتهى بنا القول الى تفصيل ذلك وبيانه . وحاسة الشم مناسبة لطبيعة الهواء لان القوة الكامنة هوائية وهي المستنشقة للهواء وبه تدرك روائح الاشياء والحاسة الباصرة مناسبة لطبيعة النار اذ بها وبالنور تدرك محسوساتها والحاسة السامعة مناسبة لطبيعة الفلك الذي هو مسكن الملائكة الذين شعارهم وشغلهم ليلهم ونهارهم وكلامهم كله تقديس وتسبيح وتهليل ويلتذ بعضهم بسماع بعض ويقوم لهم في ذلك العالم العلوى مقام الغذاء الجسمانى في العالم السفلى

وذلك ان حاسة السمع محسوساتها كلها روحانية . ولذلك قيل ان فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء طبيعته وصفاء جوهره نغمات الافلاك وانه استخرج الآلة التي تسمي العود وانه اول من الف الالحان ومن بعده من الحكماء الذين اقتدوا

به وبان لهم حقيقة ما وصفه فصدقوه وتابعوه واتسعوا في فعل ذلك كل بقدر ما اتسع له زمانه وساعده عليه إمكانه

﴿ فصل ﴾

ثم ان لكل صوت صفة روحانية تختص به خلاف صوت آخر فأن الهواء من شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل صوت بهيئته وصيغته ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض فيفسد هيئاتها الى ان يبلغها الى اقصى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها الى القوة المفكرة ذلك تقدير العزيز العليم الذي جعل لكم السمع والابصار والافئدة قليل ما تشكرون فان قال قائل ما العلة التي أوجبت للهواء هذه الفضيلة الشريفة والحركة الخفيفة فنقول لقد سألت عن امر يجب السؤال عنه اذ كان من اكثر الفوائد فيجب ان تعلم ان جسم الهواء لطيف شريف وهو متوسط بين الطرفين فما هو فوقه ألطف منه وهو النور والضياء وما دونه أكثف وهو الماء والتراب ولما كان الهواء أصفى من الماء وألطف وأشرف جوهراً وأخف حركة صار النور يسري فيه ويصبغه بصبغته ويودعه روحانيته لانه قد قاربه وجانسه بما فيه من اللطافة ولما كان النور والضياء أصله ومبدأه من أشرف الجواهر الغالية صار له اتصال بالنفوس والارواح وصارت سارية فيه وهو المعراج الذي تعرج به الارواح وتنزل به النفوس الى عالم الكون والفساد ومجاورة الاجساد ولما كان للهواء هذه الفضيلة صار يحفظ لكل شيء صورته تامة ويحوطه حتى يبلغه الى الحال المقصود به بحسب ما جعله فيه باريه جلت قدرته بحكمته ليكون بذلك اتقان الصنعة واحكام الخلقة فلذلك صارت تدركها بما هي به اذا كانت الحاسة سالمة والاداة كاملة

وهكذا حاسة الشم تقبل من الهواء ما يحمله من الروائح فانه يحفظها ويتبع الاحاطة بما يعرض من الروائح عن كثير من الاجناس ثم تؤديها الى حاسة الشم فتخبرها عن كل رائحة بما هي به وعما فاحت عنه ولذلك قيل عالم الارواح روح وريحان

ونغمات وألحان. وكذلك النور يحفظ الالوان على الاجسام ولايخلط بعضها ببعض وتدركها القوة بما هي به اذا كانت الحاسة سالمة ثم انه متى حدث ببعض الحواس حادث أوجب تغير ادراك الحاسة فليس ذلك لفساد في الهواء والضياء ولكن لفساد المزاج واضطراب البنية فاذا كانت الحاسة سالمة وجاءتها الاشياء بخلاف ما تعهد فليس ذلك لفساد فيها لكن للحادث الذي حدث في الهواء والضياء وذلك ان الهواء يتغير ويتكدر والضياء يظلم ولذلك صار البصر لايدرك بعد مغيب الشمس ما كان يدركه وقت طلوعها وكذلك السمع لايدرك من الاصوات في وقت هيجان الريح وحركة الهواء ما كان يدرك من ذلك في وقت سكون الهواء وهدوء الرياح

فصل

ثم ان مادون فلك القمر لطيف وكثيف يجرى عليه التغير والاستحالة وذلك ان النار تستحيل فتصير هواء والهواء يستحيل فيصير ترابا والتراب يستحيل فيصير ماء والماء يستحيل فيصير هواء والهواء يستحيل فيصير نوراً فالنار صار أولها يتصل بالهواء وآخرها يتصل بالنور وأول طرف الهواء متصل بالماء وآخره متصل بالنار وأول الماء متصل بالتراب وآخره متصل بالهواء فمن جهة طرفه الأعلى يتصل بما فوقه وبطرفه الأدنى يتصل بمادونه ويستحيل اليه

فانظر يا أخي كيف أوجبت الحكمة التغيير والاستحالة والزوال والانتقال من حال الى حال في الموجودات الطبيعية والعلة في ذلك هو جزاء النفوس بما كسبت وعقوبتها بما جنت لان عالم الارواح لا تغير فيه ولاتبديل ولازوال ولاانتقال .

ثم اعلم ان كيفية ادراك الحاسة السامعة بجميع أصوات مافي العالم من الانس وسائر الحيوان والنبات والرياح والاشجار وماشا كل ذلك من كل شيء له صوت وحركة ينقسم عددها الى ثلاثة أقسام : أحدها حي والآخر ميت والثالث

لاحي ولاميت وكلام الانسان وصوت الحيوان حي ذو حركات نفسانية وصوت الحجر والخشب والحديد والنحاس وماشاكلها ميت والقسم الثالث لاحي ولا ميت مثل صوت الهواء اذا تدافع وصدم بعضه بعضاً وحدث منه الصفير والزمير وصوت تدافع الماء في التلاليع وأمواج البحار وجريان الانهار وصوت زفير النار فان هذه لا يقال لها حية كما يقال للانسان والحيوان انه حي ذو حركة يقصد لغرض يناله بحركته ولا يقال انها ميتة كموت الحجر والخشب لانها متحركة بالاتفاق لا بالقصد ولانها تقوى مرة بحركة الهواء ومرة تسكنها وكذلك الماء والنار ثم يجمع هذه الاصوات كلها شيء واحد وهو هيولاها ولولاها لما كانت

فأما كيفية الاصوات التى تعلم الانسان انها صدرت عن أجسام حية فهو أن يكون وصولها الى حاسة سمعه بسرعة وخفة ويجد لنفسه التى تفهمها وتقبلها سرعة الاخبار عنها بما هي به ، بخلاف تلك الاصوات الصادرة عن الاجسام المائية التى لا يوصل اليها الا بالفكرة والروية

وأيضا فان الانسان يأنس باصوات الحية اذا كان في فلوات بعيدة في موضع منقطع عن العمران فيستوحش ، فاذا سمع نباح كلب أو صوت انسان استأنس وقويت نفسه وعلم انه بقرب عمران وبخلاف ذلك اذا سمع صوت الوحش يخاف منه على نفسه ، وأيضا صوت هبوب الرياح العواصف وجريان الاودية وأمواج البحار واهتزاز الاشجار ووقع الاحجار اذا سمعها الانسان الفريد الوحيد فى المواضع النائية عن الناس استوحش منها غاية الاستيحاش

ولذلك قيل ان فى الفلوات والقفار جبالا تنقطع وتنكسر وتخر فيسمع منها أصوات مرتفعة فاذا سمع الانسان ذلك يستوحش ولا يأنس بها

وقيل ايضاً ان النار والهواء والماء لا يحكم عليها بموت ولا حياة وهي وان كانت مادة للحياة والحركة فان ذلك يكون باجتماعها بقوة طبيعية وحركة نفسانية بمشيئة آلهية واما اذا تفردت كل منها بذاته فلا يقال لها حية ولا ميتة ولكن كل واحد منها ذات طرفين طرف متصل بالحياة وطرف متصل بالموت وهو متوسط

بين ذلك فالتراب طرفه الاعلى وما لطف منه متصل بالماء فهو ذو حياة بما يخرجه ويبرزه من النبات الذي به حياة الحيوان وطرفه الآخر هو ما كثف منه مثل الجبال والصخور والسباخ فانها أموات لا تقبل الماء ولا تحس به ولا يكون منها نبات ولا ينتفع بها حيوان والطرف المتصل بالماء يقال له عمران والذي بعد من الماء يقال له خراب وهو بالموت أشبه من طرفه العامر

والماء أيضا ذو طرفين طرفه الاعلى متصل بالهواء وهو بالحياة أشبه وطرفه الادنى متصل بالتراب والتراب لا حياة فيه ولا حركة له فالطرف المتصل بالتراب بالموت أشبه والطرف المتصل بالهواء بالحياة أشبه والهواء طرفه الادنى متصل بالماء والماء بالموت أشبه لان الماء ربما صار جامداً ثقيلا واذا جمد صار مواتا وكانت منه صخور وجماد وهو بالموت أشبه وطرفه الاعلى متصل بالنار والنار بالحياة أشبه ٠

والنار أيضا ذات طرفين طرف منها متصل بالهواء وطرف منها متصل بالنور والضياء وذلك ان النار اذا قدحت خرجت من احتكاك الاجسام بحدوث ذلك القرع في الهواء واذا برزت مع الهواء اتصلت بالاجسام النباتية والحيوانية فاكلتها وأحرقتها وزالت بزوالها واضمحلت باضمحلالها فيقال خمدت النار وانطفىء السراج فصار هذا الطرف أشبه بالموت ٠ ولها طرف آخر يطلب العلو أبداً متصل بالاشراق والنور والضياء وهذا الطرف لاتصاله بالنور ومشاكلته اياه بالحياة أشبه

وكذلك آخر المعادن متصل باول النبات وآخر النبات متصل باول الحيوان وآخر الحيوان متصل بأول عالم الانسان وآخر الانسان متصل باول مرتبة الملائكة وكذلك آخر التراب متصل بأول مرتبة الماء وآخر الماء متصل بأول مرتبة الهواء وآخر الهواء متصل باول مرتبة النار وآخر النار متصل باول مرتبة الضياء

كذلك ماحدث من الاصوات يجري على هذا المثال فصوت الاحجار يشبه

أصوات النبات لان النحاس اذا خلط بالحديد وجمع بينهما كان له طنين كطنين العيدان ، وذلك ان العود نبات صنعه الناس وحركوه وصارت له نغمة ظاهرة ناطقة معبرة عما في افكار النفوس

وكذلك صوت نقرات الاجراس وطنين النحاس وليس للحجر الغير المعدنى مثل ذلك فالطرف الاعلى من أصوات النبات نغمات العيدان وما شا كلها وهي لاحقة باصوات الحيوان وكلام الانسان والطرف الآخر الادنى المتصل باصوات الحجارة الموات كصوت الدف ودوي الاوتاد في الارض وماشا كلها

والطرف الاعلى من أصوات الاحجار المعدنية كما قلنا هو صوت النحاس وما كان له طنين وزمير وهو اللاحق باصوات النبات مثل العيدان والطنابير وما شا كل ذلك .

والطرف الأدنى من أصوات الحيوان لاحق بصوت النبات مثل أصوات البهائم الخرس التى لا يتبين لها صوت يمكن تقطيعه ووزنه مثل النهيق . والحيوانات التى لاأصوات لها لاحقة بالجمادات والموات .

والطرف الأعلى لاحق بكلام الناس مثل كلام الفصحاء من الطيور والهزار داستان والبلبل وماشا كل ذلك مما حسن صوته من الحيوان

والانسان أيضاً كلامه ذو طرفين طرفه الادنى متصل بالحيوان مثل الفافاء والتمتام والاخرس والالثغ وما شا كل ذلك

والطرف الاعلى منه متصل بمنطق الملائكة مثل كلمات الفصحاء والبلغاء وذوى النغمات والالحان المطربة مثل نغمات داود عليه السلام والقراء والملحنين فى المساجد وقراءة المزامير مثل اصوات قراءة التوراة في الكنائس والبيع والقرآن فى المساجد والخطباء على المنابر والرهبان في الصوامع وما شا كل ذلك ولكل صوت من هذه الاصوات عند الحاسة السامعة كيفية وماهية فماهية صوت الانسان انه غرض مفهوم دال على معنى فتحتاج القوة المفكرة الى ان تفكر فيه

وتفتش عن معناه وأصوات الحيوانات غير مفهومة لكن القوة المفكرة تقضى عليها انها ماصوتت الا لحاجة وما أرادت به الا سبب أكل وشرب ونكاح فهذه الاقسام من الصوت مختصة بالاجسام الحية

فأما صوت الحجارة والخشب فان القوة المفكرة لاتقضى عليها بأنها مابدت لغرض ولا لقصد إلا أن تكون آلية لحركة الانسان مثل البوق والزمر والعود وماشا كل ذلك وانها تنسبها الى الحركة التى كانت هي السبب في تصويتها مثل بوق ومزمار وعود وصفار وماشا كل ذلك وكل هذه أصوات انسانية أودعتها النفس الجزئية هذه الاشكال النباتية بالصناعة التى اتخذتها حيلة للمعاش والكسب .

وأما صوت هبوب الرياح والرعد وخرير الماء اذا انحدر من علو الى أسفل واضطراب موج البحار واهتزاز الاشجار فان القوة المفكرة لاتعبأ بذلك ولاتفكر فيه وانما تمر على الحاسة السامعة شبه الخوار ولاحاجة اليه وربما ضجر الانسان منه وتأذى من مداومة سماعه

وإذ فرغنا من ذكر ماهية الاصوات وكيفية حدوثها وكيف تدركها القوة السامعة فلنذكر مابين هذه الحاسة وبين ماتدركه هذه الاصوات من المناسبة والمشاكلة والمجانسة والمطابقة

﴿ فصل ﴾

فنقول : اعلم ان ادراك الحاسة السامعة لصوت الحجر والجواهر المعدنية والجمادات الغير النامية والحية كنمو النبات وخوار الحيوانات فهذا لما بينها وبين تلك من المناسبات والمجانسات من جهة الجسمية والطبيعة الارضية وذلك ان جسم الانسان مائل الى التراب

وأما ادراكه أصوات الخشب وكل مايصوت ويتحرك من النبات والاشجار فلأجل المناسبة بينه وبين ذلك وذلك ان الانسان يشارك النبات في النمو والزيادة والكبر بعد الصغر

وأما ادراكه أصوات الحيوان ومعرفته بها واخباره عنها فلما بينه وبين الحيوان من المناسبة وذلك ان الانسان مشارك للحيوان في الحياة والحس والنفس الحيوانية جارية بينهم متصل بعضها ببعض أكثر اتصالا من النفس النامية بين النبات والحيوان، وذلك ان الانسان يشارك النبات من جهة واحدة وهي النمو فحسب ويشارك الحيوان من جهات كثيرة وهي النمو والشهوة والاكل والشرب والنكاح والحس والألم واللذة والامور الحيوانية والانسان انما يتميز عن الحيوان بالنطق والتمييز والقوة العاقلة وقيل ان لبعض الحيوانات فكراً وتمييزاً وهي النحل والنمل

وأما ادراكه أصوات الهواء والنار فلما بينه وبينها من المناسبة لانه مهيء منها كما ذكرنا في رسالة الهيولى والصورة

واعلم يا أخي انه لولا المناسبة التي بين الحيوان الحي وبين الجمادات الميتة لما كان يدرك من المعرفة بها والاحاطة بخبرها قليلا ولا كثيراً . فان قال قائل لم لايعرف الصبي الصغير هذه الاشياء على حقيقتها وبينه وبينها النسبة موجودة قيل ان ذلك لعجز في الهيولى عن القبول لالغلط من الخالق تعالى « ذلك تقدير العزيز العليم » يخلق مايشاء كما يشاء بلااعتراض عليه ويحكم مايريد بلاغرض جل جلاله

﴿ فصل ﴾

في اختلاف الاصوات في الصغر والكبر

فنقول : اعلم ان حدوث الاصوات يكون من تصادم الاجسام بعضها ببعض فنقول ان كل جسمين تصادما برفق لايسمع لهما صوت لان الهواء ينسل من بينهما قليلا قليلا فلايحدث صوتاً وانما يحدث الصوت من تصادم الاجسام اذا كانت صدمتها بسرعة فينضغط الهواء عند ذلك وتتدافع أمواجه وتتموج حركته الى الجهات الست بسرعة فيحدث الصوت ويسمع كما بينا فيما تقدم ، والاجسام

الكبار العظام اذا تصادمت يكون اصطدامها اعظم من أصوات مادونها لان تموج هوائها اكثر . وكل جسمين من جوهر واحد مقدارهما واحد وشكلهما واحد اذا تصادما معاً فان صوتاهما يكونا متساويين فان كان أملس فان صوتيهما يكونا املس من السطوح المشتركة والهواء المشترك بينهما املس . والاجسام الصلبة المجوفة كالاوانى وغيرها والطرجهارات اذا نقرت طنت زمانا طويلا لان الهواء يتردد في جوفها ويصدم في حافاتها ويتموج فى أقطارها وما كان منها أوسع كان صوته أعظم لان الهواء يتموج فيها ويصدم في مروره مسافة بعيدة والحيوانات الكبيرة الرئة الطوال الحلاقيم الواسعة المناخر والاشداق تكون جهيرة الاصوات لانها تستنشق هواء كثيراً وترسله بشدة. فقد تبين بما ذكرنا ان علة عظم الصوت انما هو بحسب عظم الجسم المصوت وشدة صدمة الهواء وكثرة تموجه في الجهات . و ان اعظم الاصوات صوت الرعد وقد بينا علة حدوثه فيما تقدم في رسالة الآثار العلوية . وأما أصوات الرياح وشدة حدوثها فليست شيئاً سوى تموج الهواء شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وفوقاً وتحتاً فاذا صدم بحركته وبجريانه الجبال والحيطان والاشجار والنبات وتخللها حدثت من ذلك فنون الاصوات والدوي والطنين مختلفة الانواع كل ذلك بحسب كبر الاجسام المصدومة وصغرها وتجويفها لعلل يطول شرحها

فأما أصوات المياه فى جريانها وحدوثها وتصادمها بالاجسام فان الهواء بلطافة جوهره وسريان عنصره يتخللها كلها ويكون حدوث تلك الاصوات وفنون أنواعها بحسب تلك الاسباب التى ذكرنا في أمر الرياح

وأما أصوات الحيوانات من ذوات الرئات واختلاف أنواعها وفنون أقسامها بحسب تلك الاقسام والاسباب التى ذكرناها من أمر الرياح وبحسب طول اعناقها وقصرها وسعة حلاقيمها وتركيب حناجرها وشدة استنشاقها للهواء وقوة ارسال أنفاسها من أفواهها ومناخرها وكل ذلك لاسباب وعلل يطول شرحها

وأما أصوات الحيوانات التي لا رئة لها كالزنابير والجراد والصراصر واشباهها فانها تحرك الهواء بجناحين لها سرعة وخفة فتحدث من ذلك أصوات مختلفة كما يحدث من تحريك الاوتار والعيدان وتكون فنونها متباينة وانواعها مختلفة وصغرها وكبرها بحسب لطافتها، أعني أجنحتها، وغلظها وطولها وقصرها وكبرها وصغرها وسرعة تحريكها لها

وأما الحيوانات الخرس كالسمك والسلاحف وما شاكلها فانها صمت لانها ليست لها رئة ولا جناحان فلا يكون لها أصوات

وأما أصوات الجواهر المعدنية كالحديد والنحاس والزجاج والحجارة وما شاكلها فان اختلاف الاصوات يكون بحسب يبسها وصلابتها وكمية مقاديرها من الصغر والكبر والطول والقصر والسعة والضيق

وأما أصوات النبات فبحسب صلابتها ورخاوتها وما يتخذ منها بالصناعة من الآلات المصنوعة كما قدمنا ذكره، وكذلك حال ما يتخذ منها لمثل ذلك من الجواهر المعدنية واختلافها في الاصوات والطنين وما يبدو عنها من أنواع النغمات والاصوات كصوت الطبل والبوق والدف والسرناي والزمر فهو يختلف بحسب أشكالها فان كل صوت انما يبدو مناسباً للجسم الذي يكون منه وبحسب صفاء جوهره وكدره الذي يكون متخذاً منه وكبر أجسامه وصغرها وطولها وقصرها وسعة أجوافها وضيق ثقبها ودقة أوتارها وغلظها وبحسب تحريك المحرك لها والمصوت بها .

ومنها وسائط بين الانسان والهواء في التصويت مثل البوق والزمر والصفارة وجميع ما يجعله الانسان في فيه ويرسل فيه الهواء من جوفه بقوة أنفاسه

ومنها الوسائط بين الآلة والصوت من حركة الانسان كصوت الطبل ونقرة الدف وما أشبه ذلك فما يكون من هذه الآلة مصوتاً بالفم فانه يكون ممتداً مستطيلا مجتمع الاجزاء لا سكون فيه الا أن يسكن الصوت مرة واحدة

وأما الاصوات بحركة اليدين فان بين أجزائها سكونات ودقة في أثر دقة

ونقرة تعقب نقرة كما بينا في رسالة الموسيقى وهذه الاصوات اعني صوت الزمر والبوق تشبه أصوات الاحجار والمعادن اذا نقره المحرك كان له دوي وطنين يمكث في الهواء ممتداً لا ينقطع الى ان يسكن لا تقطيع فيه من اصوات الحيوانات مثل أصوات الزنابير وما شاكلها

فأما أصوات ذوات الاوتار وما يستعمل منها في أنواع الاغاني بحركات اليدين موازية لحركة اللسان والايقاع ، مستوى اللحن ، صحيح الوزن وما كان بخلاف ذلك كان مناسباً لاصوات الطيور الثقال الطبع كالاوز وماجانسها وككلام الثقيل الكلام من الناس ، ويكون ذلك لفساد الحركة وبعدها من النسبة الفاضلة كما عجزت هيولى الانسان عن قبول ماجعل فيها وعجزها باظهارها اياه من القوة الى الفعل وكان ذلك عجزاً من المصنوع لامن الصانع كما ان صانع العود اذا احكم صنعته وشد أوتاره وأصلح مضاربه وأخذه من لايعرف الصناعة ولايحسن العمل به فنقره فانه لايأتي من تصويته مثل مايأتي به العارف بعلمه وصنعته ولا ينسب ذلك الى فساد في الآلة والى فساد من الصانع وانما ينسب الى عجز المحرك

فاذا رأيت آلة العود مفردة والاوتار مقطعة وحركة الحاذق بالصناعة لم تساعده على مايريد باظهار صناعته فليس ذلك منسوبا الى عجزه فيه ولكن الى عجز الآلة ونقصانها عن التمام فمن كلا الوجهين الصانع بريء من العجز اذا كانت صنعة الاشياء على النسبة الفاضلة وقصده فى صنعته الاتقان والاحكام

وانما حدث النقص والفساد من جهة الهيولى كما ان المعلم انما غرضه أن يعلم تلميذه مايحسنه حتى يكون حاذقا فيه فيكون مثله وحافظا لعلمه فاذا لم يقبل المتعلم منه وأخذ الفاظاً مستوية فاحالها عن وجهها فليس ذلك منسوبا الى المعلم لكن الى عجز المتعلم عن البلوغ الى مالايعلمه الاستاذ دفعة واحدة لا بالتدريج ليعرف الشيء بعد الشيء

فصل
في السكون والحركة

فنقول اعلم أن الحركة هى النقلة من مكان الى مكان في زمان ثان وضدها السكون وهو الوقوف والثبات في مكان واحد بين زمانين والحركة تكون سريعة وبطيئة فالسريعة هي التى يقطع المتحرك بها مسافة طويلة فى زمان قصير والبطيئة هي التى يقطع المتحرك بها مسافة قصيرة في زمان طويل وعلى هذا المثال تعتبر الحركات والمتحركات

ثم اعلم ان الحركات تنقسم من جهة الكيفية الى ثمانية أنواع كل نوعين منها متقابلين من جنس المضاف فنها الكبير والصغير والسريع والبطيء والدقيق والغليظ والثقيل والخفيف

فاما الكبير والصغير من الاصوات فان المثال فيها أصوات الطبول الكبار والصغار.

وذلك ان اصوات طبول المواكب اذا أضيفت الى اصوات اللهو كانت كبيرة واذا أضيفت الى أصوات طبول الكوس كانت صغيرة واذا أضيف صوت طبول الكوس الى صوت الرعد كان صغيراً

وعلى هذا المثال تعتبر الاصوات فى الصغر والكبر باضافة بعضها الى بعض وهي التى تكون ازمان السكونات مابين نقراتها وحركاتها صغيرة بالاضافة الى غيرها

والمثال على ذلك أصوات مداق القصارين ومطارق الحدادين فانها سريعة بالاضافة الى اصوات مداق الرزازين والحصاصين فهذه بطيئة بالاضافة اليها وأما بالاضافة الى أصوات مجاذيف الملاحين فهي سريعة

وعلى هذا المثال تعتبر سرعة الاصوات وبطؤها باضافة بعضها الى بعض

وأما الدقيق والغليظ من الاصوات فباضافة بعضها الى بعض كاصوات نغمة الزير باضافتها الى نغمة اليم ونغمة المثنى الى المثلث

وأما بالعكس فان صوت اليم بالاضافة الى المثلث غليظ وكذلك المثلث الى المثنى والمثنى الى الزير

ومن وجه آخر فان صوت كل وتر على غليظ بالاضافة الى مادونه أي وتر كان ، فعلى هذا القياس تعتبر حدة الصوت وغلظها باضافة بعضها الى بعض

وأما الجهير الخفيف من الاصوات فبحسب قوة الحركة وضعفها

والمثال في ذلك صوت العليل السقيم بالقياس الى صوت الصحيح المعافى وصوت العليل الى من هو أضعف منه وأسقم حتى يكون أجهر الاصوات من الناس ما كان في غاية الصحة وسلامة الحواس واستواء الآلة،واخفاهن ما كان في الغاية بخلاف هذه الصفة لما به من ضعف القوة وقلة الحركة وفساد الجملة وغير ذلك .

فصل

في معرفة قسمة الاصوات من جهة الكمية

فنقول الاصوات من جهة الكمية نوعان متصلة ومنفصلة فالمنفصلة هي التى بين ازمان حركاتها في النقرات زمان سكون محسوس مثل نقرات الأوتار وايقاع القضبان.

وأما المتصلة من الاصوات مثل أصوات المزامير والنايات والدواليب ونحو ذلك كما ذكرنا في فصل قبل هذا.والاصوات المنفصلة تنقسم نوعان حادة وغليظة فما كان من النايات والمزامير أوسع تجويفاً وثقباً كان صوته أغلظ وما كان أضيق تجويفاً كان صوته أحد

ومن جهة أخرى أيضاً ما كان من الثقب الى موضع النفخ أقرب كانت نغمته أحد وما كان أبعد كان أغلظ

وهكذا تنقسم الاصوات المتصلة أيضا على هذا المثال غليظة وحادة وقد بينا في رسالة الموسيقى ذلك

واما معرفة طبائع الاصوات وائتلافها واختلافها بحسب مابين هاهنا فنقول ان الاصوات الحادة والغليظة يتضادان فاذا جمع بينهما على نسبة تأليفية ائتلفت

وامتزجت واتحدت وصارت كلاما موزونا ونظما مؤتلفا فعند ذلك يستلذه السامع وتسر به الارواح وتأنس به النفوس

واذا كانت على غير هذه النسبة تنافرت وتباينت ولم تأتلف ولم يستلذها السامع بل ينفر منها ويشمئز والاصوات الغليظة باردة وهي رطبة وتنقسم قسمين ضارة ونافعة

فأما الضار فهو الذي اذا ورد على السامع يعوقه وهي الاصوات الخارجة عن الاعتدال

وقد استعمل الحكماء اليونانيون آلة لذلك كانوا يستعملونها عند ملاقات الاعداء وهي صوت بلازعيق والاصوات المعتدلة المناسبة تعدل مزاج الاخلاط الحارة والكيموسات اليابسة فهذه تابعة لها

والاصوات الغليظة التي يحدث منها فساد المزاج باردة يابسة لانه ربما جاء منها ماء يميت الحيوانات الصغار مثل فراخ الطيور والاطفال من الصبيان والاصوات المناسبة باردة رطبة والاصوات الحادة حارة فما كان منها على غير النسبة المعتدلة أفسد المزاج وأحرق الطبيعة وما كان منها على النسبة الفاضلة والاعتدال أصلح المزاج ولطف البرودة فالقسم الاول حار يابس والقسم الثاني حار لين

وقد اتخذ الحكماء لهذه الاصوات ميزانا يعرفون به طبائعها على النسبة الفاضلة بحد الاعتدال وهي الآلة التي تسمى العود وقد ذكرنا كيفية بنيته والعمل به في رسالة الموسيقى.

فصل

(في معرفة الاصوات من جهة طبيعة الانسان والحيوانات واختلافهم فيها)

فنقول : اعلم ان أمزجة الابدان كثيرة الفنون وطبائع الحيوانات كثيرة الانواع ولكل مزاج وطبيعة نغمة مشاكلة ولحن ملائم لها لا يحصى عددها الا الله تعالى والدليل على ذلك انك اذا تأملت وجدت لكل أمة من الناس ألحاناً ونغمات وأصواتاً يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يسر بها سواهم

وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين أمزجتهم وطباعهم وماجرت به العادات والاخلاق وهكذا يجرى في أصحاب لغة واحدة : أقوام يستلذون ألحاناً ونغمات وأصواتاً لايستلذها غيرهم من لغتهم وهكذا ربما تجد انساناً واحداً يستلذ وقتاً لحناً ما ويعافه وقتاً آخر

وهكذا تجد حكمهم في مأكولاتهم ومشروباتهم ومسموعاتهم وملبوساتهم وسائر الانواع من الملاذ والزينة كل ذلك بحسب تغيير أمزجتهم واختلاف طبائعهم وماجرت به عاداتهم وماتولاهم من الاسباب الفلكية والاحكام السماوية في أوقات مواليدهم ومساقط نطفهم

وكذلك تجد الحيوانات ربما استلذت بعض الاصوات وأنست بها وجاءت الى المواضع التى تكون فيها فان بعض صيادي الطيور ومتخذي آلة الصفير يصفرون ويحاكون بها صوتاً لبعض أجناس الطيور فتجتمع اليه وتدور حوله فربما تقع في شباكهم

وكذلك مايستعمله الجمالون من الحداء والنغمات التى اذا سمعتها الجمال في ظلمة الليل آنست بها ونشطت للسير والمشى وخفت عليها الاثقال ، ويستعمل مثل ذلك رعاة الاغنام والمواشى والخيل عند ورودها الماء أنواع الصفير ، ويستعملون غناء آخر عند حلب ألبانها ، وكل ذلك بحسب مناسبات تقع في الطباع واتفاقات فى المواليد والاصوات الحسان المعتدلة ، تستلذها مسامع الحيوان وتأنس بها الارواح وتسكن اليها النفوس . والاصوات الخارجة عن الاعتدال عند الحيوانات كلها بالعكس من ذلك وكل جنس من أجناس الحيوان فانما يأنس ويسر بما كان من نغمات جنسه ويجتمع به ويألفه بحسب ماجرت عادته والفت طباعه ، وينفر من صوت آخر يكون من جنس غيره ولم تجر عادته بسماعه ولاالفته ، وكذلك جميع الامم من أصناف الناس

واذ قد فرغنا من ذكر اختلاف الاصوات وبيانها وصفاتها وحركاتها والمنفصل منها والمتصل ، والفرق بين أصوات الحيوان وكلام الانسان وأصوات

الاشجار والمعادن وكيفية أصواتها ومصوتاتها وما يكون منها بالقصد الاول وغير القصد وأصوات النار والهواء والماء والحركات الصغار والكبار ، الخفيف والجهير ، وطبائعها ومضارها ومنافعها ، وكيفية حمل الهواء لها وقبول الحاسة السامعة لها ، وكيفية اختصاصها بها دون سائر المحسوسات ، ومابين الانسان والاصوات في ادراكه لها من الوسائط والمناسبات ، وذكر علل هذه الاشياء ومعلولاتها وجواهرها وأعراضها وبدايتها في الاصول ، وكونها في شكل واحد فيما علا ، ووجودها في أشكال كثيرة فيما دنى ، واتفاقها في الاصول ، واختلافها في الفروع ، وتشكلها بأشكال الاجسام البادية عنها ، والآلة المتخذة لها والحاجة الداعية اليها ، والمعاني الموضوعة عليها والحقائق المضمنة بها ، ومامنها مفهوم لايحتاج سامعه الى من يعرفه لوضوحه وتمامه ، ومايحتاج السامع الى من يفهمه اياه لانغلاقه وكتمانه

واذ قد أتينا على كثير مما يحتاج اليه في هذا الباب ، فلنذكر الآن اختلاف اللغات من جهة الحروف والكتابات وكيف كان مبدؤها ومن أين كان منشؤها ، والعلة في اختلافها وأوزانها ، وانفراد كل أمة بشكل منها عمن سواها ، وبلغة عن غيرها ، ونوضح ذلك ايضاحاً يكون المكتب الاطلاع على ما أردت منه وسألت عنه

فصل

في معرفة بداية الحروف

فنقول : اعلم ان الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام الذي هو أبو البشر ومبدئه جعله ناطقاً متكلماً فصيحاً مميزاً بالقوة الناطقة والروح الشريفة والقوة العاقلة القدسية وجعل صورته أحسن الصور وشكله أفضل الاشكال ، وطبيعته أصفى الطبائع الارضية ، ومزاجه أعدل الامزجة مما هو خارج عنه ، وجعله سيد الحيوانات كلها ومليكا عليها وأميراً ورئيساً فيها ، وملكه اياها وألزمها طاعته ،

والسجود له طوعاً وكرهاً كما قال تعالى للملائكة « اني جاعل في الارض خليفة » فلما جعله بهذا المثال فليس من الحكمة أن يكون صامتاً كالجماد ولا سكوتاً كالحيوان الذي لاينطق ، بل قائماً ناطقاً متكلماً معلماً مفهماً عاقلا حكيماً لانه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روح قدسه وأيده بكلمته وعلمه الاسماء كلها وصفات الاشياء كلها ، وجعل له العقل العاقل لها والمحيط بمعرفتها ، وأخرج سائر الموجودات من المعادن والنبات والحيوان اليه ليديرها ويسوق اليه منافعها ويدلها على مايكون به صلاحها وبقاؤها وتزايدها ونماؤها وسلامتها من الآفات ويضع كل شيء منها في موضعه ويوفيه قسطه من حفظ النظام وبلوغ التمام ، وجمع له هذه الاشياء كلها صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها في تسع علامات بأشكال مختلفة مسمية بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات وانعقدت بها المعاني كلها كما اجتمعت أجزاء الحساب كلها والاعداد بأسرها في التسعة الاعداد التى من واحد الى تسعة وكذلك وجودها في العالم العلوي على هذه النسبة وهذه الحروف هى التى علمها الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وهي التى يستعملها أهل الهند على هذه الصفة (٩٨٧٦٥٤٣٢١)

وقد كان بهذه الحروف يعرف أسماء الاشياء كلها وصفاتها على ماهي عليه وبه موجودة من أشكالها وهيأتها ، ولم يزل كذلك الى أن كثر أولاده وتكلم بالسريانية وتشكل الفلك بشكل اوجب التغير والاستحالة بعد مضى آدم عليه السلام ، ولم يكن يكتب في زمانه كتابات أو يخط بقلم ، وانما كان تلقين بالفاظ وكلام يحفظ لقلة العدد ، ولانه ما كان فى الارض من العالم الانساني أكثر من بيت واحد والكلام بينهم فيما يحتاجون اليه فقط ، ولم يكن لهم حديث في مامضى ولاحاجة بهم اليه ولا بقية من آثار من كان قبلهم في كتاب ولاطومار . ولأن كلام الملائكة لايكتب في الاجسام الطبيعية وانما هيولاها الجواهر النفسانية وكما ان الناس في هذا الوقت لايحتاج الرجل منهم هو وأهل بيته أن يكتبوا جميع مايحتاجون اليه ولا أن يثبتوا جميع مافي بيوتهم من كتاب يذكرون فيه كل

ما عندهم من مأكول ومشروب ومايننتفع به ، وانما حاجتهم الى علم أسماء ذلك ، فهم يعلمون ذلك أولادهم حتى يعرفوه وينشأوا عليه بأي لفظ كان

ثم ذهب السلف وبقي الخلف وتفرقوا في الاقاليم وتقطعوا في الارض وذهبوا في الاطراف فأوجبت الحكمة الالهية والعناية الربانية تقييد تلك الاسماء والالفاظ والحروف بصناعة الكتابة ولولا ذلك لبعد من الخلق ما كان يستعمل السلف التي كانت حاجتهم اليها ولما كان اللسان يحيل بينهم وبين مايحتاجون اليه من ذلك بالكذب . وكانوا لايعلمون أخبار من كان معهم في الارض اذا غابوا عنهم بالمكان لان الرسول لايمكنه حفظ جميع ما في قلب مرسله

فلما كان ذلك كذلك أظهر الله تعالى صناعة الكتابة فزادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها والفوها واعتادوها وبعث الله فيهم من الانبياء عليهم السلام وأقام فيهم من الحكماء من أظهر فيهم الصنائع وكثرت بينهم الصناع والمتعلمون والعلماء والاستاذون ، وعمرت الارض وانتقلت أخبار بعضهم الى بعض ولم تزل الحروف تزيد ويظهر الشيء بعد الشيء وصناعة الكتابة تتسع وتتفرع الى أن كمل عدد الحروف ثمانية وعشرين حرفاً ثم وقفت على هذا العدد ولم تزد على ذلك

وذلك ان هذا العدد من الاعداد التامة والاعداد التامة أفضل من الاعداد الزائدة والناقصة وذلك ان هذا العدد عزيز الوجود وانه يوجد منها فى كل مرتبة من مراتب الاعداد عدد واحد لاغير كالستة فى الآحاد وثمانية وعشرين فى العشرات وأربع مئة وستة وتسعين في المئات وثمانية آلاف ومئة وثمانية وعشرين فى الالوف ، وأيضاً ان هذا العدد يمكن أن يقسم بالسوية مرة أو مرتين وكانت صناعة الكتابة في اللغة العربية خاتمة الكتابات وتمام عدد الحروف كما ان شريعة الاسلام آخر الشرائع كلها ومحمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأصحاب الشرائع وعلى شريعته تقوم القيامة

فصل

ثم اعلم ان الحكيم واضع الخط العربي انتفى فيما وضعه من ذلك آثار حكمة

الله تعالى وكان حكيما فاضلا ، وقيل ان الحكمة هي التشبه بالاله بحسب طاقة البشر ومعنى هذه الحكمة أن يكون الرجل حكيما في مصنوعاته متحققاً في معلوماته خبيراً في أفعاله فوضع ذلك على موجب الحكمة في العالم لتكون حروف (اب ت ث)وهي حروف الجمل مشتملة على كل الاشياء مطابقة للاعداد الموجودات في الاصل وماتتفرع منه ويحدث عنه ممالايحصي ذلك الا الله تعالى

فمن الموجودات التي عدتها ثمانية وعشرون في العالم الكبير منازل القمر فانها ثمانية وعشرون منزلا أربعة عشر فوق الارض وأربعة عشر تحت الارض وهي في موضع اليمين واليسار ، منها أربعة عشر في البروج الشمالية وأربعة عشر في الجنوبية من البروج

وكذلك يوجد في جسم الانسان أعضاء مشاكلة لهذه العدة لان اللغة التامة لغة العرب والكلام الفصيح كلام العرب وماسوى ذلك ناقص فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الانسان في الحيوان

ولما كان خروج صورة الانسان آخر صور الحيوانية كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الانسانية وختام صناعة الكتابة ولم يحدث بعدها شيء ينسخها ولا يغيرها ولا يزيد عليها ولا ينتقصها وفي كل أمة وبكل اقليم وجزيرة وموضع أهل خط وحروف وكتابات وعلامات ، يجمعها كلها هذه الثمانية والعشرون حرفاً ، ولولا خوف الاطالة لاتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعداد حروفهم مثل مايوجد في اللغة السريانية والعبرانية واليونانية والرومية ومايتفرع منها ويتكون عنها في سائر الاجناس والامم من بني آدم

ثم اعلم ان أصل هذه الحروف كلها والخطوط بأجمعها خطاان لاثالث لهما ومن بينهما ومنهما وعنهما تركبت هذه الحروف حتى بلغت الى نهاياتها كحدوث الانس كلهم من الشخصين اللذين هما آدم وحواء عليهما السلام

وكذلك العالم بأسره السموات ومن فيها والارض ومن عليها من جوهرين وهما السابق والتالي أو البسيط والمركب وهما العقل والنفس والله تعالى مبدعهما وهو

الواحد المنزه عن جميع ماحدث منهما المتعالى بكبريائه عنهما وذلك من الخط المستقيم الذي هو قطر الدائرة والخط المقوس الذي هو محيطها فأول الحروف هو الخط المستقيم الذي هو الألف والثاني الباء وبازائه في العالم العلوي السابق وهو العقل والتام هو النفس

وذلك ان النفس مرتبة تحت العقل ومن بينهما كان حدوث الاشياء كلها في العالم السفلى مثل آدم وحواء فهما الأبوان الذكر والأنثى، والانثى مرتبة تحت الذكر ومن بينهما كان العالم

وكذلك الحيوانات كلها وأشكال النبات لاتخرج عن هذا الحد والشكل وصورة الانسان شبه الخط المستقيم وصورة الحيوانات شبه الخط المقوس والنبات والحيوان مرتبان تحت الانسان.

وهكذا عالم الافلاك وسكان السموات، اشكالها مستقيمة وصورهما كاملة فهم الخط المستقيم وما دون فلك القمر بمنزلة الخط المعوج

وهكذا يوجد في الاعداد الناشئة من الواحد والاثنين فالواحد كالخط المستقيم والاثنان كالمعوج وهما أصل الاعداد وينبوعها وعنهما يكون تزايدهما ونماؤها

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم ان لسان الانسان اذا كان متحركا الى جهة كل حرف من هذه الحروف الثمانية والعشرين يخرجه من تلك الجهة ولايعدل به الى غيرها ولا يخلط بعضها ببعض ولايحيلها عما هي به في اللفظ فهو لسان صحيح وكلام فصيح من جهة بيان الحروف ووضعها على ماهي به في أي كتابة كانت وبأي لغة اتفقت كان الكلام بها ،

وأصح الكتابات وأتمها وأحسنها ما كانت على النسبة الفاضلة في وضعها ومقادير حروفها بعضها من بعض

وقد ذكرنا من هذا الفن طرفاً في رسالة الموسيقى ويختص بهذا المكان شيء من ذلك بعينه ليكون دلالة على ماقاله أهل صناعة الكتابة في لغة العرب إذ كانت تمام اللغات.

وليس بنا حاجة في وقتنا الى كتابة غيرها ولا الى لغة سواها غير انا نحب الاحاطة بجميع العلوم ومعرفة سائر اللغات وتعلم سائر انواع الكتابات.

ولذلك وضعنا لهم هذه الرسالة لتكون مهذبة لنفوسهم مؤدبة لاخلاقهم وجعلناها مقدمات ومداخل وطرقات الى سائر المعلومات والمصنوعات من المعقولات والمحسوسات

ولما كانت اللغة العربية والكتابة بحروفها التامة يحتاج اليها في قراءة كتاب الله تعالى الذي ختم بنزوله كتب الانبياء عليهم السلام وذكر فيه ما كان وما يكون الى يوم الوقت المعلوم، فانه لايجب أن يكتب الا باحسن الخطوط وأقومها وأتمها وأكملها ولايجب أن يكتب بالخطوط الناقصة التي ليست بموزونة ولا معتدلة لئلا يتصحف على قارئه ويكثر الخطأ واللحن والزلل فيه عند القراءة

قال المحرر الحاذق المهندس المستبصر في تصحيح كتابة العربية ينبغي لمن يريد أن يكون جيد الخط صحيح الكتابة أن يجعل له أصلا يبنى عليه خطوطه

ومثال ذلك أن يبتديء فيخط الالف باي قدر شاء ويجعل غلظه مناسبا لطوله وهو الثمن ويجعل طوله قطر دائرة ما ثم يبني سائر الحروف مناسباً لطول الالف ويلحظ تلك الدائرة التي الالف مناسب لقطرها فيجعل الباء وأختيها كل واحدة طولا ما ولطول الألف ورؤوسها الى فوق ثمن طولها مثل هذا (ا ب ت ث)

ويجعل الجيم واختيها كل واحدة مدتها من فوق نصف الألف وتقويسه الى أسفل نصف محيط الدائرة التي الالف مناسب لقطرها مثل هذا (ج ح خ)

ثم يجعل الدال والذال كل واحدة منها ربع محيط الدائرة مقوسا مثل هذا (د ذ)

ثم يجعل الراء والزاي كل واحدة ربع تقويس الدائرة مثل هذا (ر ز)

ثم يجعل السين والشين رأس كل واحد الى فوق ثمن الالف ومدتها الى أسفل نصف محيط الدائرة المقدم ذكرها مثل هذا (س ش)

ويجعل الصاد والضاد طول كل واحد الى فوق ثمن الالف ومدتها الى أسفل نصف محيط الدائرة المقدم ذكرها مثل هذا (ص ض)

ويجعل الطاء والظاء كل واحدة مدتها الى فوق بطول الالف وفتحتها مثل ثمن الالف ورؤسها الى فوق بطول الالف مثل هذا (ط ظ)

ويجعل العين والغين كل واحدة تقويسة ربع الدائرة المذكورة مدته الى خلف نصف الدائرة مثل هذا (ع غ)

وعلى هذا المثال باقي الحروف فاجعل هذا دستورك في الكتابة

﴿ فصل ﴾

في ان الكلام صنعة منطقية

فنقول ان المصنوعات كلها ، محكمة متقنة بمقتضى الحكمة ومنها صنعة الكلام والاقاويل

وذلك ان أحكم الكلام ما كان أبينه وأبلغه وأتقن البلاغة ما كان أفصحها وأحسن الفصاحة ما كان موزونا متفقاً وأصح الموزونات من الاشعار ما كان غير مزحف والمزحف من الاشعار هو الذي حروفه السواكن متحركة والمتحركة ساكنة والمستوى ما كان متفق التأليف

والمثال في ذلك الطويل والمديد والبسيط فانها مركبة من ثمانية مقاطع كما ذكره العروضيون فالطويل

فعولن مفاعيلن ◌ فعولن مفاعيلن

وكهذا المصرع الثاني وهذه الثمانية الاجزاء مركبة من اثني عشر سبباً وثمانية أوتاد وجملتها ثمانية وأربعون حرفاً عشرون منها سواكن وثمانية وعشرون متحركات .

والمصراع منه أربعة وعشرون حرفاً عشرة سواكن وأربعة عشر متحركات ونصف المصراع الذي هو ربع البيت اثناعشر حرفاً خمسة منها سواكن وسبعة متحركات ونسبة سواكن حروف ربعها الى متحركاتها كنسبة سواكن نصفها الى متحركاتها ونسبة سواكن نصفها الى متحركاتها كنسبة سواكن حروفها كلها الى متحركاتها كلها.

وهكذا تجد حكم الوافر والكامل فان كل واحد منها مركب من ستة مقاطع وهي هذه.

مفاعلتن مفاعلتن متفاعلن متفاعلن

ست مرات فنسبة سواكن نصف حروفه الى متحركاته كنسبة حروفه كلها السواكن الى متحركاته كلها وعلى هذا المثال يوجد كل بيت من الشعر اذا سلم من الزحف منصفاكان أو مربعا أو مسدسا وكذلك حكم الازمان التى بينها

وقد وضعت لها دوائر وعلامات لتبين ذلك للناظرين فيها والمتأملين لها في كتب العروض فاستدل بهذه المقدمة على ماوصفته لك فنقول

اعلم ان الوقوف على ما تضمنته هذه الصناعة الكلامية والالفاظ المنطقية يكون بها انتباه للنفوس الساهية والارواح اللاهية الغريقة فى بحر الهيولى وأسر الطبيعة وقيد الالف والعادة.

ومن أمثال ذلك أيضاً صناعة الكتابة التى هى أشرف الصناعات وبها يفتخر الوزراء وأهل الادب في مجالس الملوك والرؤساء مع كثرة أنواعها وفنون فروعها وما اختلف فيه الامم من اللغات وأشكال الكتابات وفنون التأليفات مثل ما لاهل الهند وهى الحروف التى أخرجت مع آدم عليه السلام من الجنة وبها يعرف أسماء جميع الموجودات.

واما كون عدد حروفها تسعة حسب مابينا ورسمنا قبل هذا ، وذلك لمناسبة الافلاك التسعة الحاوية لجميع الموجودات بأسرها ، ثم تفرعت بعد ذلك

واختص بها أهل الهند دون سواهم من الامم ، لان آدم عليه السلام كان هناك لما هبط من الجنة

والسريانية لغة ولها حروف وكتابة وصناعة ونسبة تجتمع عليها الحروف ، ولها أسماء تختص بها موافقة للغتهم ، وهكذا أيضاً للرومية لغة وكتابة أخرى بشكل موافق لكلامهم ولسانهم ، وهكذا لليونانيين ولأهل فارس وغيرهم من الامم أجناس من اللغات وفنون من العبارات ولكن أصل الحروف كلها في أي لغة كانت وبأي نقش صورت وان كثرت وتنوعت هو الخط المستقيم الذي هو قطر الدائرة والخط المقوس الذي هو محيط الدائرة كما ذكرنا قبلا

وأما سائر الحروف ، فمركبة منها ، ولو تأملت عند انفكاك الحروف العربية وجدت بعضها خطا مستقيما كالالف وبعضها مدورا كالقاف والميم وبعضها مقوسا كالحاء والخاء ، وعلى هذا المثال توجد كتابات سائر الامم الذين ذكرناهم وغيرهم ممن لم نذكرهم وقد استغنينا بذكر الاصل والمشهور المعروف عند الجمهور عن ذكر من سواهم لطول الشرح

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أن صناعة الكتابة ذات طرفين طرف كأنه البداية وطرف كأنه النهاية فالطرف الاول هو الكلام والنطق بالحروف التسعة التي يستعملها أهل الهند الى وقتنا هذا

والطرف الآخر الذي هو النهاية فهي الحروف الثمانية والعشرون التي هي حروف اللغة العربية وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين

وانما مثل الحروف كمثل شجرة نبتت وتفرعت وتفرقت فروعها وكثرت أوراقها وثمارها وتقسمها الاقوام فأخذ كل قوم بحسب ما اتفق لهم في أصول مواليدهم وبحسب اجتهاد رئيسهم وما أعمل فيه فكرته وانتجته قريحته وأوجبته رويته بتأييد ربه تعالى والهامه فيأخذ صور هذه الحروف فيلقي عليها أسماء من ذاته فان كان حكيما فبتأييد الله له والهامه ،وان كان نبياً مرسلا كان بوحي الله

اليه وكلامه من وراء حجاب عظمته أو بوحيه على السنة ملائكته ويقيدها بصورة أخرى من الكتابة وينطق بلغة أخرى غير اللغة الاولى وينسخ الاسماء من اللغة الاولى الى اللغة الثانية

فاذا تم ذلك له ونطق به واكمل الصناعة النطقية وقيدها بحروف الكتابة وضم الاشكال الى اشكالها والخطوط الى امثالها ، ثم عرفها أقرب الناس اليه وأكرمهم لديه فيصطلح عليها هو وأهل بيته وعشيرته ثم أهل مدينته وبعد ذلك أهل بقعته ثم أهل أقليمه ثم تنتشر في العالم وينشأ عليها الصغير ويأنس بها الكبير من تلك الامة وينقل الشريعة والملة من اللغة الاولى الى الثانية ويجدد الاحكام والاوامر والنواهي والصلاة واحكام الشريعة الى تلك اللغة التي نطق بها والامة التي ارسل اليها

وكل حكيم من الحكماء أو ملك من الملوك اذا أراد نقل علم أو حكمة أو دين أو شريعة من لغة الى لغة أو من أمة الى أمة فانه يتهيأ ذلك له بتوفيق الله تعالى وموجب مولده وسعادته حتى يتمكن من ذلك ويقدر عليه مثل مافعل سليمان عليه السلام لما أتاه الله الملك وجعل له القوة والقدرة كيف نقل العلوم والحكمة من جميع اللغات حين قهر ملوكها وذلل رؤساءها الى اللغة العبرانية

وكذلك فعل ملك الروم فانه لما غلب اليونان وقهرهم نقل علومهم وحكمهم من اللغة اليونانية الى اللغة الرومية

وكذلك فعل ملوك يونان بمن غلبوا عليهم فلذلك اختلفت اللغات وتباينت الآراء والديانات وكان ذلك لعلل وأسباب يطول شرحها وكل ذلك بامور فلكية واحكام سماوية ومشيئة الهية ذلك تقدير العزيز العليم

فصل

ثم اعلم أن لكل أهل ملة وشريعة كتاب بامر ونهي وحلال وحرام وقضايا واحكام وصناعة من الكلام والكتابة والالحان والنغمات وفيهم من هو عارف بكلية ذلك ومنهم دونه في المعرفة ومنهم من قد عدم صناعة الكتابة الا انه

عارف بالاسماء والمسميات وينطق بحروف الاسماء ولايعرف صورها ولايحسن أن يخطها بيده ولاان يؤلف بينها بنظره ويأخذ جميع مايلقي اليه تلقيناً وربما تجده جيد الخط قليل المعرفة ولايحسن سوى الخط المسطورمن غيرتصورويكون منفعة ذلك لغيره لاله

ومنهم من يكون جيد المعرفة قليل النسيان فغرضه ان يعرف الاشياء التى يحتاج اليها مخافة ان ينساها ويستظهر منها ماتدعو حاجته اليه، وكذلك كان آدم عليه السلام في البداية بهذه الصفة يحفظ أسماء الحروف ويتكلم باللفظ وينطق بالمعنى ويدل عليه ولم يخط بيده بقلم ماشاء الله ، بقي على ذلك الى أن أظهر الله تعالى صناعة الكتابة ، في الوقت الذي قدره والزمان الذي يسره والخلق لاتدرى بصناعة الكتابة لطفاً منه بخلقه ورأفة بعباده

واعلم بأن لهم من الحاجة الى ذلك مالاغنى عنه ولابد لهم منه فصار يحدث في وقت كل قران وبموجب كل زمان نوع، من أنواع الكتابات وجنس من أجناس اللغات والخطوط والعبارات ويحدث في ذلك من كل امة وكل لغة انواع الكلام والنظم والالحان والنغمات وأشياء كثيرة لايحصيها الا الله عز وجل

ثم اعلم انه قيل ان أول من نطق باللغة العربية كان يعرب بن سام ثم لم تزل تتسع مع الزمان وتتزايد على كثرة العرب وانتشارهم في الارض بحسب اتفاقات تقع لهم فى مواليدهم وبقاعهم وأمزجتهم وطباعهم وأبدانهم وأهويتهم حتى صارت أنواعاً كثيرة وصار لكل قبيلة من قبائل العرب لغة يعرفون بها وكلام ينسب اليهم ويتميزون به عن غيرهم ، واختلفوا فى أسماء الاشياء حتى صار الشيء الواحد من الموجودات له فى لغة العرب أسماء كثيرة يعرف بها ويشار اليه بها كلها ولذلك صار علم اللغة العربية من العلوم الكبار وصار الناس من الحاجة اليه بحيث لايسعهم تركه بل يجب عليهم علمه ولاينبغي الجهل بشيء منه وذلك من حكمة الباريء تعالى انه خلق الموجودات والقى عليها الاسماء والصفات وجعل لها فى كل طائفة وفى كل لغة أسماء تعرف بها ويشار بها اليها خلاف مافى لغة أخرى

ولو تأملت واعتبرت لغات العرب لرأيتها من العجائب الطريفة والحكمة الشريفة فانظر كيف اختلفوا في كثير من كلامهم وماهم محتاجون اليه من أسماء مأكولهم ومشروبهم وقد جمعتهم لغة واحدة وشريعة واحدة حتى ان القراء اختلفوا فى قراآتهم وتباينوا فى رواياتهم

وكذلك تجد فى اللغات غير اللغة العربية أكثر والامر فيها أصعب ، وعلى هذا المثال فى الآراء والديانات أيضاً حتى ان كثيراً من العرب الذين يسكنون البرارى البعيدة من العمران من يجرى فى لغته أسماء كثيرة لايعرفها من باقي العرب أكثرهم ولايعرفها العرب الحاضرة الا بعد البيان والايضاح ويحتاج فيه الى معرفة اشتقاقاتها حتى تتصور له ثم يسمى ذلك الشيء بذلك الاسم كل ذلك لعلل وأسباب يطول شرحها

وكذلك اختلفت المذاهب والآراء والديانات والاعتقادات فيما بين أهل دين واحد لافتراقهم فى موضوعاتهم واختلاف لغاتهم وأهوية بلادهم وتباين مواليدهم وتصور رؤسائهم وعلمائهم وأستاذيهم الذين يختلفون فيما بينهم طلباً لرياسات الدنيا . وقد قيل فى المثل خالف تذكر لانه لو لم يقع بين رؤساء علمائهم الاختلاف لم تكن لهم رياسة وكانوا شرعاً سواء لان أكثرهم متفقون فى الاصول مختلفون في الفروع

مثاله انهم مقرون كلهم بتوحيد الله ووصف البارى تعالى بما يليق به من الصفات ومقرون بالنبي المبعوث اليهم متمسكون بالكتاب المنزل من جهة الرسول المرسل اليهم مقرون بايجاب الشريعة مختلفون في الروايات عنه والمعاني التى وسائطها رجال أخذوها منه فرواها كل من أخذ بلسانه لان النبي صلى الله عليه وآله من معجزاته وفضله انه كان يخاطب كل قوم بما يفهمون به بحسب ماهم عليه من حيث هم وبحسب ما يتصورونه في نفوسهم وتدركه عقولهم فلذلك اختلفت الروايات وكثرت مذاهب الديانات واختلفوا في خليفة الرسول عليه الصلاة والسلام وكان ذلك من أكبر أسباب الخلاف في الامة الى حيث انتهينا

وأيضاً فان أصحاب الجدل والمناظرات ومن يطلب المنافسة في الرياسة اخترعوا من أنفسهم في الديانات والشرائع أشياء كثيرة لم يأت بها الرسول عليه السلام وما أمر بها ، وابتدعوها وقالوا للعوام من الناس هذه سنة الرسول عليه السلام وسيرته وحسنوا ذلك لانفسهم حتى ظنوا ان ماقد ابتدعوه حقيقة وان النبي عليه السلام أمر به وأحدثوا في الاحكام والقضايا أشياء كثيرة بآرائهم وقياسهم وعدلوا بذلك عن كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه السلام واستكبروا عن أهل الذكر الذين بينهم ، وقد أمروا أن يسألوهم عما أشكل عليهم وظنوا بسخافة عقولهم ان الله قد ترك أمر الشريعة وفرائض الديانة ناقصة حتى يحتاج هؤلاء الى أن يبينوه بآرائهم الفاسدة وقياساتهم الكاذبة واجتهادهم الباطل ويخترعوه ويبتدعوه من ذواتهم وكيف يكون ذلك وهو يقول تعالى « مافرطنا في الكتاب من شيء » وقال « تبياناً لكل شيء » وانما فعلوا ذلك طلباً للرياسة كما بينا آنفاً ، وأوقعوا الخلاف والمنازعة في الامة فهم يهدمون الشريعة ويوهمون من لايعلم انهم ينصرونها

وبهذه الاسباب تفرقت الامة وتحزبت ووقعت بينها العداوة والبغضاء أبداً وصاروا الى الفتن والحروب واستحل بعضهم دماء بعض فان اتفق بعض من يعرف الحق من العلماء وخاطب رؤساءهم في ذلك وخوفهم وأرهبهم من عذابه عدلوا الى العوام وقالوا لهم هذا فلان ويغرون به العوام وينسبون اليه من القول مالم تأت به شريعة ولاقاله عاقل. ولايتمكن ذلك العالم أن يبين للعوام كيف جري الامر في الشريعة وينبههم على فساد ماهم عليه لما قد غلب عليهم من العصبية التي الفوها ونشؤا عليها وأخذها خلف عن سلف

ولما رأى رؤساؤهم ذلك وأن العلماء قد اشمأزوا من العوام وجعلوا ذلك سوقاً لهم عندهم وأوهموهم ان ذلك انقطاع منهم عن الحجة والقيام بايرادها وان سكوتهم وتخفيهم انما هو لبطلان مامعهم ، وان الحق ماهو الا مااجتمعنا عليه نحن الآن فلايزال ذلك دأبهم والرؤساء الجهال فيهم يتزايدون في كل يوم

واختلافهم يزيد واحتجاجاتهم ومناظراتهم تكثر وجدالهم ينتشر حتى ينسخوا أحكام الشريعة ويذيروا كتاب الله بتفسيرهم له بخلاف ماهو به كما قال « يحرفون الكلم عن مواضعه » وفي أصل أمرهم قد حولوا الشريعة من حيث لايشعرون وأولوا أخبار النبي عليه السلام بتأويلات اخترعوها من تلقاء نفوسهم ماانزل الله بها من سلطان وقلبوا المعاني وتكلموا بها على ما يريدون مما يقوي رياستهم ويقبح أهل العلم عند العوام وذلك دأبهم يتوارثونه ابن عن أب وخلف عن سلف وكابر عن كابر الى أن يشاء الله اهلاكهم ويقضي بانقراضهم وفنائهم. ولم يزل هؤلاء الذين هم رؤساء العوام أعداء للحق في كل بلد وقرية فكم نبي قتلوه ووصي جحدوه وعالم شردوه ، وهم بأفعالهم كانوا السبب في نسخ الشرائع وتجديدها في سالف الدهور الى أن يتم ماوعد الله تعالى بقوله « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز » و « العاقبة للمتقين » « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين »

فهذه العلة هي السبب في اختلاف الآراء والمذاهب واذا كان كذلك يجب على طالب الحق والراغب في النجاة أن يطلب مايقربه الى ربه ويخلصه من بحر الاختلاف والخروج من سجون أهل الخلاف وما الذي ينبغي له أن يعمل حتى يتخلص من هذه الورطة وينتبه من هذه الرقدة ويستيقظ من هذه الغفلة وينظر في أيام حياته قبل دنو وفاته فان الامل مدة ممدودة وللاعمال أيام معدودة وآجال محدودة وانما خلق الانسان في الدنيا ليكون متوجهاً الى ربه تعالى مستعداً لمقابلته بعمله لانه ينفذ من غير أن يستأذن فان كان معه زاد وجده كما قال تعالى « وماتقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله » فانه الزاد وان لم يكن معه زاد كان ممن يقول « ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » والله تعالى يقول « قد خسروا أنفسهم » ووبخ قوماً فقال لهم « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » أي صفراً من الزاد وقال « أفحسبتم انما خلقناكم

عبثاً وانكم الينا لاترجعون » وقال تعالى « ووفيت كل نفس ماعملت وهو اعلم بما يفعلون »وآيات كثيرة فى القرآن تدل على ان الديانات والشرائع ووظائف العبادات انما جعلها الله طرقات ومسالك يسلكها العبد الى رحمة خالقه ويمشى القاصد بها طالباً لجنته والقرار بجواره

وان غفل عن مصالحه وأعرض عن مقاصده وترك طريق الحق وأهله والدين الذى لا اختلاف فيه ، وانضم الى أهل الخلاف والشقاق والى طالبي الرياسة من العوام واستحسن نمق الكلام وزخرف القول ممن يريد العلو والرياسة فى دين الله تعالى تشبهاً برسوله الذى أرسله ونبيه الذى بعثه وهو يوهم الناس انه ركن من أركان الدين والشريعة وانه برأيه وقياسه واجتهاده قد أقام معوجها وأبان معجمها ، نعوذ بالله من الميل والانضمام الى هؤلاء ، كان ذلك سبب بواره وهلاكه وبعده عن جوار الله وقربه وقرن بالشياطين أعداء الله كما قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) فهكذا يكون حاله مع عالمه وغيره ، تراه جميع العوام حاله شقية وكلامه وتهذيبه والفاظه بعيدة من حيث لايشعر لانه اذا حلل بقوله وحرم برأيه فقد عبده كما قال تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وقال تعالى (ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فعليك أيها الاخ بأهل العلم ومواظبة الذين هم أهل الذكر من أهل بيت النبوة المنصوبين لنجاة الخلق فقد قيل استعينوا في كل صنعة بأهلها

ثم اعلم بأن أهل الذكر في بعض الوجوه هو العقل الذى يذكر النفس ماغاب عنها من أمر عالمها الروحانى ومحلها النوراني ويحرضها على المتاجر الرابحة ويحثها على الاعمال الصالحة وان النفس متى عدلت عنه وخالفته وتركت وصية ربها وما أمر مولاها واقبلت على الطبيعة ومالت الى استحسانها وطلب الرياسة والعلو والتعصب والتعدى أصابها مثل ما أصاب المقعد والاعمى الذين خالفا وصية صاحب البستان

حكاية

ذكر فيما يروى من الامثال أنه ببلاد الهند رجلان أعمى ومقعد اصطحبا في طريق فعبرا بستانا فالا اليه فرآهما صاحب البستان وشاهد فقرهما ومسكنتهما فرحمهما وقال لهما ماتقولان في أن أدخلكما بستاني هذا فتأويان اليه وتتناولان منه بحسب الحاجة ما يكفيكما مما آتيكما فلا تولعا بالثمار فتفسداها فقالا وكيف نؤذيك في بستانك ونحن على ماترى من الزمانة وسوء الحال: أحدنا أعمى والآخر مقعد وأي حيلة لنا في تناول شيء من الثمار وهي على رؤس الاشجار فقال صاحب البستان لهما ادخلا ذلك المكان وتبوآ مكاناً منه وأوصى بهما الناطور الموكل بالبستان وقال له احفظهما وأحسن اليهما وأتهما من ثمرة هذا البستان مايكون فيه صلاح شأنهما فقال سمعاً وطاعة ومضى صاحب البستان لشأنه وأقاما على ذلك مدة والناطور يتعهدهما بما فيه كفاية لهما واينعت الثمار وكثرت وحسنت فقال المقعد يوماً للأعمى ويحك انك صحيح الرجلين وان في هذه الاشجار التي في هذا البستان أنواعا من الثمرات وأجناساً من الطيبات وهذا الناطور لا يحمل الينا من هذا الجيد شيئاً فما الحيلة في تناول ذلك فقال الاعمى قد شوقتني الى ماذكرت وانك ترى وتعاين من هذه الطيبات وأصناف الثمرات فما الحيلة في ذلك فلم يزالا يفكران ويعملان الروية أن قال المقعد للاعمى ويحك أنا صحيح العين أرى ما غاب عنك فاحملني على كتفك لاطوف بك في البستان فكلما رأيت ثمرة مليحة طيبة قلت لك قدمني يمنة ويسرة وتطاول وتقاصر فأقطفها لك فأكل منها وأطعمك وما اعتذر وصول يدي اليه اضربه بعصاك الى أن يقع فتشيله بيدك أنت وليكن ذلك اذا غفل الناطور

فقال الاعمى نعم مارأيت وأنا أفعل ذلك غداً فلما كان الغد ذهب الناطور في حوائجه وأغلق باب البستان فركب المقعد عنق الاعمى وطاف به البستان فأفسدا فيه ذلك اليوم ما قدرا عليه ووصل المقعد اليه ثم رجعا الى موضعهما ورقدا فلما جاء الناطور لم يخف عليه ما حدث في البستان من فساد الثمار وما كان

غير عليه منها في أشجار معلومة أراد قطافها ليهديها الى بعض رؤساء الناحية فلم يجده على الشجرة فجاء اليهما وسألهما هل دخل ذلك البستان أحد في غيبتي فقالا له ماندري فقال الاعمى ترى حالي اني لا أبصر وقال المقعد وأنا كنت نائماً فصدقهما الناطور . فلما كان الغد خرج الناطور على الرسم فقاما وفعلا أقبح من فعلهما الاول وعاد الناطور ورأى الفساد قد تضاعف عما كان بالامس فخاف الملامة من صاحب البستان وانه يقول لعلك تبيع ثماري أو لست تحفظها فقال كيف أعمل حتى أعلم من الذي يصيب هذا البستان ومن يفعل ذلك في البستان فلما كان من الغد اوهمهما أنه قد خرج لعادته واستتر ببعض حيطان البستان فقاما الى ما قد عولا عليه من الفساد وارتكاب المحظور فلما رآهما الناطور علم أن الفساد من جهتهما وكان رجلا حليما رحيما لطيفاً فتركهما حين رأى مايعملانه وقبيح ما يصنعانه الى أن عادا الى مكانهما فأقبل عليهما وقال لهما ويحكما ما الذي استحق به صاحب البستان ما فعلتماه من هذا العبث والفساد في البستان فبهتا فقال الناطور اني نظرت اليكما وقد قمت أيها المقعد في كتف عنق الاعمى ومشى بك تحت الشجرة فما وصلت اليه أخذته بيدك ومالم تصل اليه ضربته بعصاك فلما سمعا منه ذلك تحقق كلاهما أنه قد رآهما فقالا له قد فعلنا ذلك فلا تخبر به صاحب البستان فانا نتوب على يديك ولا نعاود فقبل منهما وأقبل الناطور يعظهما وقال أنا آتيكما بكلما تريدان من الثمار والفواكه من حيث لا أضر ببستان صاحبي ولا أضر به ولا أرتكب ما نهي عنه لئلا تأكلا الا من حلة

فقالا سمعاً وطاعة وتركاه حتى غاب الناطور وعادا الى ما كانا عليه بل أقبح فرجع الناطور ورأى أثر فسادهما فأعاد عليهما النصيحة ووعظهما وخوفهما بالله تعالى فلم يقبلا وارتكبا ما نهاهما عنه فاتفق دخول صاحب البستان اليه ذلك اليوم فلم يجد الناطور بدا من اعلامه بما كان من أمر الاعمى والمقعد فقال صاحب البستان قد كنت أقدر أن يركب المقعد ظهر الاعمى ويطوف به في البستان فيفسدان على المعيشة

فقال له الناطور هكذا عملا وقد نهيتهما فما انتهيا، فقال صاحب البستان انهما قد استحقا العقوبة بما فعلا من قبيح ما ارتكباه، ثم أمر عبيده وأعوانه أن يعاقبوا المقعد والاعمى أشد العقوبة وان يخرجوهما من البستان الى برية لايجدان فيها معتصما ولا ملجأ حتى يأ كلهما الوحش ويهلكهما الجوع والعطش ففعل بهما ذلك وأخرجا من البستان ورمي بهما في البرية كما فعل بآدم وحواء عليهما السلام لما ذاقا الشجرة

تفسيره — فاعلم أيها الاخ أنه اذا ضربت حكماء الهند هذا المثل فما ذلك الا لأنهم شبهوا النفس بالمقعد وذلك لانها لا تبطش الا بالآلة الجسدانية وبهذه الآلة تتمكن من الطاعة والمعصية وشبهوا الجسد بالاعمى وذلك انه ينقاد حيث ماتقوده النفس ويأتمر لما تأمره به وشبهوا البستان بدار الدنيا والثمار بطيبات الدنيا من الشهوات وصاحب البستان هو الله تعالى وشبهوا الناطور بالعقل الذي هو يدل على المنافع ويأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والعدوان، وهو ينصح النفس ويدلها على ما يكون لها به من الصلاح والسلامة في الدين والدنيا جميعا وأخذ الاشياء من حيث يجب فاذا لم تقبل النفس منه وعدلت الى الشهوات الجسمانية والمحاسن الطبيعية والملاذ الجرمانية التي يكون بها صلاح الجسم وحسن حاله في الدنيا، فبذلك تكون اماتتها وخسران آخرتها وتحيط بها سيئات ماعملت في البستان، وقبائح ما اكتسبته في الدنيا وتكون من تناول الشهوات غافلة عن مصلحتها مترديه في ضلالتها حتى تأتيها ملائكة الله الغلاظ الشداد وزبانيته وجنوده وتخرجها من دار الدنيا بالكره والاجبار فعند ذلك تقدم على ما عملت من سوء، ومن قبائح ما اكتسبته من سوء آدابها . وقد خسرت الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وعند نزع النفس يأتيها الخبر وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون

فاحذر أيها الأخ أن لا تغتر بهذه الدنيا ولا بمصاحبة الجسد الفاني المضمحل المتغير الفاسد وانما هي أيام يسيرة ولذة حقيرة ومدة قصيرة واعدل الى الحق

والعقل فانهما يؤديانك الى ربك ويدلانك على الاعمال الصالحة التي يكون لك بها الدرجة العليا والوصول الى الجنة المأوى في مقام الكرام حيث لا تحتاج الى جسدك الفاني ولا تذوق الموت ولا يصل اليك الألم ولا يجديك السقم ولا تبتلى بمفارقة الاحباب ومباينة الاصحاب ولا يلحقك غم الفقر ولا ذل القهر ولا ضيق القبر ولا كرب الاشتياق وتكون في حظيرة القدس وروضة الانس أمناً من المصائب والنكبات وحوادث الزمان ولا ترى الا ما تحب وتؤثر وتأمن من النوائب الزمانية وما يدفع اليه أهل الدنيا من الكدر والنصب والتعب والعناء والجوع والسغب ونكد الزمان وجور السلطان وحسد الحيوان وما هو موجود بين أهل الديانات والمقالات من العدوات والمباغضات والملاعنات وما يستحل بعضهم من بعض من سفك الدماء وأخذ الاموال وهتك الحرم

فاذا تأملت في أمور الدنيا وجدتها كدار قد ملأت أجناس حيوانات تعادى بعضها بعضا عداوة طبيعية مركوزة في الجبلة كعداوة البوم والغربان وعداوة الكلاب والسنانير وهي تهر بعضها على بعض وتحسد بعضها بعضاً كغلبة السباع والكلاب ، وكما يفعل الملوك والسلاطين لمن دونهم اذا غلبوا عليهم وأخذوا أموالهم وكما تفعل الكلاب بالسنانير التي تخالفها في الصورة اذا وصلت اليها وقدرت عليها حسداً لها على ما تأكله من دور الناس ومن الدعة والرفاهة التي هي فيها ومحبة الناس لها واكرامهم اياها

فهكذا أمور الدنيا وأهلها الاشرار أعداء الاخيار والفقراء أعداء الاغنياء يتمنون لهم المصائب واذا قدموا على شيء من أموالهم أخذوه ونهبوه وكذلك أهل الشرائع المختلفة يقتل بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضا كما يفعل النواصب والروافض والجبرية والقدرية والخوارج والاشاعرة وغير ذلك وكذلك في الملة العبرانية مثل العينية والسمعية ، وفي الملة السريانية كالنسطورية واليعقوبية وما بينهما من الخلاف • وكذلك في الملة الصابئية • وكذلك تجد المختلفين في اللغات

يستوحش بعضهم من بعض ويثقل على كل واحد منهم ما لم يألفه من لغة وهذا لا يخفى على من تأمله وتفكر فيه

ثم اعلم أنه لا يصلح بين أهل الديانات ولا يؤلف بين المتعاديات ولا تزيل من النفوس العداوات والاحقاد الطبيعية الا المعرفة بالحق الذي يجمعهم على كلمة التقوى ويدعوهم الى سبيل الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً » وقال تعالى لرسوله عليه السلام « لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » وقال تعالى « اخواناً على سرر متقابلين » وقال تعالى يحبون من هاجر اليهم » وقال تعالى « قل هذه سبيلي ادعوا الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » فمن رأى نفسه معادية لطائفة من الطوائف حنق عليها فهو لا يزدرع الحق في قلبه ولم تخالط الهداية لبه

فصل

ثم اعلم ان الدين والشريعة في أزمان النبي المبعوث عليه السلام الى قومه هما من الله تعالى ولا يكون فيهما اختلاف ولا تباغض ولا عداوة ويكون رأي المؤمنين في زمانه رأياً واحداً وتكون محبة بعضهم لبعض خالصة لا تشوبها كدورة ويكونون مطمئنين مساعدين على اقامة الدنيا ومجاهدة الكافرين وانما مجاهدتهم الكفار لا لعداوة منهم للكفار بل ليردوهم الى الحق ليكون المسلمون فارغي البال من كيدهم ونهبهم ويقنعوا من الكفار بالجزية ان لم يقبلوا الدين لانهم لا يأمنوهم ان تركوهم ولم يطلبوهم في بعض الاوقات بالجزية فقد قيل في المثل ان الروم ان لم تغز غزت، فهذا سبب قتالهم الكفار والافليس لهم رغبة في سفك الدماء واتلاف النفوس وخراب الديار وبالرغم منهم يجري ذلك على أبدانهم ضرورة لما اعلمتك لان ظاهر هذا الفعل من فعل الاشرار الذين لا رأفة لهم ولا رحمة ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله اذا أراد قتال المشركين أرسل

اليهم من ينذرهم ويحذرهم ويبين لهم فساد ما هم فيه ويدعوهم الى ما معه من الحق كما أمر الله تعالى بقوله : أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وأمره بالملاطفة فقال تعالى : وقولوا لهم قولا سديداً وقل لهم قولا معروفا.

وقال لموسى عليه السلام لما أرسله هو وهرون عليهما السلام الى فرعون فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ففعل النبي عليه السلام ذلك فلما أبوا واستكبروا وقالوا لانرضى بدينك وكانوا من أهل الكتاب أمرهم على بذل الجزية بعد أن تجري عليهم أحكامنا ويكفوا أذيتهم عنا ليكون اذلالا لهم لئلا يحدثوا أنفسهم بغلبتهم على المؤمنين ويكون ذلك كالغمغمة والمذلة فان أبوا الجزية . فعند ذلك أمرهم بقتالهم وأمر أصحابه أن لايبدؤا حتى يبدؤهم واذا ظفروا بهم أن لا يقتلوا أسيراً حتى يعرضوا عليه الدين والاسلام فان أبى ألزم الجزية فان أبى قتل .

واذا ملكوا دار الكفر ووضعت الحرب أوزارها أمرهم أن لايقتلوا شيخاً كبيراً ولا صبياً صغيراً ولا امرأة الا ان يقاتلوا ولا راهباً ولا قسيساً ولا شماساً ولا مطراناً ولا جاثليقاً ولا من يكون من خدم البيع والكنائس كل ذلك رأفة بهم ورحمة عليهم

فمن أبى واستكبر و ناصب العدواة أمر بجهاده فقال الله تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم

ألا ترى أيها الأخ الى هذه الرأفة انه لم يأمره بقتالهم الا بعد انذارهم وتذكارهم والملاطفة بهم وذلك سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا كما قال تعالى سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا وقال مامن أمة الا خلا فيها نذير وآيات كثيرة في القرآن فى هذا المعنى

فما دام هذا الخلاف واقعاً في الآراء والمذاهب فان العداوة بينها قائمة والحرب لاتنطفي نارها لان كل واحد يقيم الحجة والدليل برأيه وقياسه على

صحة مذهبه وبطلان مذهب غيره ولايبالى أن يكذب على الله تعالى ورسوله ويسخطهما لرضى نفسه وتعجيل منفعته

وكذلك السلطان الذي اذا رأى فى أحد رعيته أو بعض سكان مدينته من له نعمة حال رغب فيها وحسده عليها وطلبه عليها الحجج حتى يوقع به ويأخذ ذلك الغرض اليسير الحقير في جنب ماملكه الله تعالى من ذلك البائس ويجعله فقيراً مسكيناً متحيراً مغتماً وربما مد عليه الضرب وطالبه بما ليس في وسعه فقتله

وكذلك اذا علم ان رجلا له امرأة نظيفة أو جارية حسنة حسده عليها ولا يزال يتحيل الى ان يفسدها عليه فان صح له مراده والا عدل عن افسادها الى ادعائها فى التزوج ولا يزال يراسلها في ذلك الى ان يطرح بينها وبين زوجها الشر ويفرق بينهما ويأخذها لنفسه كما حكي عن داود النبى عليه السلام بامرأة أوريا بن حنان كيف قدمه أمام التابوت حتى قتل وتزوج بامرأته.

وأيضا ذكروا أن تلك المرأة أم سليمان وكان الاصل في ذلك الهواء والحسد الغالب ومثل مافعله حكيم بن هشام المعروف بابي جهل برسول الله ﷺ وقد علم أنه رسول الله ﷺ ولكن حمله على فعله الحسد وود انه لو كان النبى المبعوث ، كذلك أبو لهب وجماعة من قريش وبنى عبد المطلب الذين خالفوا رسول الله ﷺ وناصبوه العداوة والبغضاء

وهكذا جرت أحوال الامم السالفة فى الايام الخالية والادوار الماضية ولم تزل الامم على هذه الصفة التى ذكرنا

فصل

ثم اعلم ان الاختلاف ينقسم قسمين محمود ومذموم فالمحمود منه كاختلاف القراء وما جرى مجراه من اختلاف الفقهاء فى رواياتهم اذا لم يختلفوا في المعاني ولم يزيلوا الالفاظ من مواضعها ولم يبدلوها تبديلا مع اعتمادهم على صدق المخبرين لهم بان ذلك من صاحب الشريعة

واذا صح لهم ذلك كان اختلافهم منفعة لان في العرب من يخالف بعضها بعضا في كثير من اللغة العربية

وأما الاختلاف المذموم فهو ما كان منه في المذاهب والاراء فاذا زال الخلاف ظهر دين الاسلام على جميع الاديان واللغة العربية على جميع اللغات ويكون الدين واحداً كما قال الله تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» واظهار دين النبي ﷺ على جميع الاديان ولغته على سائر اللغات من أجل ان القرآن أكرم قرآن انزله الله تعالى وأشرف كتاب أحكمه وانه لا يقدر أحد من الامم على اختلافهم في لغاتهم أن يحيله عما هو به من اللغة العربية الى لغة غيرها لانه لا يمكن أن ينقل البتة الى لغة على ما هو به من الاختصار والايجاز وهذا لاخفاء به ولا يكون اجتماع الناس على كلمة واحدة الا بمجاهدة المجاهدين المحقين لاهل الباطل وان يكون الخادمون في الناموس آمرين بالمعروف فاعلين له والناهين عن المنكر منتهون عنه الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم وأرجو أن يبلغنا الله ذلك الزمان انه عليه يسير.

ثم اعلم انه انما وقع الخلاف فى الشريعة بعد خروج النبى عليه السلام من الدنيا لما تنازعوا فيما بينهم لطلب الرياسة والمنزلة وكان منهم ما كان الى ان جرى ماجرى من هتك حرمة النبوة وقتل آل بيت الرسالة واهباط الوحي وما فعله ابن زياد بكربلاء وما كان من الفتنة التى شملت أهل الشريعة المحمدية والعصبة الهاشمية من قتل بعضهم بعضاً .

فلذلك كثرت الآراء والمذاهب فقال قوم لم يجر ذلك كله الا بقضاء الله وقدره ولعمري ان الامر كما قالوا لكن انما قصد القائلين بذلك براءة نفوسهم فيما عملوا فانهم انما فعلوا ذلك على ماعلمه ربهم وانه اذا علمه فقد أراده واذا كان ذلك كذلك فلا ذنب لهم ولا وزر ولا لوم ولا وبال

فصل

ان هذا الرأي يجرأ الانسان على فعل المعصية وارتكاب الفاحشة وانما يستخرج هذا الرأي في الناس أصحاب الكبائر من الذنوب لما علموا أن ذنوبهم اذا ظهرت وانتشرت في العالم بعد ذهاب أيامهم وانقراض دولهم يكثر لعنهم وسبهم وشتمهم فاذا جرى ذلك كان في العالم من يحفظ هذا الرأي منهم فيذب ذلك عنهم ويقول لمن يسمع هذا منه أمسك فان كل شيء انما كان بقضاء الله وقدره وحكمه عليهم وان ما حكمه الله تعالى لا يقدر أحد على دفعه فيكون هذا تسكينا لما سمع من ذكرهم وأفعالهم وأعمالهم وقبائح ما أتوه من أفعالهم فوسوسوا لجهال الناس والنساء خصوصاً أن ما يفعلونه انما هو محكوم عليهم به لا يمكنهم دفعه فجعلوا هذا الاعتقاد مذهباً وأقدموا على المعاصي بهذه الحجة وأن رد واحد قولهم قيل له أنت كافر قدري فيقول انما قضاء الله تعالى وقدره يمكن أن يحترز منه ولم يعلموا ما القضاء والقدر ولم يطلبوا علمه من أهله ونشاء على ذلك الصغير واعتاده الكثير والى حيث انتهينا هو مذهب أكثر العوام وبعض من عنده انه متميز وانما ذكرت ذكرت هذا بحسب ما أوجبه ذكره في هذا الفصل

ثم اعلم أن أصل العداوة في الدنيا والدين الحسد كما قال الله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد فالحسد يخرب الديار ويوقع الفتن ويورث البغضاء والحقد والغضب والتعدي والظلم والجور وما شاكل ذلك وهو أيضاً من أكبر الاسباب في اختلاف الآراء والمذاهب وذلك اذا اتخذ رجل مذهبا ومال الناس اليه ورغبوا فيما عنده فيراه آخر من أبناء جنسه فيحسده ويجيل فكره ويعمل رأيه الى أن ينحت له من الحجج والكلام ما يفسد به ما أورده ولا يزال يطعن عليه ويسعى في فساده ويغلط في أصله ووضعه فهذا يكون سبب الاختلاف وتكثر المذاهب مع اعتمادهم على صدق صاحب الشريعة الذي أنزل عليه القرآن

واذا صح ذلك لهم كان فى اختلافهم منفعة لان في العرب كثير ممن يخالف

بعضهم فى كثير من اللغة العربية وانما أراد الله تعالى افهام الكل والافصاح عما بهم الحاجة اليه من أمر الدين والدنيا

وكان النبى ﷺ يجيب السائل من أمته بلغته ويكلمه ويكلمه بلسانه ، فاما غيرهم فانه يكلمهم صلى الله عليه وسلم بكلامهم وانما بعث اليهم وأقام فيهم وعلمهم وأرشدهم وسهل عليهم الالفاظ وضرب لهم المعاني وأخذهم بالملاطفة حتى فهموا الدين وتعلموا القرآن بلسان فصيح لايخطئ فيه ولا يغيره ولايبدله اذا كان صحيح الحفظ متقن التلقين . ولذلك ما يقال في الصلاة وفى الحج من التلبية والاحرام والدعاء والابتهال الى الله تعالى يقال فيه ولا يفهم ما سوى ذلك

ثم اعلم ان مثل الامة اذا تركت وصية نبيها واختلفت من بعده واعتمدت على رأيها وأرادت أن تملك عليها ملكا وتنصب فيما بينها خليفة بغير معرفة من الرسول ولا وصية منه ولا أرشاد ورأت فى اجتماعها منفعة لها وصلاحاً لامورها من غير نص ولا اشارة فمثلها كما يذكر مثل الغربان والبزاة فيما قيل فى أمثال الهند ان الغربان كان عليهم ملك منهم وكان بهم رحيما واليهم محسنا وان ذلك الغراب مات واختلفوا من جهة من يملكونه عليهم من بعده وتحاسدوا وخافوا أن تقع بينهم العدواة.

فقال بعضهم لبعض تعالوا حتى نجتهد فى الرأى ونجمع العلماء وأهل الفضل فينا ونعقد مجلسا للمشاورة فيمن يصلح لهذا الامر وفيمن ينبغي أن يكون ملكا علينا فاجتمعوا وتشاوروا وقالوا لا نرضى بأحد من أهل الملك الذي كان فينا مخافة أن يعتقد ويظن أن الملك انما ناله وارثا من أبيه وأقاربه فيسومنا سوء العذاب. وإذ كنا نحن نتولى اقامة من نقيمه كنا نحن أصحاب المنة عليه والاحسان عليه

قال أحدهم واذا كان الامر على هذا فعليكم باهل الورع والدين فان صاحب الورع والدين لايكاد يهجم على الامور الدنيوية ولايرغب فى الدنيا .

فقالوا له كيف لنا بذلك فقال لهم طوفوا واطلبوا من هذه صفته فانكم أن تظفروا به قدموه وكان بالقرب منهم باز قد كبر وخرف وضعفت قوته عن الصيد وانحل جسمه وتناثر ريشه من قلة المعيشة وتعذر القوة فبلغه خبر الغربان وما أجمعوا عليه فبرز من وكره الى حيث بمرهم عليه وأقبل يكثر التهليل والتسبيح ويظهر التخضع والتورع فاقبلت الطيور تعابر على رأسه فلا يولع بها ولا يمشي اليها فلما رأته الغربان على تلك الحال ظنوا أنه يفعل ذلك صلاحا وديانة فاجتمع بعضهم الى بعض وقالوا ما نرى في جماعة الطيور مثل هذا البازي وماهو عليه من الديانة والزهد فهلموا بنا نوله علينا فأتوا اليه وأخبروه بما عزموا عليه فانقبض من ذلك وأراهم من نفسه الزهادة فيما عزموا عليه فلم يزالوا به حتى قبل منهم فصار خليفة فيهم وملكا عليهم فقال في نفسه كنتم تحذرون من البلاء وما أراه الا وقد وقع بكم.

فلما تمكن منهم وقوى عليهم بما كانوا يأتونه من الرزق ويجعلون له من الاجرة على ذلك قوي جسمه ونبت ريشه وعادت اليه صحته أقبل يخرج كل يوم عدة من الغربان فيخرج عيونها ويأكل أدمغتها ويطرح ماسوى ذلك من أجسادها فأقام فيها مدة فلما دنت وفاته اعتمد على بعض أبناء جنسه فملكه عليهم فكان أشد منه وأعظم بلية وأكبر رزية فقالت الغربان بعضها لبعض بئس ما صنعنا بأنفسنا وقد أخطأنا ، فندموا من حيث لم تنفعهم الندامة وكان ذلك سبب الخلاف والمنازعة

فتفكر أيها الاخ في هذا المثل واعتبر به في أحوال من مضى ولا تغفل هذه الاشارات واياك واظهار المخالفة والعداوة والدخول فيما دخل فيه أهل الخلاف فتهلك بهلاكهم ويصيبك ما أصاب العقعق حيث وافق الحمام في ذلك الوقت ونحن نذكر هاهنا ماجرى بينهما

﴿ فصل ﴾

يقال ان جماعة من الحمام البري كانت تطير في الهواء لطلب الرعى فرآها عقعق

وقال في نفسه مالي لا أكون معها فلعلها تمضي الى موضع يكون به معاش فصار في جملتها وانتهوا الى موضع أفيح مراح من الارض وكان سبق اليه صياد فنصب شباكه ودفن فخاخه وطرح فيها حبوباً كثيرة وكمن في موضع لا يرى فقال الحمام بعضه الى بعض نمضي الى مكان وقال بعضها بل ننزل في هذا الموضع واختلفت وتنازعت فيما بينها حتى تضاربت وتحاربت ولم تزل ذلك حتى تقطعت الى تلك الارض ورأت تلك الحبوب فأقبلت الجماعة على التقاطها فأطبق الصياد عليها شباكه فهبطن فيها جميعاً فأخذها الصياد وأهلكها عن آخرها وهلك العقعق مع الحمامات جميعاً. واياك والمكان الذي تكون فيه المنازعة والخلاف وان جرى وأنت فيه فاخرج وابعد عنه. واياك والظلم والتعدي على من هو دونك فانك ان فعلت ذلك أصابك ما أصاب الذئب الذي جار على الثعالب وغصبها وأراد قتلها وقطع أرزاقها

فصل

وقد قيل في أمثال الهند ان ثعالب خرجت في طلب ما تأكل فرأت جملا ميتاً ففرحت به وقلن قد وجدنا ما نعيش به دهراً ولكننا نتخوف أن يضرب بعضنا بعضاً ولا ندع قوينا يغلب ضعيفنا ويجب أن نؤمر علينا في قسمة هذا الرزق من هو أقوى منا ليعطي كل واحد منا حقه ويأخذ لنفسه قسمة كالواحد منا ، فرضوا بذلك .

فبينما هم كذلك اذ مر بالثعالب ذئب فقلن هذا ذئب قد جاءنا وهو قوي أمين وكان أبوه ملكا في بعض الازمان وكان محسناً الينا وقد عولنا في ذلك عليه وهو لنا رضى فخاطبوه في ذلك وعرضوا عليه ما أرادوه فأجابهم اليه بعد مراودات كثيرة وقال لهم ستجدون كما تحبون وتولى أمرهم وقسم في ذلك اليوم بعض ذلك بينهم بالعدل . فلما كان الليل تفكر الذئب في نفسه فقال ان في قسمة هذا الجمل على هذه الثعالب عجزاً وسخافة رأي وما ينبغي لي أن أفعل ذلك لاني

ذو قوة وليس لهم قدرة وهذا رزق ساقه الله الي وخصني به دونهم فما الذي يدعوني الى اطعامها اياه والله يقسم لهم غيره وأنا أدخره لنفسي

فلما كان من الغد أصاب الجوع جماعة الثعالب فاجتمعت عليه فدفع اليها نصف الجمل فقسمه بينها كما فعل بالأمس وقال لاتعدن الى بعد يومكم هذا فلا رزق لكن عندي وان عاودتم جرى عليكن مني مكروه فعند ذلك علمت الثعالب انها وقعت في بلية فقال بعضها لبعض ان صاحبنا هذا خبيث فاجر ونراه يريد ظلمنا والتعدي علينا لانه ذو قوة وقد علم انه ليس فينا من يقوى عليه وقد طمع في الفوز بأرزاقنا وقال بعضهم لعله انما حمله على ذلك ما كان فيه من الضر ولعله اذا شبع منه قسم الباقي علينا وفى هذا اليوم يشبع فان جثة الجمل عظيمة وتلك الساعة يرجع الى خلق الكرام فقد قيل فى المثل لامروءة لضعيف ولاضيافة عند جائع ولا بد لنا من معاودته ومخاطبته

فلما كان من الغداة أتاه جماعة الثعالب وقلن يا أبا جعدة إنا جعلناك أميراً علينا ووليًا حتى لايظلم بعضنا بعضاً ورجونا فى فعلنا ذلك عدلك وفى أول يوم عدلت بيننا فى أول ولايتك وأطعمتنا فى مروءتك ثم أتيناك أمس فدفعت الينا النصف مما دفعت فى اليوم الاول وأتبعته باليأس مما لنا عندك دفعة واحدة وأغلظت القول علينا فانصرفنا عنك وقد ظننا بك خيراً فكن عند ظننا بك ولاتقصد ظلمنا ونحن ضعاف وقد أصابنا الجوع الشديد وقد رزقنا الله تعالى هذا الرزق فكل منه مايكفيك وأطعمنا منه وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين فأبى عليها وردها وزاد فى الغلظ لها وايأسها من كل خير لها عنده

فلما لم تجد حيلة اجتمعن وقلن كيف نعمل في أمر هذا الغادر الجائع فاجتمعت آراؤهن على أن يرفعن أمرهن الى الأسد اذ هو أقوى منه وهو ملك السباع كلها وأن يقصصن عليه قصتهن من أولها الى آخرها وجعلن له الجمل جعلا على

اهلاكه ثم يذهب كل واحد من هذه الثعالب بعد ذلك في طلب رزقه من ربه كما وعد وله الفضل علينا. فاجتمعت على ذلك وحضرت عند الاسد وقصت عليه القصة وتظلمت من الذئب فاغتاظ الاسد منه وأمرها أن تسير بين يديه فأتوه ووجدوه باركا على جثة الجمل يأكلها فقبض الأسد عليه فقطعه قطعة قطعة ومزقه ورد جثة الجمل على الثعالب وخلى بينه وبينهن ولذلك قيل مامن طامة الا وفوقها طامة

فصل

ثم اعلم ان السلطان الجائر قصير العمر لأن الله قاصم كل جبار عنيد ومهلك كل مارد ومعتد،وهو منصف المظلوم من الظالم فانه جلت قدرته يقول في بعض الكتب المنزلة أيها السلطان انما جعلتك خليفتي في أرضي والقيت عليك اسما من أسمائي وملكتك رقاب عبادي وبسطت يديك في بلادي لتنصف المظلوم من الظالم. فاذا كنت أنت الظالم وتعديت على الضعفاء من خلقي والمساكين من عبادي ، وصرت أنت الظالم وهم المظلومون ، فأنا ملك الملوك وسلطان السلاطين ، وأنا آخذ الحق منك . ثم أذن للمهلكين في اهلاكك وتخليدك في العذاب الأليم

ثم اعلم انك ان أقبلت على شهوات الدنيا وملاذها واغتررت بما فيها من الطيبات ومحاسن المرئيات واشتغلت بها عما لك فيه صلاح ونجاح في دار المعاد يوشك أن يؤتيك ما أصاب رجلا اجتاز في طريق كان يسلكه في نهر جرار ينحدر من جبال وعليه جسر يعبر عليه الناس

وانه لما صار على ظهر الجسر وقف ينظر الى جريان الماء فبينا هو كذلك اذ نظر الى سمكة كبيرة من أحسن أجناس السمك فقال في نفسه ما انصرف في يومي هذا الى بيتي بأحسن من هذه السمكة فأشويها وأجمع عليها أهلي وأولادي وآكل منها أكلة طيبة ولكن أخشى من جريان الماء ان يحول بيني وبين السمكة

ثم قويت شهوته ورام مقام السمكة بحيث يراها وقويت طبيعته في أخذها فنزع ثيابه ورمى بنفسه وغاص وراءها الى أن قبض على السمكة باحدى يديه وفرح بظفره بها واشتغل عن السباحة مخافة أن تفلت السمكة منه فغلبه الماء لشدة جريانه فزحزحه عن الموضع الذى نزل منه وأشرف على الهلكة وشح على السمكة ان يفلتها وينجو بنفسه فلم يزل ذلك حاله وهو يروم الخلاص بنفسه مع السمكة حتى حدره الماء الى جرف عظيم ينصب الى وهدة تحت الارض فغاص به فأتاه عامر النهر وكان يسكن ذلك الموضع . فقال ما تفعل في هذا المكان الذي لا يقع فيه أحد الا غرق وهلك

فقال أنا الذي تركت الطريق الواضح والمحجة اللائحة التى فيها النجاة والسلامة ووقعت في هذه المهلكة من أجل لذة يسيرة وشهوة حقيرة ٠ فقال له هلا خليت ما في يدك ونجوت بنفسك . فقال الطمع منى في السلامة والفوز بما كنت حدثت به نفسى . فقال انك جاهل وما أرى أحداً أولى منك بالغرق فوضع يده على رأسه فغرقه . فاذا تفكرت يا أخي في هذه الامثال والاشارات وقرأت على اخواننا أيدهم الله، كان ذلك ذكرى لك ولقومك ونعوذ بالله ان تكون ممن تنطبق عليه هذه القصة ولا أحد من اخواننا ولكن اتباعاً لقول الله تعالى حيث يقول لرسوله «فذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين»

فصل

وقد حكى أن بعض ملوك الهند لما دنت وفاته وكان مسلماً قد أحضر ولداً له قد كان أهلا للملك بعده ولم يكن له ولد سواه وقد علمه شيئاً من الحكمة وعرفه شيئاً من سياسة الملك

فقال له يابنى أوصيك بتقوى الله وطاعته وخشيته ومراقبته في أمر دنياك بعشر خصال تنتفع بها في الآخرة أولها وأولاها الاقرار بالتوحيد والابتهال اليه بالدعاء والتضرع بالليل والنهار . والثانية الاقرار برسله وتصديقهم والقبول منهم.

والثالثة التصديق بالكتب المنزلة من عنده عليهم . والرابعة حفظ الناموس وسياسة الناس . والخامسة التواضع لله وترك الفخر . والسادسة ترك الظلم والجور فان من ظلم عباد الله كان الله تعالى خصمه ومن كان الله خصمه فهو مخذول لا محالة. والسابعة ترك مخالطة النساء والاجتماع معهن والاصغاء الى قولهن فانها تفسد عقول الرجال اذا اصغوا اليهن. والثامنة ترك شرب المسكر فانه عدو العقل والعقل خليفة الله الباطن فمن سلط على خليفة الله عدوه دمره الله وذهب عقله بدخول عدوه عليه فاذا ذهب العقل فلا دين ولا علم ولا مروءة ولا حياء ولا مراقبة ومن عدم هذه الخصال كان موته صلاحاً عاماً . والتاسعة الكرم والسخاء وسماحة النفس والتفضل على سائر الناس صديق أم عدو فانه خلق يشرف صاحبه. والعاشرة صدق القول وأداء الأمانة الى البر والفاجر • وعليك يابني بعشر خصال أخرى تنفعك في دنياك وترى بها الخير والبر والبركة وزيادة الرزق أولها حسن الخلق . وثانيها حسن الادب وثالثها صدق الوعد والوفاء بالعهد . ورابعها العفو عند القدرة . وخامسها اصطناع الرجال وترك الحسد . وسادسها ان تحرص على ان لا يكون لك عدو وان كان لك عدو فيكون احسانك اليه عقوبتك له فان الله يكفيك مؤونته ويمكنك من ناصيته . وسابعها ترك التفريط فيما لديك من وديعة الله عندك وان لا تفعل الا ما يقربك اليه . وثامنها أن تكون مروءتك غالبة لشهواتك . وتاسعها ان لا تؤثر دنياك على آخرتك فان الله سبحانه اذا علم منك ذلك آتاك الدنيا فانه يقال ان الله عز وجل أوحى الى الدنيا يادنيا من خدمك فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه . وعاشرها ترك النظر فيما لا يعنيك وان لا تشتغل الا بما يشغلك الله تعالى به

وعليك يابني بعشر خصال أخرى يصلح الله تعالى بها ملكك ويثبت بها سلطانك: أولها أن تكون متفقداً لأهل مملكتك حتى لا يغيب عنك شيء من أمور صغيرهم وكبيرهم بل يكون علمك محيطا بجميع أعمالهم والثانية أن تقابل كل واحد من رعيتك على قدر عمله والثالثة أن يكون عدلك شاملا لهم والرابعة أن لا تجور عليهم والخامسة أن لا تسوي بين علمائهم وجهالهم في العطية والمنزلة والسادسة أن

تولى عليهم من قبلك الاخيار والاحرار واياك أن تولى عليهم العبيد والسوقة وأولاد الزنى

ثم اعلم أن أعمال ولاتك اليك منسوبة أن عدلوا قيل عدل السلطان وأن جاروا قيل جار السلطان والسابعة أن لا تستعمل من أصحاب الرأى والمشورة من هو مخالف لك في دينك فانه لاينصحك وان نصحك في أول مرة غشك فى أخرى والثامنة أن يكون وزيرك أرفع أهل زمانك درجة في الدين والدنيا جميعاً ويكون من الاخيار فقد قيل أن من لا أصل له فلا فرع له ومن لا فرع له لا ثمرة له وكل شجرة لا ثمرة لها فالنار أولى بها والتاسعة انصاف المظلوم من الظالم ومنع القوى من التعدى على الضعيف والعاشرة رد الحق الى أهله والانتصار لهم فاذا كملت لك هذه الخصال الثلاثون رجوت لك كمال الامور في الدين والدنيا والملك والسلطان واستوجبت أن تكون ملكا عادلا فتنال بذلك الحظوة من الله تعالى وحسن العاقبة في المعاد والمنقلب اليه

فتأمل أيها الاخ هذه الوصية وتدبرها وانظر شفقة هذا الملك العادل على ولده كيف رضى له ما كان يرضى لنفسه فهكذا يجب على الحكيم أن يوصى تلامذته وعلى النبى أن ينصح أمته ومن يخلفه فيهم لمقامه وخلافته من بعده وكان مما أوصى هذا الملك رعيته ما يأتي ذكره في هذا الفصل

فصل

ويقال انه لما فرغ من وصية ولده الذي أهله للملك بعده جمع علماء أهل مملكته وأولى الفضل والشرف فيهم من أهل المنازل والرتب الذين هم أصحابه وأسبابه فقال أيها العلماء الذين كانوا ولاة أمري وأهل سري وبطانتي قد كنتم لي نصحاء ومطيعين وحسنت طاعتكم لي بنية صادقة، وكانت ألسنتكم بشكري ودعائى وحسن الثناء على ناطقة، وكنت لكم مكرماً ولحقكم عارفاً وعليكم مشفقاً والى جماعتكم محسناً فكونوا لهذا الغلام مثل ما كنتم لي يكن لكم مثل ما كنت لكم. ثم قال لجمعهم اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا ولاتكم واياكم والخلاف والنفاق

والعداوة والمنازعة والمجادلة في أديانكم وآرائكم ومذاهبكم فان في ترك ذلك صلاحا لكم ولأنفسكم وجمع شملكم ودعة لقلوبكم ودفاعا عن بلادكم ولا يطمع فيكم عدوكم مادمتم على ذلك وان تركتم ماهو خير لكم واستبدلتم به ماهو شر لكم فعند ذلك يطمع فيكم عدوكم وتخرب بلادكم وتكون نفقتكم في ذلك أموالكم وأنفسكم وربما لايكون لكم قوة بذلك فتهلكوا عن بكرة أبيكم ولا تتعادوا في المذاهب ولا تتلاعنوا فتهلكوا عن بكرة أبيكم واعلموا أن في اجتماع الكلمة وترك الخلاف بركة لمن أقبل عليها وحصناً لمن التجأ اليها فأن القضيبين اذا جمعا وكانا ضعيفين وضم اليهما من جنسهما أضعاف عديدة حتى تكون قبضة فانه يعسر كسرها واذا فرقت كسرت باهون سعي وقد علمتم الذي عاهدتموني عليه وما وصيتكم به في أمر هذا الغلام الذي بيني و بينكم فاياكم والتغيير عليه ونقض العهد له فليس المنكوث عليه بأسوء حالا من الناكث فعليكم بالسمع والطاعة وأوفوا له يوف الله لكم وتوفوا له يف الله لكم وتمموا له فيه مابدأتم يتم الله لكم أفضل أموركم ويحسن حالكم على يديه فهذا هو ملككم وأخذ بعضده ودعا له وأشهد بعضهم بذلك على بعض وأشهد الله تعالى عليهم ولحقته سكرة الموت واعتقل لسانه وضعف جنانه وعرق جبينه واعتنقه ولده وفاضت روحه وحزن عليه أهل مملكته ثم قضى الله فيمن بعده بما أحبه وتصرفت بهم الاحوال. وانما ذكرت لك ذلك لعلك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتكون هذه الرسالة تذكرة لك ولجميع من وقف عليها وعاها تكون تذكرة لمن تذكر وعبرة لمن اعتبر وفقك الله تعالى وايانا وجميع اخواننا السداد انه رؤوف بالعباد

تمت رسالة علل اختلاف اللغات بتمامها وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الرسالة الاولى

من النفسانيات العقليات

في مبادىء الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين

وهي الرسالة الثانية والثلاثون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

فصل

اعلم أيها الاخ انا قد فرغنا من بيان علل اختلاف اللغات والكلام والاصوات ورسوم الخطوط والكتابات وكيفية مبادىء المذاهب والاعتقادات والآراء والديانات وختمنا الكلام في الطبيعيات عند ختمنا تلك الرسالة . ونريد الآن أن نشرح في القسمة الثالثة من النفسانيات العقليات حسبما وعدنا في صدر كتابنا ونذكر فيها ما يتعلق بتلك الرسائل على التوالي . منها هذه الرسالة الاولى في مبادىء الموجودات

فنقول على رأي فيثاغورث الحكيم الذي هو أول من تكلم في علم العدد وطبيعته ، قال : ان طبيعة الموجودات بحسب طبيعة العدد ، فمن عرف العدد وأحكامه وطبيعته وأجناسه وأنواعه وخواصه ، أمكنه أن يعرف كمية أجناس الموجودات وأنواعها وما الحكمة في كمياتها على ما هي عليه الآن ولم لم يكن

أكثر من ذلك ولا أقل منه ؟ . وذلك ان الباري تعالى لما كان هو مبدع علة الموجودات وخالق المخلوقات ومخترعها وهو واحد بالحقيقة من جميع الوجوه ، لم يكن من الحكمة أن تكون الأشياء كلها شيئاً واحداً من جميع الجهات ولا متباينة من جميع الوجوه ، بل يجب أن تكون الاشياء كلها واحداً بالهيولى كثيرة بالصورة ولم يكن أيضاً من الحكمة أن تكون الاشياء كلها ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية ، وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ بل كان الاحكم والاتقن أن تكون على ما هي عليه الآن بحسب الاعداد والمقادير ، وكان ذلك هو في غاية الحكمة والاتقان وذلك أن من الاشياء ما هي ثنائية . ومنها ما هي ثلاثية ورباعية وخماسيات ومسدسات ومسبعات ومثمنات ومتسعات ومعشرات وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ

فالاشياء الثنائية مثل الهيولى والصورة والجوهر والعرض والعلة والمعلول والبسيط والمركب واللطيف والكثيف والمشف وغير المشف والمظلم والمنير والمتحرك والساكن والعالى السافل والحار والبارد والرطب واليابس والخفيف والثقيل والضار والنافع والخير والشر والصواب والخطأ والحق والباطل والذكر والانثى . وبالجملة من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »

وأما الاشياء الثلاثية فمثل الابعاد الثلاثة التى هي الطول والعرض والعمق ، ومثل المقادير الثلاثة التى هي الخط والسطح والجسم ، ومثل الازمان الثلاثة التى هي الماضى والحاضر والمستقبل ، ومثل العناصر الثلاثة، التى هي الممكن والممتنع والواجب ، ومثل الامور الثلاثة التى منها رياضية وطبيعية والهية ، وبالجملة كل أمر ذي وسط وطرفين

وأما الاشياء الرباعية فمثل الطبائع الاربع التى هي الحرارة والبرودة واليبوسة ، ومثل الاركان الاربعة التى هي النار والهواء والماء والارض ومثل الاخلاط الاربعة التى هي الصفراء والدم والبلغم والسوداء ، ومثل الازمان الاربعة التى هي الربيع والصيف والخريف والشتاء ، ومثل الجهات الاربع التى هي المشرق والمغرب

والشمال والجنوب ، والاوتاد الاربعة التى هى الطالع والغارب ووتد الارض ووتد وسط السماء • ومراتب الاعداد التي هي الآحاد والعشرات والمئون والالوف وعلى هذا القياس اذا اعتبرت وجدت أشياء كثيرة مخمسات ومسدسات ومسبعات بالغا ما بلغ وقد توغلت المسبعة فى الكشف عن الاشياء السباعية فظهر لهم منها أشياء عجيبة فشغفوا بها وأطنبوا في ذكرها وأغفلوا ماسوى ذلك من المعدودات وكذلك أيضاً الثنوية أطنبوا فى الكشف عن الموجودات الثنائية فظهر لهم منها أشياء عجيبة فشغفوا بها وأغفلوا ما سوى ذلك من الموجودات ، وهكذا النصارى في التثليث والمثلثات ، وهكذا الطبيعيون أطنبوا في الطبائع الاربع والمربعات من الامور

وهكذا الخرمية أطنبوا في المخمسات من الامور ، وأهل الهند أيضا أطنبوا في المتسعات من أمور العدد والمعدودات

فأما الفيثاغوريون فأعطوا كل ذى حق حقه حتى قالوا ان الموجودات بحسب طبيعة العدد يعنون أن الاشياء الموجودة منها ما هو اثنان اثنان ومنها ما هو ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة وخمسة خمسة وهكذا بالغاً ما بلغ

وقالوا إن الواحد أصل العدد ومنشؤه ومن الواحد يتألف العدد قليله وكثيره وأزواجه وأفراده وصحيحه وكسوره ، فالواحد هو علة العدد كما أن البارى جلت أسماؤه علة الموجودات وموجدها ومرتبها ومتقنها ومتممها ومكملها ، وكما أن الواحد لا جزء له ولا مثل ، كذلك أن البارى جل ثناؤه لا شريك له ولا شبه ولا مثل ، وكما أن الواحد موجود في جميع الاعداد محيط بها ، كذلك ان البارى جل ثناؤه شاهد على كل موجود محيط به ، وكما أن الواحد يعطى اسمه لكل عدد ومقدار ، كذلك البارى جل ثناؤه أعطى الوجود لكل موجود ، وكما أنه ببقاء الواحد بقاء العدد ، كذلك ببقاء الباري جل ثناؤه بقاء الموجودات ودوامها وكما أن بالواحد بعد كل عدد ومقدار كذلك علم البارى تعالى محيط بكل شيء شاهد وغائب

وقالوا كما أن من تكرار الواحد نشوء العدد وتزايده، كذلك من فيض الباري وجوده نشأة الخلائق وتمامها وكمالها وكما أن الاثنين هو أول عدد نشأ من تكرار الوحد، كذلك العقل هو أول موجود فاض من وجود الباري عز وجل، وكما أن الثلاثة ترتبت بعد الاثنين كذلك النفس ترتبت بعد العقل، وكما أن الاربعة ترتبت بعد الثلاثة، كذلك الهيولى ترتبت بعد النفس، وكما أن الخمسة ترتبت بعد الاربعة كذلك الطبيعة ترتبت بعد الهيولى، وكما أن الستة ترتبت بعد الخمسة كذلك الجسم ترتب بعد الطبيعة، وكما أن السبعة ترتبت بعد الستة كذلك الافلاك ترتبت بعد وجود الجسم، وكما أن الثمانية ترتبت بعد السبعة كذلك الاركان ترتبت بعد الفلك، وكما ان التسعة ترتبت بعد الثمانية، كذلك المولدات ترتبت بعد الاركان، وكما ان التسعة آخر مرتبة الآحاد، كذلك المولدات آخر مرتبة الموجودات الكليات، وهي المعادن والنبات والحيوان، فالمعادن كالعشرات والنبات كالمئين، والحيوان كالالوف والمزاج كالواحد، وقالوا: العدد كله أزواج وأفراد وصحيح وكسور، فمراتب الموجودات التي في عالم الارواح بطبيعة الافراد أشبه، ومراتب الموجودات التي في عالم الاجساد بطبيعة الازواج أشبه ومراتب الموجودات التي في عالم الافلاك بطبيعة الاعداد الصحيحة أشبه، ومراتب الموجودات التي في عالم الكون والفساد بطبيعة الاعداد الكسور أشبه

فصل

اعلم أيدك الله وايانا بروح منه أن الوجود متقدم على البقاء والبقاء متقدم على التمام والتمام متقدم على الكمال، لان كل كامل تام وكل تام باق وكل باق موجود. ولكن ليس كل موجود باقياً ولا كل باق تاماً ولا كل تام كاملا: وذلك أن الباري جلت أسماؤه الذي هو علة الموجودات ومبدعها ومبقيها ومتممها ومكملها أول فيض فاض منه الوجود ثم البقاء ثم التمام ثم الكمال. وقد بينا في الرسالة التي ذكرنا فيها خواص العدد الفرق بين التمام والكمال فاعرفه من هناك إن شاء الله.

فصل

انه ينبغي لمن يريد النظر في مبادىء الموجودات ليعرفها على حقائقها أن يقدم أولا النظر في مبادىء الأمور المحسوسة ليروض بها عقله ويقوى بها فهمه على النظر في مبادىء الامور المعقولة ، لان معرفة الأمور المحسوسة أقرب من فهم المبتدئين وأسهل على المتعلمين فنقول :

ان الجسم أحد الموجودات المحسوسة وهو جوهر مركب من جوهرين بسيطين معقولين أحدهما يقال له الهيولى والآخر يقال له الصورة ، فالهيولى هو جوهر قابل للصورة والصورة هي التي بها الشيء ماهو . مثال ذلك : الحديد هيولى لكل مايعمل منه كالسكين والسيف والمنشار وغير ذلك ، فالسكين انما هي اسم للصورة وكذلك السيف والفأس لأن الحديد في كلها واحد والصورة مختلفة ،واختلاف الأسماء بحسب اختلاف الصور ، وكذلك أيضاً الخشب فانه هيولى لكل مايعمل منه كالباب والسرير والكرسي

وليس كل هيولى تقبل كل صورة لأن الخشب لايقبل صورة القميص ولا الشقة تقبل صورة الكرسي ولا الهيولى تقبل أى صورة تقدمت ، لان القطن لايقبل صورة الشقة ولاالغزل يقبل صورة القميص . لكن القطن أول مايقبل صورة الغزل وبتوسط صورة الغزل يقبل صورة الشقة ثم صورة القميص . وهكذا الطعام أول مايقبل صورة الدقيق ثم صورة العجين ثم صورة الخبز

وعلى هذا المثال يكون قبول الهيولى للصور المختلفة،الأول فالأول على الترتيب . وذلك أن الهيولى الأولى أول ماقبلت صورة الجسم الذي هو الطول والعرض والعمق ، ثم بتوسط الجسم تقبل سائر الصور من التدوير والتثليث والتربيع وماشا كل ذلك . والهيولى يقال على أربع جهات ، فأقربها الى الحس هيولى الصناعة مثل الخشب والحديد والقطن بحسب مابينا ، فان كل صانع لابد له من هيولى يعمل فيه ومنه صناعته . والثاني هيولى الطبيعة وهي النار والهواء والماء والارض ، وذلك أن كل شيء تعمله الطبيعة التي تحت فلك القمر من

الموجودات فان هذه الاركان الاربعة هيولى لها . والثالث هيولى الكل أعني الجسم المطلق الذي يعم الأفلاك والكائنات أجمع . والرابع الهيولى الاولى وهو جوهر قابل للصورة ، فأول صورة قبل هي الطول والعرض والعمق وكان بذلك جسما مطلقاً . وهذه الهيولى من المبادىء الأولى المعقولة

وذلك أن هذه الهيولى أول معلول النفس والنفس أول معلول العقل والعقل أول معلول الباري تعالى وان الباري تعالى علة كل موجود ومبدعه ومتقنه ومتممه ومكمله على النظام والترتيب الاشرف فالاشرف ، وترتيب الموجودات عنه كترتيب العدد عن الواحد الذي قبل الاثنين كما بينا في الرسالة التي ذكرنا فيها خواص العدد . فالعقل هو أول موجود أوجده الباري تعالى وأبدعه من غير واسطة ثم أوجد النفس بواسطة العقل ثم أوجد الهيولى ، وذلك أن العقل جوهر روحاني فاض من الباري عز وجل وهو باق تام كامل والنفس جوهرة روحانية فاضت من العقل وهي باقية تامة غير كاملة والهيولى الأولى جوهر روحاني فاض من النفس وهو باق غير تام ولا كامل

﴿ فصل ﴾

اعلم أن علة وجود العقل هو وجود الباري عز وجل وفيضه الذي فاض منه . وعلة بقاء العقل هو إمداد الباري عز وجل له بالوجود والفيض الذي فاض أولا وعلة تمامية العقل هي قبول ذلك الفيض والفضائل واستمداده من الباري تعالى وعلة كمال العقل هي افاضة ذلك الفيض والفضائل على النفس بما استفاده من الباري عز وجل فبقاء العقل إذاً علة لوجود النفس ، وتمامية العقل علة لبقاء النفس ، وكماله علة لتمامية النفس ، وبقاء النفس علة لوجود الهيولى ، وتمامية النفس علة لبقاء الهيولى . فمتى كملت النفس تمت الهيولى ، وهذا هو الغرض الاقصى في رباط النفس بالهيولى . ومن أجل هذا دوران الفلك وتكوين الكائنات لتكمل النفس باظهار فضائلها في الهيولى ، وتتم الهيولى بقبول ذلك . ولو لم يكن هذا هكذا لكان دوران الفلك عبثاً

واعلم يا أخي أن العقل انما قبل فيض البارى تعالى وفضائله التى هي البقاء والتمام والكمال دفعة واحدة بلازمان ولاحركة ولانصب لقربه من البارى عز وجل وشدة روحانيته . فأما النفس فانه لما كان وجودها من البارى جل ثناؤه بتوسط العقل صارت رتبتها دون العقل وصارت ناقصة في قبول الفضائل ولأنها أيضاً تارة تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل ، وتارة تقبل على الهيولى لتمدها بذلك الخير والفضائل . فاذا هي توجهت نحو العقل لتستمد منه الخير اشتغلت عن إفادتها الهيولى ذلك الخير واذا هي أقبلت على الهيولى لتمدها بذلك الفيض اشتغلت عن العقل وقبول فضائله

ولما كانت الهيولى ناقصة الرتبة عن تمام فضائل النفس وغير راغبة في فيضها احتاجت النفس إلى ان تقبل عليها اقبالا شديداً وتعنى باصلاحها عناية تامة فتتعب ويلحقها العناء والشقاء فى ذلك :

ولولا ان البارى عز وجل بفضله ورحمته أيدها بالعقل وأعانها على تخليصها لهلكت النفس في بحر الهيولى ، كما قال الله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً وأما العقل فليس يناله فى تأييده النفس وفيضه عليها فضائله، تعب ولا نصب لأن النفس جوهرة روحانية سهلة القبول تطلب فضائل العقل وترغب في خيراته وهى حية بالذات علامة بالقوة فعالة بالطبع قادرة صانعة بالعرض

وأما الهيولي فلبعدها من الباري — تعالى ذكره — صارت ناقصة المرتبة عادمة الفضائل غير طالبة لفيض النفس ولاراغبة في فضائلها ولاعلامة ولامفيدة ولاحية ، بل قابلة حسب . فمن أجل هذا يلحق النفس التعب والعناء والجهد والشقاء في تدبيرها الهيولى وتتميمها لها ، ولا راحة للنفس الا اذا توجهت نحو العقل وتعلقت به واتحدت معه . وسنشرح كيف يكون هذا فيما بعد ان شاء الله .

فصل

في سؤالات عن المباديء

كيف سريان الوجود في الموجودات — كيف سريان البقاء في الباقيات — كيف سريان الدوام في الدائمات — كيف سريان التمام فى التامات — كيف سريان الكمال في الكاملات — كيف سريان الحياة في الاحياء — كيف سريان العلم في ذوي العلم — كيف سريان القدرة في ذوي القدرة — كيف سريان الرياسة فى ذوي الرياسة — كيف سريان الربوبية في ذوي الأرباب — كيف سريان الكثرة من الوحدة المحضة .؟

وقال بعضهم ولنعم ماقيل : —

يامنير العالم الحسى بالعقل المنير	أنت مبديء الكل مازلت على مر الدهور
لم يزل في علمك العالم من قبل الظهور	متقن الصنعة كالصورة في وهم الضمير
ثم أظهرت إلى الوجدان إظهار البصير	جملة أبدعتها إبداع خلاق قدير

فصل

فى المباديء الروحانية والجسمانية معاً ومراتبها

اعلم أيها الاخ البار الرحيم ،أيدك الله وايانا بروح منه أن أول شيء اخترعه الله جل ثناؤه وأوجده ،جوهر بسيط روحانى في غاية التمام والكمال والفضل،فيه صور جميع الاشياء يسمى العقل الفعال ، وأن من ذلك الجوهر فاض جوهر آخر دونه فى الرتبة يسمى الرتبة الكلية ، وانبجس من النفس جوهر آخر يسمى الهيولى الاولى ، وأن الهيولى الأولى قبل المقدار الذي هو الطول والعرض والعمق ، فصارت بذلك جسما مطلقاً وهو الهيولي الثانية .

ثم ان الجسم قبل الشكل الكرى،الذي هو أفضل الاشكال،فكان من ذلك عالم الافلاك والكواكب ماصفى منه ولطف،الاول فالاول من لدن الفلك المحيط الى منتهى فلك القمر ،وهي تسع أكر بعضها فى جوف بعض : فأدناها الى المركز

فلك القمر ، وأبعدها وأعلاها الفلك المحيط ويسمى أيضاً الفلك الحامل للكل الذى هو الطف الافلاك جوهراً وأبسطها جسما ، ثم دونه فلك الكواكب الثابتة ثم دونه فلك زحل ، ثم دونه فلك المشترى ، ثم دونه فلك المريخ ، ثم دونه فلك الشمس ، ثم دونه فلك الزهرة ، ثم دونه فلك عطارد ، ثم دونه فلك القمر ، ثم دون فلك القمر الاركان الاربعة التى هى النار والهواء والماء والارض: فالارض هي المركز وهى أغلظ الاجسام جوهراً وأكثفها جرما.

ولما ترتبت هذه الأكر بعضها فى جوف بعض كما أراد باريها جل ثناؤه وكما اقتضت حكمته ، من لطيف نظامها وحسن ترتيبها ودارت الأفلاك بابراجها وكواكبها على الاركان الاربعة وتعاقب عليها الليل والنهار والشتاء والصيف والحر والبرد واختلط بعضها ببعض فامتزج اللطيف منها بالكثيف والثقيل بالخفيف والحار بالبارد والرطب باليابس ، تركبت منها على طول الزمان أنواع التراكيب التى هى المعادن والنبات والحيوان :

فالمعدن هو كل ما انعقد فى باطن الارض وقعر البحار وجوف الجبال من البخارات المتحللة والدخانات المتصاعدة والرطوبات المحتقنة في المغارات ، والاهوية والترابية عليها أغلب .

وأما النبات فهو كل مانجم على وجه الارض من العشب والكلأ والحشائش والبقول والزروع والاشجار ، والمائية عليها أغلب .

وأما الحيوان فهو كل جسم يتحرك ويحس وينتقل من مكان الى مكان بجثته والهوائية عليه أغلب .

فالمعادن أشرف تركيباً من الاركان ، والنبات أشرف تركيباً من المعادن والحيوان أشرف تركيباً من النبات ، والانسان أشرف تركيباً من جميع الحيوان ، والنارية عليه أغلب .

وقد اجتمع فى تركيب الانسان جميع معاني الموجودات من البسائط

والمركبات التي تقدم ذكرها ، لان الانسان مركب من جسد غليظ جسماني ومن نفس بسيطة روحانية .

فمن أجل هذا سمت الحكماء الانسان عالماً صغيراً والعالم انساناً كبيراً فالانسان اذا ماهو عرف نفسه بالحقيقة من غرائب تركيب جسده ولطيف بنية هيكله وفنون تصاريف قوى النفس فيه واظهار افعالها به ومنه من الصنائع المحكمة والمهن المتقنة تهيأ له أن يقيس عليها جميع معاني المحسوسات ويستدل بها على جميع معاني المعقولات من العالمين جميعاً

فينبغي لنا أيها الأخ أيدك الله وايانا بروح منه — إذا كنا عازمين على معرفة حقائق الموجودات — أن نبتدىء أولا بمعرفة أنفسنا إذ هي أقرب الاشياء الينا ، ثم بعد ذلك بمعرفة سائر الاشياء لانه قبيح بنا أن ندعى حقائق الاشياء ولا نعرف أنفسنا .

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه أن النفس الكلية انما هي قوة روحانية فاضت من العقل باذن الباري جل ثناؤه كما ذكرنا قبل وان لها قوتين اثنتين ساريتين في جميع الاجسام من لدن فلك المحيط الى منتهى مركز الارض كسريان ضوء الشمس في جميع أجزاء الهواء : فاحدى قوتيها علامة ، والاخرى فعالة ، فهي بقوتها الفعالة تتم الاجسام وتكملها بما تنقش فيها من الصور والاشكال والهيئات والزينة والجمال بالوان الاصباغ ، وبالقوة العلامة تكمل ذاتها بما يظهر من فضائلها من حد القوة الى حد الفعل من العلوم الحقيقية والاخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الصالحة والصنائع المحكمة والمهن المتقنة بحسب قبول شخص تأثيراتها بصفاء جوهره ولطافة جرمه

فصل

واعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه أن النفس جوهرها

لايبيد وقواها لاتفنى وأفعالها لاتنقطع ، لان مادتها من العقل بالتأييد لها دائم وقبولها منه الفيض سرمداً متصل .

وهكذا تأييد الباري تعالى للعقل دائماً وأبداً وفيضه متصل وقبول العقل لذلك متصل دائم لأن فضائل البارى تعالى لاتفنى وعطاياه لاتنقطع وفيضه لايتناهى لانه ينبوع الخيرات ،مبدأ البركات، ومعدن الجود وسبب كل موجود . فله الحمد والثناء ، والشكر والعطاء

فصل

واعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه أن النفس الكلية رتبتها فوق الفلك المحيط وقواها سارية فى جميع أجزاء الفلك وأشخاصه بالتدبير والصنائع والحكم ، وفي كل مايحوى الفلك من سائر الاجسام ، وان لها في كل شخص من أشخاص الفلك قوة مختصة به مدبرة له مظهرة منه أفعالها وان تلك القوة تسمى نفساً جزئية لذلك الشخص. مثال ذلك القوة المختصة بجرم زحل المدبرة له المظهرة منه وبه أفعالها يسمى نفس زحل

وهكذا القوة المختصة بجرم المشترى المدبرة له المظهرة به ومنه افعالها يسمى نفس المشترى .

وعلى هذا المثال والقياس سائر القوى المختصة بكوكب كوكب وجرم جرم من أجرام الفلك وأشخاصه المدبرة لها المظهرة بها ومنها أفعالها تسمى نفوساً لها وهذا هو حقيقة ما قد رمز اليه في الكتب الالهية أنهم الملائكة والملأ الاعلى وجند الله الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

وهذا هو حقيقة ماقالت الحكماء والفلاسفة في تفصيل النفوس الجزئية في عالم الافلاك والاركان المسمون الروحانيين الموكلين بحفظ العالم وتدبير الخلائق بادارة الافلاك وجريان الكواكب وتصاريف الدهور وتغاير الازمان ومراعاة الاركان وتربية النبات والحيوان وحفظهما

﴿ فصل ﴾

اعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه أن للنفس الكلية التى هى فوق الفلك المحيط قوة مختصة سارية في جميع الاجسام التى دون فلك القمر وهي مدبرة لها متصرفة فيها، مظهرة بها.

ومنها أفعالها ويسميها الفلاسفة والاطباء طبيعة الكون والفساد، ويسميها الناموس ملكا من الملائكة، وهى نفس واحدة ولها قوى كثيرة منبثة في جميع أقسام الحيوان والنبات والمعادن والاركان الاربعة من لدن فلك القمر الى منتهى مركز الارض.

وما من جنس ولا نوع ولا شخص من هذه الموجودات الا ولهذه النفس قوة مختصة به مدبرة له مظهرة به، ومنه أفعالها، وأن تلك القوة تسمى نفساً جزئية لذلك الشخص

﴿ فصل ﴾

اعلم أن أول قوة لهذه النفس فى هذه الاركان التى هي النار والهواء والماء والارض، هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة

وان أول افعال هذه القوى في هذه الاسطقسات هو التحريك والتسكين والتبريد والتسخين والتحليل والتجميد والتصعيد والتقطير والخلط والمزج والتأليف والتركيب والتصوير والتنقيش والتصبيغ وماشا كلها. وكل ذلك بفعل هذه القوى في هذه الاسطقسات بمعاونة قوى الاشخاص الفلكية لها باذن الله تعالى. مثال ذلك تحريكها لركن النار لتسخين العالم بمعاونة قوة الشمس لها دائماً وتسكينها لركن الارض بمعاونة قوة زحل لها دائماً، وتحليلها لركن الماء بالسيلان بمعاونة قوة المشترى لها دائماً، وتلطيفها لركن الهواء بمعاونة قوة المريخ لها دائماً، وتقطيرها لركن البخار الرطب بمعاونة قوة الزهرة لها دائماً، وتمزيجها لركن البخار اليابس بالبخار الرطب بمعاونة قوة عطارد لها دائماً، وامدادها للمولدات بركن العصارات بمعاونة ركن قوة القمر لها دائماً.

فصل

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وايانا بروح منه، ان أول فعل هذه القوي أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في تكوين المعادن صنعة الزئبق والكبريت : وذلك ان الرطوبات المحتقنة في باطن الأجسام الارضية والبخارات المحتبسة فيها اذا تعاقب عليها حر الصيف وحرارة المعدن لطفت وخفت وتصاعدت علواً الى سقوف تلك الأهوية والمغارات وتعلقت هناك زماناً، فاذا تعاقب عليها برد الشتاء غلظت وجمدت وتقاطرت راجعة الى أسفل تلك الاهوية والمغارات واختلطت بتربة تلك البقاع ومكثت هناك زماناً طويلا. وحرارة المعادن دائماً تعمل في إنضاجها وطبخها وتصفيتها فتصير تلك الرطوبة المائية ، بما يختلط بها من الاجزاء الترابية وما تأخذ من ثقلها وغلظها بطول الوقت وانضاج الحرارة لها ، زئبقاً رطبا ثقيلا . وتصير تلك الأجزاء الترابية التي في أسفل المعادن بما يمازجها من الرطوبة الدهنية وانضاج الحرارة لها كبريتاً محترقاً . فاذا اختلط الزئبق والكبريت مرة ثانية وتمازجا — والتدبير بحاله — تركب من امتزاجهما أجناس الجواهر المعدنية وأنواعها : مثال ذلك في تركيب الجواهر الذائبة أن الزئبق اذا كان صافياً والكبريت اذا كان نقياً واختلطا جميعاً اختلاطاً سوياً وشرب الكبريت رطوبة الزئبق كما شرب التراب نداوة الماء واتحدت أجزاؤهما على الاعتدال وكان مقداراهما متناسبين وحرارة المعدن تنضجهما على اعتدال ولم يعرض لهما عارض من البرد واليبس ، قبل انضاجهما، انعقد من ذلك على طول الزمان الذهب الابريز . فان عرض لهما البرد قبل النضج انعقد فصار فضة بيضاء ، فان عرض لهما اليبس من فرط الحرارة صارا نحاساً يابساً ، وان عرض لهما البرد قبل ان تتحد أجزاء الكبريت بأجزاء الزئبق صارا من ذلك رصاصاً قلعياً، وان عرض لهما البرد قبل النضج وكانت أجزاء الكبريت أكثر صارا حديداً وإن كان الزئبق اكثر والكبريت أقل والحرارة ضعيفة انعقد منهما الاسرب . وعلى هذا القياس تختلف سائر أجناس الجواهر المعدنية بسبب العوارض التي

تعرض لها من كثرة الزئبق والكبريت وقلتهما أو فرط الحرارة والبرودة قبل وقت نضجهما والخروج عن الاعتدال وما شاكل ذلك

فصل

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن الباري جل ثناؤه قد أيد النفس النباتية بسبع قوى فعالة : وهي القوى الجاذبة والقوة الماسكة والقوة الهاضمة والقوة الدافعة والقوة الغاذية والقوة المصورة والقوة النامية ، وانها تفعل بكل قوة من هذه فعلا خلاف ما تفعله بقوة أخرى . فأول فعلها في تكوين النبات هو جذبها عصارات الاركان الاربعة التى هي الارض والماء والهواء والنار ومصها لطائفها وما فيها من الاجزاء المشاكلة لكل نوع من أنواع النبات ثم امساكها لها بالقوة الماسكة لئلا تسيل وتحلل وتنعكس راجعة ، ثم تنضيجها لها بالقوة الهاضمة لتحيلها الى ذاتها، ثم دفعها لها بالقوة الهاضمة لتحيلها الى ذاتها، ثم دفعها لها بالقوة الدافعة الى اقطارها، ثم تغذيتها بالقوة الغاذية، ثم النمو والزيادة فيها بالقوة النامية ، ثم التصوير لها بأنواع الاشكال والاصباغ بالقوة المصورة . مثال ذلك أن القوة الجاذبة اذا امتصت نداوة التراب بعروق النبات وجذبتها كما يمص الحجام الدم بالحجمة أو كما تمص النار الدهن بالفتيلة انجذبت معها الاجزاء الترابية لشدة اتحادها بها ، فاذا حصلت تلك المادة في عروق النبات انضجتها القوة الهاضمة ، وصيرتها مشاكلة لجرم العروق وتناولتها القوة الغاذية وألزقت بكل شكل من تلك الاعضاء والمفاصل مايلائمه القوة المصورة وزادت النامية في أقطارها طولا وعرضاً وعمقاً، وما فضلت من تلك المادة ولطفت ورقت دفعتها القوة الدافعة الى فوق في أصول النباتات وقضبانها وفروعها وأغصانها، وجذبتها الجاذبة الى ماهناك ، وأمسكتها الماسكة كيلا تسيل راجعة الى أسفل. ثم ان القوة الهاضمة طبختها مرة ثانية وصيرتها مشاكلة لجرم الاصول والفروع والاغصان ، ومادة لها فزادت في أقطارها طولا وعرضاً وعمقاً . وما ثقلت من تلك المادة ولطفت ورقت دفعتها الدافعة الى أعلى الفروع والاغصان، وجذبتها

الجاذبة الى هناك . وأمسكتها الماسكة ، ثم ان القوة الهاضمة طبختها مرة ثالثة وصيرتها مشاكلة لجرم الورق والنور والزهر وأكمام الحب والثمر وما شاكل ذلك ، ومادة لها وزادت في أقطارها طولا وعرضاً وعمقا . وما الطفت من تلك المادة ورقت صيرتها مادة للحب والثمر وأمسكتها الماسكة هناك . ثم ان القوة الهاضمة طبختها مرة رابعة وأنضجتها ولطفتها وميزت منها اللطيف من الكثيف ، والغليظ من الدقيق وصيرت الغليظ والكثيف مادة لجرم القشر والنوى وزادت في أقطارها طولا وعرضاً وعمقاً وصيرت اللطيف والرقيق مادة للب والحب والثمر وهي الدقيق والشيرج والدهن والدبس والطعم واللون والرائحة

فاذا تناول الحيوان لب النبات ليتغذى به وحصلت تلك المادة في المعدة ، فأول فعل هذه القوى فيها فعل القوة الهاضمة بالحرارة الغريزية ثم تصفيتها في المعى وجذب الكيموس الى الكبد ، ثم تنضيجها مرة أخرى ثم تمييز الاخلاط بعضها من بعض وهي الدم والبلغم والمرتان . ثم دفعها الى الأعضاء والأوعية المعدة لقبولها ثم تقسيط الدم على الأعضاء والمفاصل بالأوراد ثم تغذيته لكل عضو بما يشاكله من تلك المادة ، ثم النمو والزيادة في أقطارها طولا وعرضاً وعمقاً . ثم استخراج النطفة من جميع أجزاء بدن الفحل عند حركة الجماع وهي زبدة الدم ، ثم نقلها الى رحم الأنثى بالآلات المعدة لذلك .

وأما فعل هذه القوى فى تركيب جسد الانسان عند حصول النطفة في الرحم وتدبيرها لها تسعة أشهر حالا بعد حال الى أن تستتم بنية الجسد وتستكمل هناك صورته فقد شرحناها فى رسالة أخرى غير هذه .

فاذا تمت له المدة المقدرة التى قدرها البارى جل ثناؤه نقلته قوة النفس الحيوانية الحساسة باذن الله تعالى من ذلك المكان الى فسحة هذه الدار استؤنف به تدبير آخر الى تمام أربع سنين . ثم ترد القوة الناطقة المعبرة لأسماء المحسوسات وتستأنف به تدبيراً آخر الى تمام خمس عشرة سنة . ثم ترد القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات وتستأنف به تدبيراً آخر الى تمام ثلاثين سنة . ثم ترد القوة

الحكمية المستبصرة لمعاني المعقولات وتستأنف به تدبيراً آخر تمام أربعين سنة . ثم ترد القوة الملكية المؤيدة وتستأنف به تدبيراً آخر الى تمام خمسين سنة . ثم ترد القوة الناموسية الممهدة للمعاد المفارقة للهيولى وتستأنف به تدبيراً آخر الى آخر العمر . فان تكن النفس قد تمت واستكملت قبل مفارقة الجسد نزلت قوة المعراج فرقت بها الى الملأ الأعلى وتستأنف تدبيراً آخر . وإن لم تكن النفس قد تمت واستكملت قبل مفارقة الجسد ردت الى أسفل سافلين ، ثم استؤنف بها التدبير من الرأس كما ذكر الله تعالى فقال « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين » وقال تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وقال سبحانه « ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً »

مسألة

أترى ماذا يقول ويعتقد من ينظر في مبادىء الأشياء ويتكلم عليها هل اخترعت كلها اختراعا في غاية التمام والكمال والفضل ثم تناقصت ورذل بعضها أم اخترعت كلها في غاية النقص ثم زادت وكملت وتمت وتفاضل بعضها على بعض ؟ أم بعضها هكذا وبعضها هكذا ؟

فصل

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل عالما بالكائنات قبل كونها قادراً على ايجادها متى شاء ، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ولا يفيضها . فاذاً بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين الشمس النور والضياء ، ودام ذلك الفيض منه متصلا متواتراً غير منقطع فيسمى أول ذلك الفيض العقل الفعال وهو جوهر بسيط روحاني نور محض في غاية التمام والكمال والفضائل ، وفيه صور جميع الاشياء ، كما تكون في فكر العالم صور المعلومات . وفاض من

العقل الفعال فيض آخر دونه في الرتبة يسمى العقل المنفعل وهي النفس الكلية وهي جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام ، كما يقبل التلميذ من الاستاذ التعليم

وفاض من النفس أيضاً فيض آخر دونها في الرتبة يسمى الهيولى الأولى ، وهي جوهرة بسيطة روحانية قابلة من النفس من الصور والاشكال بالزمان شيئاً بعد شيء • فأول صورة قبلت الهيولى الطول والعرض والعمق ، فكانت بذلك جسما مطلقاً وهو الهيولى الثانية ووقف الفيض عند وجود الجسم ولم يفض منه جوهر آخر لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية وغلظ جوهره وبعده من العلة الاولى . ولما دام الفيض من البارى تعالى على العقل ، ومن العقل على النفس عطفت النفس على الجسم فصورت فيه الصور والاشكال والاصباغ لتتمه بالفضائل والمحاسن بحسب مايمكن من قبول الجسم وصفاء جوهره .

فأول صورة عملت النفس في الجسم الشكل الكري الذي هو أفضل الاشكال كلها وحركته بالحركة الدورية التى هي أفضل الحركات ورتبت بعضها في جوف بعض من لدن الفلك المحيط الى منتهى مركز الارض وهي احد عشرة كرة ، فصار الكل عالماً واحداً منتظماً نظاما كليا واحداً ، وصارت الارض أغلظ الاجسام كلها وأشدها ظلمة لبعدها من الفلك المحيط ، وصار الفلك المحيط ألطف الاجسام كلها وأشدها روحانية وأشفها نوراً لقربها من الهيولى الاولى التى هي جوهر بسيط معقول . وصارت الهيولى أنقص رتبة من العقل والنفس لبعدها من الباري جل وعز

وذلك ان الهيولى هي جوهرة بسيطة روحانية معقولة غير علامة ولا فعالة بل قابلة آثار النفس بالزمان منفعلة لها . وأما النفس فانها جوهرة بسيطة روحانية علامة بالقوة فعالة بالطبع قابلة فضائل العقل بلازمان فعالة في الهيولى بالتحريك لها بالزمان ، وأما العقل فانه جوهر بسيط روحاني أبسط من النفس وأشرف منها قابل لتأييد البارى تعالى ، علام بالفعل مؤيد للنفس بلازمان . وأما البارى

تعالى فهو مبدع الجميع وخالق الكل . فالمبدع لايشبه المبدع ، وكذلك الخالق لايشبه المخلوق ، والفاعل لايشبه المفعول بوجه من الوجوه وسبب من الاسباب فتبارك الله رب العالمين وأرحم الراحمين

فانتبه أيها الاخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة قبل أن ينفخ في الصور وتقول ياحسرتى على مافرطت،وينادي المنادى من الملأ الأعلى ألا قد سعد فلان وشقي فلان ! واجتهد أن تكون من السعداء الذين هم من أصحاب اليمين وتكون في سدر مخضود وطلح منضود . واجتهد ألا تكون من الاشقياء الذين هم أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم واعتصم بحبل الله المتين واجتنب الشيطان الرجيم عسى أن تصير من الذين أنعم الله عليهم ، ولا تصير من المغضوب عليهم ولا الضالين

وفقك الله أيها الاخ البار الرحيم وجميع اخواننا للسداد ، انه رؤوف بالعباد

﴿ تمت رسالة مبادىء الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين

ويتلوها رسالة المبادىء العقلية على رأى اخوان الصفا ﴾

الرسالة الثانية

من النفسانيات العقليات

فى المبادىء العقلية على رأي اخوان الصفاء

وهى الرسالة الثالثة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

فصل

اعلم يا أخي ، أيدك الله وايانا بروح منه ، أنه قد بحث الفلاسفة والعلماء والحكماء فى مبادىء الموجودات عن أصول الكائنات فسنح لقوم منهم غير ماسنح للآخرين ، وذلك أنه سنح لقوم من الثنوية الامور المثنوية ، ولقوم من النصارى الامور الثلاثية ، ولقوم من الطبيعيين الامور الرباعية ، ولقوم اخرين السداسية ، ولقوم من الخرمية الامور الخماسية ، ولقوم آخرين الامور السداسية ، ولقوم آخرين الامور السباعية ، ولقوم آخرين من الموسيقيين الامور الثمانية . ولقوم آخرين من الهند الأمور التساعية وأطنبت كل طائفة في ذكر ماسنح لها وشغفت به وأغفلت ماسوى ذلك . فأما الحكماء الفيثاغوريون فأعطوا كل ذى حق حقه : اذ قالوا إن الموجودات ، بحسب طبيعة العدد كما سنبين طرفا منه فى هذه الرسالة ، وهذا مذهب إخواننا أيدهم الله وبحسب رأيهم فى وضع الاشياء مواضعها وترتيبهم حق مراتبها على المجرى الطبيعي والنظام الالهي

فصل

في معنى قول الفيثاغوريين إن الموجودات بحسب طبيعة العدد

اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه أن فيثاغورث كان رجلا حكيما موحداً من أهل حران وكان شديد العناية بالنظر في علم العدد وكيفية نشوئه، كثير البحث عنه وعن خواصه ومراتبه ونظامه، وكان يقول: ان في معرفة العدد وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الاثنين معرفة وحدانية الله عز وجل وفي معرفة خواص الاعداد وكيفية ترتيبها ونظامها معرفة موجودات الباري تعالى وعلم مخترعاته وكيفية نظامها وترتيبها، وان علم العدد مركوز في النفس يحتاج الى أدنى تأمل ويسير من التذكار حتى يستبين ويعرف بلا دليل

فصل

في مراتب الموجودات ونظام المخترعات وأنها مطابقة لمراتب الاعدد المفردات المتتاليات عن الواحد، وأن الكل محتاج الى الواحد. وعلى رأي الاخوان أن الواحد وما بعده محتاج الى الغير، وهو العاد

فصل

اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه أن الله جل ثناؤه لما أبدع الموجودات واخترع المخلوقات نظمها ورتبها في الوجود كمراتب الاعداد عن الواحد لتكون كثرتها دالة على وحدانيته وترتيبها ونظامها دالان على إتقان حكمته في صنعها، ولتكون أيضاً نسبتها الى الذي هو خالقها ومبدعها كنسبة الاعداد الى الواحد الذي قبل الاثنين الذي هو أصلها ومبدؤها ومنشأها كما بينا في رسالة الارثماطيقي: وذلك أن الباري جل ثناؤه لما كان واحداً بالحقيقة من جميع الوجوه والمعاني لم يجز أن يكون المخلوق المخترع واحداً بالحقيقة، بل وجب أن يكون واحداً متكثراً مثنوياً مزدوجاً، وذلك أن الباري جل ثناؤه أول ما بداء بفعل واحد مفعولا واحداً متحداً بفعله الذي هو علة العلل، فلم يكن واحداً بالحقيقة بل فيه

مثنوية . فلذلك قالوا إنه أوجد واخترع أشياء مثنوية مزدوجة وجعلها قوانين الموجودات وأصول الكائنات

فمن ذلك ما قالت الحكماء الفلاسفة : الهيولى والصورة ، ومنهم من قال النور والظلمة ، ومنهم من قال : الجوهر والعرض ، ومنهم من قال : الخير والشر ومنهم من قال : الاثبات والنفي ، ومنهم من قال : الايجاب والسلب ، ومنهم من قال : الروحاني والجسماني ، ومنهم من قال : اللوح والقلم ، ومنهم من قال : الفيض والعقل ، ومنهم من قال : المحبة والغلبة ، ومنهم من قال : الحركة والسكون ، ومنهم من قال : الوجود والعدم ، ومنهم من قال : النفس والروح ومنهم من قال : الكون والفساد ، ومنهم من قال : الدنيا والآخرة ، ومنهم من قال العلة والمعلول ، ومنهم من قال المبدأ والمعاد ، ومنهم من قال القبض والبسط

وعلى هذا القياس توجد أشياء كثيرة طبيعية مزدوجة أومتضادة كالمتحرك والساكن والظاهر والباطن والعالي والسافل والخارج والداخل واللطيف الكثيف والحار والبارد والرطب واليابس والزائد والناقص والجماد والنامي والناطق والصامت والذكر والانثى من كل زوجين اثنين .

وهكذا توجد تصاريف أحوال الموجودات من الحيوان والنبات كالحياة والممات والنوم واليقظة والمرض والصحة والألم واللذة والبؤس والنعمة والسرور والغمة والحزن والفرح والصلاح والفساد والضر والنفع والخير والشر والسعادة والمنحسة والادبار والاقبال .

وهكذا توجد احكام الأمور الوضعية والشرعية كالأمر والنهي والوعد والوعيد والترغيب والترهيب والطاعة والمعصية والمدح والذم والعقاب والثواب والحلال والحرام والحدود والاحكام والصواب والخطأ والحسن والقبيح والصدق والكذب والحق والباطل .

وعلى هذه الامور توجد الامور المثنوية المزدوجة المتضادة . وبالجملة من كل زوجين اثنين

واعلم يا أخي أنه لما لم يكن من الحكمة أن تكون الأمور الموجودة كلها مثنوية مزدوجة جعل بعضها مثلثات وبعضها مربعات ومخمسات ومسدسات ومسبعات ومازاد بالغاً ما بلغ كما سنذكر منها طرفاً بعد هذا الفصل إن شاء الله

واعلم يا أخي أن الموجودات كلها نوعان لا أقل ولا أكثر كليات وجزئيات حسب . فالكليات تسع مراتب محفوظ نظامها ثابتة أعيانها وهي كتسعة آحاد أولها الباريء الواحد الفرد جل ثناؤه ، ثم العقل ذو القوتين ثم النفس ذات الثلاثة الالقاب ، ثم الهيولى الاولى ذات الأربع الاضافات ، ثم الطبيعة ذات الخمسة الاسماء ، ثم الجسم ذو الست الجهات ، ثم الفلك ذو السبع المدبرات ، ثم الاركان ذات الثمانية المزاجات ثم المكونات ذات التسعة الانواع

﴿ فصل ﴾

واعلم ان الباري جل ثناؤه هو أول الموجودات كما ان الواحد هو قبل كل الاعداد . وكما ان الواحد هو نشوء الاعداد كذلك الباري موجد الموجودات وكما ان الاثنين أول الاعداد والاعداد ترتبت عن الواحد ، كذلك العقل أول موجود أبدعه الباري جل وعلا واخترعه ، فمنه غريزي ومكتسب دليل على رتبته في الموجودات . وكما أن الثلاثة ترتبت بعد الاثنين ، كذلك النفس ترتبت في الوجود بعد العقل وصارت أنواعها ثلاثة نباتية وحيوانية وناطقة لتكون دالة على رتبتها في الموجودات له ، ثم أوجد الباري جل ثناؤه الهيولى ، كما ترتبت الاربعة بعد الثلاثة

ومن أجل هذا قيل إن الهيولى أربعة أنواع : هيولى الصناعة . وهيولى الطبيعة ، وهيولى الكل ، والهيولى الاولى لتكون هذه الاربعة الاركان دالة على مرتبتها في الموجودات . ثم الطبيعة ترتبت بعد الهيولى كما أن الخمسة ترتبت بعد الاربعة .

ومن أجل هذا قيل إن الطبائع خمس : إحداها طبيعة الفلك ، وأربع تحت الفلك ، ثم ترتب الجسم بعد الطبيعة كما ترتبت الستة بعد الخمسة.

ومن أجل هذا قيل ان الجسم له ست جهات . ثم تركب الفلك من الجسم وترتب بعده كما ترتبت السبعة بعد الستة .

ومن أجل هذا صار أمر الفلك يجري على سبعة كواكب مدبرات ليكون دلالة على رتبته في الموجودات . ثم ترتبت الاركان في جوف الفلك كما ترتبت الثمانية بعد السبعة.

ومن أجل هذا قيل انها ذات ثمانية مزاجات . فالارض باردة يابسة ، والماء باردرطب ، والهواءحاررطب ، والنار حارةيابسة لتكون هذه الثمانيةالاوصاف دالة على رتبتها في الموجودات . ثم تولدت المولدات الثلاثةالاجناس ذاتالتسعة الانواع لتكون دالة علىمرتبتها في الموجودات الكليات وهي آخرها كلها ، كما أن التسعة آخر مرتبة الآحاد وهي الكائنات المولدات من الاركان الاربعة التي هي الامهات : وهي المعادن والنبات والحيوان . والمعادن ثلاثة أنواع : ترابية لاتذوب ولاتحترق كالزاجات والكحل ، وحجريذوب ولايحترق كالذهبوالفضة والنحاس وماشا كلها ، ومائيــة تذوب وتحترق كالكبريت والقير وغيرهما . والحيوان ثلاثة أنواع : منه مايلد ويضع ومنه مايبيض ويحضن ومنه مايتكون من العفونات . والنبات ثلاثة أنواع : منها مايغرس كالاشجار ، ومنها مايزرع كالحبوب ، ومنها ماينبت كالحشائش والكلأ

فقد تبين بما ذكرنا أن الموجودات الكليات هي هذه التسعة المراتب التي ذكرناها وشرحناها . وأما الأمور الجزئيات فداخلة في هذهالكليات التي تقدم ذكرها . وأما الأمور الموجودات المثلثات فان من الموجودات الثلاثية الهيولى والصورة والمركب منهما ، والجواهر والاعراض والمؤلف منهما ، والروحاني والجسماني والمجموع منهما ، ومثل المقادير الثلاثة التي هي الخطوط والسطوح والأجسام ، ومثل الابعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق ، والأزمان الثلاثة التي هي الماضي والحاضر والمستقبل ، والحركات الثلاث من الوسط والى الوسط وعلى الوسط . والأعداد الثلاثة التام والزائد والناقص ، والعناصرالثلاثة

التي هي الممكن والواجب والممتنع . وتقاسيم الأوتاد والزوائل ومايلي الوتد ، والمكونات الثلاثة : المعادن والنبات والحيوان . وبالجملة كل أمر ذي واسطة اوطرفين

ولما كانت الاربعة من الاعداد تالية للثلاثة وجب أن تكون أشياء رباعية للمثلثات في الوجود : فجعل الباري جل ثناؤه أشياء مربعات تاليات لها في الوجود .

فمنها الاركان الاربعة التي هي النار والهواء والماء والارض، والطبائع الاربع وهي البرودة واليبوسة والرطوبة والحرارة ، والاخلاط الاربعة الصفراء والسوداء والدم والبلغم ، والرياح الاربع الصبا والدبور والجرميا و التيمن ، والجهات الاربع المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، والاوتاد الاربعة الطالع والغارب والرابع والعاشر ، والازمان الاربعة الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وأيام العمر أربعة فصول : أيام الصبا وأيام الشباب وأيام الكهولة وأيام الشيخوخة، ومراتب الاعداد اربع : أحاد وعشرات ومئات وألوف .

وعلى هذا القياس اذا تأمل وجد كثيراً من مربعات ومخمسات ومسدسات ومسبعات ومثمنات ومتسعات ومعشرات ، ومازاد بالغاً مابلغ من المئات والألوف وعشرات الألوف ومئات الالوف وألوف الالوف .

وبالجملة مامن عدد من الاعداد الا وقد خلق الباري جل ثناؤه جنساً من الموجودات مطابقاً لذلك العدد ، قل أو أكثر ونريد أن نبين من ذلك طرفاً ليكون دليلا على ماقلنا وحقيقة لما ذكرنا :

أما المسدسات من الموجودات فاولها في طبيعة الافلاك وأقسام البروج وحالات الكواكب وذلك أن البروج الاثنى عشر : ستة منها ذكور وستة منها أناث وستة نهارية وستة ليلية وستة شمالية وستة جنوبية وستة مستقيمة الطلوع وستة معوجة الطلوع وستة من حيز الشمس وستة من حيز القمر وستة تطلع بالنهار وستة تطلع بالليل وستة ترى انها فوق الارض وستة لا ترى فهي تحت الارض

وأما الاحوال الست التى للكواكب فهي أن تكون في أوجاتها أوحضيضها او شرفها أو هبوطها أو مع رأس جو زهرها أو مع الذنب فهى ست أحوال

وأما الست الأخرى ، فهي أن يكن مقترنات أو متقابلات أو مربعات أو مثلثات أو مسدسات أو سواقط لاينظر بعضها الى بعض

وأما المسدسات من الامور التى تحت الفلك فهى الجهات الست التى تنسب الى الاجسام والستة الاخرى التى وضعت لمقادير الاوزان من الصنجات والاذرع والمكاييل والارطال كل ذلك بفعل الستة اذا كانت هي أول العدد التام

وأما السبعات من الامور الموجودة فتركنا ذكرها إذ كان قوم من أهل العلم قد شغفوا بها وأطنبوا في ذكرها وهى معروفة موجودة في أيدي أهل العلم .

وأما المثمنات فقد ذكرنا طرفا منها في رسالة الموسيقى لايحتاج الى اعادته

وأما المتسعات من الامور فقد شغف بها أيضاً قوم من أهل الهند وأكثروا من ذكرها ، وأيضاً رجل من أهل العلم يعرف بالكيال قد شغف بها وأكثر من ذكرها في كتب له معروفة موجودة فى أيدي أهل العلم

وقد ذكرنا أيضاً طرفا منها فى بعض رسائلنا وفي فصل من هذه الرسالة مما تقدم وقلنا ان الموجودات الكليات تسع مراتب فحسب لاأقل ولاأكثر مطابقة التسع الاحاد المتفق بين الامم كلها على وضعها لتكون الامور الوضعية مطابقة مراتبها للامور الطبيعية التى هي ليست من صنع البشر بل صنعة خالق حكيم سبحانه وبحمده

وأما الموجودات المخمسات فالكواكب الخمسة المتحيرة : زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد وانما سميت متحيرة لان لها رجوعا واستقامة .وليس للشمس ولا للقمر رجوع ولااستقامة

والاجسام الطبيعية الخمسة التى هي جسم الفلك والاربعة الاركان التى دونه من النار والهواء والارض والماء.

والخمسة الاجناس من الحيوان هي : الانسان والطير والسائح والمشاء ذو

الرجلين وذو الاربع والذي ينساب على بطنه .

والحواس الخمس الموجودة في الحيوان التام الخلقة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس

والخمسة الاجزاء الموجودة في النبات وهي الأصل والعروق والورق والزهر والثمر .

والخمسة الاشكال الفاضلة المذكورة في كتاب أقليدس وهي الشكل الناري ذو الاربعة السطوح المثلثات. والشكل الارضي ذو السطوح المربعات والشكل المائي ذو الثمانية السطوح المثلثات والشكل الهوائي ذو العشرين قاعدة مثلثات والشكل الفلكي ذو الاثني عشر قاعدة مخمسات

والخمس النسب الفاضلة الموسيقية وهي المثل والجزء والمثل والاجزاء والضعف والضعف والجزء والضعف الاجزاء .

والخمسة أولو العزم من الرسل : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم الصلاة والسلام.

والخمسة الايام الملقب اسماؤها بالعدد في جميع اللغات وهي بالعربية: الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس .وبالفارسية مثلها يك شنبه دوشنبه سه شنبه جهار شنبه بنج شنبه

والخمسة الايام المشرفة من جملة أيام السنة الفارسية في آخر أبار ماه وأسماؤها بالفارسية أهندكاه اسهدكاه اسفيدكاه همشتركاه استورستكاه.

ففي كون هذه الموجودات على هذه الاعداد المخصوصة دلالة لمن كان له عقل راجح وفهم دقيق وفطنة بان لله تعالى ملائكة هم صفوته من خلقه وخيرته من بريته اليهم تقع الاشارة بهذه الموجودات المقدمات المخصوصات، خلقهم لحفظ عالمه وجعلهم سكان سمواته ومدبري أفلاكه ومسيري كواكبه ومربي نبات أرضه ورعاة حيوانه. منهم السفراء بينه وبين أنبيائه من بني آدم فمنهم يقع الوحي والنبوات

وهم ينزلون بالبركات من السموات ، ويعرجون باعمال بني آدم وبارواحهم واليهم أشار في أكثر أحكام الشريعة ومفروضات سننها مثل الصلوات الخمس والزكاة الخمس والطهارة الخمس وشرائط الايمان الخمس وبنى الاسلام على خمس والفضلاء من أهل بيت النبوة خمسة . ومراقي منبر النبوات خمس . وفرائض الحج خمسة. والايام المعدودات بمنى وعرفات خمسة . والحروف المستعملة في أوائل سور القرآن من واحد الى خمسة

وكل هذه المخمسات إشارات ودلالات على خمسة من الملائكة مع كل واحد منهم خمسة آلاف من الملائكة الى خمسين ألفاً الى خمسة مائة ألف، وما زاد بالغاً مابلغ . واليهم أشار في عدة آيات من سور القرآن مثل قوله « تنزل الملائكة والروح » . « وما نتنزل الا بأمر ربك » وقوله تعالى «وما منا إلا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون » والى الخمسة الفاضلة من الملائكة أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « حدثني جبريل عليه السلام عن ميكائيل عن اسرافيل عن اللوح عن القلم » فقد تبين مما ذكرنا معنى قول الحكماء الفيثاغوريين أن الموجودات بحسب طبيعة العدد

فصل

في بيان نضد العالم وأنه كري الشكل

اعلم يا أخي أن الباري تعالى لما أبدع الموجودات واخترع المخترعات رتبها ونظمها وجمعها كلها في فلك واحد محيط بها من كل الجهات كما ذكر سبحانه وتعالى بقوله « وكل في فلك يسبحون »

فصل

اعلم أن الفلك المحيط كري الشكل مستدير مجوف وسائر الافلاك في جوفه مستديرات محيط بعضها ببعض كحلقة البيض والبصل وهي احدى عشرة أكرة، والشمس هي في أوسط الأكر : خمس من فوقا كرتها وخمس من دون اكرتها

فالتي فوق اكرتها اكرة المريخ ثم اكرة المشتري ثم اكرة زحل ثم اكرة الكواكب الثابتة ثم اكرة المحيط والتي دون اكرتها اكرة الزهرة ثم اكرة عطارد ثم اكرة القمر ثم اكرة الهواء ثم اكرة الارض التي هي المركز وهي ليست مجوفة ولكن متخلخلة لكثرة المغارات والكهوف والأهوية ، وأما الكوكب فانه أكريات مصمتات مستديرات كما بين في المجسطي بقياس هندسي

واعلم يا أخي أن الباري جل ثناؤه ،جعل شكل العالم كريا لان هذا الشكل أفضل الاشكال الخمسة من المثلثات والمربعات والمخروطات وغيرها ، وهو أيضاً اوسعها مساحة وأسرعها حركة وأبعدها من الآفات وأقطاره متساوية ومركزه في وسطه ، ويمكنه أن يدور في مكانه ولا يماس غيره إلا على نقطة وأجزاء متقاربة ، ويمكنه أن يتحرك مستديراً مستقيما ولا يمكن أن توجد هذه الخصال والصفات فى غيره . وقسم الفلك اثنى عشر قسما لأن هذا العدد زائدة أجزاؤه أكثر من كله ، فقد تبين مما ذكرنا أن هذا الشكل الاكري أفضل الاشكال وأن الباري عز وجل يفعل الأحكم والأتقن فنتج من هاتين المقدمتين أن شكل العالم مستدير ، وانما اقتضت الحكمة الالهية والعناية الربانية أن جعل الباري جل ثناؤه شكل العالم كريا مستديراً والافلاك والكواكب كذلك لما تبين من فضل هذا الشكل على سائر الأشكال الخمسة ، وجعل أيضاً حركات الكواكب والافلاك كرية مستديرة: وذلك أن كل كوكب من السبعة يدور في فلك صغير يسمى أفلاك التداوير ، وتلك الأفلاك الخارجة المراكز تدور في سطح فلك البروج المحيط بسائر الافلاك ، وهذا الفلك المحيط أيضاً يدور حول الارض في كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة من المشرق الى المغرب فوق الارض ، ومن المغرب الى المشرق تحت الأرض مثل الدولاب

فلو لم تكن الارض والفلك وكواكبه كريات مستديرات لما استوى هذا الدوران ولما استمرت حركات كواكبه على ماذكرنا وبينا في هذا الوصف . واذ قد تبين مما ذكرنا أن العالم كري الشكل مستدير فنريد أن نبين أيضاً أن تصاريف أموره

الجزئيات أيضاً مستديرة : فمن ذلك أن الارض بما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب أكرة واحدة ، والهواء لمحيط بها من جميع جوانبها وفلك القمر محيط بالهواء . كذلك ان شكل الجبال على بسيط الارض كل واحدة قطعة قوس من محيط الدائرة ، وكذلك شكل الأنهار والأودية ومحيط الاقاليم كل واحد قطعة قوس من محيط الدائرة . وهكذا حكم جريان مياه الانهار فانها تبتدىء من الأنهار في جريانها نحو البحار وتسقي القرى والسوادات وينصب الباقي الى البحار ويختلط بمياهها المالحة ، ثم يصير بخاراً و يرتفع في الهواء، ويتركب ويتكاثف ويصير غيوماً وسحاباً تسوقها الرياح الى رؤوس الجبال والبراري والقفار فتمطر هناك وتسيل منها أودية وأنهار وتجرى نحو البحار راجعة من الرأس ويكون منها البخار والغيوم مثل ما كان عام أول، دولاب يدور . و « ذلك تقدير العزيز العليم » وهكذا حكم النبات والحيوان والمعادن فانها تتكون من هذه الاركان وتنشأ وتتم وتكمل ثم تفسد وتبلى وتصير تراباً كما كانت بديا . ثم ان الله تعالي ينشيء منها مايشاء كما بدأ أولا يعيده مرة أخرى دولاباً يدور . وكذلك اذا نظرت وتأملت واعتبرت وجدت أكثر ثمار الاشجار وحبوب النبات وبذورها وأوراقها مستديرات الاشكال أو كريات أو مخروطات قريبة من الاستدارة .

وهكذا الثقب التي في أبدان الحيوان الى الاستدارة أقرب ماتكون . وهكذا أشكال أواني الناس وأدوات الصناع وأرحيتهم ودواليبهم وآبارهم والكيزان والغضائر والقدور والاقداح والقصاع والخواتم والقلانس والعمائم والحلي والتيجان أقرب الى التدوير

فاعلم ذلك أيها الأخ وتفكر فيه أعانك الله على المعرفة بحقائق الأشياء بمنه ولطفه . وصلى الله على النبي الخاتم وعلى الوصى القائم ،وعلى أولاده وبنيه وعترته آباء الأئمة المهتدين وأمراء المؤمنين الموحدين وسلم تسليما. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿ تمت رسالة المبادىء العقلية وتتلوها رسالة في معنى قول الحكماء: أن العالم انسان كبير ﴾

الرسالة الثالثة

من النفسانيات العقليات

في معنى قول الحكماء أن العالم انسان كبير

﴿ وهي الرسالة الرابعة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

﴿ فصل ﴾

اعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه إنا قد فرغنا من ذكر مراتب المبادىء العقلية على رأى اخوان الصفاء وبينا فيها بكلام مشبع أن الوجود متقدم على البقاء، والبقاء متقدم على التمام، والتمام متقدم على الكمال ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة معنى قول الحكماء ان العالم انسان كبير فنقول

اعلم ان قول الحكماء ان العالم انسان كبير وقولهم ان الانسان عالم صغير يجب أن نشرح معناه لتقف على حقيقته ، معنى ذلك أن العالم له جسم ونفس يعنون به الفلك المحيط وما يحوي من سائر الموجودات من الجواهر والأعراض ، وان حكم جسمه بجميع أجزائه البسيطة والمركبة والمولدة يجري مجرى جسم انسان واحد أو حيوان واحد بجميع أعضاء بدنه المختلفة الصور المفننة الاشكال ، وان حكم نفسه بجميع قواها السارية في أجزاء جسمه المحركة المدبرة لاجناس الموجودات وأنواعها وأشخاصها، كحكم نفس انسان واحد أو حيوان واحد السارية في جميع

اعضاء بدنه ومفاصل جسده، المحركة المدبرة لعضو عضو وحاسة حاسة من بدنه. وذلك قول الله تعالى « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » واذا قلنا نحن في رسائلنا: الجسم الكلي فانما نعني به جسم العالم بأسره ، واذا قلنا النفس الكلية فانما نعني بها نفس العالم بأسرها ، واذا قلنا العقل الكلي فانما نعني به القوة الالهية المؤيدة للنفس الكلية ، واذا قلنا الطبيعة الكلية فانما نعني بها قوة النفس الكلية السارية في جميع الاجسام المحركة المدبرة لها المظهرة بها ومنها أفعالها وآثارها ، واذا قلنا الهيولى فانما نعني به الجوهر الذي له طول أو عرض وعمق فهو بها جسم مطلق ، واذا قلنا الاجسام البسيطة فانما نعني بها الافلاك والكواكب والاركان الاربعة التي هي النار والهواء والماء والارض ، واذا قلنا الانفس البسيطة فانما نعني بها قوى النفس الكلية المحركة المدبرة لهذه الاجسام السارية فيها وهذه القوى نسميها الملائكة الروحانيين في رسائلنا ، واذا قلنا الاجسام المولدة فانما نعني بها أنواع الحيوان والنبات والمعادن ، واذا قلنا الانفس الحيوانية والنباتية والمعدنية فانما نعني بها قوى النفس البسيطة المحركة المدبرة لهذه الاجسام المولدة السارية فيها المظهرة بها ومنها أفعالها

فاذا قلنا الاجسام الجزئية فانما نعني بها أشخاص الحيوانات والنبات والمعادن وغيرها من المصنوعات على أيدي البشر وغيرهم من الحيوان

واذا قلنا الانفس الجزئية المتحركة فانما نعني بها قوى النفوس الحيوانية والنباتية والمعدنية السارية في الاجسام الجزئية المحركة المدبرة لها المظهرة بها ومنها أفعالها واحداً واحداً من الاشخاص الموجودة تحت فلك القمر ، فقد بان بهذا أن مجرى حكم العالم ومجاري أموره بجميع الاجسام الموجودة فيه مع اختلاف صورها وافتنان أشكالها وتغاير أعراضها يجري مجرى جسم الانسان الواحد من الناس أو الحيوان الواحد بجميع أجزائه المختلفة الصور ومفاصله المفتنة الاشكال وهيئته المتغايرة الاعراض ، وان حكم سريان قوى نفس العالم في جميع أجزاء جسمه كحكم سريان قوى نفس انسان واحد في جميع أجزاء بدنه ومفاصل جسده

فصل

واعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ان العالم الذي سميناه انساناً كبيراً ، في أجزائه ومجاري أموره أمثلة وتشبيهات دالات على مجارى أحكام العالم الذي هو انسان صغير فنريد أن نذكر من تلك الامثلة طرفاً ليكون أقرب لفهم المتعلمين ومن يريد أن يفهم حكم العالم ومجاري أموره في فروع الموجودات التي في العالم من أصولها ، تلك الاصول من أصول آخر قبلها الى أن تنتهي الى أصل يجمعها كلها كمثل شجرة واحدة لها عروق وأغصان وعليها فروع وقضبان وعلى تلك الفروع والقضبان أوراق وتحتها نور وثمار لها لون وطعم ورائحة ، ومن وجه آخر مجاري حكم الموجودات التي في العالم - فروعها من أصولها وأصولها من أصول أخر الى أن تنتهي كلها الى أصل واحد كمجرى حكم جنس الاجناس الذي تحته أنواع تسمي جنس المضاف ، وتحتها أنواع تسمى أنواع المضاف وتحت تلك الانواع أشخاص كثيرة مختلفة الصور والاشكال والهيئات والاعراض لا يحصى عددها الا الله عز وجل ومن وجه آخر مثل هذه الموجودات الجنسية والنوعية والشخصية مع جنس الاجناس كمثل قبيلة لها شعوب ، ولشعوبها بطون ، ولبطونها أفخاذ ، ولافخاذها عمائر ولها عشائر وأقارب ومن وجه آخر مجرى حكم العالم في جميع موجوداته كمجرى حكم شريعة واحدة فيها مفروضات كثيرة ولتلك المفروضات سنن مختلفة ، ولتلك السنن أحكام متباينة ولتلك الاحكام حدود متغايرة يجمعها كلها دين واحد لاهله مذاهب مختلفة ولكل أهل مذهب مقالات متغايرة ، وتحت كل قالة أقاويل كثيرة مفننة . ومن وجه آخر حكم العالم ومجارى أموره من فنون تركيب أفلاكه واختلاف حركات كواكبه واستحالة بعض أركانه الى بعض وتولد اختلاف الكائنات المختلفة الاشكال وافتنان أجناس نباته وفنون جواهر معدنه وسريان قوى النفس الكلية في هذه الاجسام وتحريكها إياها وتدبيرها لها وبها ومنها كمجرى حكم دكان لصانع

واحد وله فيه أدوات وآلات مختلفة الصور وله بها ومنها أفعال وحركات مفننة ومصنوعاتها مختلفات الصور والاشكال والهيئات وقوة نفسه سارية فيها كلها وحكمه جار عليها بحسب ما يليق بواحد واحد منها . ومن وجه آخر مجاري أحكام الموجودات الجسمانية في العالم مع اختلاف صورها وأعراضها ومنافعها للنفس الكلية كمجرى حكم دار فيها بيوت وخزائن ، وفي تلك الخزائن آلات وأواني وأثاث لرب الدار وله فيها أهل وخدم وغلمان وحكمه جار فيها وفيهم جميعاً وتدبيره لهم منتظم على اتقن ما تقتضيه السياسة الربانية والعناية الالهية . ومن وجه آخر حكم العالم الذي هو انسان كبير ومجارى اموره في الاجسام الكليات والبسائط والمولدات والمركبات الجزئيات وارتباط بعضها ببعض واحاطة بعضها ببعض من تركيب افلاكه ونظام كواكبه ومقادير اجرامها وترتيب اركانه واستحالاتها وقرار معادنه واختلاف جواهرها وانواع نباته وثبات اصولها وحركات حيوانه وتصرفها لمعايشها وسريان قوى النفس الكلية من اولها الى آخرها كحكم مدينة حولها اسوار وفي داخلها محال وخانات ونواح، فيها شوارع وطرقات واسواق في خلالها منازل ودور فيها بيوت وخزائن فيها أموال وأمتعة وأثاث وآلات وحوائج يملكها كلها ملك واحد له في تلك المدينه جيوش ورعية وغلمان وحاشية وخدم وأتباع وحكمه جار فى رؤساء جنده وأشراف مدينته وثناء بلده، وحكم اولئك الرؤساء والاشراف والثناء (١) جار في اتباعهم وحكم أتباعهم فيمن دونهم الى آخره ، وان ذلك الملك يسوس تلك المدينة وأهلها على أحسنها من مراعاة أمورهم واحداً واحداً صغيرهم وكبيرهم أولهم وآخرهم لا يخل بواحد منها

فهكذا يجري حكم النفس الكلية فى جميع أجزاء العالم من الافلاك والكواكب والاركان والمولدات والمركبات والمصنوعات على أيدي البشر كجريان حكم ذلك الملك على تلك المدينة .

---

(١) ثنا ثنوءاً بالمكان أقام به فهو ثانيء والجمع ثناء

وكذلك يسري حكمها في الأنفس البسيطة والجنسية والنوعية والشخصية في تصريفها لها وتحريكها وتدبيرها للموجودات الجسمانية وأجناسها وأنواعها وأشخاصها صغيرها وكبيرها وأولها وآخرها وظاهرها وباطنها.

ثم اعلم ان مثل النفس الكلية كجنس الاجناس والانفس البسيطة كالانواع لها . والانفس التي دونها كنوع الانواع ، والانفس الجزئية كالاشخاص مرتبة بعضها تحت بعض كترتيب العدد .

فالنفس الكلية كالواحد ،والبسيطة كالاحاد والجنسية كالعشرات والنوعية كالمئات والأنفس الجزئية الشخصية كالألوف — وهي التي تختص بتدبير جزئيات الاجسام والانفس النوعية مؤيدة لها .والجنسية مؤيدة للنوعية والنفوس البسيطة مؤيدة للجنسية.

والنفس الكلية التي هي نفس العالم مؤيدة للنفوس البسيطة والعقل الكلي مؤيد للنفس الكلية ،والباري — جل ثناؤه — مؤيد للعقل الكلي فهو مبدعها كلها ومدبر لها من غير ممازجة لها ولا مباشرة فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم اعلم أيها الأخ كما أن في تلك المدينة رجالا ونساء ومشايخ وشبانا وصبيانا فمنهم أخيار وأشرار وعلماء وجهال ومصلح ومفسد ، وأقوام مختلفو الطباع والاخلاق والآراء والاعمال والعادات فهكذا في العالم الكبير نفوس كثيرة بسيطة كلية و جزئية مختلفات الحالات :فمنها نفوس علامة خيرة فاضلة ، ومنها نفوس علامة شريرة رذلة . ومنها جاهلة شريرة ومنها جاهلة غير شريرة .

فالنفوس العلامة الخيرية الفاضلة هي أجناس الملائكة وصالحو المؤمنين والعلماء من الجن والانس ،والعلامة الشريرة مردة الشياطين وسحرة الجن والفراعنة والدجالون من الناس ، والجاهلة الشريرة أنفس السباع الضارية والجهال الاشرار من الناس،والجاهلة غير الشريرة أنفس بعض الحيوانات السليمة كالغنم والحمام وغيرها من الحيوان

فصل

ان أجساد بعض الحيوانات حبوس لنفوسها ومطامير لها وبعضها صراط يجوزون عليه وبعضها برزخ الى يوم يبعثون . وبعضها أعراف لها ، هم عليها واقفون .

وقد بينا هذه المعاني في رسالة أخرى . وكما أن لأهل تلك المدينة فيها مساجد وبيع وصلوات ولأهل العلم والدين فيها مجالس وجماعات وأعياد وصلوات فهكذا يجرى في فضاء الأفلاك وسعة السموات للملائكة جموع وتسابيح ودعوات كما ذكر الله تعالى « يسبحون الليل والنهار لايفترون » وقال الله تعالى « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم » وكما أن في تلك المدينة لأهلها فيها حبوس ومطامير، عليها شرط وأعوان ، فهكذا في العالم الكبير للنفوس الشريرة جهنم ونيران وهاوية عليها ملائكة غلاظ شداد — وهو عالم الكون والفساد

ثم اعلم أيها الأخ أنه ليس كل نفس وردت الى عالم الكون والفساد تكون محبوسة فيه ، كما أنه ليس كل من دخل الحبس يكون محبوساً فيه بل ربما دخل الحبس من يقصد إخراج المحبوسين منه ، كما أنه قد يدخل بلاد الروم من يستنقذ أسارى المسلمين ، وانما وردت النفوس النبوية الى عالم الكون والفساد لاستنقاذ هذه النفوس المحبوسة في حبس الطبيعة الغريقة في بحر الهيولي الأسيرة في الشهوات الجسمانية

وكما أن المحبوس اذا اتبع من دخل الحبس لاخراجه خرج ونجا ، كذلك من اتبع الانبياء في شرائعهم وسننهم ومناهجهم نجا وتخلص من جهنم وخرج من عالم الكون والفساد ونجا وفاز ولو كان بعد حين ، كما روى عن النبي ﷺ أنه قال « لايزال يخرج من النار قوم بعد قوم من أمتي بعد مادخلوها حتى لايبقى في النار أحد ممن قال لا إله إلا الله مخلصاً في دار الدنيا » وذلك قول الله تعالى

« وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » وكما أن في تلك المدينة لأهلها جنانا وميادين وأنهارا وبساتين وفيها مجالس لنزهة النفوس وبهجة وسرور ولذة ونعيم

فهكذا في فضاء الافلاك وسعة السموات لاهلها فيها فسحة وجنان وروح وريحان ونعمة ورضوان ، كما ذكر في التوراة والانجيل والقرآن من وصف الجنان.

فافهم يا أخي هذه الارشادات والتنبيهات وانتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وقد روي في الخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنان بالنهار على رؤوس أشجارها وأنهارها وأزهارها وتأوي بالليل الى قناديل معلقة تحت العرش وذلك قول الله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المحسنين » وكما ان لاهل تلك المدينة فيها لاهلها صناعا وعمالا لهم أجرة وأرزاق وفيها باعة وتجار يتعاملون بموازين ومكاييل ولهم مظالم وخصومات ولهم فيها قضاة وعدول ولهم فقه وأحكام وفصول وقضايا — وان من سنة القضاة البروز والجلوس لفصل القضايا في كل سبعة أيام يوم واحد فهكذا يجرى حكم النفس الكلية في الانفس الجزئية في كل سبعة آلاف سنة مرة تعرض النفوس الجزئية لدى النفس الكلية فتبرز النفس الكلية لفصل القضايا بينها بالحق . فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال « عمر الدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخر الف منها » وقال « لا نبي بعدي » وعلى آخر هذه المدة تقوم الساعة . والى هذه المدة أشار بقوله تعالى « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » وهذا الخطاب كان يوم الميثاق وهو يوم العرض الاول ويوم القيامة هو يوم

العرض الثاني الـكائن بينهما مدة سبعة أيام كل يوم كألف سنة كما قال الله تعالى « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » والى هذ اليوم أشار بقوله تعالى «ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » وقال « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا انك أنت علام الغيوب »وقال « كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين» وكما ان يوم الحـكم يقعد القضاة ويحضرون العدول ويدعي الشهود ويحشرون ثم الخصوم وتخرج الصكوك ويفصل الحـكم،فهكذا يوم عرض المحبوس يخرج الوالى ويحضر الاعوان ويخرجون المحبوسين وتتبين براءة قوم منهم فيطلقون وقوم تقام عليهم الحدود ويخلون ، وقوم يخلدون فى الحبس الى يوم الفصل الثاني، وهكذا يوم عرض النفوس،يخرج الوالى ويخرج الدواوين ويحضر الـكتاب ويدعو المنيبين للعرض وتعطى أرزاق المستحقين ويزاد قوم وقوم ينقصون ، ويثبت قوم وقوم يسقطون ، وهكذا تجري حكم النفس الـكلية في الانفس الجزئية يوم الدين لان الله تعالى جعل أحكام الدنيا ومجاري أمورها أمثلة وأشار بها الى أحوال القيامة ومجاري أمورها فاعتبروا ياأولى الابصار وتيقنوا ياأولى الالباب «ان ماعندكم ينفدوما عند الله باق » وانما ذكر الله الميزان والوزن والعدد يوم الحساب لان النصفة بين الناس لاتتبين لهم الا بالـكيل والوزن والعدد والذرع وهذه كلها كالموازين تعرف بها مقادير الاشياء فمن أجل هذا ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ولم يقل ونضع الميزان فان توهم متوهم أن الذى وعده النبي ﷺ الناس يوم القيامة من وزن الاعمال من الخير والشر ، وهذه أعراض لاتثبت وتتبين ، فكيف يكون وزنها ،فليعلم أن الوزن إنما يحتاج اليه ليعلم مقدار الشيء ليقابل بمثله أو يزداد عليه أو ينقص منه ، وهذا المعنى شائع في الاعراض،جار فيها مثل العروض الذي هو ميزان الشعر الذي به يعرف استواؤه وزائده وناقصه

والشعر عرض من الاعراض،ومثل البنكان والاصطرلاب وأمثالهامن الآلات يعرف بها مقادير الزمان من الزيادة والنقصان والاستواء . والزمان عرض من

الاعراض ومثل الذراع الذي يعرف به الطول والقصر والبعد والقرب والكبر والصغر ، وهي أعراض كلها . ومثل المسطرة والبركار يعرف بهما الاستواء والاعوجاج وهما عرضان . ومثل الصنجات والارطال يعرف بهما الثقل والخفة والزيادة والنقصان وهي أعراض كلها - فالذي ينكره المتوهم أن يكون لاعمال الخير والشر ميزان يعرف به مقدار الخير والشر وله قوم يعرفون كيفية وزن الاعمال وهي صناعتهم ، كما أن لتلك الموازين التي ذكرنا لكل واحد منها قوم هي صناعتهم ، واخواننا الفضلاء هم أهل هذه الصناعة واليها تدعو اخواننا الباقين .

تمت الرسالة . وبعد هذه زيادة لم توجد في سائر النسخ ولعلها زيدت من رسائل متقدمة

﴿فصل﴾

اعلم ايها الاخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه أن العالم بأسره كرة واحدة تنفصل احدى عشرة طبقة : تسع منها هي أفلاك كريات مجوفات مشفات وكواكبها أيضاً كلها كريات مستديرات مضيئات ، وحركتها كلها دورية وذلك ان الفلك المحيط بجميع مايحوى من الافلاك والكواكب يدور حول الارض في كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة وكذلك كل كوكب يدور في فلك مختص به أو دائر حركة دورية في زمان معلوم ، وكلما دارت دورة استأنفت ثانية كما وصفنا في رسالة مدخل النجوم ورسالة السماء والعالم ورسالة الأدوار والاكوار . ودون فلك القمر كرتان احداهما النار والهواء ، والاخرى الماء والارض . وكل واحدة منها كرية الشكل محيطات أواخرها متصلة بأوائلها . بيان ذلك أن النار متصل أولها بفلك القمر وآخرها بطبيعة الزمهرير . والزمهرير آخره متصل محيط بالماء والارض كما ذكرنا في رسالة الآثار العلوية . وأما الأرض بجميع جبالها وبحارها فهي كرة واحدة فاذا اعتبر شكل الجبال والأنهار على بسيط الأرض وتأمل، تبين أن كل واحد منها كأنه قطعة قوس من محيط الدائرة، وأما أشكال البحار فكل واحد كأنه قشر من سطح جسم كرى

فصل

وهكذا أحوال الكائنات اذا اعتبرت وتأملت تبين أن أكثرها كريات الشكل ومستديرات: من ذلك أن أكثر الاشجار وأوراقها وحب النبات ونوارها كريات الاشكال ومستديرات . وهكذا أكثر مصنوعات البشر كما بينا في رسالة الهندسة . وأما أحوالها فدائرة أيضاً بعطف أوائلها على أواخرها مثل دوران الزمان من الشتاء الى الربيع ، ومن الربيع الى الصيف ، ومن الصيف الى الخريف ومن الخريف الى الشتاء. وهكذا دوران الليل والنهار حول كرة الارض كما بينا في رسالة الهيولى.

وكذلك الحكم في دوران مياه الأنهار والبحار والغيوم والأمطار فانها كالدولاب الدائر . وذلك أن الغيوم والسحاب تنشأ من البخار الصاعد من البحار والانهار وتسوقها الرياح الى القفار ورؤوس الجبال وتمطر هناك فتجتمع السيول الى الأودية والأنهار فتذهب راجعة الى البحار ثم تصعد ثانية ، وذلك تقدير العزيز العليم . وكذلك حال النبات وتكوينه من التراب والماء والنار والهواء ورجوعه اليها في دورانها كالدولاب. وذلك أن النبات يبدو وينشأ ويتم ويكمل حتى اذا بلغ الى أقصى غاياته ومنتهاها رجع عند البلى والفساد إلى ما تكون منه . وبيان ذلك أن النبات يمتص بعروقه لطائف الاركان ويصير منه ورق وثمار يتناولها الحيوان بالاغتذاء فتستحيل في بعض أبدانه لحماً ودماً ، وبعضها ثقلا وسماداً ، ويرد الى أصول النبات ليغتذي منه ويصير حباً وثماراً ثانيا ويتناوله الحيوان أيضاً . فاذا تأمل هذا من حالها وجد كأنه دولاب دائر

وأما أجسام الحيوان فانها كلها تعود الى التراب وتبلى وتصير تراباً ، ويكون منها ثانياً النبات ومن النبات حيوان كما بينا قبل فاذا تأمل ذلك أيضا وجدكأنه دولاب يدور . وأما أحوال البشر اذا اعتبرت فكلها دائرة كالدواليب وذلك أن الانسان يبتدىء كونه من النطفة ثم ينشأ وينمو ويتم ويبلغ الى أن يتولد منه النطفة فينتهي العود الى حيث خرج لقضاء شهوته ونتاج مثله . وكذلك بدء

كونه ناقص القوة ضعيف البنية ثم يرتقي ويتزايد إلى ان يبلغ أشده ثم يأخذ في الانحطاط والنقص إلى أن يرد الى أرذل العمر كما كان بديا وكما ذكر سبحانه فقال : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون » وكما قال سبحانه « خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً.

فصل

واعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه أن لهذه الموجودات التى تحت فلك القمر نظاماً وترتيباً أيضاً في الوجود والبقاء وهى مرتبة بعضها تحت بعض متصل أواخرها باوائلها كترتيب العدد وترتيب الافلاك .

بيان ذلك انه لما كان ترتيت أجزاء العالم محيطات بعضها ببعض وهى إحدى عشرة كرة تسع منها في عالم الافلاك أولها من لدن فلك المحيط وآخرها الى منتهى فلك القمر وأواخرها متصلة باوائلها كما بينا فى رسالة السماء والعالم ، وكان اثنان منها دون فلك القمر وهي كرة النار والهواء وكرة الماء والارض ،وهى مقسومة على أربع طبائع أولها الاثير وهو نار ملتهبة دون فلك القمر ودونه الهواء وهو جسم سيال ودونه الزمهرير والبرد المفرط ودونه الماء المفرط : الرطوبه ودون الارض المفرطة اليبس .

وهذه الاربعة محفوظة كلياتها فى مراكزها ومتصلة أواخرها بأوائلها مستحيله جزئياتها بعضها الى بعض كما بينا فى رسالة الكون والفساد.

فأما الكائنات منها التى هى جزئياتها فهى المعادن والنبات والحيوان ولها نظام وترتيب متصل أواخرها بأوائلها كترتيب الأفلاك والأركان . بيان ذلك

أن المعادن متصلة أوائلها بالتراب و أواخرها بالنبات أيضاً والنبات متصل آخره بالحيوان والحيوان متصل آخره بالانسان ، والانسان متصل آخره بالملائكة ، والملائكة أيضاً لها مراتب ومقامات متصلة أواخرها بأوائلها كما بينا في رسالة الروحانيات. ونريد أن نذكر في هذا الفصل مراتب الكائنات من الاركان الاربعة التي هي المعادن والنبات والحيوان فنقول : إن المعادن اذا تأملت وجدت إما مما يلي التراب فهو الجص ، وإما مما يلي الماء فهو الملح . وذلك أن الجص هو تراب رملي يقبل الامطار ثم ينعقد ويصير جصاً ، وأما الملح فانه ماء يمتزج بالتربة السبخة ثم ينعقد فيصير ملحاً

وأما أواخر المعادن مما يلي النبات فهو الكمأة والفطر وما شاكل ذلك وذلك ان هذا الجنس من الكائنات يتكون في التراب كالمعدن ثم ينبت في المواضع الندية في أيام الربيع من الامطار كما ينبت النبات ولكن من أجل أنه ليس له ثمرة ولا ورقة ويتكون في التراب كما تتكون الجواهر المعدنية وعلى اشكالها صار يشبه المعادن ، ومن جهة أخرى يشبه النبات

فأما باقي أنواع الجواهر المعدنية ففيما بين هذين الحدين أعني الجص والكمأة وقد بينا في رسالة أنواعها وأجناسها وخواصها ومنافعها

وأما النبات فاقول إن هذا الجنس من الكائنات متصل أوله بالمعدن كما بينا في رسالة المعادن وآخره بالحيوان أيضاً . بيان ذلك أن أول مرتبة النباتية وأدونها مما يلي التراب وهو خضراء الدمن ليس بشيء سوى غبار يتلبد على الارض والصخور والاحجار ثم يصيبه بلل الامطار وندا الليل فتصبح بالغداوات خضراء كأنها نبت زرع وحشائش فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار رجعت ثم تصبح من غد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن الا في ايام الربيع في البقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما لان هذا معدنه نباتي وذلك نبات معدني.

فصل

وأما النخل فهو آخر مرتبة النباتية مما يلي الحيوانية : وذلك ان النخل نبات حيواني لان بعض أفعاله وأحواله مباين لاحوال النبات وان كان جسمه نباتاً. بيان ذلك ان القوة الفاعلة فيه منفصلة من القوة المنفعلة .

والدليل على ذلك ان أشخاص الفحولة منه مباينة لاشخاص الأناث ، وللفحولة من أشخاصه لقاح في أناثها كما يكون ذلك في الحيوان.

وأما سائر النبات فان القوة الفاعلة منه ليست بمنفصلة من المنفعلة بالشخص بل بالفعل حسب كما بينا في رسالة النبات

وأيضاً فان النخل اذا قطعت رءوسها جفت وبطل نموها ونشوءها وماتت وكذلك موجود في الحيوان : فهذا الاعتبار يبين أن النخل نبات بالجسم حيوان بالنفس : إذ كانت أفعاله أفعال النفس الحيوانية وشكل جسمه شكل نباتي

وفي النبات نوع آخر فعله أيضاً فعل النفس الحيوانية ولكن جسمه جسم نباتي وهو الكشوث : وذلك ان هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الارض كما يكون لسائر النبات ولا له أوراق كاوراقها بل انما يلتف على الاشجار والزروع والشوك فيمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذي يدب على ورق الاشجار وقضبان النبات وتقرضها فيأكلها ، ويتغذى هذا النوع من النبات وان كان جسمه يشبه النبات فان فعل نفسه فعل الحيوان . فقد بان مما وصفنا أن آخر رتبة النباتية متصل بأول الحيوانية ، وأما سائر مراتب مرتبة النباتية ففيما بين هذين

فصل

واعلم يا أخي بأن أول مرتبة من الحيوانية أيضاً متصلة بآخر النبات ، كما أن أول النباتية متصل بآخر المعدنية وأول المعدنية متصل بالتراب والماء كما بينا قبل

فأدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له الا حاسة واحدة فقط وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذى فى سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة يتغذى بها جسمها ، فاذا أحست برطوبة ولين انبسطت إليه ، فان أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الانبوبة حذراً من مؤذ لجسمها أو مفسد لهيكلها وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا اللمس فحسب . وهكذا أكثر الديدان التى تتكون فى الطين فى قعور البحار وأعماق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم لأن الحكمة الالهية لا تعطي الحيوان عضواً لا يحتاج في جر المنفعة أو دفع المضرة، لأنه لو أعطاها مالا تحتاج اليه كان وبالا عليها فى حفظها لبقائها . فهذا النوع حيوان نباتى لأنه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات ويقوم على ساقه قائما ، وهو من أجل أنه يحركه حركة اختيارية حيونى ، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة فى الحيوانية

أما تلك الحاسة فقد شارك بها النبات : وذلك أن النبات له حس اللمس حسب ، والدليل على ذلك إرساله العروق نحو النهر فى المواضع الندية وامتناعه عن إرسالها نحو الصخور واليبس وأيضا فانه متى اتفق منبته فى مضيق مال وعدل عنه طالبا للفسحة والسعة فان كان فوقه سقف يمنعه من الذهاب علوا وترك له ثقب من جانب مال إلى نحو تلك الناحية التى اذا طال طلع من هناك ، وهذه الافعال تدل على أن له حسا وتمييزاً بمقدار الحاجة . فأما حس الألم فليس للنبات ، وذلك لأنه لم يلق بالحكمة الالهية أن تجعل للنبات ألما وهى لم تجعل له حيلة الدفع ، كما جعلت للحيوان ، وذلك أن الحيوان لما جعل له أن يحس بالألم جعلت له أيضا حيلة الدفع إما بالفرار والهرب وإما بالتحرز وإما بالممانعة . فقد بان مما وصفنا كيفية مرتبة الحيوانية مما يلى النبات فنريد أن نذكر ونبين كيفية مرتبة الحيوانية مما يلى الانسانية — ليست من وجه واحد ولكن من عدة

وجوه — وذلك أن رتبة الانسانية لما كانت معدن الفضائل وينبوع المناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان ، ولكن عدة أنواع فمنها ما قارب رتبة الانسانية بصورة جسده مثل القرد ، ومنها بالاخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه وكالطائر الانسى أيضا ، ومثل الفيل في ذكائه وكالببغاء والهزار ونحوهما من الاطيار الكثيرة الاصوات والألحان والنغمات ، ومثل ذلك النحل اللطيف الصنائع إلى ماشا كل هذه الاجناس ، وذلك انه مامن حيوان يستعمله الناس أو يأنس بهم إلا وله في نفسه شرف وقرب من نفس الانسانية

فأما القرد فلقرب شكل جسده من شكل جسد الانسان صارت نفسه تحاكي أفعال النفس الانسانية وذلك منه متعارف بين

وأما الفرس الكريم فانه قد بلغ من كرم اخلاقه أن صار مركبا للملوك ، وذلك انه ربما بلغ من حسن أدبه أن لايبول ولا يروث مادام بحضرة الملك أو حامله وله أيضاً مع ذلك ذكاء واقدام في الهيجاء وصبر على الطعن والجراح كما يكون للرجل الشجاع كما وصف الشاعر حيث يقول :

واذا شكى مهرى الى جراحة عند اختلاف الطعن قلت له أقدما
لما رآنى لست أقبل عذره عض الصميم على اللجام وحمحما

وأما الفيل فانه يفهم الخطاب بذكائه ويمتثل الامر والنهي كما يمتثل الرجل العاقل المأمور المنهي . وهذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوانية مما يلى رتبة الانسان لما يظهر منها من الفضائل الانسانية

وأما باقى أنواع الحيوانات ففيما بين هاتين المرتبتين ، وإذ قد فرغنا من ذكر مراتب الحيوانية مما يلي رتبة الانسانية فينبغي أن نذكر أول مرتبة الانسانية مما يلي الحيوانية

﴿ فصل ﴾

اعلم يا أخي أن ادون رتبة الانسانية مما يلى الحيوانية هي رتبة الذين لا يعلمون من الامور المحسوسات ولايعرفون من الخيرات الا الجسمانيات ، ولا يطلبون

الاإصلاح الاجساد ولا يرغبون إلا في الدنيا ولا يتمنون الا الخلود فيها مع علمهم أنهم لا سبيل لهم إلى ذلك ! ولا يشتهون من اللذات إلا الأكل والشرب مثل البهائم ولا يتنافسون الا فى الجماع والنكاح كالخنازير والحمير ، ولا يحرصون إلا في جمع الذخائر متاع الحياة الدنيا يجمعون مالا يحتاجون اليه كالنمل ويخبأون مالا ينتفعون به كالعقائق ، ولا يعرفون من الزينة الا صباغ اللباس كالطواويس يتهارشون على حطام الدنيا كالكلاب على الجيف وان كانت صورتهم الجسدانية صورة الانسان فان افعال النفوس الحيوانية والنباتية

فصل

اعلم ايها الأخ ماعلمت وأعمل بما أودعت أعاذك الله أيها الأخ البار الرحيم من نزغات الشيطان الرجيم ووفقك الله وايانا وجميع إخواننا بمنه الكريم

(تمت رسالة معنى قول الحكماء إن العالم انسان كبير ويليها رسالة العقل والمعقول)

الرسالة الرابعة

من النفسانيات العقليات

في العقل والمعقول

﴿ وهي الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

اعلم أيها الاخ أيدك الله وإيانا بروح منه أنا قد فرغنا من بيان قول الحكماء ان العالم إنسان كبير وأوردنا المثالات والاشارات والتشبيهات حسب ماجرت عادة اخواننا الكرام قد سبق منا ذكر المبادىء العقلية وبينا فيه كيفية اختراع الموجودات وتكوين المخلوقات ، وكذلك قد سبق منا في رسالة الحاس والمحسوس بيا أن المحسوسات كلها أعراض جسمانية وهي كلها في الهيولى الجسماني ، وأن إدراك النفس لها بطريق الحواس بقوتها الحاسة وأن الحواس كلها آلات جسدانية وأن الحس هو تغيير مزاج تلك الحواس عند مباشرة المحسوسات لها وأن الاحساس هو شعور القوى الحساسة بتغيير تلك الأمزجة فنريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقبة بالعقل والمعقول ونبين أن المعقولات أيضاً كلها صور روحانية تراها النفس في ذاتها وتعاينها في جوهرها بعد مشاهدتها لها في الهيولى بطريق الحواس إذا هي انتبهت من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ونظرت بعين البصيرة الى نور العقل واستضاءت بضيائه وتجملت ببهائه

واعلم يا أخي أن العقل اسم مشترك يقال على معنيين : أحدهما ماتشير به الفلاسفة إلى أنه أول موجود اخترعه الباري جل وعز وهو جوهر بسيط روحاني محيط بالأشياء كلها إحاطة روحانية . والمعنى الآخر مايشير به جمهور الناس إلى أنه قوة من قوى النفس الانسانية التى فعلها التفكر والروية والنطق والتمييز والصنائع وماشا كلها ، فنريد أن نتكلم في هذه القوة ونبين أقسامها ونصف أفعالها وكيفية إدراكها صور المعلومات في ذاتها وجوهرها

واعلم يا أخي أنه لما كان العقل الذي نحن في ذكره قوة من قوى النفس الانسانية هي أيضاً قوة من قوى النفس الكلية والنفس الكلية هي فيض فاض من العقل الكلي الذي هو أول فيض فاض من الباري جل وعز وهي كلها تسمى موجودات أولية احتجنا أن نذكر أولا أقسام الموجودات ومامعنى الموجود ، ومعنى الوجود والعدم وطرق العلم بها

واعلم يا أخي أن لفظة الموجود مشتقة من وجد يجد وجداناً فهو واجد وذاك موجود ، فالموجود يقتضى الواجد لأنهما من جنس المضاف . وقد بينا معنى جنس المضاف في رسالة المنطق

واعلم أن كل واجد من البشر شيئاً — إذا وجد شيئاً — فان وجدانه له لايخلو من إحدى الطرق الثلاث : إما باحدى القوى الحساسة كما بينا فى رسالة الحاس ، وإما باحدى القوى العقلية التى هي الفكرة والروية والتمييز والفهم والوهم الصادق والذهن الصافي ، وإما بطريق البرهان الضروري كما بينا في رسالة البراهين التى هي طريق الاستدلال ، وليس الى الانسان طريق الى المعلومات غير هذه

وأما معنى العدم فهو مايقابل كل نوع من هذه الطرق الثلاث : فيقال معدوم من درك الحس له ، ومعدوم من تصور العقل ، ومعدوم من إقامة البرهان عليه . وأما علم الباري جل ثناؤه بالأشياء فليس من هذه الطرق الثلاث بل أشرف وأعلا من هذه كلها وذلك أنه لايقال للباري سبحانه إنه واجد للأشياء ، بل

يقال إنه وجد موجود ومحدث ومخترع ومبدع ومبق ومتمم ومكمل .

واعلم أيها الاخ انما علم الانسان بالباري عز وجل ووجدانه له باحدى طريقتين إحداهما عموم والاخرى خصوص ، فالعموم هي المعرفة الغريزية التي في طباع الخليقة أجمع بهويته : وذلك أن الناس كلهم العالم والجاهل والخير والشرير والمؤمن والكافر كلهم يفزعون عند الشدائد الى الله ويستغيثون به ويتضرعون إليه حتى البهائم أيضاً في سني الجدب ترفع رءوسها إلى السماء تطلب الغيث ، فهذا العلم منهم يدل على معرفتهم بهويته

وأما معرفة الخصوص فهي بالوصف له والتجريد والتنزيه والتوحيد وهي التي بطرق البرهان ويختص بها فضلاء الناس وهم الانبياء والاولياء والحكماء والاخيار والابرار كما وصفهم فقال في محكم تنزيله « سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين » وهي معرفة ضرورية

واعلم يا أخي بأن الموجودات كلها التي أوجدها الباري سبحانه وتعالى بأي طريق كان وجدانها ليست تخلو من أن تكون جواهراً أو أعراضاً أو مجموعاً منهما ، هيولى أو صورة أو مركباً منهما ، عللا أو معلولات ، أو مشاراً اليهما جسمانياً أو روحانياً أو مقروناً بينهما ، بسيطاً أو مركباً أو جملتهما . ولما كانت هذه الاقسام محتوية على الموجودات كلها احتجنا أن نبين نفس معاني هذه الالفاظ الغامضة التي تاه فيها اكثر العلماء عن الوقوف على حقائق معانيها

واعلم يا أخي بان الموجودات كلها صور وأعيان غيريات أفاضها الباري عز وجل على العقل الذي هو أول موجود جاد به الباري وأوجده ، وهو جوهر بسيط روحاني فيه جميع صور الموجودات غير متراكمة ولا متزاحمة ، كما يكون في نفس الصانع صور المصنوعات قبل إخراجها ووضعها في الهيولى وهو فائض تلك الصور على النفس الكلية دفعة واحدة بلا زمان كفيض الشمس نورها على الهواء . وأن النفس قابلة لتلك الصورة تارة وفائضة على الهيولى تارة ، كما يقبل القمر نور الشمس تارة ويفيض على الهواء تارة . وان الهيولى قابلة لتلك الصور

من النفس الكلية شيئا بعد شيء على التدريج بالزمان ، كما يقبل الهواء نور القمر في وقت دون وقت ومن مسامتة دون مسامتة ، كما يقبل التلميذ من الأستاذ شيئا بعد شيء.

واعلم يا أخي أن صور الموجودات كلها يتلو بعضها بعضا فى الحدوث والبقاء عن العلة الأولى التى هى البارى عز وجل ، كما يتلو العدد أزواجه أفراده بعضها بعضا في الحدوث والنظام عن الواحد الذي قبل الاثنين . ثم اعلم أن هذه الالفاظ كلها ألقاب وسمات يشار بها الى الصور لتميز بين إضافات بعضها الى بعض ، كما يميز بين الاعداد بالالفاظ : وذلك أن الصورة الواحدة تارة تسمى هيولى وتارة تسمى جوهرية وتارة تسمى عرضية وتارة بسيطة وتارة مركبة وتارة روحانية وتارة جسمانية وتارة علة وتارة معلولة وما شاكل هذه الالفاظ ، كما يسمى العدد الواحد تاره نصفا وتارة ضعفا وتارة ثلثا وتارة ربعا وتارة غير ذلك لاضافة بعضها الى بعض . مثال ذلك أيضا أن القميص هو أحد الموجودات الجسمانية الصناعية المدركة بالحس ، وماهيته أنه صورة فى الثوب . والثوب هيولى لها ، وماهية الثوب أيضا أنها صورة فى الغزل والغزل هيولي لها ، والغزل أيضا ماهيته أنه صورة فى القطن والقطن هيولى لها ، والقطن أيضا ماهيته أنه صورة فى النبات والنبات هيولى لها ، والنبات أيضا ماهيته أنه صورة فى الاجسام الطبيعية التى هي النار والهواء والماء والأرض ، وكل واحد منها أيضا صورة فى الجسم المطلق كما بينا فى رسالة الكون والفساد . والجسم المطلق أيضا صورة فى الهيولى الأولى كما بينا في رسالة الهيولى ، والهيولى الأولى هى صورة روحانية فاضت من النفس الكلية والنفس الكلية أيضا هى صورة روحانية فاضت من العقل الكلى الذى هو أول موجود أوجده البارى عز وجل كما بينا فى رسالة المبادىء العقلية فقد بان لك بهذا المثال أن الموجودات كلها صور متعلقة حدوثها و بقاؤها يتلو بعضها بعضا الى أن تنتهى الى المبدع الأول الذي هو البارى عز وجل كتعلق حدوث العدد أزواجه وأفراده عن الواحد الذى قبل الاثنين . واعلم يا أخي أن

هذه الصور كل واحدة منها مقومة لشيء ، اما جوهرية له متممة لشيء آخر أوعرضية له . والفرق بينهما أن الصورة الجوهرية المقومة للشيء هي التي اذا انخلعت عن الهيولي بطل وجدان الشيء ، والصورة العرضية المتممة هي التي اذا انخلعت عن الهيولى لم يبطل وجدان الهيولى . مثال ذلك أن الخياطة هي صورة مقومة لذات القميص جوهرية له لانها بها يكون الثوب قميصا ومتممة للثوب عرضية فيه بيان ذلك أنه اذا انخلعت الخياطة عن الثوب بطل وجدان القميص ولم يبطل وجدان الثوب ، وهكذا النساجة صورة في الثوب جوهرية ومقومة له وعرضية في الغزل ومتممة له ، فاذا انسلت صورة الثوب التي هي النساجه بطل وجدان الثوب ولم يبطل وجدان الغزل ، وهكذا الفتل في الغزل صورة جوهرية مقومة لذات الغزل وعرضية متممة لذات القطن ، فاذا نكث الغزل من ابرامه بطل وجدان القطن ، وهكذا صورة الزئبر [1] جوهرية في القطن مقومة له عرضية في النبات متممة له ، فاذا بطل الزئبر بطل وجدان القطن ولم يبطل وجدان الجسم النباتي وهكذا اذا بطلت صورة النبات صار ترابا أو ناراً أو ماء أو هواء ، فاذا أطفئت النار صارت هواء والهواء أحد أجسام الطبيعة . وعلى هذا القياس اذا انخلعت صورة من صور الاركان الأربعة بطل أن يكون موجوداً ذلك الركن ولكن لم يبطل ان يكون جسما ، وإذا انخلعت الصورة الجسمية من الهيولى الأولى لم تبطل الهيولى ان تكون جوهراً بسيطاً معقولا ، وان بطلت الهيولى لم تبطل النفس ، وان بطلت النفس لم يبطل العقل ، وان بطل العقل لم يبطل المبدع الأول الذي هو الباري جل وعز . ومثال هذا من العدد أن العشرة هي صورة واحدة ترتبت فوق التسعة : فاذا أسقط الواحد منها بطلت صورة العشرة ولم تبطل صورة التسعة ، وان أسقط من التسعة واحد بطلت صورة التسعة ولم تبطل صورة الثمانية . وعلى هذا القياس تنحل صورة العدد واحداً واحداً إلى أن ينتهى

(١) الزئبر : يراد بهنا التكاثف والتضام من زأر البستان والغابه تضامت فروع أشجارها

الى اثنين الذى هو أول العدد ، واذا أخذ منها واحد بطلت صورة الاثنين أيضاً. وأما الواحد الذي هو قبل الاثنين فلا يمكن أن يؤخذ منه شيء لأن صورته من ذاته وهو أصل العدد ومنشؤه واليه يرجع العدد عند التحليل ، كما منه نشأ عند التركيب

فقد بان بهذا المثال أن الموجودات كلها صور غيريات : وهي أعيان الاشياء وأنها متتاليات فى الحدوث والبقاء كتتالى العدد من الواحد ... وانها كلها من الله مبدأها واليه مرجعها كما ذكر في كتابه على لسان نبيه فقال « الى الله مرجعكم جميعاً » وقال « والى الله ترجع الامور » وقال الله تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيده » كما ان العدد الى الواحد ينحل ، كما أن منه تركب في الأصل حسب مابينا. كذلك الموجودات كلها مرجعها ومصيرها الى الله الواحد الاحد

﴿ فصل ﴾

فاعلم ياأخي أن الموجودات كلها نوعان جسماني وروحاني فالجسماني مايدرك بالحواس ، والروحانى مايدرك بالعقل ويتصور بالفكر

فاما الجسماني فهو على ثلاثة أنواع : منها الاجرام الفلكية ومنها الأركان الطبيعية ومنها المولدات الكائنة .

والروحاني أيضاً على ثلاثة أنواع :منها الهيولى الاولى الذي هو جوهر بسيط منفعل معقول قابل لكل صورة .والثاني النفس التي هي جوهرة بسيطة فعالة علامة والثالث العقل الذى هو جوهر بسيط مدرك حقائق الاشياء

وأما البارى جل وعز فليس يوصف لا بالجسماني ولا الروحاني بل هو علتها كلها كما أن الواحد لايوصف بالزوجية ولا الفردية بل هو علة الأزواج والافراد من الاعداد جميعاً

واعلم أن الموجودات كلها علل ومعلولات . فنبدأ أولا بذكر العالم الجسمانية لأنها أقرب لفهم المتعلمين وأسهل على المبتدئين بالنظر فى العالم والمعلومات الروحانية

واعلم أن الموجودات الجسمانية لكل واحد منها أربع علل: علة فاعلة وعلة صورية وعلة تمامية وعلة هيولانية، مثال ذلك السرير فانه أحد الموجودات الجسمانية له أربع علل: فعلته الفاعلة النجار والهيولانية الخشب، والصورية التربيع. والتمامية القعود عليه. وهكذا السكين فان علتها الفاعلية الحداد. والهيولانية الحديد، والصورية الشكل الذي هو عليه، والتمامية ليقطع به اللحم أو الحبل أو شيء ما آخر. وعلى هذا القياس - اذا اعتبر - وجد لكل شخص من الأجسام الموجودة هذه العلل الاربع.

وأما الجسم المطلق فعلته الهيولانية هو الجوهر البسيط الذى قبل الطول والعرض والعمق فصار بها جسما، وعلته الفاعلية هو الباري عز وجل، وعلته الصورية العقل لأن الطول والعرض والعمق انما هي صورة عقلية، وعلته التمامية هي النفس لأن الهيولى من أجلها خلق وموضوع لها لكيما تفعل فيه. ومنه مايعمل ويصنع ليتم الهيولي ويكمل النفس الذي هو الغرض الأقصى في رباط النفس مع الهيولى كما بينا في رسالة المبادىء.

وأما الهيولى الأولى الذي هو جوهر بسيط روحاني فله ثلاث علل: الفاعلية وهو الباري عز وجل، و، والصورية وهو العقل، والتمامية وهي النفس.

وأما النفس فلها علتان وهما الباري عز وجل. والعقل. فالباري علتها الفاعلة المخترعة لها، والصورية هي العقل الذي يفيض عليها مايقبل من الباري عز وجل من الفضائل والخير والفيض.

وأما العقل فله علة واحدة فاعلة الذي هو الباري عز وجل الذى أفاض عليه الوجود والتمام والبقاء والكمال دفعة واحدة بلازمان.

أردنا بالعلة الفاعلة أنه أبدعه بلاواسطة، فهذا العقل هو الذي أشار اليه بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد ﷺ وماأمرنا الا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب واليه أشار بقوله سبحانه « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقال « ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين »

فالخلق هو الامور الجسمانية والامر هو الجواهر الروحانية

واعلم يا أخي أن أكثر أهل العلم ظنوا أن الموجودات ليست الا نوعان حسب أحدهما الباري عز وجل والآخر الجسم ومايحله من الأعراض وليست لهم خبرة بالجواهر الروحانية والصور المجردة . ومن أجل هذا نسبوا كلما يظهر من الأفعال والصنائع والعلوم والحكم على أيدي البشر باختياراتهم ومايظهر من الحيوانات من الأفعال الطبيعية الى الجسم المؤلف من اللحم والدم على بنية مخصوصة ، والى أعراض حية فيها بزعمهم مثل الحياة والقدرة والعلم وماشا كلها ولايدرون أن مع الجسد جوهراً آخر هو المحرك له والمظهر به ومنه أفعاله

فأما الذي يظهر في الأجسام من الأفعال الطبيعية التي لايمكنهم أن ينسبوها الى الحيوان مثل احراق النار لاجسام الحيوان والنبات ومثل مايستحيل في أجوافها من الغذاء الى الروث والسرقين (١) ومثل مايظهر في طباعها من السرور وماشاكله من الافعال الطبيعية نسبوها كلها الى الباري جل ثناؤه ، ومنهم من نزه الباري سبحانه عن ذلك ونسبها الى البخت والاتفاق ، ومنهم من نسبها الى الطبيعة ولايدرى ما الطبيعة ! ومنهم من يعللها بعلل مستمرة . ووقع بينهم في ذلك من التنازع والتناقض مايطول شرحه

وأما الحكماء والنجباء الراسخون في العلم فانهم شاهدوا بصفاء نفوسهم ونور عقولهم جواهر أخر غير جسمانية علامة بقوتها سارية في الاجسام بلطافتها فعالة فيها برويتها هي جند الله ولب الخليقة — نسبوا هذه الافعال الطبيعية اليها ونزهوا الباري سبحانه عنها الا مايليق به من الحكمة والسياسة والتدبير

واعلم يا أخي ان الحكماء الذين عرفوا الجواهر الروحانية انما وصلوا الى معرفتها بعد اعتبار حال الجسم والاعراض التي تحله .وذلك ان الجسم من حيث هو جسم ليس بفاعل ولامتحرك بل هيولى ، منفعل قابل للصورة والاعراض

(١) السرقين : وتقرأ بالجيم بدل القاف وهو الروث مادام في الكرش فاذا نزل فهو الروث

الحالة فيه ، وكذلك الاعراض التى تحل الجسم لافعل لها لانها أنقص حالا من الجسم إذ كان لاجو دلها الا بتوسط الجسم

وأما الحياة والقدرة والعلم وماشا كلها التى زعموا انها اعراض حالة في الجسم وبها يفعل هذه الافعال — وها هنا وقع اللبس — فانها ليست هي اعراض جسمانية بل هى أعراض روحانية توجد في بعض الاجسام بمقارنة النفس اياها لها وتفقد عند مفارقتها اياها .

فصح بهذا الاعتبار أن مع الاجسام الحيوانية جواهر أخرى غير جسمانية هي الفعالة في الاجسام هذه الأمارات التى تظهر في بعضها دون بعض وسموها نفوساً .

ولما رأوا أن النفوس تتفاضل بعضها على بعض بأمر آخر مؤيد لها ومفيض عليها الخير والفضائل ، علموا انه جوهر أشرف وأفضل من جوهر النفس وسموه العقل .

ولما كانْ العقل هو المقر على نفسه بانه مربوب وله مدبر خالق صانع حكيم نزهه من جميع صفات النقص فحينئذ صح لهم ، وبهذه الاعتبارات ، ماقالوه ووصفوه من مراتب هذه الموجودات الروحانية التى تقدم وصفها وذكرها وهى الهيولى الأولى والنفس والعقل والباري جل ثناؤه.

واعلم ياأخي أنه قد بان بما ذكرنا أن النفس الكلية هي جوهرة روحانية فاضت من العقل الذي أشارت اليه الفلاسفة وانها كالهيولى الموضوع له لما يفيض عليها من الصور والفضائل والخيرات لكل هي وانها كالصانع المصور للجسم بما تنقش فيه من الصور والاشكال اتمه بذلك .

واعلم أن النفس الكلية هي صورة فيها جميع الصور كما ان الجسم الكلى شكل فيه جميع الاشكال ، غير ان الصور فى ذات النفس لاتتراكم ولاتتزاحم لانها جوهرة روحانية لطيفة حية علامة فعالة.

وأما الجسم فان الاشكال تترا كم فيه وتتزاحم من أجل انه جوهر غليظ كثيف ميت جاهل منفعل كما بينا في رسالة المبادىء .

فصل

وأعلم أن النفس هى في ذاتها جوهرة ولكن كونها مع الجسم بالعرض لغرض ما ، والغرض هو أمر سابق الى وهم الفاعل فاذا بلغ الفاعل اليه قطع الفعل .

فصل

واذ قد فرغنا من ذكر النفس الكلية والعقل الكلي فنريد أن نذكر النفس الانسانية إذ هى قوة من قوى النفس الكلية .

ونذكر أيضاً العقل الانساني إذ هو قوة من قوى النفس الكلية ونصف أفعال النفس وقواها إذ كانت النفس جوهرة روحانية .

ولما كانت الجواهر الروحانية لاتدرك بالحواس ولاتعرف الا بما يصدر عنها من الافعال والاعمال بحسب القوى احتجنا إلى أن نذكر كمية قواها ونصف فنون أفعالها وعجائب صنائعها وغرائب علومها وظرائف أخلاقها واختلاف آرائها .

واعلم ياأخي أن للنفس الانسانية قوى كثيرة لايحصى عددها الا الله جل ثناؤه ، وأن لها بكل قوة فى عضو من أعضاء الجسد فعلا خلاف عضو آخر قد بينا طرفا من ذلك في رسالة تركيب الجسد وطرفا في رسالة الحاس والمحسوس وطرفاً في رسالة الانسان عالم صغير ووصفنا فيها أن نسبة القوى الحساسة الى النفس فيما يأتون به اليها من أخبار محسوساتها كنسبة أصحاب الاخبار للملك قد ولى كل واحد منهم ناحيه من مملكته ليأتوه بالاخبار من تلك النواحي

وذكرنا فيها أيضاً أن لها خمس قوى أخرى نسبتهن اليها كنسبة الندماء الى الملك وهى القوة المفكرة والقوة المتخيلة والقوة الحافظة والقوة الناطقة والقوة الصانعة

واعلم أن القوة المفكرة التى مسكنها وسط الدماغ من بين هذه القوى كالملك وسائرها لها كالجنود والاعوان والخدم والرعية يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون في أعضاء الجسد من الحركات ومايظهرون من الصنائع والاعمال، وان موضعها من بين مواضع سائر القوى فى أشرف عضو من الجسد وأخص مكان منه كما ان دار الملك في أشرف مدينة من بلدان مملكته ، وفي أجل موضع من المدينه وفي أشرف بقعة منها

واعلم ياأخى أن أفعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من أفعال سائر القوى .

وقد بينا في رسالة الحاس والمحسوس أن القوة المتخيلة التى مسكنها مقدم الدماغ نسبتها الى القوة المفكرة بما تجمع اليها من أخبار المحسوسات كنسبه صاحب الخريطه الى الملك ونسبة القوة الحافظه التى مسكنها مؤخر الدماغ الى المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك ، ونسبة القوة الناطقة التى مجراها على اللسان الى المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان الى الملك ،ونسبةالقوةالصانعة التى مجراها اليدان والاصابع الى المفكرة كنسبة الوزير المعين له في تدبير مملكته والمساعد له في سياسته لرعيته

فصل

فيما تتولى القوة المفكرة بنفسها من الافعال

واعلم ياأخى انه إذا أوصلت القوة المتخيلة رسوم المحسوسات الى القوة المفكرة بعد تناولها من القوى الحساسة وغابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها ، بقيت تلك الرسوم في فكر النفس مصورة صورة ،روحانية،فيكون جوهر النفس لتلك الرسوم المصورة فيها كالهيولي وهى فيها كالصورة

والمثال فى ذلك أن الانسان اذادخل مدينة من البلدان وطاف في أسواقها

ومحالها وعاين طرقاتها وشاهد أهلها ورأى هيئاتهم وسمع أقاويلهم وعرف شمائلهم ثم خرج منها وغابت مشاهدة حواسه لها فانه كلما فكر في تلك المدينة وماشاهد فيها تخيلها كأنه يراها معاينة على مثل ما كان شاهد في وقت كونه فيها ، لو كان ذكر لها بعد حين من الدهر .

فتلك الفكرة ليست شيئاً سوي لمحات النفس الى ذاتها ، وتخيلها لصورة تلك المدينة ومارأى فيها من الموجودات ليس شيئاً سوى صور تلك الموجودات انطبعت في جوهر نفسه كما ينطبع نقش الفص في الشمع المختوم .

وعلى هذا القياس حكم سائر المحسوسات من أول استعمال آلات الحواس الى وقت تركها لها عند الممات الذي هو ترك النفس استعمال الجسد .

واعلم يا أخي أنه إذا حصلت رسوم المحسوسات في جوهر النفس فان أول فعل القوة المفكرة فيها هو تأملها واحدة واحدة لتعرف معانيها وكمياتها وكيفياتها وخواصها ومنافعها ومضارها ، فاذا حصل العلم بهذه المعانى أودعتها القوة الحافظة الى وقت التذكار ، فاذا أراد الانسان الاخبار عن معلوماته للمخاطبين له والجواب للسائلين له عن متصوراته ومفهوماته استعانت عند ذلك القوة المفكرة بالقوة الناطقة في النيابة عنها في الجواب لغيرها كما يستعين الملك بحاجبه وترجمانه في النيابة عنه في الخطاب لغيره . ولهذه القوة المفكرة في معلوماتها المحفوظة أفعال أخر ذكرنا طرفا منها في رسالة المنطق وطرفا آخر في رسالة الموسيقى ، وطرفا آخر في رسالة " الانسان عالم صغير حسب مايليق بكل رسالة منها لأن العلوم كلها لا يمكن أن تجمع في دفتر واحد جسماني فأما النفس فانها تجمع علوما شتى وصنائع عدة وأخلاقا مختلفة وآراء متفاوتة لأنها دفتر روحاني لا تتزاحم فيها صور المعلومات كما تتزاحم في الهيولى الجسمانى . مثال ذلك أن السواد والبياض لايجتمعان في محل واحد في زمان واحد ولا الحلاوة ولا المرارة في جسم ذى طعم ولا التدوير ولا التربيع في شكل واحد مجسم وما شاكلها من الصور والاعراض المتضادة ، فان بعضها يفسد بعضا إذا كانت من جنس واحد

فأما في جوهر النفس فلا تتزاحم فيها الصور بل كلها تجمع في نقطة واحدة كما تلتقى الخطوط في مركز الدائرة في نقطة واحدة ، وكما تلتقى صور المرئيات كلها مع اختلاف أجناسها في المرآة وفي الحدقة التى هى نقطة من العين كما بينا في رسالة الحاس والمحسوسات فليطلب هناك

فصل

فيما يختص بالقوة الناطقة من الأفعال فنقول

اعلم أن من شأن القوة الناطقة اذا استعانت بها القوة المفكرة في النيابة عنها في الجواب والخطاب أن تؤلف ألفاظ من حروف المعجم بنغمات مختلفة السمات التى هى الكلام ، ثم تضمن تلك الألفاظ المعانى التى هى مصورة عند القوة المفكرة فتدفعها عند ذلك الى القوة المعبرة لتخرجها الى الهواء بالأصوات المختلفة في اللغات لتحملها الى مسامع الحاضرين بالقرب فتكون تلك الالفاظ المؤلفة من الحروف المختلفة الأشكال والسمات كالأجساد المركبة من الاعضاء المختلفة ، وتكون تلك المعانى المضمنة في تلك الالفاظ كالارواح لها ، لان كل لفظة لامعنى لها فهى بمنزلة جسد لا روح فيه ، وكل معنى في فكر النفس ليس له لفظة تعبر عنه فهو بمنزلة روح لا جسد له . وقد بينا كيفية حمل الهواء صور الأصوات وحفظها بهيأتها الى أن توردها وتؤديها الى السمع في رسالة الحاس والمحسوس ، وذكرنا أيضاً أن الاصوات لما كانت لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل احتالت الحكمة الالهية بأن قيدتها بالقوة الصناعية التى هى الكتابة : وذلك أن القوة المفكرة لما رأت أن الكلام لا يثبت في الهواء دائماً لانه جسم سيال احتالت حيلة أخرى واستعانت بالقوة الصناعية أن نقشت حروفا خطوطية بالقلم تحاكى معاني حروف لفظية ، ثم ألفتها ضروبات التأليف حتى صارت كتابا مكتتبا وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير لكيما يبقى العلم مفيداً فائدة من الماضين للغابرين وأثراً من الأولين للآخرين

وخطابا للحاضرين من الغائبين وبالعكس . وهـذا من جسيم نعم الله تعالى على الانسان كما ذكر الله تعـالي في كتابه « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » ثم اعلم أن للقوة الصناعية أفعالا كثيرة لايحصى عددها إلا الله تعالى ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في رسالة الصنائع ، وكذلك القوة الناطقة لها لغات كثيرة وألفاظ مختلفة ونغمات مفننة لا يحصى عددها إلا الله عز وجل وقد ذكرنا منها طرفا في رسالة اختلاف اللغات ، وطرفا في رسالة الموسيقى . ثم اعلم أن القوة المفكرة لها أفعال كثيرة تستغرق فيها أفعال سائر القوى .

وذلك أن أفعالها نوعان : فنها مايخصها بمجردها ، ومنها مايشترك مع قوى أخرى . فنها الصنائع كلها فانها مشتركة بينها وبين القوة الصناعية ، ومنها الكلام وأقاويل اللغات فانها مشتركة بينها وبين القوة الناطقـة ، ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة فانها مشتركة بينها وبين القوة الحافظة ، وأما التى تخصها من الافعـال فالفكر والروية والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس ولها الفراسة والزجر والتكهن والخواطر والالهام وقبول الوحي وتخييل المنامات .

وتفصيل ذلك : فأما بالفكر فاستخراج الغوامض من العلوم ، وبالروية تدبير الملك وسياسة الامور ، وبالتصور درك حقائق الاشياء ، وبالاعتبار معرفة الامور الماضية من الزمان ، وبالتركيب استخراج الصنائع أجمع وبالتحليل معرفة الجواهر البسيطة والمبادىء ، وبالجمع معرفة الانواع والاجناس ، وبالقياس درك الامور الغائبة بالزمان والمكان ، وبالفراسة معرفة مافي الطبائع من الامور الخفية وبالزجر معرفة حوادث الأيام ، وبالتكهن معرفة الكائنات بالموجبات الفلكية ، وبالمنامات معرفة الانذارات والبشارات ، وبقبول الخواطر والالهام والوحي معرفة وضع النواميس وتدوين الكتب الالهية وتأويلاتها المكنونة التى لايمسها الا المطهرون من أدناس الطبيعة الذين هم أهل البيت الروحانيون

وقد بينا في رسالة الناموس أن وضع النواميس وتدوين الكتب الالهية أعلى رتبة ينتهي اليها الانسان بالتأييد الرباني ، وهي أشرف صناعة تجري على أيدي البشر مثل شريعة صاحب التوراة والانجيل والزبور والفرقان

واعلم يا أخي أن الباري جل جلاله جعل الامور الجسمانية المحسوسة كلها مثالات ودلالات على الروحانية العقلية وجعل طرق الحواس درجاً ومراقي يرتقي بها الى معرفة الامور العقلية التي هي الغرض الاقصى في بلوغ النفس اليها

فاذا أردت يا أخي أن تبلغ الى أفضل المطلوبات وأشرف الغايات التي هي الامور العقلية فاجتهد في معرفة الامور المحسوسة فانك بذلك تنال الامور العقلية . وقد بينا في رسائلنا الطبيعية طرفاً من ذلك . ثم اعلم ان معرفة الامور الجسمانية المحسوسة هي فقر النفس وشدة الحاجة ومعرفة الامور المعقولة الروحانية هي غنائها ونعيمها ، وذلك أن النفس في معرفة الامور الجسمانية محتاجة الى الجسد وحواسها وآلاتها لتدرك بتوسطها الامور الجسمانية .

وأما إدراكها الامور الروحانية فيكفيها ذاتها وجوهرها بعد ما تأخذها من الحواس بتوسط الجسد . واذا حصل لها ذلك فقد استغنت عن الجسد وعن التعليم بالجسم بعد ذلك

فاجتهد يا أخي في طلب الغنى الابدي بتوسط هذا الهيكل وآلاته مادام يمكنك ذلك قبل فناء العمر وتصرم المدة وفساد الهيكل وبطلان وجوده ، واحذر كل الحذر أن تبقى نفسك فقيرة محتاجة الى هيكل ليتم به مافاته من الكمال فتكون ممن يقول « ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل » وتبقى في البرزخ الى يوم يبعثون . ومن أين لهم أن يشعروا أيان يبعثون مادامت هي ساهية لاهية غافلة مقبلة على الشهوات الجسمانية من اللذات الجرمانية والزينة الطبيعية والغرور بالاماني في هذه الحياة الدنيا المذمومة التي ذمها رب العالمين فقال « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والأولاد كمثل غيث

أعجب الكفار نباته » الى قوله وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور » وقال في قصة قارون « فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم

ثم حكي قول الربانيين العلماء العارفين بالامر الاشرف في المراتب العالية «ويلكم ثواب الله خير لمن آمن يعنون به الدار الآخرة التى هى الحيوان لو كانوا يعلمون يعنى به عالم الارواح الذي كله روح وريحان وتحية ورضوان

ثم ذم الذين لايعرفون من هذه الامور المعقولة الاالمحسوسات حسب فقال: « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون» يعنى أمر الآخرة ودار النعيم ودار السلام التى ترتقي اليها نفوس الاخيار بعد مفارقتها أجسادها كما ذكر في كتابه « اليه يصعد الكلم الطيب » «يعنى روح المؤمن » والعمل الصالح يرفعه أي يرغبه فيها وهمته ترقيه الى هناك «ومغفرة من الله » وروح ورضوان وغير ذلك من الآيات المذكورة فى القرآن وأخبار الانبياء عليهم السلام في ذم الدنيا والاجتناب عنها ، وكذلك اشارات الحكماء شعراً

فاجهد على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

فعليك أن لاتغتر بزخارف هذه الدنيا الدنية وعليك أن تتبع الآراء الحسنة وتهذب النفس وفقك الله وإيانا واخواننا للسداد وهداك وايانا سبيل الرشاد ، انه رؤوف بالعباد

تمت رسالة العقل والمعقول ويليها رسالة في الادوار والاكوار

الرسالة الخامسة

من النفسانيات العقليات

في الادوار والاكوار

وهي الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

اعلم، أيدك الله وايانا بروح منه، انا قد فرغنا من رسالة العقل والمعقول وبينا فيها تعريف جواهر النفوس بحقيقتها وكيفية اجتماع صور المعقولات في العقل المنفعل، وكنا قد بينا قبل ذلك في رسالة ماهية الطبيعة ذكر كيفية تأثيرات الأشخاص العلوية الفلكية في الأشخاص السفلية الكائنة تحت فلك القمر الذي هو عالم الكون والفساد، وبينا فيها معنى قول القدماء في روحانيات الكواكب وبينا قول واضع الناموس في أجناس الملائكة وكيفية سريان قواها في العالم واظهار أفعالها في الاجسام الموجودة فيه، فنريد أن نبين الآن ونذكر في هذه الرسالة أدوار الاشخاص الفلكية وأكوارها وقراناتها فنقول.

ان للفلك وأشخاصه حول الأركان الاربعة التي هي عالم الكون والفساد، أدواراً كثيرة لايحصى عددها الا الله تعالى ولأدوارها كور ولكواكبها في أدوارها وأكوارها قرانات. ويحدث في كل دور وكور وقران في عالم الكون والفساد حوادث لايحصى عدد أجناسها الا الله تعالى. ونريد أن نذكر من ذلك طرفاً مجملا مختصراً ليكون مثالا ودليلا على الباقية فنقول :

اعلم أن الأدوار خمسة أنواع : فمنها أدوار الكواكب السيارة في أفلاك تداويرها ومنها ادوار مراكز أفلاك التداوير في أفلاكها الحاملة ، ومنها أدوار أفلاكها الحاملة في فلك البروج ، ومنها أدوار الكواكب الثابتة في فلك البروج ومنها أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان . وأما الاكوار فهي استئنافاتها في أدوارها وعودتها الى مواضعها مرة بعد أخرى

وأما القرانات فهي اجتماعاتها في درج البروج ودقائقها وهي ستة أجناس : مائة وعشرون نوعاً ، فمنها واحد وعشرون قراناً ثنائية وثلاثون قراناً ثلاثية وخمسة وثلاثون قراناً رباعية ، وواحد وعشرون قراناً خماسية وواحد وثلاثون قراناً سداسيه ، وقران واحد سباعي فجملتها مائة وعشرون قرانا نوعية مضروبة فى ثلاثمائة وستين درجة يكون جملتها ثلاثة وأربعين الفاً ومائتى قران شخصية .

وأما أدوار الالوف فأربعة أنواع ، فمنها سبعة آلاف سنة ومنها اثنا عشر الف سنة ، ومنها واحد وخمسون الف سنة ومنها ثلاثمائة الف وستين سنة

ثم اعلم أن من هذه الادوار والقرانات مايكون في كل زمان طويل مرة واحدة . ومنها مايكون فى كل زمان قصير مرة واحدة . فمن الادوار التى تكون فى الزمان الطويل أدوار الكواكب الثابتة في فلك البروج وهو في كل ستة وثلاثين الف سنة مرة واحدة ، ومن الادوار التى تكون فى كل زمان قصير أدوار الفلك المحيط بالكل حول الاركان الاربعة في كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة كما ذكر الله تعالى فقال « وكل فى فلك يسبحون » وباقي الادوار فيما بينهما ومن القرانات مايكون فى كل ثلاثمائة وستين الف سنة مرة واحدة وهو أن تجمع الكواكب السيارة كلها بأوساطها فى أول دقيقة من برج الحمل الى أن تجتمع فيها مرة أخري ، ويسمى هذا الدور فى زيج السند هندسية يوم واحد من أيام العالم الكبير ، ومن القرانات مايكون فى كل شهر مرة واحدة وهو اجتماع القمر مع كل واحد من الكواكب السيارة

فأما باقي القرانات ففيما بين هذين الوقتين . ومن الادوار القصار مايكون في كل اربعة عشر يوماً مرة واحدة وهي دورة مركز الفلك : التدوير والقمر في فلكه الحامل له ومنها مايكون في كل سبعة وعشرين يوماً وسبع ساعات ونصف مرة واحدة وهي أدوار القمر في فلك البروج ، ومنها أدوار الفلك الجوزهر في كل احدى وعشرين سنة في كل ثمانية عشر ستة وسبعة شهور وتسعة عشر يوماً مرة ، وهو ادوار عطارد في فلك تدويره . ومنها مايكون في كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم مرة واحدة وهي ادوار الشمس والزهرة وعطارد في فلك البروج ، ومنها مايكون في ثلاثمائة وثمانية وسبعين يوماً مرة واحدة ، وهي أدوار زحل في فلك تدويره . ومنها مايكون فى كل ثلاثمائة وتسعة وتسعين يوماً مرة واحدة وهى ادوار المشترى في فلك تدويره . ومنها مايكون في كل خمسمائة وأربعة وستين يوماً مرة واحدة وهى ادوار الزهرة في فلك تدويرها . ومنها مايكون في كل ثمانمائة وسبعين يوما مرة واحدة وهي أدوار المريخ في فلك البروج ومنها مايكون فى كل خمسمائة وسبعة وثمانين يوماً مرة واحدة وهى ادوار المريخ في فلك تدريره ومنها مايكون فى كل اربعة آلاف وثلاثمائة واربعة وثلاثين يوما مرة واحدة وهي ادوار مركز المشترى فى فلك البروج . ومنها ما يكون في عشرة آلاف وسبعمائة وواحد واربعين يوما مرة واحدة وهى ادوار مركز زحل في فلك البروج وجملة هذه أربعة عشر نوعا

وأما القرانات القصيرة الزمان فمنها ما يكون فى كل مائة وستة عشر يوما مرة واحدة وهو قران عطارد مع الشمس ، ومنها مايكون فى كل ثلاثمائة واحد وثمانين يوما مرة واحدة وهى اقتران الشمس والزهرة وعطارد مع زحل ، ومنها مايكون فى كل ثلاثمائة وتسعين يوما مرة وهو اقتران المشتري والزهرة وعطارد والشمس ومنها ما يكون فى كل سبعمائة وخمسة وثمانين يوما مرتين وهو اقتران الزهرة مع الشمس . ومنها مايكون فى كل سبعمائة وثمانين يوما مرة واحدة وهو اقتران الشمس مع المريخ . ومنها مايكون في كل سنتين ونصف سنة بالتقريب

مرة واحدة وهو اقتران المريخ مع زحل والمشترى ، ومنها ما يكون في كل عشرين سنة بالتقريب مرة وهو اقتران المشتري وزحل . ومن القرانات الطويلة الزمان ما يستأنف الدور في كل مائتين وأربعين سنة مرة واحدة وهو أن يستوفي زحل والمشتري اثنى عشر قرانا في المثلثة الواحدة . ومنها مايكون في كل تسعمائة وستين سنة مرة واحدة وهو يستوفي زحل والمشتري ثمانية وأربعين قرانا في المثلثات الأربعة . ومنها مايكون في كل ثلاثة آلاف وثمان مائة وأربعين سنة مرة واحدة وهو أن يستأنف زحل والمشترى القرانات في المثلثات ، وشرحها طويل ويخرج بنا عما نحن فيه .

واذ قد فرغنا من ذكر كمية دوران الفلك وعدد قرانات كواكبه في أبراجها في الأدوار والألوف واستئنافها أعدادها بالكور ، ونريد أن نذكر ونلوح بطرف مما يتبعها من الحوادث الكائنات في عالم الكون والفساد التى دون فلك القمر فنقول : إنا قد بينا في رسالة السماء والعالم أن الفلك المحيط تديره النفس الكلية بتأييد العقل الكلى الفعال باذن الله تعالى . وقد بينا في رسالة المباديء العقلية أن النفس والعقل هما أمران مبدعان للباري وهو مبدعهما وعلتهما ومثبتهما ومكملهما كيف شاء فتبارك الله رب العالمين .

ثم اعلم أن كل الحوادث التى تكون في عالم الكون والفساد هى تابعة لدوران الفلك وحادثة عن حركات كواكبه ومسيرها في البروج وقرانات بعضهام بعض واتصالاتها باذن الله تعالى . فن ذلك الحوادث ما هو ظاهر جلى لكل انسان ، ومنها ماهو باطن خفي يحتاج في معرفتها الى تأمل وتفكر واعتبار .

ثم اعلم أن كل حادث في هذا العالم سريع النشوء ، قليل البقاء سريع الفساد فذلك عن حركة في الفلك سريعة قصيرة الزمان قريبة الاستئناف ، وكل حادث بطيء النشوء طويل الثبات بطيء البلى فذلك عن حركة بطيئة طويلة الزمان بعيدة الاستئناف . ونحتاج في هذا الفصل الى شرح طويل وقد ذكرنا طرفا من ذلك في رسالة تكوين المعادن ، وطرفا في رسالة النبات ، وطرفا في رسالة الحيوان.

ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفا منه ليتبين الصدق ويتضح الحق ويتجلى الخفي للباحثين عن حقيقة هذا الأمر . ثم نذكر تأثيرات الأشخاص العالية في الأشخاص السافلة : فمن ذلك الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان في كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة كما ذكر الله تعالى « وكل في فلك يسبحون » . وهي التي بها يكون الليل والنهار في هذا العالم الذي نحن فيه .

ومن الحوادث الكائنة التي لا تخفى على أحد من العقلاء من هذه الحركة نوم أكثر الحيوان بالليل ويقظتها بالنهار ، وذلك أنه إذا طلعت الشمس مع دوران الفلك على جانب الارض أضاء الهواء بنورها وأشرق وجه الارض بضيائها فانتبهت أكثر الحيوانات من نومها وتحركت بعد سكونها وترنمت بعد عجمتها وهدوئها وانتشرت في طلب معايشها وتصرفت في مذاهبها ، وتفتحت أيضا أكثر أكمام النبات وفاح نسيم روائحها وذهب الناس في مطالبهم وسعوا في حوائجهم . واذا غابت الشمس أظلم الهواء أو اسود الجو وامتلأ وجه الارض من الظلام واستوحش أكثر الحيوانات وتراجعت عن متصرفاتها الى أوطانها وأماكنها وانصرف الناس عن أسواقهم الى منازلهم وعن مواضع أعمالهم الى بيوتهم ووقع عليهم النوم والنعاس والكسل الانتشار والنشاط في الاعمال والسكون بعد الحركة والهدوء بعد الجلبة . فاذا تأمل المتفكر في حال هذا العالم بالنهار رآه كأنه حيوان منتبه متحرك حساس ، واذا تأمله بالليل رآه كأنه نائم أوميت أو جامد من السكون والهدوء .

ثم اعلم أنه مادامت هذه الحركة محفوظة في الفلك فهذه الحالة موجودة في الحيوان ، فاذا سكنت تلك الحركة بطل ذلك النظام والترتيب ، وهذه الحركة من أعظم نعم الله تعالى علي خلقه كما ذكر تعالى « قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » . قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل

تسكنون فيه أفلا تبصرون » ومن الحوادث الكائنة عن هذه الحركة في هذه المدة كون بعض النباتات الناقصة كخضراء الدمن فانها تصبح بالغدوات ريانة من نداوة الليل وطيب نسيم الهواء ، فاذا أشرقت عليها الشمس نصف النهار جفت ثم تصبح من الغد مثل ذلك ، وترى هذا خاصة في أيام الربيع في أكثر المواضع .

ومن الكائنات الحادثة عن هذه الحركة في هذه المدة المذكورة كون بعض الحيوانات الناقصة الخلقة الضعيفة البنية كالديدان والبق والبراغيث التى تتولد من العفونات وفي الزبل والسماد والروث وجثة الجيف وماشا كلها . فاذا أصابها أدنى حر من الشمس أو برد من الهواء هلكت .

وبالجملة فكل كائن عن هذه الحركة التى تستأنف الدور فى كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة وكل حادث عنها من أشخاص الحيوانات والنبات الناقص الخلقة الضعيف البنية فانها لا تبقى سنة تامة لأنه يهلكها إما حر الشمس في الصيف أو برد الشتاء ، وقد بينا عللها في رسالة الحيوان والنبات

ومادامت هذه الحركة محفوظة في الفلك فان صورة هذه الكائنات عنها الحادثات في هذا العالم تكون موجودة فى الهيولى ، ومتى وقف الفلك فسد النظام وبطل الكون ، وذلك كائن لامحالة اذا بلغت النفس الكلية أقصى غرضها لأن الغرض هو غاية سبق اليها الوهم . ومن أجل البلوغ اليها يفعل الفاعل فعله . واذا بلغ اليه قطع الفعل .

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم ياأخي أن دوران الفلك أكرم الأفعال وأشرفها فغرض فاعله أيضاً أشرف الأغراض وأكرمها كما بينا في رسالة البعث والقيامة . ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف ما يكون فى كل شهر مرتين وهي حركة مركز فلك تدوير القمر في الفلك الحامل في كل أربعة عشر يوما مرة

واحدة ، وفي هذه المدة يكون القمر مقبلا بوجهه الممتلىء من النور نحو مركز الأرض — يعرف حقيقة ما قلنا أهل الصناعة الذين يعرفون علم ما في المجسطي . والذي يتبع هذه الحركة من الحوادث والكائنات في هذا العالم كثرة الربو والزيادة في الأشياء وسرعة النشوء في الاشياء المبتدئة الحادثة من الحيوان والنبات والمعادن والزيادة أيضاً في المدود والرطوبات والانداء — يعرف ذلك أهل التجارب والعلماء المتيقظون المتفكرون في الآفاق المعتبرون أحوال الموجودات وفي النصف الثاني من الشهر يدور هذا المركز في الفلك الحامل مرة أخرى ، ولكن يكون القمر موليا بوجهه الممتلىء من النور عن مركز الارض نحو فلك عطارد يدور القمر في الفلك الحامل مرة واحدة في هذه المدة . والذي يحدث عن هذه الحركة في هذه المدة في هذا العالم الذبول والهزال والنقصان في الاشياء النامية والنضج والجفاف واليبس في الأشياء البالغة الى التمام من الحب والثمر .

يعرف صحة ما قلنا أهل الصناعة المتقدم ذكرهم . وفي هذه المدة عن هذه الحركة يتكون بعض الجواهر المعدنية كالملح والكمأة وأمثالها

واعلم يا أخي أن الكمأة نبات معدني ، والملح معدن نباتي كما بينا في رسالة المعادن . وفي هذه المدة أيضاً عن هذه الحركة قد يتم كون بعض النبات ويبلغ وينتفع به كالبقول . وفي هذه المدة أيضاً قد يتم كون بعض الحيوانات كالطيور ودود القز وزنابير النحل فان أكثرها يتم في خلقها في أربعة عشر يوماً ويخرج بعد واحد وعشرين يوماً ويتولى في ثمانية وعشرين يوماً ويخرج

وهذا المدة هي مقدار مسير القمر من يوم الحضانة الى يوم الخروج من البرج الذي كان فيه الى البرج التاسع الذي هو بيت النقلة والسفر فينتقل من هذه الحيوانات الكائنة من حال الى حال في هذه المدة . ومادامت هذه الحركة محفوظة في الفلك فصور هذه الكائنات موجودة في الهيولى في هذا العالم ، واليها أشار جل ثناؤه فقال « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »

واعلم يا أخي ان كل الكائنات عن هذه الحركة من الحيوانات والنبات : فنها ماهي طويلة البقاء ، ومنها ماهي قصيرة المدة . ولكن أطولها بقاء لا يتجاوز مائة وعشرين شهراً والقصيرة المدة مادون ذلك .

وعلة نهاية بقاء أشخاص هذا النوع فى الهيولى المقدار من الزمان هو أن علة حدوثها حركة القمر في فلك البروج المقسوم بثمانية وعشرين منزلا لدورة واحدة ، وذلك أن القمر اذا كان فى برج من الأبراج فى منزل من المنازل يوم حضانة الطير فانه يوم يخرج الفرخ يكون فى المنزل العشرين من ذلك المنزل وفى البرج التاسع من ذلك البرج وقد قطع مائتين وأربعين درجة فى الفلك وبقي له تسع منازل ـ مائة وعشرون درجة الى أن يعود الى الدرجة التى كان فيها يوم ابتداء الحضانة فيستأنف هذا الكائن العمر الطبيعي فى الدنيا لكل درجة شهر وهذا هو العمر الطبيعي .

وأما مايهلك قبل هذه المدة أو يعيش أكثر من هذا المقدار فذلك لاسباب وعلل وأغراض يطول شرحها .

وعلى هذا البيان لكل كائن تحت فلك القمر حركة لشخص من الاشخاص الفلكية لاستئنافه الدور في مدة معلومة طالت أو قصرت ، فيكون بقاء تلك الكائنات عنها على هذا المثال الذي ذكرنا من الكائنات من حركة القمر

ومثال آخر نذكر فى أمر الانسان وذلك أنه اذا سقطت النطفة فى الرحم من جنس البشر أو بعض الحيوانات التى تلد لتسعة أشهر فلا بد من أن تكون الشمس فى تلك الساعة فى درجة فى برج من الفلك

فاذا كان أول الشهر التاسع يكون قد قطعت الشمس بسيرها ثمانية أبراج . وقد استوفت طبائع البروج المثلثات مرتين وبلغت الي أول البرج التاسع بيت السفر والنقلة فينتقل المولود من مكان الى مكان ومن حال الى حال أخرى وتكون قد سارت الشمس فى فلك البروج من يوم مسقط النطفة الى ذلك اليوم مائتين وأربعين درجة لها مائة وعشرون درجة الى أن تعود الى الدرجة التى كانت فيه

يوم مسقط النطفة بها ، فجعل نهاية بقاء أشخاص هذا النوع وعمرها الطبيعي في الهيولى لكل درجة سنة فان زاد أو نقص فلأسباب أو علل . وعلى هذا القياس يعتبر كل مولود من أنواع الحيوان فيكون عن حركة شخص من الاشخاص الفلكية مما يكون ولادته وكونه الطبيعي لستة عشرة يوما أو لواحد وعشرين يوما أو لاربعين يوما أو لأربعة أشهر أو لخمسة أو لستة أو لسبعة أو لتسعة أو لعشرة . أو لسنة أو لسنتين فانه يستوفى ذلك الشخص الموجب لكونه ، المحمل في الفلك بعض الدائرة قبل الولادة الطبيعية لذلك النوع ، ويكون مدة العمر الطبيعي لهذا النوع بمقدار ما بقي لذلك المتحرك من المسير في الفلك الى اتمام دورة واحدة بروجا كانت أو درجا أو دقائق أو ساعات وأياما . وذلك أن الحيوانات الناقصات الخلقة الضعيفة البنية التى سبب كونها وعلة حدوثها حركة ذلك الشكل الذي يستأنف الدور في أربع وعشرين ساعة كما ذكرنا قبل . فان اشخاص النوع أكثر بقائها وعمرها الطبيعي تسعة أيام ، وان زاد أو نقص فلأسباب أخر ، وذلك أنها تتم خلقتها وتكمل صورتها فى ست عشرة ساعة مقدار ما يدور من الفلك ثمانية أبراج . واذا ابتدأ البرج التاسع بالطلوع نهض وتحرك وانتقل في طلب القوت والغذاء الذى هو مادة بقاء شخصها في الهيولى أو تبقى الى تمام الدور تسع ساعات فيستأنف العمر فى الدنيا تسعة أيام لكل ساعة يوم ثم يهلك ويتكون غيرها ويكون ذلك النوع محفوظا والاشخاص فى السيلان

واعلم يا أخي أن لكل كائن تحت فلك القمر من الحيوان والنبات والمعادن ، له عن وقت كونه وحدوثه الى وقت فنائه وعدمه ، مقداراً من الزمان وهو دورة واحدة من أدوار الاشخاص الفلكية :

بيان ذلك أن كل كائن فى هذا العالم له أربع أحوال متباينة أحدها ابتداء كون الوجود ، ومنها زيادته ونموه وارتقاؤه الى نهاية ما ، ومنها توقفه وانحطاطه ونقصه ، ومنها زمان بواره وعدمه . وعلة ذلك أن كل شخص فى الفلك له حركة

دائرة تخصه فان لحركته فى دائرته أربع أحوال منها صعود من الحضيض ، ومنها صعود الى الاوج ، ومنها هبوطه من الاوج ، ومنها هبوطه الى الحضيض

يعرف حقيقة ما قلنا أصحاب المجسطي . ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف ما يدور فى كل أربعة أشهر مرة واحدة وهى حركة عطارد فى فلك تدويره تارة مستقيمة وتارة راجعا وتارة مشرقا وتارة مغربا وتارة محترقا وتارة صاعداً فى ذروته وتارة هابطا الى حضيضه وتارة واقفا من موازاة درجة واحدة . والذى يحدث ويتم من هذه الحركة في هذه المدة في هذا العالم كون بعض النبات كالسمسم والذرة والشعير وأمثالها كما بينا فى رسالة النبات . وعن هذه الحركة فى هذه المدة قد يتم كون بعض الجواهر المعدنية كما يتم بالصنعة .

يعرف ما قلنا أصحاب المعادن والذين يسبكون الزجاج والذين يتعاطون صناعة الكيمياء عن هذه الحركة فى هذه المدة في هذا العالم قد يتم خلقة بعض الحيوانات وتولدها كبعض السباع والوحوش والغزلان وبعض الغنم كما بينا فى رسالة الحيوانات . ومما يكون عن هذه الحركة فى هذه المدة فى هذا العالم ما يعرض لبعض الناس من الحوادث عند اختلاف أحوال عطارد فى دورانه مما يذكره أصحاب أحكام النجوم فى مواليدهم

وبيان ذلك أنه إذا خلف عطارد يعرض لبعض الناس أمراض وأعلال وأوجاع ، وخاصة للصبيان ، وما يعرض لبعض الكتاب والعمال وأصحاب الدواوين والوزراء من العزل والاعتقال والمصادرات ولبعض الصناع من العطلة والكسل ، ولبعض التجار من الخسران والمحق ، ولبعض الناس من الحبس والاستتار والعسرة . وعند استقامته وتشريفه ما يعرض لهم من الخلاص والسلامة والظهور والولاية والنشاط واستقامة الاحوال . وعند وقوفه ورجوعه ما يعرض لهم من الحيرة والشكوك والظنون والريبة والتوقف والتخلف من سقوط الجاه

وذو العز ونقصان المراتب وكل ذلك بحسب ما أوجب شكل الفلك في أصل المواد وطبقات أحواله - يعرف بعضها لطبقات أجناسهم ويعلم تفصيلها أصحاب النجوم

ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف ، مايكون في كل مرة واحدة ، وهي حركة الشمس في فلك تدويرها . والزهرة وعطارد في فلك البروج تارة في البروج الشمالية وتارة في الجنوبية ، وتارة في المستقيمة الطلوع وتارة في المعوجة وتارة فى النارية وتارة فى الترابية ، وتارة فى الهوائية وتارة فى المائية ، وتارة صاعدة وتارة هابطة ،وتارة فى بيوتها ، وتارة فى وبالها وتارة فى حظوظها ، وتارة فى إغرابها وتارة فى إشراقها ، وتارة فى هبوطها وتارة فى أوجاتها ، وتارة فى حضيضها وتارة مسرعة وتارة بطيئة وتارة عند رؤوس جوزهراتها وتارة عند ذنب جوزهراتها وتارة متيامنة بعضها من بعض وتارة متياسرة وتارة شرقية وتارة غربية ، وتارة مناظرة وتارة ساقطة وتارة خالية ، وتارة وحشية وتارة فى الاوتاد وتارة فيما يليها وتارة زائلة عن الاوتاد . وتارة فى البروج المنقلبة وتارة في الثابتة وتارة فى ذوى الاجساد وماشا كل هذه الدلالات

فصل

واعلم يا أخي أن الذي يحدث عن هذه الحركات فى هذه المدة في هذا العالم وعن أحوال هذه الكواكب من الفنون المختلفة والحالات المتغايرة أشياء لايحيط علماً بكثرتها الا الله تعالى ، ولكن نذكر منها طرفاً ليكون دليلا على الباقية ونبدأ أولا بذكر الزمان وأحواله وأرباعه وتغيرات الهواء : وذلك أنه إذا ابتدأت الشمس بحركتها فى أول برج الجدي صاعدة من الجنوب نحو الشمال ومن الحضيض نحو الأوج مرتفعة فى الفلك أخذت الطبيعة عند ذلك بمعاونتها باذن البارى جل وعز فى جذب الرطوبات المختلفة بالتراب من الأمطار وامتصاصها فى عروق الشجر والنبات الى أصولها وقضبانها وامسا كها هناك

بالقوة الماسكة ، وذلك دأبها الى أن تبلغ الشمس آخر الحوت . فاذا نزلت أول دقيقة من برج الحمل فهو الربع الربيعي — استوى الليل والنهار فى الاقاليم واعتدل الزمان وطاب الهواء وهب النسيم وذابت الثلوج وسالت الأودية ومدت الأنهار ونبعت العيون وارتفعت الرطوبات الى أعلى فروع الاشجار ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلألأ الزهر وأورق الشجر وتفتح النور واخضر وجه الارض وتكونت الحيوانات والدبيب ونتجت البهائم ودرت الضروع وانتشرت الحيوانات فى البلاد عن أوطانها وطاب عيش أهل الوبر وطاب أعلى السطوح أهل المدن وأخذت الارض زخرفها وفرح الناس والحيوان اجمع بطيب نسيم الهواء وازينت الارض وصارت كأنها جارية شابة قد تزينت وتحلت للناظرين . فلا تزال تلك حال الدنيا وأهلها من الحيوان والنبات إلى أن تبلغ الشمس آخر الجوزاء : رأس أوجها . فاذا نزلت الشمس أول السرطان تناهى طول النهار وقصر الليل في الأقاليم كلها ، وأخذ النهار فى النقصان والليل في الزيادة ، وانصرف الربيع ودخل الصيف واشتد الحر وحمى الجو وهبت السمائم ونقصت المياه ويبس العشب واستحكم الحب وأدرك الحصاد والثمار وأخصبت الارض وكثر الريف ودرت أخلاف النعم وسمنت البهائم واتسع للناس القوت من الثمار وللطير من الحب وللبهائم من العلف ، وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة بالغة تامة كاملة كثيرة العشاق . فلا يزال ذلك دأبها ودأب أهلها الى أن تبلغ الشمس آخر السنبلة وأول الميزان ، فاذا نزلت الشمس أول الميزان استوى الليل والنهار مرة أخرى ، ثم ابتدأ الليل بالزيادة على النهار وانصرف الصيف ودخل الخريف وبرد الهواء وهبت الشمال وتغير الزمان ونقصت المياه وجفت الأنهار وغارت العيون وجف النبت وفنيت الثمار ودبست البيادر (١) وأحرز الناس الحب والثمار وعرى وجه الأرض من زينتها وماتت الهوام وانحجرت

(١) البيادر : جمع بيدر والبيدر الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويدرس أو يداس — على حد تعبير المؤلف

الحشرات . والطير والوحش تنصرف لطلب البلدان الدافئة وأحرز الناس القوت للشتاء ودخلوا البيوت ولبسوا الجلود والغليظ من الثياب فراراً من البرد ، وتغير الهواء وصارت الدنيا كأنها كهلة مدبرة قد تولت عنها أيام الشباب

فاذا بلغت الشمس آخر القوس وأول الجدي تناهى طول الليل وقصر النهار ثم أخذ النهار في الزيادة على الليل وانصرف الخريف ودخل الشتاء واشتد البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وانحجز أحسن الحيوانات في باطن الارض وكهوف الجبال من شدة البرد وكثرة الانداء وكثرت ونشأت الغيوم وأظلم الجو وكلح وجه الزمان وهزلت البهائم وضعفت قوى الأبدان ومنع الناس البرد عن التصرف وتمرمر(١) كثير عيش الحيوان وضعفاء الناس وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة قددنا منها الموت .

ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف ما يكون في كل ثلاثة عشر شهراً بالتقريب مرة وهي حركة جرم زحل والمشتري في فلكي تدويرها .

ومن الحوادث في هذه المدة — عن حركتهما واختلاف احوالهما مايعرض لطبقات من الناس المستولى عليهم — اليبس والبرد نحو المشايخ والعجائز والاكره (٢) والتناء والاشراف والقضاة والعدول والعلماء والتجار ومن شاكلهم من الناس من المستولى عليه في مولوده أحد الكوكبين مثل مايعرض لاصحاب عطارد كما ذكرنا قبل ، وقد يعرض من حركة هذين الكوكبين وأحوالهما الكثير من الحيوان والنبات والمعادن أعراض وأسباب قد ذكرنا كيفيتها في الرسائل التي ذكرنا فيها هذه الاجناس

ومن الحركات القصيرة الزمان السريعة الاستئناف ، حركة الزهرة في فلك تدويرها في كل خمسمائة وأربعة وثمانين يوما مرة واحدة ، وحركة المريخ في فلك تدويره في كل سبعمائة وثمانين يوما مرة واحدة . والذي يحدث ويتبع هذين

(١) تمرمر: اضطرب وقلق (٢) الاكر: زراع الارض وحراثها

الكوكبين فى عالم الكون والفساد ما يعرض لبعض طبقات الناس في عالم الكون والفساد من النساء والمخانيث وأصحاب اللذات واللهو والملهين وأصحاب المريخ(١) من الشباب والشطار والعيارين والجند وأصحاب السلاح وساسة الدواب ومن شا كلهم ، مثل ما يعرض لاصحاب عطارد كما ذكرنا قبل . ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف حركة فلك المشترى في الفلك الحامل في كل أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وثلاثين يوما مرة واحدة والذي يحدث في عالم الكون والفساد عن هذه الحركة اعتدال أهوية بعض البلاد بعد فسادها ، وعمارة بعض البقاع بعد خرابها ، وتكوين بعض المعادن ونشوء بعض النبات ، وذكاة بعض الثمر وصلاح حال بعض الحيوانات ، والرخص فى بعض المدن ، وتجديد النعم على أقوام وماشاكل ذلك من الصلاح والخير فى هذا العالم . ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف مايكون فى كل خمسة وعشرين سنة مرة واحدة وهو أن يحصل المريخ فى اثنى عشر برجا اثنتى عشرة رجعة . ومن الحوادث فى هذا العالم عن هذه الحركة أن يقع نضج بعض المعادن وسرعة النشوء فى بعض النبات وزيادة القوة فى بعض الحيوانات وظهور الدولة فى بعض الناس والأمم وزيادة القوة فى بعض السلاطين وخروج بعض الخوارج وتجديد ولايات فى الملك وماشاكل ذلك من تأثيرات قوة المريخ وظهورها فى العالم ، والقصد منها وفيها هو صلاح شأن الكائنات ، والغرض منها هو إبلاغها الى الكمال والتمام ، ولكن ربما تعرض أسباب الفساد مثل إثارة الحروب والفتن والنصب فى طلب الغارات فيخرب بعض البلدان وتزول دولة قوم ويذهب نعيمهم ولكن عاقبتها تعود الى الصلاح .

وبالجملة مايعرض منها من الفساد عند هذه الحركة في جنب مايكون منها من الصلاح في العالم شيء يسير .

---

(١) المريخ : الرجل الاحمق . وقيل كثير الادهان المزهو بنفسه .

مثال ذلك حركة الشمس بالطلوع والغروب ليكون بها الليل والنهار ، ومسيرها في البروج ليكون الشتاء والصيف كما بينا قبل . ولكن ربما حدث من إسخانها حر شديد فيهلك بعض النبات ويقتل بعض الحيوانات الضعيفة البنية بلا قصد من الطبيعة ولا عناية من الحكمة .

وكذلك الأمطار القصد منها إحياء البلاد والعشب والكلأ . أو سقي الزروع والثمر لتكون قوتاً للحيوان ، ولربما كانت مهلكة لبعض الزروع مفسدة لبعض الثمار ، وربما خرب السيل بعض البلاد لكن ذلك في جنب مايكون من صلاح عامة البلاد والحيوان والنبات شيء يسير .

وهكذا حكم المريخ وزحل والذنب وما يذكر من مناحسها شيء يسير في جنب ما يكون عن حركاتها من الصلاح في العالم .

ثم اعلم يا أخي أن كثيراً ممن يقر بصحة أحكام النجوم أو يتكلم فيها يظن أن زحلا والمريخ والذنب نحوس بالكلية ، والزهرة والقمر والمشتري سعود بالكلية ، وليس الامر على ما ظنوا لانه ربما عرض عن إفراط القوة المنبثة منها في العالم فساد من الرطوبات والبرودات المفرطة مثل ما يعرض عن إفراط حر الشمس وبرد زحل ويبس المريخ ورطوبة الزهرة والقمر وأكثر العفونات منها كما يعرض عن المريخ وزحل .

ومن الحركات السريعة القصيرة الزمان القريبة الاستئناف حركة فلك تدوير زحل في فلك الحامل الممثل بفلك البروج في كل خمسة آلاف وسبعمائة واحد وأربعين يوما مرة واحدة : والذي يحدث عن هذه الحركة في هذه المدة تتميم بعض المعادن كالكحل والزرنيخ والحديد وغمار بعض النبات كالزيتون والجوز وبلوغ الانسان أشده ، وعمارة بعض البلاد واستحداث بعض المدن والقرى وانتقال الملك من قوم الى قوم وما شاكل ذلك .

ومن الحركات البطيئة الطويلة الزمان البعيدة الاستئناف حركات الكواكب الثابتة في فلك البروج في ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة .

وأوجات الكواكب السيارة وحضيضها وجوزهراتها ، والذى يحدث عن هذه الحركات في هذه المدة في عالم الكون والفساد ، تنقل العمارة على سطح الارض من ربع الى ربع وأن تصير مواضع البرارى بحاراً ومواضع البحار جبالا كما بينا فى رسالة المعادن كيفية ذلك . واذ قد فرغنا من ذكر حوادث الأدوار فنريد أن نذكر طرفا من القرانات وألوفها .

فصل

فنقول اعلم أن الكائنات التى يستدل عليها المنجمون سبعة أنواع : فنها الملل والدول اللتان يستدل عليهما من القرانات الكبار التى تكون فى كل ألف سنة بالتقريب مرة واحدة ، ومنها تنقل المملكة من أمة الى أمة أو بلد الى بلد أو من أهل بيت الى أهل بيت آخر ، وهى التى تكون ويستدل على حدوثها من القرانات التى تكون فى كل مائتى وأربعين سنة مرة واحدة . ومنها تبدل الاشخاص على سرير الملك وما يحدث بأسباب ذلك من الحروب والفتن التى يستدل عليها من القرانات التى تكون فى كل عشرين سنة مرة واحدة . ومنها الحوادث الكائنات التى تحدث فى كل سنة من الغلاء والرخص والخصب والجدب والوباء والموت والقحط والامراض والعلل والحدثان والسلامة . ومنها يستدل على حدوثها من تحاويل سنى العالم التى عليها تؤرخ التقاويم ، ومنها حوادث الايام شهراً بشهر ويوما بيوم التى يستدل عليها من أوقات الاجتماعات والاستقبالات التى تؤرخ فى التقاويم ، ومنها أحكام المواليد لواحد واحد من الناس فى تحاويل سنيهم من حيث ما يوجب لهم تشكيل الفلك ومواضع الكواكب في أصول مواليدهم وتحاويل سنيهم ، ومنها الاستدلال على الخفيات من الامور الجزوية كالخبء والسرقة واستخراج الضمير ، والمسائل التى يستدل عليها من طالع وقت المسئلة والسؤال عنها .

ثم اعلم أن في كل ثلاثة آلاف سنة تنقل الكواكب الثابتة وأوجات الكواكب السيارة وجوزهراتها في البروج ودرجاتها ، وفي كل تسعة آلاف

سنة تنتقل من ربع الى ربع من أرباع الفلك ، وفي كل ستة وثلاثين ألف سنة تدور فى البروج الاثنى عشر دورة واحدة فبهذا السبب تختلف شعاعات الكواكب على بقاع الارض وأهوية البلاد ويختلف تعاقب الليل والنهار والشتاء والصيف عليها إما باعتدال واستواء وإما بازيادة والنقصان وافراط الحرارة والبرودة واعتداله بينهما . ويكون هذا أسبابا وعللا لاختلاف أحوال أرباع الأرض وتغيرات أهوية البلاد والبقاع وتبدلها بالصفات من حال الى حال — يعرف حقيقة ماقلنا المتحذلقون فى المجسطي وأحكام القرانات — ويصير بهذه العلل والاسباب زوال الملك والدول وانتقاله من قوم الى قوم وتغييرات العمارات من ربع الى ربع آخر ، وتكون هذه بموجبات أحكام القرانات الكائنة في الوقت والزمان من جهة القرانات والادوار فى كل ألف سنة مرة واحدة ، وفي كل اثنى وعشرين ألف سنة أو فى كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة . والقرانات الدالة على قوة النحوس وفساد الزمان وخروج الناس عن الاعتدال وانقطاع الوحي وقلة العلماء وموت الاخيار وجور الملوك وفساد الاخلاق للناس وشر أعمالهم واختلاف آرائهم ، ويمنع نزول البركات من السماء بالغيث فلا تزكى الارض ويجف النبات ويهلك الحيوان وتخرب المدن والبلاد . اذ هي بروز آخر القران ! والقرانات الدالة علي قوة السعود واعتدال الزمان واستواء طبيعة الاركان والحدوث بوحى الانبياء ﷺ وتواتره وكثرة الانبياء وعدل الملوك وبركات السماء بالغيث وتزكو الارض والنبات ويكثر تولد الحيوان وتعمر البلاد ويكثر بنيان المدن والقرى ، وكل ذلك بأمر بارئها على حسب أفعال العباد من الخير والشر جزاء لأعمالهم فانتبه أيها الاخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، واعلم وتيقن أن ماوراء عالمك المحسوس هى جهنم وجحيم عالم آخر ، وأمور أخر هي عالم الارواح ومقر الملائكة والكروبين والروحانيين الموكلين بحفظ هذا العالم ومراتبها . وفقك الله وإيانا بروح منه وجميع اخواننا السداد انه رؤوف بالعباد

﴿ تمت رسالة الأدوار والأكوار ويليها رسالة فى ماهية العشق ﴾

الرسالة السادسة

من النفسانيات العقليات

في ماهية العشق

« وهي الرسالة السابعة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

اعلم أيها الاخ أنا قد فرغنا من رسالة الأدوار والاكوار وبينا فيها كيفية أحوال القرانات — حسب ماجرت عادة اخواننا الكرام — ونريد أن نذكر الآن في هذه الرسالة ماهية العشق ومحبة النفوس والمرض الالهي وماحقيقة ذلك ومن أين مبدؤه فنقول :

اعلم أن الحكماء قد أكثروا القيل والقال في فنون العلوم وطرق المعارف وغرائب الحكم من الرياضيات والطبيعيات والفلسفيات والالهيات ، ولكن بعض تلك العلوم والمعارف ألطف من بعض ، وقد عملنا في كل منها رسالة شبه المدخل والمقدمات ليقرب تناوله على المتعلمين ، ويسهل أخذه على المبتدئين ، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة في ماهية العشق وكمية أنواعه وكيفية نشوئه ومبدئه وما علله الموجبة لكونه والأسباب الداعية اليه ، وما الغرض الأقصى منه إذا كان هذا أمراً موجوداً في العالم مركوزاً في طباع النفوس دائماً لايعدم ألبتة ما دامت الخليقة موجودة

واعلم يا أخي أن من الحكماء من قد ذكر العشق وذمه وذكر مساوىء أهله وقبح أسبابه وزعم أنه رذيلة ، ومنهم من قال إن العشق فضيلة نفسانية ومدحه وذكر محاسن أهله وزين أسبابه ومنهم من لم يقف على أسراره وعلله وأسبابه بحقائقها ودقة معانيها فزعم أنه مرض نفساني ، ومنهم من قال إنه جنون إلهي ، ومنهم من زعم أنه همة نفس فارغة ، ومنهم من زعم أنه فعل البطالين الفارغي الهمم الذين لا شغل لهم

ولعمري إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم إلا هم المعشوق وكثرة الذكر له والفكرة في أمره وهيجان الفؤاد والوله به وبأسبابه ، ولكن ليس ذلك من فعل البطالين الفراغ كما زعم من لا خبرة له بالأمور الخفية والأسرار اللطيفة ولا يعرف من الأمور إلا ما تجلى للحواس وظهر للمشاعر . وأما الذي يدرك منها بصفاء الذهن وجودة التمييز وكثرة الفكر وشدة البحث ودقة النظر فهم عنها بمعزل

وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفساني ، أو قالوا إنه جنون إلهي فانما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ونحول الجسم وغور العيون وتواتر النبض والأنفاس الصعداء مثل ما يعرض للمرضى فظنوا أنه مرض نفساني

وأما الذين زعموا أنه جنون إلهي فانما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم دواء يعالجونهم به ولا شربة يسقونها إياهم فيبرؤون مما هم فيه من المحنة والبلوى إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرابين في الهياكل ورقى الكهنة وما شاكل ذلك كما حكى العاشق بقوله ، وهو عروة بن حزام قتيل الحب :

بذلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد ان هما شفياني
فما تركا من سلوة يعرفانها ولا رقية الا بهـا رقياني
فقالا : شفاك الله! والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

وأشعار كثيرة للعشاق في هذا المعنى

وأما الحكماء والاطباء من اليونانيين فكانوا اذا أعياهم علاج مريض أو مداواة عليل وأيسوا منه حملوه عند ذلك الى هيكل المشتري وتصدقوا عنه وصلوا لله تعالى وقربوا قرباناً وسألوا الكهنة أن يدعوا الله بالشفاء فاذا برىء سموا ذلك طباً ومرضاً وجنوناً إلهياً

ومن الحكماء من زعم ان العشق هو افراط المحبة وشدة الميل الى نوع من الموجودات دون سائر الانواع والى شخص دون سائر الاشخاص أو الى شيء دون سائر الاشياء بكثرة الذكر له وشدة الاهتمام به أكثر مما ينبغي فان كان العشق هو ذا فليس اذاً أحد من الناس يخلو منه اذ كان لايوجد أحد الا وهو يحب ويميل الى شيء دون سائر الاشياء أكثر مما ينبغي ، وكثير من الحكماء والاطباء يسمون هذه الحال ماليخوليا !! وقد أكثر الاطباء القيل والقال في هذه العلة وأعياهم علاجها

وقد ذكرت في كتب أحكام المواليد علل ذلك تركنا ذكرها مخافة التطويل لأنا نريد أن نتكلم في العشق المعروف عند جمهور الناس : وذلك أنهم لايسمون العشق الا ما كان من هذه الحال نحو شخص من أبناء الجنس ذكراً كان أو أنثى

ومن الحكماء من قال إن العشق هو هوى غالب فى النفس نحو طبع مشاكل فى الجسد أو نحو صورة مماثلة فى الجنس . ومنهم من قال ان العشق هو شدة الشوق الى الاتحاد . ولهذا فأي حال يكون عليها العاشق يتمنى حالاً أخرى أقرب منها ، ولهذا قال الشاعر :

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... اليها ، وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كي تزول صبابتى ... فيزداد ماألقى من الهيمان
كان فؤادي ليس يشفى غليله ... سوى أن ترى الروحين يمتزجان

وهذا القول أرجح ماقيل فيه وألطف ما أشير اليه . ونحتاج أن نشرح هذا الباب لتتضح حقيقته وتعرف أسبابه ، ولكن لما كان الاتحاد هوى نفسانياً

وتأثيراً روحانيا احتجنا الى أن نذكر أنواع النفوس وأنواع معشوقاتها وعلل تلك وأسبابها .

وأما الفرق بين العلل والاسباب فهو ان العلل كائنة في طباع النفوس والاسباب خارجة منها ، كما سنبين بعد هذا الفصل.

واعلم يا أخي أن النفوس المتجسدة لما كانت ثلاثة أنواع كما قالت الحكماء والفلاسفة صارت معشوقاتها أيضاً ثلاثة أنواع : فمنها النفس النباتية الشهوانية وعشقها يكون نحو المأكولات والمشروبات والمناكح ، ومنها النفس الغضبية الحيوانية وعشقها يكون نحو القهر والغلبة وحب الرياسة ومنها النفس الناطقة وعشقها يكون نحو المعارف واكتساب الفضائل

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أنه ليس أحد من الناس يخلو من نوع من هذه الانواع الثلاثة التي ذكرناها أو يكون آخذاً بنصيب من كل واحد منها قل أو كثر ، والعلة في ذلك أنه لما كان من شأن النفوس أن تتبع أمزجة الابدان فى اظهار أفعالها وأخلاقها ومعارفها وبخاصة ما كان أغلب منها فى المزاج وأقوى فى أصل التركيب كما بينا فى رسالة الاخلاق ورسالة مسقط النطفة: وذلك أن كل انسان يكون المستولى عليه فى أصل مولده القمر أو الزهرة وزحل ، فان الغالب على طبيعته قوة النفس الشهوانية نحو المأكولات والمشروبات والجمع والادخار لها وان يكن المستولى المريخ والزهرة أو القمر فان الغالب على طبيعته شهوة الجماع والمناكح ، وان كان المستولى على أصل مولده الشمس والمريخ فان الغالب على طبيعته تكون شهوة النفس الغضبية نحو القهر والغلبة وحب الرياسة وان كان المستولى عليه في أصل مولده الشمس وعطارد والمشترى فان الغالب على طبيعته تكون شهوات النفس الناطقة نحو المعارف واكتساب الفضائل والعدل

وقد بينا فى رسالة مسقط النطفة كيف يتقرر فى جبلة الجنين وطبع المولود تأثيرات هذه الكواكب . وبينا فى رسالة الاخلاق كيف يعتاد الانسان باكتساب تلك الطباع والاخلاق التى فى الطباع قبولها وتهيئها أو ضد ذلك. وإذ قد فرغنا

من ذكر ما احتجنا إلى أن نذكره فنرجع الآن الى تفسير قول من قال من الحكماء ان العشق هو شدة الشوق الى الاتحاد. فنقول ان الاتحاد هو من خاصية الامور الروحانية والاحوال النفسانية لأن الامور الجسمانية لا يمكن فيها الاتحاد، بل المجاورة والممازجة والمماسة لا غير. فأما الاتحاد فهو في الأمور النفسانية كما سنبين في هذه الفصول.

واعلم يا أخي أن مبدأ العشق وأوله نظرة أو التفات نحو شخص من الاشخاص فيكون مثلها كمثل حبة زرعت أو غصن غرس أو نطفة سقطت في رحم بشر وتكون باقي النظرات واللحظات بمنزلة مادة تنصب الى هناك وتنشأ وتنمى على ممر الايام الى أن تصير شجرة أو جنيناً: وذلك أن همة العاشق ومناه هو الدنو والقرب من ذلك الشخص، فاذا اتفق (١) في ذلك وسهل تمنى الخلوة والمجاورة، فاذا سهل ذلك تمنى المعانقة والقبلة، فاذا سهل ذلك تمنى الدخول في ثوب واحد والالتزام بجميع الجوارح أكثر ما يمكن. ومع هذه كلها الشوق بحاله لا ينقص شيئا بل يزداد وينمو كما قيل:

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... اليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى ما يرى: زوجان ممتزجان

ثم اعلم أن روح الحياة انما هو بخار رطب يتحلل من الرطوبة والدم وينشأ فى جميع البدن ومنها تكون حياة البدن والجسم، ومادة هذه الروح من استنشاق الهواء بالتنفس، دائما لترويح الحرارة الغريزية التى فى القلب، فاذا تعانق العاشق والمعشوق جميعاً وتباوسا وامتص كل واحد منهما ريق صاحبه وبلعه وصلت تلك الرطوبة الى معدة كل واحد منهما وامتزجت هناك مع الرطوبات التى فى المعدة ووصلت الى جرم الكبد واختلطت باجزاء الدم هناك وانتشر فى العروق

(١) لعله وفق كما يقتضي السياق

الواردة الى سائر أطراف الجسد واختلطت بجميع أجزاء البدن وصارت لحما ودماً وشحما وعروقا وعصباً وماشا كل ذلك

وهكذا أيضا اذا تنفس كل واحد منهما في وجه صاحبه خرج من تلك الانفاس شيء من نسيم روح كل واحد منهما واختلط باجزاء الهواء. فاذا استنشقا من ذلك الهواء دخلت الى خياشيمهما أجزاء ذلك النسيم مع الهوء المستنشق ووصل بعضه الى مقدم الدماغ وسرى فيه كسريان النور في جرم البللور واستلذ كل واحد منهما ذلك التنسم ، ووصل أيضا من أجزاء ذلك الهواء المستنشق بعض الى جرم الرئة في الحلقوم ومن الرئة الى جرم القلب مع النبض في العروق الضوارب الى جميع أجزاء الجسد واختلط هناك بالدم واللحم وماشا كل ذلك من أجزاء الجسد وانعقد في بدن هذا ما تحلل من جسد هذا ! وفي بدن هذا ماتحلل من جسد ذاك .

فيكون من ذلك ضروب . ومن المزاجات من تلك الامزجة ضروب الاخلاط ومن تلك الاخلاط ضروب الاخلاق كل ذلك بحسب أمزجة أبدانها . ومن شأن النفس أن تتبع مزاج البدن في اظهار افعالها واخلاقها لان مزاج الجسد وأعضاء البدن ومفاصله للنفس بمنزلة آلات وأدوات للصانع الحكيم يظهر بها ومنها أفعاله . فلهذه الأسباب والعلل التي ذكرناها يتولد العشق والمحبة على ممر الأيام بين المتحابين وينشأ وينمو . فأما الذي يتغير من المحبة ويفسد بعد التأكيد فلاسباب يطول شرحها ، ولكن نذكر أولا ما العلة في محبة شخص لشخص دون سائر الاشخاص فنقول :

ان العلة في ذلك اتفاق مشاكلة الاشخاص الفلكية في أصل مولدهما بضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض وهي كثيرة الفنون ، ولكن نذكر منها طرفاً ليكون دليلا على الباقية . فنها أن يكون مولدهما ببرج واحد أو رب البرجين كوكب واحد ، أو يكون البرجان متفقين في بعض المثاني كالمثلث أو تكون مطالعهما متساوية أو ساعات نهارهما متفقة ، وماشا كل ذلك مما يطول

شرحه . يعرف حقيقة ماقلنا أصحاب الأحكام الناظرون فى مواليد الناس . واما تغير العشق بعد ثباته زماناً طويلا فهو تغير أشكال الفلك في تحاويل سنى مواليد الناس وسير درجة الطالع وتنقلها فى حدود البروج والوجوه ، وهكذا تسييرات شعاعات الكواكب فى أبراج الانتهاءات فى مستقبل السنين

واعلم ياأخي أن كل الكائنات التى دون فلك القمر فهي مربوطة الاحوال بحركات الاشخاص الفلكية كما بينا في رسالة ماهية الطبيعة ورسالة الادوار والاكوار ورسالة الافعال الروحانية

﴿ فصل ﴾

في ماهية علة فنون المعشوقات

اعلم يا أخي أن كثيراً من الناس يظنون أن العشق لايكون إلا للأشياء الحسنة حسب ! وليس الأمر كما ظنوا فانه قد قيل : يارب مستحسن ماليس بالحسن ! ولكن العلة فى ذلك هي الاتفاقات التى بين العاشق والمعشوق وهي كثيرة لايحصى عددها الا الله جل ثناؤه ، ولكن نذكر منها طرفاً ليكون دليلا على الباقية

وذلك أن الاتفاقات بحسب المناسبات التى بين أجزاء المركبات . فمن تلك المناسبات ماهى بين كل حاسة ومحسوساتها ، وذلك أن القوة الباصرة لاتشتاق إلا إلى الألوان والأشكال ، ولاتستحسن منها إلا ما كان على النسبة الافضل وهكذا القوة السامعة لاتشتاق الا الى الأصوات والنغم ولاتستلذ منها الاما كان على النسبة الافضل كما بينا في رسالة الموسيقى .

وعلى هذا القياس سائر الحواس كل واحدة منها لاتشتاق الا الى محسوساتها ولاتستحسن ولا تستلذ الا ما كان منها على النسبة الافضل بينها في الآفاق . ولما كان تراكيب أمزجة الحواس والمحسوسات كثيرة الفنون وكثيرة التغيير غير ثابتة على حالة واحدة صارت القوى الحساسة في احساسها لمحسوساتها مفننة

متغيرة ، وذلك أنك تجد واحداً من الناس أو من الحيوان يستلذ مأكولا أو مشروبا أو مسموعا أو مشموما والآخر لايستلذه ، بل ربما كان يكرهه ويتألم منه . وهكذا تجد الانسان الواحد يستلذ في وقت ماشاء ويستحسنه ، وفي آخر يكرهه ويتألم منه . كل ذلك بحسب اختلاف التراكيب وفنون الامزجة ومايعرض لها ومايحدث بينها من المناسبات والمنافرات ، وشرحها طويل

واعلم يا أخي أن الحكمة الالهية والعناية الربانية قد ربطت أطراف الموجودات بعضها ببعض رباطا واحداً ونظمتها نظاما واحداً

وذلك أن الموجودات لما كان بعضها عللا وبعضها معلولات ، ومنها أوائل ومنها ثواني جعلت في جبلة المعلولات نزوعا نحو علاتها واشتياقا اليها ، وجعلت أيضا في جبلة علاتها رأفة ورحمة وتحننا على معلولاتها كما يوجد ذلك في الآباء والأمهات على الأولاد ، ومن الكبار على الصغار ، والأقوياء على الضعفاء لشدة حاجة الضعفاء الى معاونة الأقوياء والصغار الى الكبار كما أجاب رئيس قريش وحكيمها لما سأله كسرى : — أي أولادك أحب اليك ؟ فقال : صغيرهم حتى يكبر ، وعليلهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يرجع

فصل

ثم اعلم أن الاطفال والصبيان اذا استغنوا عن تربية الآباء والأمهات فهم بعد محتاجون الى تعليم الأستاذين لهم العلوم والصنائع ليبلغوا بهم الى التمام والكمال ، فمن أجل هذا يوجد في الرجال البالغين رغبة في الصبيان ومحبة للغلمان ليكون ذلك داعياً لهم الى تأديبهم وتهذيبهم وتكميلهم للبلوغ الى الغايات المقصودة بهم ، وهذا موجود في جبلة أكثر الامم التى لها شغف فى تعلم العلم والصنائع والأدب والرياضات مثل أهل فارس وأهل العراق وأهل الشام والروم وغيرها من الامم . وأما الامم التى لا تتعاطى العلوم والصنائع والأدب مثل الأكراد والأعراب

والزنج والترك ، فانه قلما يوجد فيهم ولا فى طباعهم الرغبة في نكاح الغلمان وعشق المردان .

وأما محبة النساء للرجال وعشقها فان ذلك فى طباع أكثر الحيوانات التى لها سفاد .

وانما جعلت تلك في طباعها لكيما يدعوها الى الاجتماع والسفاد ليكون منها النتاج . والغرض منها بقاء النسل وحفظ الصورة في الهيولى بالجنس والنوع اذ كانت الأشخاص دائماً فى السيلان . والغرض من هذه كلها بعيد من أفكار أكثر العقلاء . وقد بينا ذلك فى رسالة المبادىء ورسالة البعث

فصل

فى أنواع المحبوبات وما الحكمة فيها

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ان المحبة مفننة والمحبوبات كثيرة لا يحصى عددها إلا الله ، ولكنا نذكر منها طرفاً ليكون دليلا على الباقية : فمن أنواع المحبوبات محبة الحيوانات الازدواج والنكاح والسفاد لما فيه من بقاء النسل ، ومنها محبة الامهات والآباء للأولاد وتحننهم على الصغار وتربيتهم لهم وإشفاقهم عليهم كأنها مجبولة فى طباعهم مركوزة فى نفوسهم لشدة حاجة الصغار الى الكبار ، ومنها محبة الرؤساء والرياسات وحرصهم على طلبها ومراعاتهم لمرؤوسيهم وحفظهم لهم واشفاقهم عليهم ومحبتهم للمدح والثناء والشكر كأنها مجبولة فى طباعهم مركوزة فى نفوسهم ، ومنها محبة الصناع فى إظهار صنائعهم وحرصهم على تتميمها وشهوتهم لتحصيلها وتركيبها كأنه شيء مجبول فى طباعهم مركوز فى نفوسهم لشدة حاجتهم اليها ، ومنها محبة التجار لتجاراتهم ورغبة الراغبين فى الدنيا وحرصهم على الجمع والادخار لها وحفظها ومحبة عمارة الارض واصلاح الامتعة وجمعها وحفظها كأنه شيء مجبول فى طباعهم مركوز فى نفوسهم لما فيه من الصلاح لغيرهم ومن يأتي من بعدهم ، ومنها محبة العلماء والحكماء لاستخراج

العلوم ووصف الآداب وتعليم الرياضات والبحث عن الغوامض والفحص عنها وتدوينها فى الكتب والادراج أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن كأنه شيء مجبول فى طباعهم مركوز في نفوسهم لما فيه من إحياء النفوس وإصلاح الاخلاق وصلاح الدين والدنيا جميعاً ، ومنها محبة البر والاحسان ومايقال فيهما من المدح والثناء كأنه شيء مجبول فى طباع البشر مركوز في نفوسهم لما فيه من الحث على مكارم الاخلاق ، ومنها محبة أبناء الجنس وما يسمى العشق وما يصف العشاق من أحوالهم وأحوال معشوقيهم وما يجدون فى نفوسهم من الافكار والهموم والاحزان والفرح والسرور والنشاط وما يذكرون من الاخلاق الجميلة والطرائق الحميدة وما يذمون من الاخلاق المذمومة والاحوال المرذولة ، قالوا : لولم يكن العشق موجوداً في الخليقة لخفيت تلك الفضائل كلها . ولم تظهر ولم تعرف تلك الرذائل أيضا ! فقد بان وتبين اذاً بما ذكرنا أن المحبة والعشق فضيلة ظهرت في الخليقة وحكمة جليلة وخصلة نفيسة عجيبة . ذلك من فضل الله على خلقه وعنايته بمصالحهم ودلالة لهم عليه وترغيبا لهم فيما أمر به من المزيد

واعلم يا أخي أن محبوبات النفوس ومعشوقاتها مفننة وهي بحسب مراتبها فى العلوم ودرجاتها في المعارف وذلك أن النفس الشهوانية لا يليق بها محبة الرياسة والقهر والغلبة ، ولا النفس الحيوانية يليق بها محبة العلوم والمعارف واكتساب الفضائل ، ولا النفس الملكية يليق بها محبة الأجساد والكون مع الاجسام اللحمية والدموية ، بل الذى يليق بها محبة فراق الاجساد والارتقاء الى ملكوت السماء والسيحان في سعة فضاء الافلاك والتنسم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن .

ومن أجل هذا الذي ذكرنا من مراتب النفوس وما يليق بها من المعشوقات انك لا تجد ولا ترى نفساً تحب وتعشق وتشتاق إلا لابناء جنسها وما شاكلها من المحبوبات والمعشوقات . مثال ذلك أنفس الصبيان والناقصين من الناس فانهم لا يحبون ولا يعشقون الا اللعب والتماثيل المصورة والمزينة المشاكلة لمرتبة

نفوسهم ، فاذا عقلوا وتعلموا وارتاضوا ارتفعت هممهم وشغلت نفوسهم بغيرها مما هو أشد تحقيقاً مما كانوا فيه وهو الصورة من الاشكال والمحاسن والزينة الموجودة في الاشكال والاجساد اللحمية من الحيوان والناس وهي المحبوبة المرغوبة فيها المشتهاة المعشوقة عند أكثر الناس من البالغين العقلاء فاذا ارتاضت نفوسهم في العلوم الالهية والمعارف الربانية ارتفعت نفوسهم أيضاً عن هذه الصور والتماثيل المزوقة الموجود في اللحم والدم الى ما هي أشرف منها وأفضل وهي الصورة للنفوس ذوات الحسن والبهاء والكمال والجمال التي تراها النفوس الناطقة الناجية (١) في عالم الارواح

ثم اعلم أنه لما قصرت أفهام كثير من الناس عن تصورها وقلت معرفتهم بها رضوا بهذه الصورة والاشباح الجسمية الجسدانية المؤلفة من اللحم والدم والصديد واطمأنوا اليها وسكنوا اليها وتمنوا الخلود بها لنقص نفوسهم ، كما ذكر الله تعالى رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى

ثم اعلم يا أخي أنه مقرر في طباع الموجودات وجبلة النفوس محبة البقاء والدوام السرمدي على أتم الحالات وأكمل الغايات وأتم حالات النفس الشهوانية بأن تكون موجودة أبداً تتناول شهواتها وتتمتع بلذاتها التي هي مادة وجود أشخاصها من غير عائق ولا تنغيص

وهكذا من أتم حالات النفس الحيوانية أن تكون موجودة أبداً رئيسة على غيرها قاهرة لمن سواها منتقمة ممن يؤذيها من غير عائق ولا تنغيص.

وهكذا أيضاً من أتم حالات النفس الناطقة أن تكون موجودة أبداً مدركة لحقائق الاشياء متصورة لها ملتذة بها مسرورة فرحانة بلا عائق ولا تنغيص

وانما صارت النفوس الناطقة تلتذ بالعلوم والمعارف لان صور المعلومات في ذاتها هي المتممة لها المكملة لفضائلها المبلغة لها الى أتم غاياتها وأفضل نهاياتها عند

(١) لعلها السابحة

باريها جل ثناؤه كما قال تعالى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر)

ثم اعلم أن هذه الاحوال لاتليق بالنفس الشهوانية ولا بالنفس الغضبية ولكن تليق بالنفس الناطقة اذا هي انتبهت من نوم الغفلة واستيقظت من رقدة الجهالة وانفتحت لها عين البصيرة وعاينت عالمها وعرفت مبدأها ومعادها واشتاقت عند ذلك الى باريها وتاقت وحنت اليه كما يحن العاشق الى معشوقه وإلى هذا أشار بقوله تعالى : (والذين آمنوا أشد حباً لله) يعني من كل محبوب سواه

ثم اعلم أن كل نفس اذا أحبت شيئاً اشتاقت وحنت نحوه وطلبته وتوجهت نحوه حيث كان ولم تلتفت الى شيء سواه ولم تعرج عليه كما قال الشاعر : —

أحب حبيباً واحداً لست ابتغي مدى الدهر عنه ماحييت بديلا

فان ظفرت كفي به فهو بغيتي وإن فات ماأبغي سواه خليلا

ثم اعلم أن كل محب لشيء من الاشياء مشتاق اليه هائم به ، وانه متى وصل اليه ونال مايهواه منه وبلغ حاجته من الاستمتاع به والتلذذ بقربه فانه ولابد يوما من أن يفارقه أو يمله أو يتغير عليه وتذهب تلك الحلاوة وتتلاشى تلك البشاشة وتخمد لهب ذلك الاشتياق والهيجان ، الا المحبين لله تعالى من المؤمنين والمشتاقين اليه من عباده الصالحين فان لهم كل يوم من محبوبهم قربة ومزيداً أبد الابدين بلانهاية ولا غاية ،والى المحبين لسواه عز وجل أشار بقوله : (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) ثم عطف نحو محبيه فذكر حالهم وكنى عن ذكرهم والى نحو ذكرهم فقال تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه) يعني عند المحب

وكما روي في الخبر عن موسى عليه السلام أنه نادى ربه فقال : (يارب أين أجدك) فقال عند المنكسرة قلوبهم من أجلي وقال عليه السلام أعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك

ثم اعلم أن رؤية أولياء الله تعالى جل اسمه ليست كرؤية الاشخاص والاشباح والصور والاجناس والانواع والجواهر والاعراض والصفات والموصوفات في

الاماكن والمحاذيات ، ولكن بنوع أشرف منها وأعلى وفوق كل وصف جسماني ونعت جرماني وهي رؤية نور بنور لنور في نور من نور كما قال الله تعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) أي لاصورية ولاهيولانية

ثم اعلم أن الغرض الاقصى من وجود العشق في جبلة النفوس ومحبتها الاجساد واستحسانها لها ولزينة الابدان واشتياقها الى المعشوقات المفتنة كل ذلك انما هو تنبيه لها من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ورياضة لها وتعريج لها وترقية من الامور الجسمانية المحسوسة الى الامور النفسانية المعقولة ومن الرتبة الجرمانية الى المحاسن الروحانية ودلالة على معرفة جوهرها وشرف عنصرها ومحاسن عالمها وصلاح معادها ، وكل ذلك أن جميع المحاسن والزينة وكل المشتهيات من المرغوب فيها الذى يرى على ظواهر الاجرام وسطوح الاجسام انما هي أصباغ ونقوش ورسوم قد صورتها النفس الكلية فى الهيولى الاولى وزينت بها ظواهر الاجرام وسطوح الاجسام ، كيما اذا نظرت اليها النفوس الجزئية حنت اليها وتشوقت نحوها وقصدت لطلبها بالنظر اليها والتأمل لها والتفكر فيها والاعتبار لاحوالها ، كل ذلك كيما تتصور تلك الرسوم والمحاسن والنقوش في ذاتها وتنطبع في جوهرها حتى اذا غابت تلك الاشخاص الجرمانية عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم والصور المعشوقة المحبوبة مصورة فيها أعين النفوس الجزئية صورة روحانية صافية باقية معها معشوقاتها متحدة بها لاتخاف فراقها ولا فواتها أبداً .

والدليل على ما قلنا وصحة ماوصفنا معرفة من عشق يوما من أيام عمره لشخص من الاشخاص ثم تسلى عنه أو فقده أو تغير عليه ثم إنه وجده من بعده وقد تغير عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال وتلك الزينة والمحاسن التى كان رآها على ظاهر جسمه فانه متى رجع عند ذلك فنظر الى تلك الرسوم والصور

التي هي باقية في نفسه منذ العهد القديم وجدها بحالها تلك ولم تتغير ولم تتبدل ورآها برمتها ، فتشاهد النفس في ذاتها حينئذ من تلك المحاسن والصور والرسوم والاصباغ ما كانت من قبل تراها على غير تغير ، وتجد في جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجا عنها . فعند ذلك تبين له وعلم أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هي تلك الرسوم والصور التي كان يراها على ذلك الشخص وهو اليوم يراها منقوشة في نفسه مرسومة في جوهره مصورة في ذاته باقية لم تتغير ! فاذا فكر العاقل اللبيب فيما وصفنا انتبهت نفسه من نوم غفلتها واستيقظت من رقدة جهالتها واستقلت بذاتها وفازت بجوهرها واستغنت عن غيرها وكان حالها كما وصف المحب بقوله :

قد كنت آلف موطنا وتشوقني نحو الأحبة لوعة ما تنكر
والآن مالي مصدر عن موردي ما للعبيد عن الموالي مصدر

فاستراحت نفسه عند ذلك من تعبها وعنائها ومقاسات صحبة غيرها وتخلصت من السقام الذي لا يزال يعرض لعاشقي الاجرام ومحبي الاجسام حسب ما وصفوه في أشعارهم وشكوه من أحوالهم كما قال بعضهم :

وما في الارض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا في كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأى شوقا اليه ويبكي إن دنا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائي وتسخن عينه عند التلاقي

فصل

ثم اعلم أن من ابتلى بعشق شخص من الاشخاص ومرت به تلك المحن والاهوال وعرضت تلك الاحوال ثم لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها فيتسلى ويفيق أو نسي وابتلى من بعد بعشق ثان لشخص آخر ، فان نفسه نفس غريقة في عمائها سكرى في جهالتها كما قيل

(تسلت عمايات الرجال عن الصبى) (وما إن أري عنك الغواية تنجلى)

ثم اعلم أن في الناس خواصا وعواما : فالعوام من الناس هم الذين اذا رأوا مصنوعا حسنا أو شخصا مزينا تشوقت نفوسهم الي النظر اليه والقرب منه والتأمل له . وأما الخواص فهم الحكماء الذين اذا رأوا صنعة محكمة أو شخصا مزينا تشوقت نفوسهم الى صانعها الحكيم ومبدئها العليم ومصورها الرحيم وتعلقت به وارتاحت اليه واجتهدوا فى التشبه به في صنائعهم والاقتداء به في أفعالهم قولا وفعلا وعلما وعملا

ثم اعلم أن النفوس الناقصة تكون قصيرة الهمم لا تحب الا زينة الحياة الدنيا ولا تتمنى إلا الخلود فيها لانها لا تعرف غيرها ولا تتصور سواها ! فأما النفس الشريفة المرتاضة فهي تأنف من الرغبة فى الدنيا بل تزهد فيها وتريد الآخرة وترغب فيها وتتمنى اللحوق بأبناء جنسها وأشكالها من الملائكة ، وتشتاق الى الترقي الى ملكوت السماء والسيحان في سعة فضاء الافلاك ، ولكن لا يمكن الا بعد فراق الجسد على شرائط محدودة ، كما ذكرنا في رسالة البعث والقيامة .

واعلم أن نفوس الحكماء تجتهد فى أفعالها ومعارفها وأخلاقها فى التشبه بالنفس الكلية الفلكية وتتمنى اللحوق بها ، والنفس الكلية أيضاً كذلك فانها تتشبه بالباري في ادارتها الافلاك وتحريكها الكواكب وتكوينها الكائنات ، كل ذلك طاعة لباريها وتعبداً له واشتياقا اليه . ومن أجل هذا قالت الحكماء : ان الله هو المعشوق الاول ، والفلك انما يدور شوقا اليه ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات وأكمل الغايات وأفضل النهايات

ثم اعلم أن الباعث للنفس الكلية على ادارة الفلك وتسيير الكواكب هو الاشتياق منها الى اظهار تلك المحاسن والفضائل والملاذ والسرور التى في عالم الارواح التى تقصر ألسن الوصف عنها الا مختصرا كما قال تعالى «فيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين »

ثم اعلم أن تلك المحاسن والفضائل والخيرات كلها انما هي من فيض الله واشراق نوره على العقل الكلي ، ومن العقل الكلي على النفس الكلية ، ومن النفس الكلية على الهيولى وهي الصورة التي ترى الانفس الجزئية في عالم الاجسام على ظواهر الاشخاص والاجرام التي من محيط الفلك الى منتهي مركز الارض.

ثم اعلم أن مثل سريان تلك الانوار والمحاسن من أولها الى آخرها كمثل سريان النور والضياء التي في ليلة البدر منبعثاً من جرم جوهر القمر على الهواء ، والذى على جرم القمر من الشمس ، والذي على جرم الشمس والكواكب جميعاً من اشراق النفس الكلية ، والذي على النفس الكلية من العقل الكلي والذي على العقل الكلي من فيض البارى واشراقه كما قال الله تعالى « الله نور السموات والارض » فقد تبين بما ذكرنا أن الله هو المعشوق الاول وأن كل الموجودات اليه تشتاق ونحوه تقصد واليه يرجع الامر كله لان به وجودها وقوامها وبقاءها ودوامها وكمالها لانه هو الموجود المحض وله البقاء والدوام السرمد والتمام والكمال المؤبد . تعالى الله عما يقول الظالمون والجاهلون علوا كبيرا . بلغك الله أيها الاخ اليه وتمم نورك كما وعد أولياءه وأصفياءه من عباده ، وذلك قوله تعالي « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير » وفقك الله وإيانا وجميع اخواننا الكرام الى طريق السداد وهداك وإيانا وجميع اخواننا سبيل الرشاد انه رؤوف بالعباد

﴿ تمت رسالة ماهية العشق ويليها رسالة البعث والقيامة ﴾

الرسالة السابعة

من النفسانيات العقليات

فى البعث والقيامة

وهى الرسالة السابعة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

اعلم أيها الأخ انا قد فرغنا من بيان ماهية العشق ومحبة النفوس ماهو أشرف وأحسن وأكمل وأجمل وأتم وأدوم منها، ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسال ماهية البعث والقيامة وكيفية المعراج فنقول:

اعلم أيدك الله وايانا بروح منه أن العلوم كثيرة وكلها شريفة وفي معرفتها عزة وفي طلبها نجاة من الهلكة ونيلها حياة للنفوس وراحة للقلوب وتعلمها هدى ورشد وخروج من ظلمات الجهالة وصلاح في الدين والدنيا جميعاً، ولكن بعض العلوم أشرف من بعض وأهلها يتفاضلون: وذلك أن أفضل العلماء هم أهل الدين والورع الذين هم من أمر الآخرة على يقين وبصيرة لا على تقليد ورواية

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن معرفة حقيقة الآخرة والعلم بالمعاد محجوب عن ابليس وذريته المنكرين لما غاب عن رؤية الأبصار وعن أهل التقليد الذين لايعرفون حقيقة ماهم مقرون به من أمر الآخرة والبعث والقيامة والحشر والحساب والميزان والصراط والمعاد والجزاء هناك: إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً لأن هذا العلم هو لب الألباب وسر لأولياء الله دون سواهم، لأن

أولياء الله هم المصطفون الأخيار الذين أخلصوا بخالصة ذكرى الدار . ونريد أن نلوح من هذا العلم طرفاً في هذه الرسالة الجليلة القدر باشارات مرموزة وأمثال مضروبة للمريدين لله عز وجل الطالبين دار الآخرة ، اذ كان الاخبار عن حقيقتها يدق عن البيان ويبعد عن التصور بالأفكار والتخيل بالأوهام الا لأنفس زاكية وأرواح طاهرة وقلوب واعية وآذان سامعة : ولكن قبل ذلك نحتاج أن نذكر النفس والروح وحقيقتها وماهيتهما وتصاريف أمرهما اذ كان معرفة حقيقة الآخرة وأمر المعاد بعد معرفة البعث والقيامة بعد معرفة النفس والروح ، وعلة أخرى أيضاً أن قوماً من علماء الاسلام يتعاطون العلوم والكلام والجدل وينكرون أمر النفس ووجودها ويجهلون حقيقة الروح وتصاريف أحوالها .

من أجل هذا احتجنا الى أن ندل أولا على وجود النفس وماهية جوهرها وتصاريف أمورها بطريق السمع والاخبار وماذكر في الاخبار والكتب النبوية المنزلة ، ثم نذكر حججاً عقلية حكمية ، لأن قوماً من هؤلاء المجادلة لايرضون طريق السمع والاخبار ولايقنعهم ذلك لشكوك في نفوسهم وريبة في قلوبهم ، بل يريدون دلائل عقلية وحججاً فلسفية فنقول :

اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن الحكماء والفلاسفة قد أكثرت في كتبها وفي مذكراتها ذكر النفوس وحثت تلاميذها وأولادها على طلب علم النفس ومعرفة جوهرها لان في علم النفس ومعرفة جواهرها معرفة حقائق الاشياء الروحانية من أمر المبدأ والمعاد والباري تعالى عز وجل وملائكته وخاصة معرفة البعث وحقيقة القيامة والنشر بعد الموت والحشر والحساب والجزاء وثواب المحسنين وعقاب المسيئين

وذلك أن كل انسان لا يعرف نفسه ولايعلم ذاته ولا يعلم ما الفرق بين النفس والجسد تكون همته كلها مصروفة الى اصلاح أمر الجسد ومرافق أمر البدن من لذة العيش والتمتع بنعيم الدنيا وتمني الخلود فيها مع نسيان أمر المعاد وحقيقة

الآخرة! واذا عرف الانسان نفسه وحقيقة جوهرها صارت همته في أكثر الاحوال في أمر النفس وفكرته أكثرها في إصلاح شأنها وكيفية حالها بعد الموت واليقين بأمر المعاد والاستعداد للرحلة من الدنيا والتزود للمعاد والمسارعة في الخيرات والتوبة وتجنب الشر والمنكر والمعاصي

فاذا فعل ذلك يزول عنه خوف الموت وربما تمنى لقاء الله تعالى وهذه صفة أولياء الله تعالى وعباده الصالحين كما ذكر الله سبحانه وأشار اليهم بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في توبيخه لليهود لما زعموا أنهم أولياء الله من دون الناس فقال لهم: « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » بأنكم أولياء الله من دون الناس وإنما يتمنى أولياء الله الموت إذا تذكروا ما وعدهم الله وأعده لهم من التحية والسلام كما قال جل ثناؤه: « تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريما » وقال تعالى أيضا « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقد علم كل عاقل علما يقيناً أن أجساد هؤلاء قد بليت في التراب وأن هذه الكرامة والتحية والسلام هي لأرواحهم ونفوسهم الطاهرة الزكية كما ذكر جل ثناؤه بقوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » وقال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وقال تعالى « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » وقال أيضاً « إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي » وقال جل وعز « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى » وآيات كثيرة في القرآن في ذكر النفس وخطابها بالتأنيث ليعلم كل عاقل أنها هي شيء غير الجسد لأن الجسد مذكر لا يخاطب بالتأنيث، فكفى بهذا فرقا وبياناً بين النفس والجسد

وقد يعلم كل عاقل اذا تأمل وتفكر في أمر الجسد أنه جسم مؤلف من اللحم والدم والعروق والعصب والعظام وماشاكلها ، وأصله نطفة ودم انطمس .ثم اللبن والغذاء والمأكولات والمشروبات ، ثم آخر الامر الموت وبعد مفارقة النفس اياه يبلى ويصير ترابا ، ثم يعاد خلقاً جديداً اذا شاء الله كما وعد جل ثناؤه :

فأما النفس يعنى الروح فهي جوهرة سماوية نورانية حية علامة فعالة بالطبع حساسة دراكة لا تموت ولا تفنى بل تبقى مؤبدة : إما ملتذة واما مؤتلمة فأنفس المؤمنين من أولياء الله وعباده الصالحين يعرج بها بعد الموت الى ملكوت السموات وفسحة الافلاك وتخلى هناك فهي تسبح في فضاء من الروح وفسحة من النور وروح وراحة الى يوم القيامة الطامة الكبرى ، فاذا انتشرت أجسادها ردت اليها لتحاسب وتجازى بالاحسان احساناً والسيئات غفرانا

وأما انفس الكفار والفساق والاشرار فتبقى في عماها وجهالاتها معذبة متألمة مغتمة حزينة خائفة وجلة الى يوم القيامة ، ثم ترد الى أجسادها التى خرجت عنها لتحاسب وتجازى بما عملت من سوء

والدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا قول الله سبحانه « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وقال أيضاً « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » وقال أيضاً « شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » وقال « ادخلوا في أمم قدخلت من قبلكم من الجن والانس في النار » وقال أيضاً « يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين » وآيات كثيرة في القرآن فى هذا المعنى تدل على بقاء النفوس بعد الموت اما منعمة ملتذة واما معذبة متألمة

وفيما ذكرنا كفاية لمن انصف عقله ونصح نفسه واهتم لما بعد الموت وتفكر فى أمر المعاد واستعد للرحلة وتزود للسفر وزهد في الدنيا ورغب في الآخرة

قبل فناء العمر وتقارب الأجل والفوت . وفقك الله أيها الاخ للسداد وهداك للرشاد وايانا وجميع اخواننا حيث كانوا في البلاد

اعلم أيدك الله وايانا بروح منه أن الذين أنكروا أمر البعث والقيامة والنشر والحشر والوقوف والحساب ووضع الموازين لوزن الحسنات والسيئات والجواز على الصراط وما شا كل هذه الامور المذكورة في كتب الانبياء عليهم السلام لشكوك في نفوسهم وحيرة في قلوبهم ،والعلة في ذلك طلبهم حقيقة معرفتها وكيفيتها وأبنيتها وماهيتها وكميتها قبل معرفتهم أنفسهم وحقيقة جوهرها وكيفية كونها مع الجسد ولم ربطت به وقتاً ما ولم تفارقه وقتاً آخر ، ومن أين كان مبدؤها والى أين يكون معادها بعد مفارقتها جسدها ، وهذه المباحث علم غامض وسر لطيف ليس اليها طريق للمبتدئين في العلوم الحكمية الا التسليم والايمان والتصديق للمخبرين عنها الصادقين عن الله جل ثناؤه الذين أخذوا هذا العلم عن الملائكة وحياً وإلهاماً بتأييد من الله جل ثناؤه .

وأما الذين لايرضون أن يأخذوا هذا العلم تسليما وتصديقاً بل يريدون براهين عقلية وحججاً فلسفية فيحتاجون الى أن تكون لهم نفوس زكية وقلوب صافية وأذن واعية وأخلاق طاهرة وأن يكونوا غير متعصبين في الآراء والمذاهب المختلفة ،ومع ذلك يكونون قد ارتاضوا في الرياضات الفلسفية من علم العدد والهندسة والمنطق والطبيعيات ، ثم نظروا في العلوم الالهيات

وقد ذكرنا في رسائلنا طرفا من ذلك وبينا فيها مايحتاج اخواننا من هذه العلوم اليها والمعرفة بها فانظر ياأخي فيها واعتبرها وتأملها ترشد ان شاء الله

ثم اعلم ياأخي أن معنى القيامة مشتق من قام يقوم قياماً،والهاء فيه للمبالغة وهي من قيامة النفس من وقوعها في بلائها . والبعث هو انبعاثها وانتباهها من نوم غفلتها ورقدة جهالتها وهي بالفارسية رست خيزاى قياماً مستويا

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن كل عاقل لبيب اذا تفكر في أمر الدنيا وتأمل تصرف حالاتها بأهلها من الكون والفساد والتغير والاستحالة

وخاصة أمر الحياة والممات اللذين مرهون بهما جميع الحيوان ، واعتبر أحوال الماضين من القرون السالفة تيقن أنه لامحالة ميت وصائر الى ماصاروا اليه فيود عند ذلك ويتمنى أن يعرف حقيقة أمر الآخرة على صحة وبيان ليكون على يقين منها . واعلم يا أخي بأن الناس في أمر الآخرة على رأيين ومذهبين : فطائفة مقرة بها وطائفة منكرة ، فالمنكرون أمر الآخرة هم الذين يظنون أن حكم الانسان بعد الممات كحكم النبات والحيوان ، وذلك أنهم لما تأملوا أمرهما وتفكروا في كونهما وفسادهما واعتبروا أحوالهما وجدوا النبات يتكون وينشأ ويبلغ الى غاية ما ثم يبلى ويضمحل ويتكون مثله آخر ، وهكذا أمر الحيوان يتوالد ويتربى ثم يبلغ الى غاية ما ثم يموت ويهلك ويبلى ويتكون آخر مثله

فلما وجدوا حكم النبات والحيوان على ماوصفنا جعلوا ذلك قياسا على حال الانسان فقالوا : « نموت ونحيا ومايهلكنا الا الدهر » فقال الله تعالى « وما لهم بذلك من علم » لأنهم لو سئلوا ما الدهر لعجزوا عن ماهو الدهر في البيان ، وما دروا ما الدهر

واعلم ياأخي ان المقرين بالآخرة طائفتان من الناس : احداهما الذين يقرون بها بألسنتهم من غير تصور منهم لها بقلوبهم ولا معرفة بحقيقتها بعقولهم ، فاقرارهم إيمان وتسليم لقول الانبياء عليهم الصلاة والسلام وتقليدلهم فيمايقولون ويخبرونهم عنها ، والطائفة الاخرى الذين هم مع اقرارهم بها وتصديقهم للانبياء عليهم الصلاة والسلام متصورون لها بقلوبهم عارفون حقيقتها بعقولهم ، وقد مدح الله تعالى كلتا الطائفتين جميعا وأثنى عليهم بقوله جل ثناؤه « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ولكن فضل الله احداهما على الاخرى بقوله « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون »

واعلم يا أخي أن العلم هو تصور الشيء على حقيقته وصحته ، فأما الايمان فهو الاقرار بذلك الشيء والتصديق لقول المخبرين عنه من غير تصور له .

فالانبياء عليهم السلام وأولياؤهم هم المخبرون عن الآخرة المتصورون لها

بقلوبهم والعارفون حقيقتها بعقولهم ، والمؤمنون هم المقرون بالآخرة بألسنتهم المصدقون الانبياء عليهم الصلاة والسلام في أخبارهم المنتظرون لكشفها لهم

واعلم ياأخي أن المنتظرين لأمر الآخرة طائفتان من الناس احداهما ينتظر كونها وحدوثها في الزمان المستقبل عند خراب السموات والارضين هم لا يعلمون من الامور الا المحسوسات ولا من الجواهر الا الجسمانيات ولا من أحوالها إلا ما ظهر والطائفة الاخرى ينتظرونها كشفا وبيانا واطلاعا عليها وهم الذين يعرفون الامور المعقولة والجواهر الروحانية والحالات النفسانية .

واعلم ياأخي أن معرفة أمر الآخرة على الحقيقة في معرفة أمر الدنيا لانهما من جنس المضاف ، ومن خاصة جنس المضاف أن في معرفة أحد المضافين معرفة الآخر . فالدنيا باسمها تدل على اسم الأخرى أن الدنيا مشتق من الدنو، والآخرة مشتق من التأخر .

فالدنيا هي أول معلوماتنا وأحوالها أول محسوساتنا ، وشعورنا من أجسادنا ومشاهدتنا أحوال أجسامنا وأبناء جنسنا .

وهذه كلها قبل معرفتنا بنفوسنا ومشاهدتنا عالمها وعرفاننا أبناء جنسها ووجداننا لذات معقولاتها ، لان هذه تحصل لنفوسنا بعد مفارقتها أجسادها كما حصلت تلك لنا بعد ولادة أجسادها لان مفارقة النفس الجسد هي ولادة لها ، كما أن مفارقة الجنين للرحم ولادة الجسد

واعلم يا أخي ان الحياة الدنيا انما هي مدة كون النفس مع الجسد في عالم الاجسام الى وقت المفارقة التي هي الممات .

وأما الدار الآخرة فهي عالم الارواح التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون أي أبناء الدنيا وهو كون النفس في عالمها بعد مفارقتها جسدها مابقيت السموات والارض كما ذكر الله تعالى في كتابه فقال الله تعالى « فاما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض » « وأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض »

وقد بينا في رسالة الآلام كيف يكون عذاب الاشقياء فى الآخرة وكيف تكون لذات السعداء هناك

واعلم يا أخي أن الموت ليس هو شيء سوى ترك النفس استعمال الجسد ، وأن النفس تترك استعمال الجسد لسببين اثنين : احدهما طبيعي والآخر عرضي .

والسبب الطبيعي هو أن يهرم الجسد على طول الزمان وتضعف البنية وتكل آلات الحواس وتسترخي الاعصاب والعضلات المحركات للاعضاء وتجف الرطوبة المغذية للبدن وتطفأ الحرارة الغريزية كما يطفأ السراج اذا فنى الدهن فعندذلك لايمكن أن يعيش الانسان ولا يفعل شيئاً من الافعال والأعمال ، لان البدن للنفس بمنزلة الدكان للصانع والاعضاء بمنزلة الادوات ، فاذا كلت آلات الصانع أو انكسرت أو خرب الدكان وانهدم ، فان الصانع لايقدر على عمل شيء من صنعته الا ان يتخذ دكانا آخر وأدوات مجددة .

وأما ترك النفس استعمال الجسد لسبب عرضي فهو كثير الفنون ولكن يجمعها نوعان : فنها أسباب من داخل الجسد بلا اختيار كالامراض والاعلال المتلفة للجسد ، ومنها أسباب من خارج كالذبح والقتل ، والقتل ليس هو شيء سوى أن يقصد قاصد فيهدم بنية الجسد بضرب من الفساد والخراب كما يقصد إنسان فيخرب دار انسان أودكانه

واعلم ياأخي أن كل صانع حكيم اذا فكر في أمره ونظر فى العواقب علم انه لابد أن يخرب يوما دكانه وتكل أدواته وتضعف قوة بدنه وتذهب أيام شبابه فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان وكلال الادوات وذهاب القوة فاكتسب مالا بصنعته فى دكانه واستغنى عن السعي فانه لايحتاج بعد ذلك الى دكان آخر ولا أدوات مجددة بل يستريح من العمل ويشتغل بالتمتع واللذات بما قد كسب. فهكذا يكون حال النفس بعد خراب الجسد .

فانظر ياأخي وتفكر وبادر واجتهد وتزود قبل خراب هذا الدكان وانهدام هذه البنية (فان خير الزاد التقوى)

واعلم ياأخي أيدك الله وايانا بروح منـه أن مواهب الله عز وجل لعباده كثيرة لايحصى عددها الا الله تعالى ، فمن جليل مواهبه وعظيم نعمه وجزيل إحسانه ومننه على الانسان العقل الراجح والرأي الرصين والتمييز الصحيح التي لها نتائج العلوم الحقيقية ووجدان المعارف الروحانية والتأله الرباني

واعلم ياأخي أيدك الله وايانا بروح منه أن من أجل نتائج العقول وأشرف وجدانها الآراء الجيدة والاعتقادات الصحيحة المصلحة لنفوس معتقديها: وذلك ان الاراء الجيدة والاعتقادات الصحيحة المعينة لنفوس معتقديها على الانبعاث من نوم الغفلة ومن رقدة الجهالة ومحيية من موت الخطيئة ومنجية لها من نيران جهنم وعذاب الهاوية : عالم الكون والفساد وموصلة الى نعيم الجنان في دار الحيوان : عالم الافلاك وسعة السموات ومقربة لها الى خالقها ومنشئها ومتممها ومكملها ومبلغها أتم غاياتها وأكمل نهاياتها عند باريها في دار الخلود والمقام هناك — متنعمة ملتذة في دائم الاوقات مسرورة أبد الآبدين ودهر الداهرين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله .

ثم اعلم أن من أحد الآراء الصحيحة المنجية لنفوس معتقديها اعتقاد الموحدين بان العالم محدث مخترع مطوي في قبضة باريه محتاج اليه في بقائه مفتقر اليه في دوامه لايستغنى عنه طرفة عين ولاعن امداد الفيض عليه ساعة فساعة ، وأنه لومنعه ذلك الفيض والحفظ والامساك لحظة واحدة لتهافتت السموات وبادت الافلاك وتساقطت الكواكب وعدمت الاركان وهلكت الخلائق ودثر العالم دفعة واحدة بلازمان !! كما ذكر الله تعالى بقوله « ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعـد » وبقوله تعالى : (والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه)

واعلم ياأخي أن من يعتقد هذا الرأي ويتحقق هذا الاعتقاد في أمر السموات والارض فهو في دائم الاوقات يكون متعلق القلب بربه معتصما بحبله متوكلا

عليه في جميع أحواله مسنداً ظهره اليه في جميع تصرفاته داعياً له في جميع أوقاته سائلا منه كل حوائجه مفوضا اليه سائر أموره ، فيكون له بهذه الاوصاف قربة الى ربه وحياة لنفسه وهدؤ لقلبه ونجاة من المهالك ، كما ذكر الله تعالى بقوله حكاية عن عبد من عباده وهو مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه في آخر خطاب طويل مع فرعون « وأفوض أمري الى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيأت ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » فأما من يظن أو يتوهم أن العالم مستقل بذاته ومستغن في وجوده عن فيض باريه عليه بالمادة والبقاء والحفظ والامساك ، فهو يكون معرضا عن ربه ناسيا ذكره غافلا عن دعائه مشغولا بما حوله من أعراض دنياه وما كان له فيها وملكه منها ! فهو لا يذكر ربه إلا ساهيا ولا يدعوه إلا لاهياً ولا يسأله إلا بطراً ورياء أو مضطراً عند الشدائد والبلوي والمصائب والضراء على كره منه وشكوك في حيرة وضلال ! لا يدري لم ابتلى ولا كيف عوفي هو ويكون جاهلا بربه حق معرفته فيبقى محجوبا عن ربه طول عمره في دنياه « وفي الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ومن الآراء الجيدة والاعتقادات النافعة لنفوس معتقديها المعينة لها على الانبعاث من نوم الغفلة المقيمة لها من رقدة الجهالة المحيية لها من موت الخطيئة المنجية لها من نيران الهاوية : عالم الكون والفساد ، الموصلة لها الى الجنة : عالم الافلاك وسعة السموات ، المقربة لها الى باريها لديه زلفى — اعتقاد الانسان العاقل وعلمه اليقين أنه متوجه الى ربه وقاصد نحوه منذ يوم خلقه نطفة في قرار مكين ، ينقله ربه وخالقه حالا بعد حال من الانقص الى الاتم والاكمل ، ومن الادون الى الاشرف والافضل الى أن يلقى ربه ويراه ويشاهده فيوفيه حسابه ، كما ذكر الله جل ثناؤه بقوله « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى . وقال الله تعالى وعيداً وذماً وتوبيخاً لمن لا يعتقد هذا الرأي « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون » ؟ « ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن

آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » وآيات كثيرة في القرآن فى هذا المعنى

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منـه أن ملاك أمر الآخرة وزمام أمر المعاد هى معرفة حقيقة البعث والقيـامة كلها هو في معرفة الانسان نفسه وحقيقة جوهرها ، وذلك أن كل انسان لايعرف نفسه ولا يميز بينها وبين الجسد تكون همته أكثرها مصروفة الى أمر الجسد وإصلاح شأنه والتمني للخلود في الدنيا والتمتع بلذة شهواتها .فأما كل من كان يعرف نفسه على الحقيقة فان أكثر همته تكون مصروفة الى حال النفس واصلاح شأنها والتفكر له فى أمر معادها ودار قرارها والاستعداد للرحلة من الدنيا والتزود للمعاد واليقين بلقاء الله تعالى وقلة الخوف من الموت ، وهـذه صفة أولياء الله تعـالى واليهم أشار بقوله في توبيخه لليهود «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وقال «ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» يعنى فى قولهم « نحن أبناء الله وأحباؤه»

اعلم ياأخى أيدك الله وايانا بروح منه أن من أفضل منـاقب العقلاء كثرة العلوم والمعارف ، وأن من أشرف العـلوم وأجل المعارف التى يبلغها العقلاء العلماء ، ويهدي الله أولياءه اليها من المؤمنين المصدقين ويكرمهم بها ، علم البعث ومعرفة حقيقة القيامة وكيفية تصاريف أحوالها . وقد ذكر الله سبحانه في القرآن تصـاريف أحوالهـا في نحو من ألف وسبعمائة آية وأشار اليها بأوصاف شتى واشارات مفننة مثل قوله تعالى يوم القيامة (ويوم يبعثون) (ويوم الدين) (ويوم الفصل) (ويوم الحساب) (ويوم الآزفة) (ويوم التناد) (ويوم التغابن) (ويوم الحشر) (ويوم يخرجون) (ويوم تقوم الساعة) وماشا كل هـذه الأوصاف والاشارات التى قد تاهت عقول أكثر العلماء فى طلب حقائقها وتصور كيفياتها بكنه صفاتها ولا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم من أولياء الله وأصفيائه الذين يقولون (كل من عند ربنا) (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) (ولا يطلع على غيبه أحدا) (الا من ارتضى من رسول) (وهم من خشيته مشفقون)

اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن علم البعث وحقيقة القيامة محجوب عن ابليس وذريته وأتباعه وجنوده من شياطين الجن والانس وهو سر الله الاعظم لا يطلع عليه أحد من خلقه إلا من ارتضى من أوليائه وأصفيائه وأهل مودته من ذرية آدم ومن ذرية نوح وذرية ابراهيم واسرائيل ، وممن هدى واجتبى ! اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً . جعلكم الله أيها الاخ وايانا منهم برحمته انه ودود رءوف رحيم

ونريد أن نلوح من هذا السر طرفاً ونشير اليه اشارة ما ، إذ لا يجوز التصريح به اقتداء بسنة الله عز وجل (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) وقال عليه السلام (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) اشارة الى مثل هؤلاء القوم الذين هم ظالم لنفسه .

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أنه لما كان العقلاء متفاوتي الدرجات في ذكاء نفوسهم وصفاء أذهانهم وجودة تمييزهم ، صاروا أيضاً متفاوتي الدرجات في العلوم والمعارف ، كما بينا في رسالة الآراء والمذاهب .

ولما كان الأمر كما وصفنا لم يكن أن يخاطبوا بصريح الحقائق خطاباً واحداً إلا بألفاظ مشتركة المعاني ليحمل كل ذي لب وعقل وتمييز بحسب طاقته واتساعه في المعارف والعلوم ، كما ذكر الله جل ثناؤه بقوله على سبيل المثل « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » قال المفسرون معنى هذه الآية وتأويلها أنه أنزل القرآن من السماء الى الارض كما أنزل المطر من الغيم فاحتملت القلوب من علم القرآن بحسب اتساعها في المعارف وصفاء جواهر النفوس ، كما تحمل الاودية من سيل المطر بحسب سعتها وجريانها

ثم افهم أن لفظ القلب ليس هو قطعة لحم صنوبري الشكل المعلقة من الصدر الموجود في أكثر الحيوانات . وليس المراد من القلب ههنا ذاك ، بل مراد اخواننا أمر وراء ذلك وهي النفس

واعلم يا أخي أن لفظ البعث اسم مشترك في اللغة العربية يحتمل ثلاثة معان :

فمنها قول القائل بعثت يعني أرسلت كما قال الله تعالى « بعث الله النبيين » يعني أرسلهم ، ومنها ما يكون معنى البعث هو بعث الاجساد الميتة من القبور و نشر الابدان من التراب ، كما وعد الكفار والمنكرين بقولهم : « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون » قال الله تعالى « قل نعم » ومنها بعث النفوس الجاهلة من نوم الغفلة وإحياؤها من موت الجهالة كما ذكر الله جل ثناؤه بقوله « أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وقوله تعالى : « ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » وقوله لمحمد ﷺ (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً)

واعلم يا أخي أن من لا يوقن ببعث الأجساد ولا يتصوره فليس من الحكمة أن يخاطب ببعث النفوس لأن بعث الأجساد يمكن تصوره ويقرب فهمه وعلمه فأما من لا يقر به ولا يتصوره فهو لبعث النفوس أنكر وبه أجهل ومن تصوره أبعد ، لأن بعث النفوس هو من علم الخواص ولا يتصوره الا المرتاضون بالعلوم الالهية والمعارف الربانية ، وانما وعد الكفار أن يبعث أجسادهم ليوافقهم على تكذيبهم ويجازيهم بسوء أفعالهم ووعد الله المؤمنين أن يحيي نفوسهم ويبعث أرواحهم ليجازيهم على حسناتهم ويثيبهم بأعمالهم

فلا تكن يا أخي ممن ينتظر بعث الاجساد ويؤمل نشر الابدان فان ذلك ظلم عظيم في حقك اذا كنت تتوهم ذلك . ولكن ان استوى لك فكن من الذين ينتظرون بعث النفوس ويؤملون حياتها ووصولها الى عالمها الروحاني ودار قرارها الحيواني مخلداً في النعيم أبداً الآبدين ودهر الداهرين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا

فصل

في بعث الاجساد

واعلم يا أخي أن بعث الاجساد من القبور الدارسات وقيامها من التراب

انما يكون ذلك اذا ردت اليها تلك النفوس والارواح التى كانت متعلقة بها وقتا من الزمان فيما سلف من الدهر فتنتعش تلك الاجساد وتحيى تلك الابدان وتتحرك وتحس بعد ما كانت جموداً ثم تحشر وتحاسب وتجازى لأن الغرض من البعث هو المجازاة والمكافأة

واعلم يا أخي أن رد النفوس الناجية الى الاجسام الفانية في التراب من الرأس ربما يكون موتاً لها في الجهالة واستغراقا في ظلمات الاجسام وحبساً في أسر الطبيعة وغرقا في بحر الهيولى

فأما بعث النفوس وقيام الارواح فهو الانتباه من نوم الغفلة واليقظة من رقدة الجهالة والحياة بروح المعارف والخروج من ظلمات عالم الاجسام الطبيعية والنجاة من بحر الهيولى وأسر الطبيعة والترقى الى درجات عالم الارواح والرجوع الى عالمها الروحانى ومحلها النوراني ودارها الحيوانى كما ذكر الله تعالى بقوله «ان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» يعني أبناء الدنيا . فاذا كانت الدار هي الحيوان فما ظنك يا أخي بأهل الدار كيف تكون صفاتهم ونعيمهم ولذاتهم ؟ الا كما ذكر الله تعالى بقوله « فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون» لا يموتون فيها ولا يمرضون

واعلم يا أخى أيدك الله وايانا بروح منه أن العلوم كلها شريفة ونيلها عز لصاحبها وعرفانها نور لقلوب أهلها وهداية وحياة لنفوسهم وشفاء لصدورهم ويقظة لها من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ولذة للأرواح وصلاح للاجساد وتمام وكمال للاجسام وقوام للعالم ونظام للخلائق وترتيب للموجودات وزينة للكائنات ولكن قيل بعض العلوم أشرف وأفضل وأكرم ، فأشرف العلوم وأجل المعارف التى ينالها العقلاء المكلفون ، معرفة الله جل ثناؤه والعلم بصفات وحدانيته وأوصافه اللائقة به

ثم بعد هذا معرفة جوهر النفس وكيفية تصاريف أحوالها فى جميع الازمان الماضية والآتية والحاضرة ، ثم كيفية تعلقها بالأجسام وتدبيرها للأجساد

واستعمالها الأبدان مدة ، ثم كيفية تركها لها ومفارقتها اياها وتفردها بذاتها ولحوقها بعالمها وعنصرها وجوهرها الكلى ، ثم معرفة البعث والقيامة والحشر والحساب والميزان والصراط ودخول الجنان ومجاورة الرحمن ذو الجلال والاكرام

واعلم يا أخي أن هذا الفن من العلوم هو لب الألباب واليه ندب ذوي العقول الراجحة والحكمة الفلسفية دون غيرهم من الناس ، لأن هذا الفن من العلم والمعارف آخر مرتبة ينتهى اليها الانسان في المعارف مما يلي رتبة الملائكة ، ومن أجل هذا هو مكلف متعبد وقاصد نحوه منذ يوم خلقه الله تعالى الى يوم يلقاه فيوفيه حسابه ، وهو الغرض الأقصى في وجود النفس وتعلقها بالأجساد ونشوئها معها وتتميمها وتكميلها

واعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه أنك اذا أردت النظر في هذا العلم الشريف والبحث عن هذا السر اللطيف فتحتاج الى أن تقصد الى أهله وتسألهم عنه كما يقصد في سائر العلوم والصنائع الى أهلها ، كما قيل : استعينوا على كل صناعة بأهلها

واعلم يا أخي أن أهل هذه الصناعة وعلماء هذه الأسرار هم اخواننا الكرام الفضلاء . فانظر يا أخي فيما قالوا وتأمل ما وصفوه من حقائق الأشياء التى أنت مقر بها بلسانك وتؤمن بقلبك ، ثم تفكر فيما تسمع وتأمل ما يوصف لك وميزه ببصيرتك واعرضه على عقلك الذي هو حجة الله عليك والقاضى بينك وبين أبناء جنسك ، فان اتضحت لك حقيقة ما تسمع وتصورت ما يصفون وتيقنت ما يخبرون فبتوفيق من الله وهداية منه . وإن تكن الأخرى كنت قد بذلت المجهود وأزلت العذر فيما أنت مكلف له « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »

وإن لم يتفق لك يا أخي لقاء أحد من أهل هذه الصناعة بحيث أن تسأله عن حقيقة هذا السر ويعرفك ما تطلب وتريد أن تعلم أنت باجتهادك وعقلك وبصيرتك وتمييزك فاسلك في هذا البحث والنظر طريقة الحكماء النجباء ، واستعمل القياس البرهاني الذي هو ميزان العقول — كما وصف في المنطق — وقد بينا من علم

المنطق في رسائل شبه المدخل والمقدمات مافيه كفاية ، ولكن نذكر في هذا الفصل مثالا واحداً ليقرب به عليك مأخذه

واعلم ياأخي أيدك الله وايانا بروح منه أن علم الانسان المعلومات بعضها بطريق الحواس ، وبعضها بطريق السمع والروايات والاخبار ، وبعضها بطريق الفكر والروية والتأمل والعقل الغريزي ، وبعضها بطريق الوحي والالهام وليس هذا الفن باكتساب من الانسان ولاباختيار منه بل هو موهبة من الله تعالى وبعضها بطريق القياس والاستدلال ، وهو العقل المكتسب وبهذا العقل يفتخر العقلاء وبه يتفاضل الحكماء والفلاسفة ·

واعلم ياأخي أيدك الله وايانا بروح منه أنك إذا طلبت علم البعث ومعرفة حقيقة القيامة ومايوصف من أحوالها فليست تخلو معرفتها من أحد هذه الطرق التى تقدم ذكرها : فان أردت أن تعرفها بطريق القياس والبرهان فاعمل فى هذه المسألة وابحث — أعنى معرفة البعث وعلم حقيقة القيامة — كما يعمل أصحاب المجسطي عند طلبهم معرفة عظم جرم الشمس . وذلك أنهم قالوا لايخلو جرم الشمس من أن يكون مساوياً لجرم الأرض أو أعظم أو أصغر منها في المقدار ، إذ ليس في القسمة العقلية غير هذه . ثم بحثوا عن واحد واحد من هذه الأقسام الثلاثة حتى عرفوا حقيقتها كما هو مذكور في كتبهم بشرح طويل

فاعمل أنت يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه في هذه المسألة مثل ماعمل هؤلاء فى مسائلهم وهو أن تقول : لايخلو أمر البعث ومعنى القيامة أن تبعث الأجساد دون النفوس ، أو النفوس دون الأجساد ، أو الجميع إذ كان ليس في القسمة غير هذه الوجوه الثلاثة ، ثم ابحث وتصفح عن حقيقة واحد واحد من هذه الوجوه الثلاثة كما نبين في هذا الفصل

اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن من يري ويعتقد بأن الانسان ليس هو شيء سوى هذه الجملة المحسوسة : أعنى الجسد المؤلف من اللحم والدم والعظم والعروق وماشا كلها التى هى كلها أجسام طويلة عريضة عميقة ومايحلها

من الاعراض على البنية المخصوصة الى هي صورة الانسانية ، فهو لا يتحقق أمر البعث ولا يتصور حقيقة القيامة إلا اعادة هذه الاجساد برمتها وتلك الاجرام والاعراض بعينها ، على هذه الحال التي هي عليها الآن ، ثم يحشرون ويحاسبون الجسمانية والنوازع الجاذبة لها الى الاسباب الضرورية . من الجوع والعطش والغذاء والحر والبرد والآلام والأوجاع والامراض والاسقام والاحزان والمصائب والحدثان من جور السلطان وحسد الاخوان وعداوة الجيران ومقاساة غيظ الاقران ووساوس الشيطان وماهو مكلف به من حمل ثقل الطاعات والجهد في العبادات من الصوم والصلوات ومنع النفس عن الشهوات المركوزة في الجبلة والعادات المطبوعة وماعلى النفس في البدن من الكلية مع شدة هذه كلها يرى ويعتقد بأنه محبوس في هذه الدنيا الى وقت معلوم كما قال رسول الله ﷺ «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» لان المؤمن الحق قد سجن نفسه بالمنع لها عن الشهوات والملاذ التى تراد الدنيا من أجلها . ومن كان يرى ويعتقد أمر الحياة في الدنيا على هذه الحال فهو لا يتصور أمر البعث ولا يتحقق أمر القيامة إلا مفارقة النفس الجسد بعد استقلالها بذاتها وتفردها بجوهرها ومشاهدتها عالمها ، ولا يسأل ربه إلا اللحوق بأبناء جنسها من الماضين من عباد الله الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، كما سأل ابراهيم خليل الرحمن ربه في آخر دعائه فقال : « وألحقنى بالصالحين » يريد بعد الموت . وهكذا يوسف الصديق : « توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » يريد بعد الموت . فقال الله تعالى لمحمد نبيه ﷺ وعلى جميع النبيين « وللآخرة خير لك من الاولى » وقال عليه السلام « أبى الله أن يجعل لاوليائه الخلود في الدنيا »

فن كان هذا رأيه واعتقاده فهو لا يتصور البعث والقيامة إلا مفارقة النفس الجسد ، كما حكى عن رسول الله ﷺ أنه قال « من مات فقد قامت قيامته »

ويحكي عن بعض من كان يعتقد هذا الرأي أنه لقي أخا له من أهل رأيه فقال له : كيف أصبحت يا أخي فكيف حالك في هذه الدنيا فقال بخير و نرجو

خيراً من هذا أن سلمنا من آفاتها وبلياتها ان شاءالله تعالى ، فكيف أنت وكيف حالك ؟ قال : كيف تكون حال من يصبح في دار غربة أسيراً فقيراً لا يقدر على جر نفع مايرجو ولادفع ضر مايكره !! قال أخوه : كيف ذلك ؟ قال : لانهم قد يجازون بما عملوا من خير أو شر أو عرفان أو انكار

واعلم يا أخي أن هذا الرأي والاعتقاد جيد للنساء والصبيان والجهال والعوام ومن لاينظر في حقائق العلوم ولايعرفها :

وذلك أنهم اذا اعتقدوا هذا الرأي وتحققوا هذا الاعتقاد يكون ذلك حثاً لهم على عمل الخير وترك الشرور واجتناب المعاصي وفعل الطاعات وأداء الامانات وترك الخيانات والوفاء بالعهود وصحة المعاملة والنصيحة فيها وحسن الخلق وخصال كثيرة محمودة تتبعها ، ويكون ذلك صلاحاً لهم ولمن يعاملهم ويعاشرهم في الحياة الدنيا الى الممات

وأما من كان فوق هذه الطوائف فى العلوم والمعارف فهو يرى ويعتقد بأن مع هذه الأجساد جواهر أخر أشرف منها وأفضل ، وليست بأجسام تسمى أرواحاً أو نفوسا فهو لايتصور أمر البعث ولايتحقق أمر القيامة الا برد تلك النفوس والأرواح الى تلك الأجساد بعينها أو أجساد أخر تقوم مقامها ، ثم يحشرون ويحاسبون ويجازون بما عملوا من خير أو شر ، وهذا الرأي أجود وأقرب الى الحق وفى اعتقادهم له صلاح لهم ولغيرهم كما تقدم من قبل

وأما من كان فوق هذه الطائفة في العلم والمعارف والدراية فهو يرى ويعتقد بأن الغرض من كون هذه النفوس والارواح مع هذه الاجساد في الدنيا مدة ما هو من أجل أن تستتم ذواتها وتكمل صورها وتخرج من حد القوة والكون الى الفعل والظهور ، ولتستكمل أيضا فضائلها من عرفانها أمر المحسوسات وتخيلها رسوم المعقولات وتخرج بالآداب والرياضات والنظر في العلوم الطبيعيات والالهيات ، وبالاعتبار والتجارب والتدبير والسياسات ، وليكون ذلك سببا لانتباه النفوس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتحيا بروح المعارف وينفتح لها

عين البصيرة لتنظر الى عالمها الروحاني وتشاهد دارها الحيواني ويتبين لها أنها في عالم الغربة وموضع المحنة والبلوى، غريقة في بحر الهيولى مبتلاة في أسر الطبيعة مشتعلة فيها نيران الهاوية الموقدة المطلعة على الافئدة من حريق الشهوات أصبحنا فى الدنيا معذبين في صورة المنعمين، مجبورين في صورة المختارين، مغرورين في صورة المغبوطين، أحراراً كراماً في صورة عبيد مهانين مسلط علينا خمسة حكام يسوموننا سوء العذاب: ينفذون أحكامهم علينا شئنا أو أبينا ليست لنا حيلة في الخروج عن أحكامهم ولا دفع سلطانهم ولا الخلاص من جورهم الى الممات

قال أخبرني من هؤلاء الحكام؟. قال: نعم: أولهم هذا الفلك الدوار الذي نحن في جوفه محبوسون، وكواكبه السيارة التى لا تزال تدور علينا ليلا ونهاراً لا تقر، تارة تجيئنا بالليل وظلمته، وتارة بالنهار وحرارته، وتارة بالصيف وسمائمه، وتارة بالشتاء وزمهريره، وتارة بالرياح العواصف في زعازعها، وتارة بالغيوم وأمطارها، وتارة بالرعود والزوابع وصواعقها، وتارة بالجدب والغلاء والموتات والبلاء، وتارة بالحروب والفتن، وتارة بالهموم والاحزان ليس منها نجاة الا بجهد وبلوى وكدر وعناء وخوف ورجاء الى الممات، ثم قال: فهذا واحد

وأما الآخر فهو هذه الطبيعة وأمورها المركوزة فى الجبلة من حرارة الجوع ولهب العطش ونار الشبق وحريق الشهوات والآلام والامراض والأسقام وكثرة الحاجات! ليس لنا شغل ليلا ولانهارا إلا طلب الحيلة لجر المنفعة أولدفع المضرة عن هذه الاجساد المستحيلة التى لا تقف على حالة واحدة طرفة عين! فنفوسنا منها فى جهد وبلاء وكد وعناء وبؤس وشقاء! ليس لنا راحة الى الممات فهذان اثنان. وأما الثالث فهو هذا الناموس وأحكامه وحدوده وأوامره ونواهيه ووعيده وزجره وتهديده وتوبيخه: ان خرجنا من أحكامه فضرب الرقاب والحدود، وإن فررنا منه لم نجد لذة العيش ولاصلاح الوجود فى الوحدة، وإن دخلنا تحت أحكامه فما نقاسى من الجهد والبلوى فى اقامة حدوده أكثر مما يحصى

من ألم الجوع عند الصيام وتعب الابدان عند القيام للصلاة، ومقاساة برد الماء عند الطهارات، ومجاهـدة شح النفوس عند اخراج الزكاة، والصدقات الواجبات، ومشقة الأسفار والأحكام عند قضاء الحج والجهاد، وما نقاسي من الألم عند ترك اللذات والشهوات المحرمات !! وإن لم نأتمر ولم ننته فالحدود والأحكام بحسب الجنايات، ومع هذه كلها (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) فهذه حالنا ليس لنا منها خلاص ولا نجاة الى الممات ! فهذه ثلاثة وأما الرابع فهذا السلطان المسلط الجائر الذى قد ملك رقاب الناس بالقهر والغلبة واستعبدهم جبراً أو كرهاً يتحكم عليهم كما يشاء ويرفع ويكرم من يريد ممن يخدمه ويطيعه ويتصرف بين يديه ويمتثل أمره ونهيه ويضع ويبعد من خالفه ويعذب ويقتل من خانه أو غشه! فاذا خرجنا من مملكته وفررنا من سلطانه فلا عيش لنا فى الوجود فى هذه الدنيا الا عيشا نكداً لاننا قد نحتاج فى لذة العيش وصلاح المعاش الى الجم الغفير من المتعاونين فى المدن والقرى فى اصلاح أمر المعاش ولا بد لهم من سلطان يملكهم ويرؤسهم ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون، ويمنع الظالم القوي من التعدى على الضعيف المظلوم ويأمن لخوفه السبل، ويأخذ الناس بلزوم سنة الناموس وتأدية موجبات فرائضه التى في إقامتها وحفظها صلاح الجميع . فلهذه العلة وبهذا السبب لا يمكننا الخروج من المملكة ولا الفرار من سلطانه، فان خدمناه وقمنا بواجب طاعته فما نقاسي من الجهد والبلوى أكثر مما يحصى من تعب الأبدان وهموم النفوس وعناء الارواح وتلف الاجساد واحتمال الذل وشماتة الحساد ومداراة الاخوان وعداوة الأقران ومشقة الأسفار ومخاوف الحروب وما نتكلف من التعب والعناء في جمع الآلات والاثاث من السلاح والدواب وحوائجها ومرافقها مما لا يحصى عددها كثرة وليس لنا منها راحة الى الممات . فهذه أربعة وأما الخامس فهو شدة الحاجة الى المواد التى لا قوام لهذا الهيكل الا بها من المأكولات والمشروبات واللباس والمسكن والمركب والاثاث وما لا بد منه فى

قوام الحياة الدنيا وما نقاسى من الجهد والبلوي في طلبها ليلنا ونهارنا في تعلم الصنائع والتجارات المتعبة والمكاسب المكدة من الحرث والزرع والبيع والشراء والمناقشة في الحساب والحرص والشره وجمع الاموال وحفظها من حيل اللصوص ومكابرة القطاع ، وأخذ السلطان لها بالجور والظلم وحراستها من الآفات العارضة التى لا يحصى عددها ، كل ذلك بالكد والعناء والهموم والغموم وتعب الابدان وعناء الارواح وشقاء النفوس التى لاراحة لنا منها الى الممات . فهذه حالنا ياأخى وحال أكثر أبناء جنسنا فى هذه الحياة الدنيا ، فأما من يريد المقام فى الدنيا ويتمنى الخلود فيها مع هذه الآفات كلها فهو من أجل احدى خلتين . أما أنه لا يؤمن بالآخرة ولا يصدق بالمعاد ولا يتصور الوجود الا هكذا ويظن ويتوهم أن بعد الموت عدم أو شر محض ! فن أجل هذا الرأى وهذا الاعتقاد يريد المقام فى الدنيا ويتمنى الخلود فيها مع هذه الآفات كلها ويكون معذوراً فى تمنيه وارادته الخلود، لان فى جبلة الخلائق فى وطبائع الموجودات محبة البقاء وكراهية الفناء مذكور ذلك .

فن أجل هذه الخصال والشرائط يرضى أكثر أبناء الدنيا المقام فيها ويتمنون الخلود ! فأما من قد تصور كيفية الدار الآخرة وتحقق أمر المعاد وعرف فضلها وشرفها وسرورها ولذاتها ونعيمها فأى عذر له فى التمنى للخلود فى الدنيا مع ما قد عرف من آفاتها وشرورها وأحزانها ومصائبها وبلياتها فاجتهد يا أخي في طلب معرفة الدار الآخرة وحقيقة أمر المعاد لكيما تساق نفسك اليها بعد الفراق مع أهلك زمراً كما ذكر الله جل ثناؤه بقوله (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً)

واعلم ياأخي أيدك الله وايانا بروح منه أنك إن لم تعرف الدار الآخرة ولم تتحقق أمر المعاد قبل الممات وكانت نفسك فى الدنيا عمياء فهي بعد الممات فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، وحوشيت ياأخي من ذلك إن شاء الله تعالى .

واعلم ياأخى أن المقر بالاخرة المؤمن بالمعاد المصدق بها لا يتصورها ولا يعرف حقيقتها الا بعد ماتنتبه نفسه من نوم الغفلة وتنبعث من موت الجهالة

وتحيا بروح المعارف وتنفتح عين البصيرة فتبصر عند ذلك بنور الهداية ماهو مقربه ومصدق له ، ويكون عند ذلك من أهل الاعراف ، كما حكى عن مستبشر لما سئل فقيل : كيف أصبحت ؟ فقال: أصبحت مؤمنا حقا ! قيل وما حقيقة إيمانك ؟ قال : أرى كأن القيامة قد قامت وكأني بعرش ربي بارزاً وكأن الخلائق في الحساب وكأني بأهل الجنة فيها منعمين وأهل النار فيها معذبين . فقيل له : قد أصبت فالزم عن الطريق . واليه والى امثاله أشار جل ثناؤه بقوله : « وعلى الاعراف رجالا يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون» . واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » وهم الرجال الذين (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (تعالى) في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)

فهل لك ياأخي أن ترغب في صحبتهم وتسلك طريقهم وتطلب منهاجهم وتتخلق باخلاقهم وتسير بسيرتهم وتنظر في علومهم لتعرف مذهبهم وتعتقد رأيهم وتعمل مثل عملهم لعلك تحشر معهم وتفوز بمفازتهم (لايمسهم السوء ولاهم يحزنون)وهم أولياء الله وعباده الصالحون الذين استثناهم بقوله في قصة أبليس (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان)وقوله: (إلا عبادك منهم المخلصين)

فاذا أردت ياأخي أن تعرف وتعلم أأنت منهم أم من غيرهم فاعلم أن لهم علامات يعرفون بها وسمات يستدل عليهم بها : فمن إحدى علامات أولياء الله المبعوثين من موت الجهالة المنبهين من رقدة الغفلة المستبصرين بعين اليقين ونور الهداية العارفين بحقائق الاشياء الشاهدين حساب يوم الدين، انهم قوم تستوي عندهم الاماكن والازمان وتغاير الامور وتصاريف الاحوال، فقد صارت الايام كلها عندهم عيداً واحداً وجمعة واحدة وصارت الاماكن كلها لهم مسجداً واحداً والجهات كلها قبلة ومحرابا أينما تولوا فثم وجه الله وصارت حركاتهم كلها عبادة لله وسكوناتهم طاعة له ، استوى عندهم مدح المادحين وذم الذامين ، لايأخذهم في الله لومة لائم قياما لله بالقسط شهداء لله بالحق وهم على صلواتهم

دائمون . وانما استوت عندهم الاماكن كلها وصارت مسجداً وقبلة ومحراباً واحداً لتصديقهم قول الله تعالى (أينما تولوا فثم وجه الله) وصاروا شهداء بمشاهدتهم له وتصديقهم قوله : (مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ،ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولاأدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم).

وانما استوت عندهم الايام كلها فصارت جمعة وعيداً لمشاهدتهم يوم القيامة الذى هو من أول مابعث الله محمداً عليه السلام الى تمام الف سنة كما قال ﷺ بعثت أنا والقيامة كهاتين .

وأيضا فانما استوى عندهم تغاير الازمان وتصاريف الاحوال لتصديقهم قول الله تعالى (ماأصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وصار دعاؤهم مستجابا لانهم لايسألونه الا مايكون ،ولايكون الاماقدر في سابق العلم .فقلوبهم في راحة من التعلق بالاسباب وأبدانهم فارغة من تكلف مالايعنى به ، ونفوسهم ساكنة عن الوسواس وهم فى راحة من انفسهم والناس منهم فى راحة وأمان ، لايريدون لاحد سوءاً ولا يضمرون شرا لاحد من الخلق عدواً كان أو صديقا ، مخالفا كان أو موافقا.

وهذه أيضا حكاية أخرى. فهذه محاورات جرت بين رجلين أحدهما من أولياء الله تعالى وعباده الصالحين الذين نجاهم الله من نار جهنم وأعتقهم من أسرها وأخلص نفوسهم من عداوة اهلها وأراح قلوبهم من ألم المعذبين فيها . والاخرة من الهالكين المعذبين فيها بالوان العذاب المحرقة قلوبهم بحرارة عداوة أهلها المتألمة نفوسهم بعقوباتها : قال الناجي للهالك : كيف اصبحت يافلان ؟ قال : أصبحت فى نعمة من الله طالباً للزيادة راغباً فيها حريصاً على جمعها ناصراً لدين الله معادياً لاعداء الله محاربا لهم . قال الناجي : ومن أعداء الله هؤلاء ؟ قال : كل من خالفنى فى مذهبي واعتقادى .قال : وإن كان من أهل لا إله الا الله. قال نعم قال : إن ظفرت بهم ماذا تفعل بهم ؟ قال له : أدعوهم الى مذهبي واعتقادى

ورأيي . قال: فان لم يقبلوا امنك ؟ قال: أقاتلهم وأستحل دماءهم وأموالهم وأسبي ذراريهم قال : فان لم تقدر عليهم ماذا تفعل ؟ قال أدعوا عليهم ليلا ونهاراً وألعنهم في الصلاة كل ذلك تقربا إلى الله تعالى . قال : فهل تعلم أنك إذا دعوت عليهم ولعنتهم يصيبهم شيء ؟ قال : لا أدرى ! ولكن إذا فعلت ماوصفت لك وجدت لقلبي راحة ولنفسي لذة ولصدرى شفاء . وقال له الناجي : أتدري لم ذلك ؟ قال : لا ولكن قل أنت . قال : لانك مريض النفس معذب القلب معاقب الروح لان اللذة إنما هي خروج من الآلام ، ثم اعلم أنك محبوس في طبقة من طبقات جهنم وهي الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة الى أن تخلص منها وتنجو نفسك من عذابها إذا لقيت الله عز وجل كما وعد بقوله . (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) ثم قال الهالك للناجي : أخبرني أنت عن رأيك ومذهبك وحال نفسك كيف هي ؟ قال نعم : أما أنا فاني أرى أني قد أصبحت في نعمة من الله وإحسان لا أحصي عددها ولاأؤدي شكرها راضياً بما قسم الله لي وقدر صابراً لأحكامه لاأريد لأحد من الخلق سوءاً ولا أضمر لهم دغلا ولا أنوي لهم شراً ، نفسي في راحة وقلبي في فسحة والخلق من جهتي في أمان ! أسلمت لربي مذهبي وديني دين ابراهيم عليه السلام ! أقول كما قال (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم)

فصل

ثم اعلم أن جهنم لها طبقات كثيرة وهي الأهواء المختلفة والجهالات المتراكمة التي النفوس فيها محبوسة ومعها موقوفة ، وقلوب أهلها معذبة منها بألوان من الآلام وهم في العذاب مشتركون ، كلما مضت منهم أمة فانقرضت خلفها قوم آخرون من تلاميذهم وأتباعهم في تلك المذاهب والآراء وكلما دخلت من الآراء أمة لعنت أختها المخالفة لها كما ذكر الله تعالى في عدة سور من القرآن . قوله في سورة الاعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو في سورة خرى يلعن بعضهم

بعضا ويتعايرون ويتنادرون ويتباغضون وهم في العذاب مشتركون فهذه حالهم في الدنيا وفي الآخرة سواء وأشر لو كانوا يعلمون . وقاك الله وايانا شرهم برحمته

وأما ما قيل من تتعاطى علم النفس والطبيعة ما تقول يا أخي (١) ان الصانع الذي بنى هذه المدينة ، أعني جسد الانسان أهو الساكن فيها والمستعمل لها في هذه الساعة أو غيره ؟ فان كان المستعمل لها في هذه الساعة هو الذي بناها فلم لا يدري كيف بناها ولم لا يذكر كيف كانت فانا نرى أصحاب التشريح لم تعرف (٢) كيفية بنية هذا الجسد الا بعد هدمه ونقضه وخرابه وان كان هذا الذي بنى هذه البنية هو غير المستعمل لها هذه الساعة فترى بناؤها بناها بنفسه أو بناها على يدي غيره ، ثم سلمها الى المستعمل لها دون مافيها أترى أن هذا المستعمل لهذه البنية هو تلميذ ذلك الصانع الذي بنا هذه المدينة أو ابن له كان في ذلك الوقت صبياً جاهلا وصار الساعة بالغاً عاقلا حكيما ، وانما كان بالقوة فيخرج الآن الى الفعل والظهور ؟ ! أفتنا أيدك الله في ذلك وهدنا الى سواء الصراط مأجوراً

فصل

ذكروا أن ملكا كان عظيم الشأن عزيز السلطان واسع المملكة كثير الجنود والعبيد ولد له ولد ذكر كان أقرب الخلق شبهاً به والى والديه طبعا وخلقا

فلما تربى ونشأ وكمل ولاه أبوه بعض مملكته وأمر جنوده وعبيده بطاعته ، وأوصاه بحسن سياستهم وأباحه جميع النعمة ، غير أنه نهاه عن مرتبته فمكث الابن زمانا طويلا قدر نصف يوم متنعما ملتذاً الا إنه كان غاراً (١) ساهيا فحسده بعض عبيد أبيه ممن كان رئيسا قبله ، فقال له إنك لست تعرف نعمة ولا

(١) لعله يقصد : وماقولك فيمن يتعاطى علم النفس الخ لكن السياق مضطرب فتنبه
(٢) الصواب أن يقول : لم يعرفوا كيفية الخ

تجد لذة لأنك منهى عن أرفع لذة ونعمة وممنوع من ألذ شهوة ، فان بادرت وطلبت الملك سبقت اليه ، فاغتر بقوله لأنه كان غراً جهولا وطلب ما ليس له أن يتناوله قبل حينه ويطلبه قبل وقته فسقطت مرتبته وانحطت درجته عند أبيه وبدت له سوأته واستبانت له خطيئته فهرب خوفا من أبيه ذاهبا في مملكته شبه المستتر ، فلقي العناء وأصابته البأساء والضراء وقاسي الجهد والبلاء ، فتذكر يوما ما كان فيه من نعمة أبيه فحزن على ما فاته وبكى أسفا ثم نعس فنام فحمل الى أبيه ، فقال : دعوه نائما الى يوم الجمعة : ثم رزق في اليوم الثاني ابنا آخر أشبه الناس بأخيه فتربى ونشأ وكمل ونما وكان حليما وقوراً شكوراً صبوراً فولاه أبوه بعض مملكته وأمرهم بطاعته وأوصاه بسياستهم ودعاهم وأمرهم ونهاهم فلم يسمعوا له ولم يطيعوا أمره لأنه كان شبه زحل ! بل آذوه فصبر زمانا ثم شكى الى ابيه فغضب عند ذلك عليهم ورمى اكثرهم الى الماء

فلما رأى ما أصابهم اغتم وحزن ونعس ونام وحمل الى ابيه فقال : اتركوه نائما الى يوم الجمعة ثم انه رزق في اليوم الثالث ابنا آخر وكان اشبه الناس بأخويه الذين تقدم ذكرهما فتربى ونشأ وكمل ونما وكان خيراً فاضلا عالما محجاجا ، فولاه أبوه مكان أخويه وأمر الرعية بطاعته وأوصى اليه بما أوصى الى أخويه ، فدعاهم وأمرهم ونهاهم فلم يسمعوا له ولم يطيعوه لأنه كان أشبه بالمشترى ، وفزعوه بالنار فذهب الى أبيه وبنى له هيكلا ونذر له قربانا وعمل مناسك ونادى في الناس هلموا تعالوا لتروا ما لم تروا وتسمعوا ما لم تسمعوا ، ثم نام وحمل الى الى أبيه فقال : اتركوه نائما الى يوم الجمعة وبقي نداؤه في مسامع النفوس يتوارثونه من غير أن يسمعوه ويذهبون الى هيكله فيرون ظاهره ومرآه ما لا يبصرون ويفعلون سنة مناسكه ولكنهم معناها لا يفهمون لأنهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون

وأعيذك أيها الأخ أن تكون منهم وانظر بنور عقلك في رسالة أفعال الروحانية لعلك تعرف ما قلنا وتفهم ما اشرنا اليه . ثم انه رزق في اليوم الرابع

ابنا آخر فتربى ونشأ وكمل ونما وكان جلداً قويا جريئا مقداما فولاه ابوه مكان اخوته وامر الرعية بطاعته واوصى اليه بما كان اوصى الى اخوته ، فدعاهم وامرهم ونهاهم فلم يسمعوا له ولم يطيعوه لانه كان شبه المريخ ! وبارزوه وبارزهم وناوشوه وناوشهم وكان مؤيداً بقوة ابيه فغلبهم وبدد شملهم وفرق جمعهم وشتت الفتهم ورماهم في البر والبحر

ثم بقي وحيداً كالغريب يدعو فلا يجاب ويأمر فلا يهاب ! فاغتم وحزن ونعس ونام وحمل الى ابيه فقال دعوه نائما الى يوم الجمعة. ثم انه رزق في اليوم الخامس ابنا آخر أشبه الناس بأخيه الاول فتربى ونشأ وكمل ونما وكان هاديا رشيداً طيبا رفيقا فولاه أبوه مكان إخوته وأمر الرعية بطاعته وأوصى اليه بما أوصى الى إخوته ودعاهم وأمرهم ونهاهم فلم يتبعوه الا قليلا ولم يطيعوه الا يسيراً ، إلا انه كان يشبه الزهرة ثم وثبوا عليه فأخذوا منه القميص الذي خاطت أمه فذهب الى أبيه فاستنفر عليهم بجنوده وأيده بروح منه فسرى في نفوسهم وتحكم في لاهوتهم بدلا وقصاصاً لما تحكموا في ناسوته ! وأراد أن ينزل من الرأس . فقال أبوه اصبروا الى يوم الجمعة . ثم قال أبوهم في اليوم السادس للنجوم : اختاروا لابني الذي يشبه عطارد يوماً لينزل الى عالم الكون والفساد فينبه اخوته النيام ويناديهم الى حقه فقد رضيت عنهم ويأمرهم بالاستعداد للصلاة فان غداً هو العيد يوم الجمعة فيبرز القضاة ويحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، فاجتمعت سادة النجوم ورؤساء الكواكب في بيت المريخ وتشاوروا بينهم

فقال رئيس الكواكب وملكها الشمس : أنا أختار له من قوتي وأزوده من فضائلي العظمة والرياسة والسلطان والعز والرفعة والبهجة والبهاء والمدح والثناء والبذل والعطاء . وقال شيخهم كيوان : أنا أختار له من قوتي الحلم والوقار والصبر والثبات وبعد الغور وعلو الهمة والحفظ والامانة والفكر والروية .

وقال برجيس القاضي العدل : انا اختار له من قوتي وازوده الدين والورع والخير والصلاح والعدل والانصاف والحق والصواب والصدق والوفاء والصيانة والمروءة . قال بهرام صاحب الجيوش انا اختار له من قوتي وازوده من فضائلي العزم والصرامة والنجدة والشجاعة والهمة والبسالة والظفر والغلبة والبذل والسخاء والتيقظ . وقالت الناهيد أخت النجوم : انا اختار له من قوتي وازوده من فضائلي الحسن والجمال والتمام والكمال والرأفة والرحمة والزينة والنظافة والحب والمودة والسرور واللذة

وقال اخوهم الاصغر وهو اخفاهم منظراً واجلهم مخبراً الذي صنعته اظهر وعلومه اكثر وعجائبه اشهر وازهر : انا اختار له من قوتي وازوده من فضائلي وأسوى (١) اليه من مناقبي الفصاحة والنطق والتمييز والفطنة والنظر واللطافة والقراءة والنغمة والعلوم والحكمة . وقالت أم النجوم وهي القمر ! أنا أرضعه وأربيه وأختار له من قوتي وأزوده من فضائلي النور والبهاء والزيادة والنماء والحركة في الأقطار الثلاثة والتنقل في الأسفار وبلوغ الآمال والسير والأخبار وعلم مواقيت الآجال . ثم إنه دارت الأفلاك وتمخضت قوي الروحانيات واستبشر أهل السموات ونزل الى عالم الكون في ليلة القدر قبل طلوع الفجر صاحب النشور لينفخ في الصور فمكث هـذا المولود في الرحم أربعين يوما من أيام الشمس ، وعشرين يوما في الرضاع حتى تربى ونشأ وكمل ونما وكان أشبه الناس باخيه الثالث شبهاً لأنه كان يشبه عطارد الذي هو أخو المشتري لتقابل بينهما وتربيعهما وتقابل فلكهما فصار هذا المولود من بين اخوته أتمهم جثة وأكملهم صورة ، وكان أديباً عالما حكيما ملكا عزيزاً إماما عادلا نبياً مرسلا فولاه أبوه مملكته ومملكة اخوته كلها فظهر وقهر من خالفه ورفع وأعز من وافقه ، وتحكم في مملكته نحواً من ثلاثين يوما من أيام الشمس ، ثم أعجبته نفسه فأصابته العين فاعتل وبقي على

(١) ليس في كتب اللغة مايفهم منه : أن سوى بمعنى أعطى أو وهب وهو المراد من السياق كما جاء في الاصل

الفراش نحو ألف يوم من أيام القمر مرفه الجسم عليل النفس ، ثم تحول الى دار أخرى ونهض قليلا ومشى وقوي ونشط وانبسط وشرب من حب الدنيا وغرورها وأمانيها فسكر من خمر شهواتها ودخل الى كهف أبيه ونام مع اخوته فلبثوا زماناً طويلا ، فلما انقضى دور الرقاد وتقارب الميعاد ناداهم أبوهم : ألم يأن لكم أن تنتبهوا من نومكم وتستيقظوا من غفلتكم وتذكروا ما نسيتم من أمر مبدئكم وترجعوا إلى معادكم من أسفاركم اذ لكل ابتداء انتهاء ، ولكل حياة فناء ، ولكل موت ونائم انتباه ، وبادروا الى معادكم من غربتكم فقد تم خلق السموات السبع في ستة أيام وغداً يوم الجمعة يستوي ربكم على العرش يحمله يومئذ ثمانية ! فانتبهت لذلك الاخوة الذين قيل لهم إنهم سبعة وثامنهم كلبهم بعد رقدتهم ثلاثمائة سنة وأربعة وخمسين يوماً من أيام الشمس بحساب القمر يتذاكرون كم لبثوا في كهفهم ! فقال أبوهم لأخيهم : (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً) فاختفوا وكتموا أسرارهم لأنه (لا يكون من نجوي ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) فافهم يا أخي هذه الاشارات والتنبيهات وقس على ذلك نظائرها ولا تفش الأسرار لعلك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة قبل أن ينفخ في الصور وقبل أن ينادي مناد للصلاة من يوم الجمعة (فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم) وقبل أن يحشر المجرمون الى جهنم ورداً . وتزود من الدنيا فانك راحل و (ان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب) (ولا تبغ الفساد في الارض) (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

والله وفقك وإيانا وجميع إخواننا الى طريق السداد انه رءوف بالعباد

﴿ تمت رسالة البعث والقيامة ويليها رسالة في كمية أجناس الحركات ﴾

الرسالة الثامنة

من النفسانيات العقليات

في كمية اجناس الحركات

﴿ وهي الرسالة التاسعة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

اعلم ايها الاخ أنا قد فرغنا من رسالة البعث والقيامة ، وكنا قد بينا قبل ذلك ماهية الاجسام وكمية انواعها وبينا ايضا ان الاجسام لاتنفك من الحركة والسكون ، وقد بينا ان المحرك والمسكن للاجسام هي النفس في رسائلنا الطبيعيات والالهيات . ونريد الآن ان نبين في هذه الرسالة ماهية الحركات وكمية انواعها والجهات التي تتحرك المتحركات اليها وفيها فنقول :

اولا ما الحركة وما السكون ؟ وذلك ان العلماء والحكماء قد اختلفوا في ماهية الحركة والسكون وحقيقتها فنهم من اثبتها ومنهم من نفاهما وقال لاحقيقة لهما ولامعنى ، ومنهم من قال ان الحركة لاتكون إلا من حي قادر ، ومنهم من قال إنها هي الحياة نفسها . ويطول ذلك لو شرحنا اختلاف أقاويلهم واحتجاجاتهم ولكن نقول :

إن الحركة هي صورة روحانية تجعلها النفس في الأجسام فبها تكون الاجسام متحركة كما تجعل الأشكال والنقوش والصور والألوان في الأجسام ، وبها

تكون الاجسام مصورة منقشة مشكلة متحركة ، فالنفوس هي المحركة للاجسام والاجسام هي المحركات والمسكنات بتحريك النفوس لها وتسكينها إياها ، كما بينا في رسالة الهيولى والصورة . والتحريك هو فعل النفس . والحركة هي صورة تجعلها النفس في الجسم بها يكون الجسم متحركا . وأما التسكين فهو أيضاً فعل من أفعال النفس تحرك الجسم تارة وتسكنه أخرى : مثال ذلك أن الانسان يحرك يده تارة ويسكنها أخرى

وإذ قد تبين مما ذكرنا ماالحركة وماالسكون ، نريد الآن أن نذكر كمية أنواعها وماهية كل نوع منها فنقول :

اعلم أن الحركة نوعان : جسماني وروحاني ، كما سنبين ، فالحركة الجسمانية ستة أنواع وهي : الكون والفساد والزيادة والنقصان والتغير والنقلة . ونريد أن نتكلم أولا في الحركات التى هى النقلة إذ كانت هي أبين وأظهر للحواس ، ثم نذكر الخمسة الباقية إذ كانت هي أدق وألطف فنقول : ان الحركة التى هي النقلة ثلاثة أنواع مستقيمة ومستديرة ومركبة منهما ، فالحركة المستقيمة نوعان من المركز الى المحيط ومن المحيط الى المركز يعنى مركز العالم ومحيط العالم أو بين ذلك . وأما المستديرة فهى التى تكون حول المركز

وإذ قد تبين بما ذكرنا كمية أنواع الحركات التى هي النقلة فنريد أيضاً أن نذكر المحركات إذ كانت هي أبين وأظهر للحواس فنقول :

ان المحركات اثناعشر نوعاً حسب . لاأقل ولاأكثر . منها حركات الافلاك التسعة ، ومنها حركات الكواكب السيارة ، ومنها حركات الكواكب ذوات الأذناب ، ومنها حركات الشهب ، ومنها حركات الهواء والرياح ، ومنها حركات حوادث الجو والسحاب والغيوم ، ومنها حركات مياه البحار والانهار والامطار ، ومنها حركات مايحدث في بواطن الارض من الزلازل والخسوف ، ومنها حركات الكائنات من الجواهر المعدنية في باطن الارض ، ومنها حركات النبات والاشجار على وجه الارض ، ومنها حركات الحيوانات في الجهات الست من البحر والبر والهواء .

وأماجهات الحركات فمختلفة جداً كثيرة الضروب والصور ولكن لا تخلو كلها إما أن تكون من مركز العالم نحو المحيط أو من المحيط نحو المركز أو حول المركز أو مؤرباً بين ذلك

﴿ فصل ﴾

في تفصيل ذلك

فنقول : أما حركات الأفلاك التسعة فكلها حول الارض لانها مركزها والارض مركز العالم بأسره ، وهكذا أيضاً حركات الكواكب الثابتة حول مركز العالم ، وأما حركات الكواكب السيارة السبعة فحول مركز أفلاكها المستديرة : وأما حركات الافلاك حول مراكز أفلاك أخر تسمى الافلاك الحاملة ، وحركات تلك الافلاك حول مركز الافلاك الخارجة المركز من مركز الارض ، كما بين ذلك في المجسطي ببراهين هندسية ضرورية بشرح طويل

وأما الحركات التي ترى الكواكب السيارة على توالي فلك البروج وبالميل والعرض والرجوع والاستقامة وماشا كلها فقد بينا حقيقتها في رسالة السماء والعالم بمثالات ذكرناها ، وأما شرحها فتجدها في المجسطي ، وأما كمية تلك الحركات فتسع وأربعون حركة للسيارة ، لكل واحد سبع حركات ، وللكواكب الثابتة سبع أخرى ، ولفلك البروج حركة واحدة ، فذلك سبع وخمسون حركة وأما الكواكب التي تسمى ذوات الاذناب فليست هي بكواكب بل هي نيرات تظهر دون فلك القمر في كرة الاثير ، وأما حركاتها فمختلفة تارة تكون نحو كرة المغرب مع دوران الفلك المحيط ، وتارة على توالي فلك البروج نحو المشرق أو مائلا طولا وعرضاً بحسب مايوجبه شكل الفلك وأحكام النجوم ، وأن حدوثها يكون دون فلك القمر في كرة الاثير كما يكون حدوث الشهب مابين كرة الاثير وكرة الزمهرير ، والذي يكون من حدث البروق في كرة النسيم دون كرة الزمهرير وكل هذه حوادث تكون في عالم الكون والفساد بحسب موجبات أحكام

النجوم يطول فيها القول في كيف وكم ومتى ولماذا . وأما كمية أنواع حركات الرياح فهي الى ست : وذلك أن الرياح ليست شيئاً سوى تموج الهواء لأن الهواء بحر لطيف ما بين السماء والأرض ، فاذا تموج من المشرق الى المغرب سمي الصبا ، وان تموج بالعكس سمي دبوراً ، وان تموج من الجنوب الى الشمال سمي التيمن ، وان تموج بالعكس فهي الجربى ، وان تموج من أسفل الى فوق سمي الزوائع(١) وان تموج بالعكس سمي الزمهرير ، وبالفارسية اباددمه ، وهي التي هلكت بها عاد كانت تفخت عليهم من كرة الزمهرير « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً »

وأما التي تتحرك من غير هذه الجهات فتسمى النكباوات وهي كثيرة الجهات والمعروف منها أربع : نكباء الشمال ، ونكباء الجنوب ، ونكباء المشرق ، ونكباء المغرب

وأما الاسباب المحركة للهواء المموجة لها فمنها ماهو من جهة مطارح الشعاعات من الكواكب ونزول القمر منازله الثماني والعشرين واتصالاته بالكواكب . وقد ذكرنا طرفا من كيفية ذلك في رسالة الآثار العلوية فيطلب من هناك

وأما حركات الشهب فهي أيضاً الى الجهات الاربع أو نكباواتها بحسب القوة الدافعة لها من مطارح شعاعات الكواكب ، وليست حركاتها بأسرع من حركات الكواكب في أفلاكها ولكن لقربها منا نراها أسرع حركة من الكواكب

وأما حركات السحاب والغيوم فالى هذه الجهات الاربع أيضاً نكباواتها وهي بحسب مهب الرياح التي تسوقها من سواحل البحار والآجام والانهار الى البلدان المقصود بها من البراري والقفار ورؤوس الجبال منتصباً أو مؤرباً

وأما حركات قطر الامطار فكلها تجري من جو الهواء الى الارض والبحار منتصباً أو مؤرباً

---

(١) لعل الاصوب : الزوابع

وأما حركات الارض فهي ثلاثة أنواع : منها الزلازل ومنها الخسوف ومنها الارجحان ، فأما سبب الزلزلة فهو البخار المحتقن في باطن الارض يطلب الخروج فيهز بعض بقاع الارض وتضطرب وترتعد كما يرتعد المحموم عند شدة الحمى . وسبب ذلك هو رطوبة عفنة في خلل الابدان فتشتمل منها الحرارة العرضية فتذيبها وتحللها وتصيرها دخاناً وبخاراً يخرج من مسام خلل الابدان فيهتز من ذلك البدن كله أو عضو منه ويرتعد ، ولا يزال البدن كذلك إلى أن تخرج تلك البخارات والدخانات من هناك وتفنى مادتها وتخمد تلك وتسكن ، وكذلك حركات بقاع الارض عند الزلازل وربما ينشق ظاهر الارض وتخرج تلك الرياح والدخانات والبخار المحتقن المحتبس دفعة واحدة وتنخسف الارض والبقاع ويقع في تلك الاهوية كما ينخسف سقف البيت ويقع في أرضه

وأما حركات الارجحنان فعند الحكماء انها تترجح تارة من الجنوب الى الشمال وتارة بالعكس ولكن الناس لا يحسون بها لكبر الارض وعظمها كما لا يحس أهل المراكب في البحر بحركاتها عند شدة سوق الرياح لها . وذكر هذا الحكيم أن علة تلك الحركة هي مرور الشمس ، تارة من البروج الجنوبية الى البروج الشمالية، وتارة من الشمالية الى الجنوبية وانما تجذبها الى حيث دارت ومعها كيف مالت كما تجذب نباتها من باطنها الى ظاهرها وكما تجذب أصول النبات وفروعها الى الهواء. ومن الحكماء من قال إن سبب ذلك هو أنه من دوران الشمس فوق الارض في ناحية الشمال ستة أشهر في الصيف ، كما ذكر في المجسطي ، سخنت أهوية تلك البلاد ومياهها وتحللت رطوبة تلك البلاد وخلا ذلك الجانب وتحركت الارض وترجحت وثقل الجانب الآخر وتحركت الارض ، وينقل المراكز البعد والثقل جميعاً ، وترجحت الارض ولكن لا يحس بها لكبرها . ولهم في هذا احتجاجات وكلام وأقاويل يطول شرحها

فأما الذين أنكروا ذلك من الحكماء ودافعوا ان تترجح الارض فقالوا : لو كان القول كما قيل وكما زعموا لكان يجب أن تختلف مسامتات الكواكب

الثابتة لبقاع الارض في الشتاء والصيف ، وكان يجب أن يرتفع القطبان تارة وينخفضا تارة ، وكان يجب أن يكون موضع خط الاستواء الذى تحت معدل النهار مختلفا ، ولسنا نجد الامر كذلك فدل على أن ما قالوه من ارجحنان الارض باطل . وقد روى في الخبر أن الارض في بدء الخلق كانت ترجج كما قال هؤلاء الحكماء ، فلما أرساها الله تعالى وشيدها بالجبال الثقال استثقلت وسكنت حركاتها

وأما حكم حركات باطن أجزاء الارض فقد قدمنا طرفا منها في رسالة المعادن ولكن نذكر في هذا الفصل ما لا بد منه

فصل

اعلم ان الارض جسم كرى بجميع ما عليها من الجبال والبحار والعمران والخراب ، وهى واقفة في مركز العالم وليست مستديرة ملساء ولا مصمتة صماء ، بل كثيرة الارتفاع والانخفاض من الجبال والتلال والاودية والاهوية كثيرة التخلخل والتجويفات والكهوف والغارات والمنافذ والظواهر والبواطن ، وكلها ممتلئة مياها ورطوبات وبخارات دهنية وكبريتية تنعقد منها الجواهر المعدنية

وتلك البخارات والدخانات والرطوبات في دائم الأوقات في الاستحالة والتغير والكون والفساد .

وهكذا حكم ظاهرها فانها كثيرة البحار والأنهار والأودية والجداول والبطائح والآجام والغدران وفيها منافذ وخليجات يجري بعضها الى بعض فى دائم الاوقات وأمواج البحار متصلة في دائم الاوقات ليلا ونهارا لا تقر ولا تهدأ وتصاريف الرياح كذلك ، والغيوم والامطار والسحاب والضباب دائمات الكون والفساد ، والامطار متصلة في دائم الاوقات في بلدان مختلفة البقاع شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، بل حكم الليل والنهار والشتاء والصيف الموجودات في الأوقات في بلدان شتى يتعاقب على بقاع الارض من كل جانب ، والنبات والحيوان والمعادن

في الكون والفساد متصل لاينقطع ، والسفاد والنكاح والتوالد والحس والحركة والنوم واليقظة والموت والحياة متصلة في الخليقة !

وما في الارض موضع شبر إلا وهناك معدن أو نبات أو حيوان قل أم كثر صغر أم كبر ، مختلف الاجناس والانواع والأشخاص والاشكال والصور والطباع والمزاج والاخلاق والالوان والاصوات لايعلم أحد كنهها وكثرتها وتفصيلها الا الله تعالى الذي خلقها وصورها ودبرها كما شاء وكيف شاء فتبارك الله رب العالمين .

واذا تأملت يا أخي واعتبرت ماوصفنا من أحوال الحركات والمتحركات التى في العالم علمت وتبين لك ان حكم العالم بجميع أجزائه ومجاري أموره تجري مجرى مدينة واحدة أو حيوان واحد أو انسان واحد لاينفك من الحركة والسكون إما بكليته أو بجزئيته.

وقد بينا في رسالة ماهية الطبيعة ورسالة السماء والعالم أن سبب حركات الاركان ومولداتها هو حركات الكواكب ، وسبب حركات الكواكب دوران الافلاك والمحرك والمدبر للافلاك هى النفس الكلية الفلكية فان النفس الكلية الفلكية هي ملك من الملائكة المقربين وجنوده وأعوانه ،وهو الذي أشير اليه بقوله تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن» وقال تعالى « ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة» . وهذا الملك وكله الله تعالى بادارة الافلاك وحركات الكواكب وماتحت فلك القمر من سائر الأركان ومولداتها من المعادن والنبات والحيوان أجمع ، وهذا الملك هو أكبر من الفلك وأقوى منه وأعظم وأقدم وأشرف وأجل وأعلى من سائر الخلائق الجسمانيين ، وهو يقدر على تسكين الافلاك والكواكب كما يقدر على تحريكها لان التسكين أسهل من التحريك يعلمه كل عاقل منصف بحكم العقل

وأما حركات أشخاص الحيوانات فهى مختلفة الجهات والاشكال والهيئات والصور لايعلم عددها الا الله الواحد القهار ، ولايقدر أحد على تفصيلها إلا هو

ولكن نذكر منها طرفاً من فنون حركات أعضاء بدن الانسان ومفاصل جسده ليكون دلالة على حركات أبدان سائر الحيوانات وأعضائها كلها المختلفة الاشكال والصور

فصل

فنقول اعلم أن حركات أعضاء البدن نوعان : طبيعية وارادية ، فالطبيعية مثل حركات نبض العروق الضوارب وحركات أضلاع صدره وفؤاده ورئته وحلقومه عند استنشاقه الهواء وإرساله في حال النوم واليقظة من غير ارادة منه ولا اختيار .

وأما الحركات الارادية والاختيارية فمثل القيام والقعود والذهاب والمجيء والصنائع والاعمال والكلام والاشارات باعضاء بدنه ، فانه لايكون الا بارادة واختيار منه ، وهي مائة ونيف وعشرون حركة منها حركات لجفن العين بالفتح والاطباق

ومنها حركة تقل حدقتيه إلى اربع جهات فوق وتحت ويمين ويسار يحركها باعصاب ممتدة من الدماغ الى جرم العين وبالعضلات المتصلة بالعين فهو يقلب عينه بتلك العضلات والاعصاب متى شاء الى الجهات كلها كما يجذب الفارس لجام فرسه يمنة ويسرة ويصرفه كيف يشاء في تقلب عينه ويحركها الى حيث يريد أن ينظر اليه بتلك الاعصاب .

ومنها حركات اللسان الى ست جهات لمضغ الطعام وتقليبه تحت أسنانه للقطع والكسر والدق والطحن والقطع بالثنايا والكسر بالرباعيات والأنياب والدق والطحن بالاضراس والطواحن

وأما حركات اللسان عند الكلام فانا نذكرها في فصل آخر :منهاحركات اللسان أيضاً عند قطع الشفتين لحدوث الحروف التي مجراها على اللسان وهي

أربعة عشر حرفاً في لغة العرب . وهي هذه ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن والاربعة عشر حرفاً أخرى فمخارجها مختلفة ليس للسان فيهامدخل.

ثم اعلم أن هذه الاحرف لاتحدث الا بارسال النفس المستنشق من الهواء وارساله وقطع اللسان لها فى مخارجها ومجاريها كما نبين ذلك فى فصل آخر

ومنها حركتان للشفتين بالفتح والضم ومنها حركات عصبات الخياشم عند استنشاق الهواء والروائح بالمنخرين.

ومنها حركات المريء للبلع وازدراد الطعام والشراب وايصالها الى المعدة ومنها حركة الفك السفلانى الى أربع جهات ، ومنها حركات الرأس والرقبة الي أربع جهات ، ومنها حركات الكفين الى أربع ، ومنها حركات العضدين مثل ذلك ، ومنها حركات الذراع الى جهتين ، ومنها حركات الكرسوع الى أربع جهات، ومنها حركات الاصابع الاربع كل واحدة الى جهتين إلا الابهام فانها تتحرك الى الجهات الاربع ، ومنها حركات الظهر الي أربع جهات ، ومنها حركات الفخذين الى أربع جهات ، ومنها حركات الساقين الى جهتين ، ومنها حركات أصابع الرجل الى جهتين ، ومنهاحركات السبيلين عند اطلاق البول والغائط ، فهذه جملة مختصرة من تعديد أعضاء بدن الانسان . فأما عللها فيطول شرحها مذكور بعضها في كتب التشريح ، وبعضها في كتاب منافع سائر الاعضاء لجالينوس . وأما حركات أعضاء أبدان سائر الحيوانات فيطول شرحها لكثرة اختلافها وصورها وأشكال أعضائها وقد ذكرنا طرفا منها في رسالة الحيوانات على لسان رسول النحل عند ملك الجن في الخطاب .

فأما حركات الصناع وأصحاب الحرف في صنائعهم وأعمالهم فقد ذكرنا طرفا منها في رسالة الصنائع العملية . فأما حركات الحواس الخمس عند إدراكها محسوساتها فقد ذكرنا طرفا منها في رسالة الحاس والمحسوس .

وأما حركات عصبات مقدم الدماغ ووسطه ومؤخره فقد ذكرناها في رسالة الآراء والمذاهب والديانات . وأما حركات النبات فقد بينا طرفا منها فى رسالة

النبات . وأما حركات الجواهر المعدنية ففي رسالة أخرى . وأما حركات الجو والهواء ففى رسالة الآثار العلوية . وأما حركات الاركان الاربعة فقد بيناها في رسالة الكون والفساد . وأما حركات الافلاك والكواكب ففي رسالة السماء والعالم . وأما حركات الاصوات ففي رسالة الموسيقى . وحركات الآلام واللذات فى رسالة أخرى : فقد ذكرنا فى كل رسالة مايليق بحسبه ، وانما طولنا ذكر الحركات وزدنا فى شرحها لانها هي حياة العالم : وذلك أن حياة كل شيء من نبت وحيوان بالماء ، وحياة الماء بالحركة وحياة الابدان بالنفس ، وحياة النفس بالفكر والجولان والخواطر كما ذكرنا طرفا منها فى رسالة الايمان وهي لا تهدأ اعنى النفس لا في النوم ولا في اليقظة عن الحركات والجولان

فصل

ثم اعلم أن غرضنا من ذكر حركات العالم وحركات أجزائه الكليات والجزئيات وفنون تصاريفها هو بيان بطلان قول من يقول بقدم العالم ، وذلك لأن الحركات المختلفة تدل على اختلافها والمتحرك والمختلف الاحوال لا يكون قديما لان القديم هو الذي يكون على حالة واحدة لا يتغير ولا يستحيل ولا يحدث له حال ، وذلك ليس يوجد موجود هذا شأنه إلا الله الواحد الاحد ، ولا يمكن أن يوجد شيء سوي الله تعالى هذا شأنه .

ثم اعلم أن الذين قالوا بقدم العالم ظنوا بأنه ساكن والساكن لا تختلف أحواله وليس الأمر كما ظنوا وتوهموا من سكون العالم كما بينا فيما تقدم بكثرة حركات كلياته وجزئياته ما لا تنكره العقول السليمة : فمنها حركات الكواكب ودوران الافلاك واستحالات الاركان وتكوين المولدات مما لا خفاء به .

ولعمرى ان الفلك المحيط هو جسم كروى محيط بسائر الأشياء والافلاك وهو ساكن فى مقره لا ينتقل منه ولكنه متحرك أجزائه كلها ، وكل فلك من الافلاك المستديرة والافلاك الخارجة المراكز يدور كل واحد حول مركزه

الخاص لا يقر ولا يهدأ طرفة عين ، ولا يمكن أن يتوهم بسرعة حركتها إلا شيء نذكره ، وذلك أن الدوارة هي أسرع شيء حركة نشاهدها . وقد ذكر أصحاب المجسطي أن حركات الافلاك والكواكب أسرع من ذلك وقد بينوها ببراهين هندسية ضرورية : فمن ذلك ماقالوه في حركة الشمس أنها تتحرك في مقدار ما يشيل الانسان رجله بخطوة من خطواته ويضعها تمشى فراسخ .

ثم اعلم أن كل حركة في متحرك فهي متحركة له وهي سبب لشيء آخر ، فمتى عدمت تلك الحركة بطل ذلك السبب .

مثال ذلك حركة الرحى عن الدابة التي تديرها أو الماء وهي سبب الطحن ، فمتى وقفت الدابة وانقطع الماء سكنت الرحى وعدم الطحن ! فهكذا حكم الدولاب متى وقفت الدابة سكن دوران الدولاب وعدم الاستقاء ، وهكذا حكم الرياح وتحريكها المراكب والسفن والمياه فمتى سكنت الرياح وقفت مراكب البحر عن السير وسكنت الامواج ، وهكذا أيضاً مراكب الأنهار والسماريات في جريانها متى توهم عدم الماء ووقوفها وجريان الانهار وقفت المراكب والسماريات والسفن واقفة عن الانحدار والاصعاد ، وهكذا متى سكنت حركات قوائم الحيوان ماتت ، وهكذا متى سكنت حركات أبدانها وأعضائها عن النبض والتنفس ماتت وبطلت حياتها ، وهكذا متى وقفت الكواكب السبعة السيارة في البروج عن دورانها وقفت الامور التي تحت عالم الكون والفساد من الحيوان والنبات عن حركاتها وتكوينها ، يعرف حقيقة هذا من كان حاذقاً بصناعة النجوم وتكلم عليها

والمثال في ذلك كرواحة متى وقفت عن الدوران سقطت بعد ما كانت قائمة منتصبة عند حركاتها ، فهكذا حكم العالم متى وقف الفلك المحيط عن الدوران وقفت الكواكب عن المسير والحركات ! ووقفت عندذلك مجاري الليل والنهار والشتاء والصيف فيبطل عند ذلك الكون والفساد ويبطل نظام العالم وتذهب الخلائق وتفارق النفس الكلية الجسم الكلي وتقوم القيامة الكبرى . وذلك أن العالم هو انسان كبير فاذا فارقت نفس العالم الجسم الكلي فقد مات الانسان

الـكبير وقد قامت قيامته الـكبرى ، كما ان كل انسان اذا فارقت النفس جسده فقد مات الانسان الذي هو عالم صغير وقد قامت قيامته لان القيامة قيامتان : قيامة كبرى وقيامة صغرى كما قال عليه السلام : « من مات فقد قامت قيامته » ثم بعد ذلك تبين للمنكرين ما كانوا يوعدون

فصل

في بيان مقدمات عقلية ضرورية تدل على ان العالم محدث مصنوع

فنقول : اعلم أن معنى قول الحكماء العالم هو اشارة الى الفلك المحيط وما يحويه من سائر الافلاك والـكواكب والبروج والاركان الاربعة ومولداتها التى هي الحيوان والمعادن ، ثم نقول : اعلم أن الفلك المحيط وما يحويه من جميع ما ذكر كلها أجسام ، ومما لاشك فيه عند الحكماء أن الجسم عبارة عن الشيء الطويل العريض العميق وقولهم الشيء اشارة الى الهيولى وهو الجوهر ، والطول والعرض والعمق اشارة الى الصورة التى صارت بها الهيولى جسما طويلا عريضاً عميقاً . ثم اعلم أن من الاجسام ماهو متحرك دائماً وهي الافلاك والـكواكب ، ومنها ماهي ساكنة بكليتها متحركة بأجزائها وهي الاركان الاربعة ، وذلك أن النار التى دون فلك القمر لاتبرح من مكانها وهى المسمى الاثير وهو هواء حار لين ليس له ضوء ودونه هواء بارد يسمى الزمهرير وليس يبرح أيضـاً من مكانه ، ودونه النسيم المحيط بالارض والبحار ، وهو هواء معتدل بين الحرارة والبرودة وكل هذه الا كر الثلاثة لاتبرح من مكانها بل هي متحركة بأجزائها ، ومنها ماهي متحركة تارة بكليتها وجزئيتها وتارة ساكنة بكليتها وجزئيتها وهى المولدات الـكائنـة من الحيوان والنبات . وكل هذه الاجسام المتحركات والساكنات يقتضى محركا ومسكناً

بيان ذلك أن الفلك لما كان أجساما كريات مستديرات مشفات محيطات بعضها ببعض : الصغير منها فى جوف الـكبير والـكبير فى جوف ماهو أكبر منه الى أن ينتهي الى الفلك التاسع المحيط بالـكل .

وكل هذه الافلاك متحركات حركات مستديرة مختلفة في السرعة والابطاء، والجهات المختلفة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وطولا وعرضا.

وهكذا حكم حركات الكواكب فانها كلها أجسام كريات مستديرات مضيئات محركات مستديرة مختلفة، كما بين في المجسطي ببراهين هندسية عقلية ضرورية تدل هذه من أحوالها المختلفة الاشكال من الصغر والكبر والابطاء والسرعة وغير ذلك على انها واقفة بقصد قاصد وصنع صانع وجعل جاعل وفعل فاعل حكيم قادر عالم

وهكذا حكم الاركان الاربعة ومولداتها من الحيوان والنبات والمعادن من اختلاف أحوالها وفنون تصاريرها وتغير أوصافها تدل على انها كلها من صنع صانع حكيم بصير قادر وهو الله الواحد القهار العزيز الغفار.

فعند ذلك بطل قول المنجمين فيما يدعونه من تأثير الكواكب لقيام الادلة بانها مضطرة مسخرة إذ المضطر لا فعل له والفعل لمن يضطره ويبعد عليه قدرته! ومن تعدى هذا الحكم فقد ظلم ولا يبعد الله الا لظالم قال بما لا يعلم

فصل

في بيان مشاهدة العلماء الحكماء العارفين المستبصرين الذين هم أولياء الله المصطفون الذين يرون صانع العالم بعين البصيرة

فنقول: اعلم أن الجسم ذو جهات لا يمكنه أن يتحرك الى جميع جهاته دفعة واحدة، وليست حركته الى جهة أولى من جهة إلا لسبب أو علة بها تكون تلك الحركة من تحريك غيره اياه.

فاعلم أن صانع العالم لما كان محتجباً عن ابصار الناظرين الذين هم به جاهلون أثر الصنعة في مصنوعاته ظاهراً جليا بينا لا يخفى على كل عاقل منصف لعقله وان كان لا يدري الصنعة لمن هي ومن عمله ومتى صوره ومن أي شيء خلقه وكيف صوره وواحد عمله أو أكثر، وان كان العمل لواحد فعلى مثال احتذاه بفعله

اياه أو يعرف مثال عمله ؛ ولم فعل بعد ان لم يكن فعل ؟! فشاهدتهم أثر الصنعة فى المصنوع — وهي التى ذكرنا من اختلاف احوالها — دلالةعلى أنها كلها بقصد قاصد وصنع صانع وفعل حكيم قادر وان كانوا ليسوا يرونه ولا يدرون من هو لجهلهم به وقلة معرفتهم له وهي الحجاب الذي بينه وبينهم ، كما ذكر الله تعالى في ذمهم « كلا انهم عن ربهم يومئذلمحجوبون » والحجاب ها هنا هو جهالتهم وقلة معرفتهم به.

وأما أولياء الله وأصفياؤه والعلماء العارفون المستبصرون فانهم يرونه ويشاهدونه في جميع أحوالهم ومتصرفاتهم ليلهم ونهارهم لا يغيب عنهم طرفة عين كما لاتغيب مصنوعاته ومخلوقاته ومصوراته عن أبصار الناظرين ، كما وصفهم تعالى بقوله : « شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » وقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » سماهم شهداء لمشاهدتهم لله تعالى فى جميع أحوالهم كما قال : « أينما تولوا فثم وجه الله » وقال « هو الاول والآخر والظاهر والباطن » ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولاأكبر الاهو معهم أينما كانوا« مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة الا هو سادسهم » وقال « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد.

ولما تحقق أولياء الله تعالى فهم هذه الايات وعرفوها حق معرفتها شرح الله قلوبهم ونور أبصارهم وكشف الغطاء عنهم حتى رأوه وشاهدوه بابصارهم كما عرفوه بقلوبهم ، وكما ادعى أسد الله فى الارض (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) أراد بذلك اني أراه في هذا الوقت مثل ماأراه في الآخرة .

﴿ فصل ﴾
في أن وجود العالم عن الله

فنقول اعلم أن وجود العالم عن البارى ليس كوجود الدار عن البناء أو كوجود الكتاب عن الكاتب الثابت المستقل بذاته المستغنى عن الكاتب بعد

فراغه من الكتابة وعن البناء بعد فراغه عن أبنية الدار ، ولكن كوجود الكلام عن المتكلم الذي ان سكت بطل وجود الكلام ، فالكلام يكون موجوداً ما دام المتكلم يتكلم به ، ومتى سكت بطل وجوده . أو كوجود نور السراج في الهواء ما دام السراج باقياً فالنور باق موجود ، أو كوجود ضوء الشمس في الجو ، فان غابت الشمس بطل وجدان الضوء من الجو أو كوجود الحرارة المسخنة في جسم النار لو انطفأت بطل ضوءها وحرارتها ، أو كوجود العدد عن الواحد قبل الاثنين . كما بينا في رسالة الارثماطيقي

ثم اعلم أن كلام المتكلم ليس هو جزء منه بل فعل فعله أو عمل عمله وأظهره بعد أن لم يكن ، وهكذا حكم النور الذي يرى في الجو عن جرم الشمس ليس هو جزء منها بل هو أشخاص منها وفيض وفضل منها ، وهكذا حكم حرارة النار المنتشرة منها حولها ليس بجزء منها بل هي فيض يفيض منها ، وهكذا الحكم والمثال في وجود العالم عن الباري . وذلك أن العالم ليس بجزء منه بل فضل تفضل به وفيض جود أفاضه وفعل فعله بعد ان لم يكن فعل ، كما أن المتكلم أظهر الكلام بعد ما لم يكن تكلم وليس الكلام جزءاً من المتكلم بل فعل فعله وصنع أظهره . فقد تبين اذاً بما ذكرنا من هذه المثالات التي تقدمت كيفية وجود العالم عن الله تعالى . ولا تقدر أيضا ولا ينبغي أن تظن أن وجود العالم عن الله تعالى طبعاً بلا اختيار منه مثل وجود نور الشمس في الجو طبعاً لا اختياراً منها ، ولا تقدر أن تمنع نورها وفيضها لانها مطبوعة على ذلك طبعها رب العالمين

فأما الباري تعالى فمختار في فعله ان شاء فعل وان شاء أمسك عن الفعل تركا ، مثل المتكلم القادر على الكلام ان شاء تكلم وان شاء أمسك وسكت . وهكذا حكم ايجاد الباري تعالى واختراعه ان شاء أفاض جوده وفضله ونعمته واحسانه واظهار رحمته وحكمته وان شاء أمسك عن الفعل تركا وان شاء لم يمتنع عن ايجاده فعله صنعا اذ هو قادر على الفعل وترك الفعل مختاراً ، كما ذكر في كتابه «ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده» . وقال «كل يوم هو فى شان» ولا يشغله شان عن شأن

واذ قد تبين بما ذكرنا حدوث العالم وكيفية حدوثه عن الله تعالى فنريد الآن أن نذكر ونبين أيضاً كيفية بوار العالم وخراب الافلاك وطي السماوات كطي السجل للكتب بمقدمات عقلية ضرورية صادقة ينتج عنها ما ذكرنا من بوار العالم وخراب الافلاك

فصل

فنقول اعلم أن الفاعل المختار هو الذي يقدر على الفعل وتركه متى شاء. فهذه مقدمة موجبة صادقة، ومقدمة أخرى كل فاعل حكيم مختار فله في فعله غرض، فهذه موجبة صادقة ومقدمة أخرى نشرحها فنقول: الغرض هو عناية سابقة في علم الصانع قبل اظهار صنعته ومن أجله يفعل ما يفعله، فاذا بلغ الى غرضه قطع الفعل وأمسك عن العمل

فهذه مقدمات ثلاث موجبات صادقات، ومقدمة أخرى: كل حكيم صانع إذا علم علما يقينيا أنه لا يبلغ الى غرضه في فعله فانه لا يعمل شيئاً ولا يطلبه، وهذه مقدمة كلية موجبة صادقة، ومقدمة خامسة: محرك الافلاك والكواكب فاعل مختار حكيم قادر، وهذه مقدمات موجبة

فينتج من هذه المقدمات أن العالم سيخرب يوما. بيان ذلك أنه ان كان قد يبلغ محرك الافلاك الى غرضه في تحريكها فسبيله أن يمسك عن تحريكها وإدارتها وان كان لم يبلغ الى الغرض فالغاية في ذلك بلوغ الغرض، وان كان يعلم أنه لا يبلغ غرضه ومطلبه فسبيله أن يمسك عن فعله ان كان حكيما وان كان يعلم أنه سيبلغه، فاذا بلغ غرضه ومطلبه قطع الفعل وأمسك عن العمل

واذا أمسك محرك الافلاك عن التحريك لها وقفت الافلاك عن الدوران ووقفت الكواكب عن المسير في البروج ووقفت مجاري الليل والنهار والشتاء والصيف وبطل ترتيب الزمان ووقف الكون والفساد في المولدات الثلاثة وفسد النظام. وفي ذلك يكون بطلان العالم وبوار الكل، لأنا قد بينا في فصول قبل هذه ان قوام العالم وصلاح الخلائق هو بالحركة التي هي حياة العالم وصلاحه وبها يكون الخير والشر والسعود والمعارف أجمع.

فقد تبين بما ذكرنا كيفية بوار العالم وطي السموات والارضين التي هي القيامة الكبرى . فأما حديث عالم الأرواح وبقائها ودوامها وكيفية تصاريف أهلها فقد ذكرنا طرفاً منها في رسالة البعث والقيامة بشرحها

فصل

في بيان الضرر لمن يعتقد أن العالم قديم غير مصنوع

فنقول : إن من يعتقد أن العالم قديم غير مصنوع أو يظن ذلك فان نفسه نائمة نوم الغفلة وعوت بموت الجهالة ، وذلك أنه لايخطر بباله ولايجول في خلده ولافي فكره كيفية صنعة العالم وتكوينه ولايسأل عن صانعه من هو ولا من خلقه أو متى أحدثه ومن أي شيء خلقه وكيف صوره ولم فعل بعدأن لم يكن فعل ، ومالذي أراد بما فعله وماشا كل هذه المباحث والسؤالات التي فيها وفي أجوبتها انتباه النفس من نوم الغفلة وحياة لها وخلاص من البؤس والشدة . فاذا لم يخطر بباله لايسأل عنه ، واذا لم يسأل عنه لايجاب ، واذا لم يجب لايعلم واذا لم يكن عالماً فنفسه تنام في غفلتها وتعمى عن الاعتبار للمشاهدات وتصم من استماع الاذكار والخطاب وتموت في ظلمات الجهالة التي هي ظلمات بعضها فوق بعض ، ويشتغل حينئذ بالاكل والشرب والجماع وطلب الشهوات الجسمانية واللذات الجرمانية ، اذ هو جاهل بنفسه مصر على سوء فعله مستكبر في حياته الى الممات ، ثم يفارق الدنيا على رغم منه كارهاً حزيناً خاسراً لايرجى له بعد الموت ثواب ولا يؤمل له إحسان إذ لم يكن له ما يجازي به إحساناً ، وهو قوله : « خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »

فأما من يعتقد خلاف ذلك وهو يعتقد أن العالم محدث مصنوع بقصد قاصد وفعل حكيم فانه يعرض له عند ذلك خواطر عجيبة وفكر وروية واعتبار وبصيرة وسؤالات طريفة ومباحث لطيفة عن العلوم الشريفة ، ويكون في ذلك النجاة والسبب لانتباه النفس من نوم الغفلة وتنفتح له عين البصيرة ويحيا حياة العلماء

ويعيش عيش السعداء في الدنيا والآخرة جميعاً ، وذلك أنه يخطر بباله ويعرض في فكره أن يبحث ويسأل فيقول : من هذا الصانع الذي خلق العالم ومتى خلق ومن أي شيء عمل وكيف صنع وصور ولم فعل بعد أن لم يكن فعل ما فعل وما الذي أراد بذلك ، ولماذا ؟ وما شا كل هذه المباحث والسؤالات التي في أجوبتها حياة النفس من موت الجهالة ويقظة لها من الغفلات والخروج من ظلمات الخطيئة . وإن وفق لفهمها بالهام من الله تعالى فذلك هو الوحي والنبوة ، وان عز عليه فعليه بمجالسة الحكماء والمباحثة معهم ، فاذا فهم ما قالوه — حسبما بينا في رسائلنا الالهيات — صارت نفسه مثل نفوسهم ويكون معهم حيث كانوا في درجات الجنان وتنتبه نفسه من نوم الغفلة ويحيا حياة العلماء ويعيش عيش السعداء ويرفع الى ملكوت السماء ويصير في زمرة الانبياء الذين أخلصوا بخالصة ذكرى الدار وتصير نفسه من ورثة جنة النعيم وسكان السماوات وقاطنى الافلاك ويبقى هنالك خالداً مخلداً منعما ملذذاً أبد الآبدين

فصل

ثم اعلم أن لكل شيء من الموجودات قسطاً من السعادة قلت أم كثرت ، وهي أن يبقى ذلك الشيء موجوداً أطول ما يمكن على أحسن حالاته وأتم نهاياته ، ولكن أسعد السعادات وأتم النهايات وأرفع المقامات ما بنا له أولياء الله الذين هم صفوته وأهل مودته ، وهو ثلاث خصال : أولها معرفتهم بربهم ، والثانية قصدهم نحوه بهممهم ، والثالثة طلابهم مرضاته بسعيهم وأعمالهم

فأما معرفتهم بربهم فهو أن يعلم أن كل نفس جزئية هي قوة منبجسة فائضة من النفس الكلية ، ويعلم أن النفس الكلية هي أيضاً قوة منبجسة فائضة من العقل الكلي ويعلم أن العقل الكلي هو أيضا نور فائض من وجود الباري تعالى ويعلم أن الله تعالى هو نور الانوار ومحض الوجود ومعدن الجود ومعطي الفضائل والخيرات والسعادات وهو باق أبداً سرمداً وأن النفس الجزئية هي أيضاً أنوار وضياء وإشراقات

فائضة من النفس الكلية منبثة منها في العالم سارية في الأجسام من لدن فلك المحيط إلى منتهى مركز الارض . فهذا أصل علم أولياء الله تعالى ومعرفتهم بربهم.

وأما قصدهم نحوه بهمم نفوسهم فانه فكرتهم آناء الليل وأطراف النهار في عجائب مصنوعاته وغرائب مخترعاته وأصناف خلائقه واعتبارهم تصاريف أحوالها وكيفية الوصول اليها والى صانعها وبارئها ومحبتهم له واشتياقهم اليه من كثرة مايرون من احسانه وانعامه عليهم وعلى الخلق أجمعين ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها . وأما طلابهم مرضاته بسعيهم وأعمالهم فهو قبولهم وصايا ربهم تعالى التي جاءت بها الأنبياء والرسل عليهم السلام والعمل بجميع ماأشاروا اليه فهم في ليلهم ونهارهم لايغفلون عنه ولايسهون عن أسراره في القيام والقعود والممر والمجيء والأكل والشرب والافعال والاعمال والانقلاب في جميع أحوالهم ومتصرفاتهم : فهم في جميع اعمالهم كأنهم يرون ربهم بعين القلب لاشك ولاريب ، كما قال سيد المرسلين عليه السلام لما سئل عن ما الاحسان ؟ فقال ﷺ « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » والله لا يضيع أجر من أحسن عملا « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » « ان الله لايضيع أجر المحسنين »

وفقك الله وايانا وجميع اخواننا الى طريق السداد ، وهداك وايانا وجميع اخواننا سبيل الرشاد، انه رءوف بالعباد

﴿ تمت رسالة كمية أجناس الحركات ويليها رسالة في العلل والمعلولات ﴾

الرسالة التاسعة

من النفسانيات العقليات

فى العلل والمعلولات

وهى الرسالة الاربعون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

اعلم أيها الأخ انا قد فرغنا من بيان كمية أجناس الحركات وكيفية اختلافها وأشرنا في ذلك أن العالم محدث مصنوع . ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة بيان العلل والمعلولات فنقول :

إن نعمة الله تعالى على عباده جمة لاتفى ومواهبه كثيرة لاتحصى ، ولكن يتفاضل بعضها بعضاً بحسب جزالتها وغزارتها فمن مواهب الله الجزيلة وعطاياه الجليلة لبعض عباده التى خص بها قوماً دون قوم وهي الحكمة البالغة كما ذكر بقوله « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » يعنى به علم القرآن خاصة وتفسير آياته ومعانى أسراره وإشاراته اللطيفة التى لايمسها إلا المطهرون من العيوب والذنوب والكذب في حق الله وآياته حيث يفسر قوم آيات الله على خلاف ماهو معناه كما فسروا الاستواء بالجلوس والتمكن على العرش والرؤية بالنظر الى الجسم المشار اليه وبالسمع والبصر فسروا الاعضاء الالهية ، وفسروا الكلام بالنطق والحروف ، وبالنزول الانتقال من السماء السابعة الى السماء الدنيا وغير ذلك من الآيات التى لايعرف تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وهؤلاء هم

الذين يعلمون و يعرفون تأويل آياته وأسراره ويقولون آمنابه كل من عند ربنا فهذا قول الحكماء الربانيين والعلماء المتفلسفين

ثم اعلم أن لفظ الفيلسوف عند اليونانيين معناه الحكيم والفلسفة تسمى الحكمة ، والحكيم هو الذي أفعاله تكون محكمة وصناعته متقنة وأقاويله صادقة وأخلاقه جيلة وآراؤه صحيحة وأعماله زكية وعلومه حقيقية وهى معرفة حقائق الاشياء وكمية أجناسها وأنواع تلك الاجناس وخواص تلك الانواع واحداً واحداً والبحث عن عللها هل هى وماهى وكم هى وأي شيء هى وكيف هى وأين هى ومتى هى ؟ ولم كانت ومن هى ؟ — ويحسن أن يسأل عن هذه الوجوه أو يجيب عنها إذا سئل ويفهم معانيها إذا فكر فيها وبحث عنها ، كما قلنا في رسالة أجناس العلوم

ثم اعلم أن أصعب الأجوبة عن هذه السؤالات التسعة جواب اللمية لانه سؤال عن العلل والعلل كثيرة دقيقه غامضة تحتاج الى بحث شديد وفهم صادق ونفس زكية ونظر دقيق

ثم اعلم أن المباحث والمطالب في معرفة حقائق الأشياء تسعة أنواع : أولها هل هو ؟ والثاني ما هو ؟ والثالث لم هو ؟ والرابع كم هو ؟ والخامس أي شيء هو ؟ والسادس كيف هو ؟ والسابع أين هو ، والثامن متى هو ؟ والتاسع من هو ؟ ولكل سؤال من هذه السؤالات جواب خاص لا يشبه الآخر : فمن يتعاطى معرفة حقائق الاشياء ويخبر عن عللها وأسبابها يحتاج الى أن يكون قد عرف هذه المباحث التسعة والجواب عن هذه السؤالات واحدة واحدة بحقها وصدقها .

ثم اعلم أن معرفة الكيفية قبل معرفة الكمية فمن لايدري كيفية الأشياء وترتيبها ونظامها لا يوثق بقوله اذا أخبر عن عللها وأسبابها بأن ذلك منه عن معرفة بل هو حكاية وإخبار عن غيره ولايكون إلا مبلغاً ! وينبغي لمن يطلب حقائق الأشياء ويبحث عن عللها وأسبابها أن يبتدىء أولا بمعرفة الاصول

والقوانين والاجناس الكليات ، ثم ينظر في الفروع والأنواع والاشخاص التى هى الحروف .

ثم اعلم أن ملاك الأمر فى معرفة حقائق الأشياء هو في تصور الانسان حدوث العالم وكيفية إبداع الباري (تعالى) العالم واختراعه إياه وكيفية ترتيبه للموجودات ونظامه للكائنات بما عليه الآن ولم كان ذلك

ثم اعلم أن كل عاقل اذا سمع كلام العلماء في حدوث العالم وأقاويل الحكماء فى كيفية ابداع الباري تعالى العالم واختراعه له بعد أن لم يكن وتفكر فيماقالوه فانه يشتهى ويتمنى أن لو علم كيف صنعه ومتى عمله ولم فعل ذلك بعد ان لم يكن قبل . فان فكر في هذه الثلاثة من المباحثات ولم يتصور كيفية ذلك ولامتى ولا لم لصعوبتها ودقتها فربما تحير عقله وتشككت نفسه فيما قالت الحكماء وارتابت بها وتبلبلت

ثم اعلم أن العلة في صعوبة التصور لحدوث العالم وكيفية إبداع الباري تعالى له من غير شيء هو من أجل جريان العادة فى الشاهد أن كل مصنوع فان صانعه يعمله من هيولي ما فى مكان مافي زمان ما بحركات وأدوات .

وليس حدوث العالم وصنعته وإبداع الباري تعالى له هكذا بل أخرج من العدم إلى الوجود هذه الاشياء كلها ، أعنى الهيولى والمكان والزمان والحركات والادوات والاعراض . فمن أجل هذا لايتصور كيفية حدوث العالم وإبداعه .

فصل

ثم اعلم أن الله تعالى قد علم بانه يعرض للعقلاء هذه الشكوك والحيرة حيث تفكروا في كيفية حدوث العالم ولايتصور بهذه الطريقة لصعوبتها فجعل له طريقا آخر أسهل من هذه وأقرب وركزها في نفوسهم كأنها مكتوبة فيها كتابة الهية لايمكن لاحد من العقلاء انكارها اذا أنصف عقله لانه يجد صدقها في نفسه شاهداً له بها وهي كيفية صورة العدد ومنشؤه من الواحد الذي قبل الاثنين كما في رسالة الارثماطيقي

ثم اعلم أن الحكماء والعلماء هم ورثة الانبياء والانبياء هم سفراء الله بينه وبين خلقه ليعبروا عنه المعاني ويفهموها الناس بلغات مختلفة ، لكل أمة ما تعرفه على قدر احتمال أفهامهم . فاذا مضت الانبياء لسبلها خلفهم العلماء والحكماء وقاموا مقامهم ونابوا منابهم فيما كانوا يقولون ويفعلون ، ويعلمون الناس من معالم الدين وطريق الآخرة ومصالح الدنيا . فمن قبل منهم ماقالوه وعمل بما أمروه فهو على طريق النجاة والفوز ، ومن أبي وكفر به فهو على خطر عظيم وخوف من الهلاك . فاحذر يا أخي مخالفة الحكماء ومعاندة العلماء ، بل كن منهم اذا استوي لك ، وينبغي أن لا ترضى لنفسك إلا بأعلى مرتبة في العلم والحكمة فان بذلك يكون القربة الى الله (تعالى) كما ذكر بقوله : قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؛ إنما يتذكر أولو الالباب) . وإذ قد بان بما ذكرنا طرفا من فضيلة العلماء ومناقب الحكماء فنقول الآن : قد قالت الحكماء كلمة كلية صادقة وهي قولهم : ان الطبيعة لم تفعل شيئاً باطلا ، ومعنى هذا القول أنه ليس شيء في الموجودات بلا فائدة ولا عائدة ، بل ما من شيء إلا وفيه جر لمنفعة أو دفع لضر

فاذا كان الامر كما ذكرت فيحتاج كل من يدعي أنه يعرف الحكمة أو يتعاطى التحقيق أن يخبر اذا سئل عن علة كل موجود ولماذا وكيف وما الحكمة في كونه وما الفائدة في وجوده — ان كان يحسن ذلك — وإلا ينبغي له أن يقول: الله ورسوله أعلم ، ولا يأنف أن يقول : لا أدري فنقول : قبل كل شيء انه ينبغي لمن يريد النظر في حقائق الاشياء والبحث عن عللها والسؤال عن اسبابها ولم وكيف ولماذا وما الحكمة فيها ؛ أن يكون له قلب فارغ من هموم الدنيا وأمورها ونفس زكية وفهم دقيق وعقل واضح وأخلاق طاهرة وصدر سليم من الدغل والغش والآراء الفاسدة ويكون مرتاضاً بالرياضيات الحكمية الاربع والنظر في المنطق والطبيعيات ، ويكون قد عرف السؤالات وأجوبتها — كما بينا في رسالة الاجناس من العلوم — ثم ينظر في هذا الفن الذي يسمى علم الانبياء

الملقب بعلم الالهيات ، لان هذا العلم هو الغاية القصوى التي ينتهي اليها الانسان في علم المعارف التي تلي رتبة الملائكة الذين هم الملأ الأعلى وسكان السموات وملوك الأفلاك .

فصل

ثم اعلم أن الاشياء هي أعيان أي صور غيريات أفاضها وأبدعها الباري تعالى كما أن العدد هو أعيان أي صور غيريات فاض من الواحد بالتكرار في أفكار النفوس والأشياء كانت في علم الباري تعالى قبل إبداعه واختراعه لها ، كما أن الواحد لم يتغير عما كان عليه قبل ظهور العدد منه في أفكار النفوس

ومن أخص أوصاف الباري أنه غير الوجود وأصل الموجودات وعلتها ، كما أن الواحد أصل العدد ومبدؤه ومنشؤه ، فلو كان الباري تعالى ضداً لكان العدم ولكن العدم ليس بشيء ، والباري تعالى في كل شيء ومع كل شيء من غير مخالطة لها ولا ممازجة معها ، كما أن الواحد في كل عدد ومعدود ، فاذا ارتفع الواحد من كل الموجود توهمنا ارتفاع العدد كله ، واذا ارتفع العدد فلم يرتفع الواحد ، كذلك لو لم يكن الباري لم يكن شيء موجوداً أصلا . واذا بطلت الاشياء لا يبطل هو ببطلان الاشياء ومن الموجودات ما هو أقرب الى الباري تعالى رتبة ومنزلة وهو العقل ، كما أن من الاعداد ما هو أقرب الى الواحد رتبة ونسبة وهو الاثنين ثم الثلاثة ثم الاربعة ثم ما زاد بالغاً ما بلغ . فهكذا حكم الموجودات من الله تعالى مرتبة ومنتظمة كترتيب العدد ونظامه ، كما بينا في رسالة العدد ، وفي رسالة المبادىء العقلية

ثم اعلم أن كثيرا ممن ينظرون ويتفكرون في مبادىء الامور يظنون ويتوهمون بأن المعلومات في علم الله لم تزل مثل صور المصنوعات في أنفس الصناع قبل اخراجهم لها ووضعهم في الهيولى المعروفة في صنائعهم ، أو مثل صورة المعقولات في أنفس العقلاء وتصورهم لها ، وليس الامر كما ظنوا وتوهموا بل مثل كون العدد

في الواحد كما بينا قبل — لان صورة المصنوعات حصلت في أنفس الصناع بعد النظر منهم فى مصنوعات أستاذيهم والتأمل لها والتفكر فيها والاعتبار لها ، والتى في أنفس استاذيهم الذين أبدعوا الصناعات واخترعوها حصلت فى نفوسهم بعد النظر منهم الى المصنوعات الطبيعية والتأمل لها والتفكر فيها ، وهكذا حكم صورة المعقولات في أنفس العقلاء حصلت فيها بعد النظر الى المحسوسات وتأملهم لها والفكر منهم فيها وليس حكم الله تعالى كذلك بل علمه من ذاته ، كما أن العدد من ذات الواحد

والمثال ينبغي أن يكون مطابقا لما يمثل به في أكثر المعاني لا فى أقلها . فمثال البارى تعالى بالواحد في نسبته الى المبروزات بالاعداد أكثر مطابقة له من غيرها من المثالات

ثم اعلم أن كل موجود تام فانه يفيض منه على مادونه فيض ما ، وأن ذلك الفيض هو من جوهره أعنى صورته المقومة التي هي ذاته . والمثال فى ذلك حرارة النار فانها تفيض منها على ماحولها من الأجسام من التسخين والحرارة وهي جوهرية النار التى هي صورتها المقومة لها ، وهكذا أيضا يفيض من الماء الترطيب والبلل على الأجسام المجاورة له ، والرطوبة جوهرية فى الماء وهى صورة مقومة لذاته ، وهكذا أيضا يفيض من الشمس النور والضياء على الافلاك والهواء لان النور جوهري فى الشمس ، وهي صورته المقومة لذاته ، وهكذا أيضا تفيض من النفس الحياة على الاجسام لان الحياة جوهرية لها وهي الصورة المقومة لذاتها

فصل

ثم اعلم أنه مادام الفيض من الفائض يكون متواترا متصلا مادام ذلك المفاض عليه ، ومتى لم يتواتر متصلا عدم وبطل وجوده ، لانه يضمحل الاول فالاول . والمثال فى ذلك الضوء فى الهواء اذا تواتر البرق واتصل بقى الهواء مضيئاً مثل النهار لان الشمس تفيض الفيض منها على الهواء متواتراً متصلا ، فاذا حجز بينهما حاجز عدم ذلك الضوء من الهواء لأنه يضمحل ساعة ساعة ولا يتواتر الفيض

عليه . وهكذا الحياة من النفس على الاجسام مادامت متصلة متواتراً تدوم الحياة فاذا فارقت النفس الجسد بطلت حياة الجسد من ساعته واضمحلت . وهكذا حكم وجود العالم وبقائه من الباري تعالى . فما دام الفيض والجود والعطاء متواتراً متصلا دام وجود العالم من الله تعالى

واعلم أن أكثر العقلاء يظنون ويتوهمون أن وجود العالم من الله تعالى كوجود الدار المبنية من البناء المستقلة بذاتها المستغنية عن البناء بعد بنائه ، وليس الامر كما ظنوا وتوهموا لأن بناء الدار تركيب وتأليف من أشياء هي موجودة بأعيانها قائمة بذواتها كالتراب والماء والحجارة والآجر والجص واللبن والخشب وماشا كلها وليس الابداع والاختراع تركيبا وتأليفا بل إحداث واختراع من العدم الى الوجود . والمثال في ذلك كلام المتكلم وكتابة الكاتب ، فان أحدهما يشبه الابداع وهو الكلام والآخر يشبه التركيب وهو الكتابة ، فمن أجل هذا صار اذا سكت المتكلم بطل وجدان الكلام ، فاذا أمسك الكاتب لا يبطل الموجود من الكتابة فوجود العالم من الله (تعالى) كوجود الكلام من المتكلم اذا أمسك عن الكلام بطل وجدان الكلام . والدليل على ماقلنا وحقيقة ماوصفنا قول الله تعالى « إن الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا » الآية و « كل يوم هو في شأن » ولا يشغله شأن عن شأن

ثم اعلم أن كل لبيب عاقل اذا فكر في كيفية حدوث العالم وإبداع الباري له وخلقه أطباق السماوات والارض وتركيبه أكر الافلاك وتدويره أجرام الكواكب البسيطة والأركان الاربعة وتكوينه المولدات الثلاثة منها فلا بد أن يعتقد فيها أحد الآراء الثلاثة : أما أن يظن ويتوهم بأنها أبدعت دفعة واحدة وأخرجها الباري تعالى من العدم الى الوجود على ماهي عليه الآن أو يظن ويتوهم بأنها أبدعت على تدريج فأخرجت على ترتيب أولا فأولا الى آخرها على ممر الدهور والأزمان ، أو يقول بعضها دفعة وبعضها على التدريج ! إذ ليس في القسمة العقلية غير هذه الثلاثة : فأما من يظن ويقول إنها أبدعت دفعة واحدة بلا زمان فلا يجد لما يقول عليه دليلا من الشاهد فيتشكك فيما يقول

وأما من يقول إنها أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود على تدريج ونظام وترتيب فهو يجد على ما يقول شواهد كثيرة من الموجودات باستقراء واحد .

وأما من يقول إن بعضها أبدع وأحدث دفعة واحدة وبعضها على التدريج فهو يحتاج إلى أن يبينها ويشرحها ويفصلها

فصل

فنقول إن الأمور الطبيعيـة أحدثت وأبدعت على تدريج بمر الدهور والازمان ، وذلك أن الهيولى الكلي أعنى الجسم المطلق قد أتى عليه دهر طويل الى أن تمخض وتميز اللطيف منه من الكثيف ، والى أن قبل الاشكال الفلكية الكرية الشفافة وتركب بعضها في جوف بعض والى أن استدارت أجرام الكواكب النيرة وركزت مراكزها والى أن تميزت الاركان الاربعـة وترتبت مراتبها وانتظمت نظامها

والدليل على ذلك قوله تعالى « خلق السماوات والارض في ستة أيام » وقوله تعالى « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون »

فأما الامور الالهية الروحانية فحدوثها دفعة واحدة مرتبة منتظمة بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان . بل بقوله « كن فيكون » والأمور الروحانية الالهية هى العقل الفعال والنفس الكلية والهيولى الاولى والصور المجردة .

والعقل هو نور البارى تعالى وفيضه الذى فاض أولا والنفس هي نور العقل وفيضه الذى أفاضه البارى منه ، والهيولى الاولى هي ظل النفس وفيئها ، والصور المجردة هي النقوش والاصباغ والاشكال التى عمتها النفس في الهيولى باذن الله تعالى وتأييده لها بالعقل

وهذه الامور كلها بلا زمان ولا مكان : بل بقوله « كن فيكون » كما قال : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر »

والمثال حدوث البرق واشراق نور الشمس في الهواء وإضاءة الابصار ورؤية الاشياء دفعة واحدة بلا زمان

ثم اعلم أن الاركان الاربعة متقدمة الوجود على مولداتها بالأيام والشهور والسنين ، كما أن الافلاك متقدمة الوجود على الاركان بالازمان والادوار والقرانات ، وعالم الارواح متقدم الوجود على عالم الافلاك بالدهور الطوال التى لا نهاية لها . والبارى تعالى متقدم الوجود على الكل ، كتقدم الواحد على جميع العدد

ثم اعلم أنه قد أتى على النفس دهر طويل قبل تعلقها بالجسم ذى الابعاد وكانت هي في عالمها الروحاني ومحلها النوراني ودارها الحيوانية مقبلة على عاتها العقل الفعال تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات ، وكانت منعمة متلذذة مستريحة مسرورة فرحانة

فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات أخذها شبه المخاض فأقبلت تطلب ما تفيض عليه تلك الخيرات والفضائل . وكان الجسم فارغاً قبل ذلك من الاشكال والصور والنقوش فأقبلت النفس على الهيولى تميز الكثيف من اللطيف وتفيض عليه تلك الفضائل والخيرات

فلما رأى البارى تعالى ذلك منها مكنها من الجسم وهيأ لها تخلق من ذلك الجسم عالم الافلاك وأطباق السماوات من لدن فلك المحيط الى منتهى مركز الارض ، وركب الافلاك بعضها في جوف بعض وركز الكواكب مراكزها ورتب الاركان مراتبها على أحسن النظام والترتيب بما هي عليه الآن لكيما تتمكن النفس من ادارتها وتسيير كواكبها ويسهل عليها إظهار أفعالها وفضائلها والخيرات التى قبلتها من العقل الفعال

فهذا الذى كان سبب كون العالم أعنى عالم الاجسام بعد ان لم يكن ومن يرد أن يتصور كيفية تمخض الهيولى وتميز أجزاء الجسم اللطيف منها من الكثيف وقبولها الاشكال الكرية الفلكية الشفافة وكيف تركب بعضها فى جوف بعض فى مراتبها ودورانها وكيف استدارت أجرام الكواكب النيرة وركزت مراكزها فى أفلاكها فى مسيراتها وكيف تمخضت أجزاء الاركان الاربعة بعضها مع بعض

وتميز بعضها من بعض وترتبت على ما هي عليه الآن كلها من هيولى واحدة من حيث الجسمية مع اختلاف صورها وفنون أشكالها فليعتبر تركيب جسده من دم الطمث في الرحم كيف تمخض وتميز وصار بعضها عظاماً بيضاً صلبة ، وبعضها لحماً أحمر ، وبعضها شحماً دسماً أصفر ، وبعضها عروقاً مجوفة ، وبعضها أعضاء آلية ، وبعضها اعضاء متشابهة الاجزاء ، وكيف صار بعضها قلباً وبعضها جرم الكبد وبعضها جرم الرئة ، وكذلك المعدة والطحال والدماغ والامعاء وكيف صار بعضها جلداً وشعراً وظفراً وما شاكل هذه الاشياء المختلفة الاشكال والصور والالوان والطعوم والروائح والطباع

وان عجز فهمه عن تصور كون هذه من دم الطمث ومن النطفة وتركيبها منه وكيفية قبولها هذه الصور والاشكال والطعوم والالوان التي هي اقرب اليه ومعرفتها اسهل عليه — فهو عن تصور كيفية الافلاك وخلق اطباق السماوات والاراضين ابعد وهو بها اجهل واقل فهماً

فصل

ثم اعلم أنه سترجع النفس الكلية الى عالمها الروحاني ومحلها النوراني وحالتها الأولى التي كانت عليها قبل تعلقها بالجسم ، كما قال تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » ولكن لايكون ذلك إلا بعد مضي الدهور والأزمان الطوال والأدوار ، وسيخرب العالم الجسماني اذ فارقته النفس وسكن الفلك عن الدوران والكواكب عن السير والأركان عن الاختلاط والمزاج ، ويبلى النبات والحيوان والمعادن ويخلع الجسم الصور والأشكال والنقوش ويبقى فارغاً كما كان بدياً اذ أعرضت عنه النفس وأقبلت نحو عالمها ولحقت بعلتها الاولى وصارت عنده واتحدت به ، لأن مثل النفس في إقبالها على الجسم واشتغالها به في إصلاح شأنه — بعد ما كانت مقبلة على علتها في عالمها مستفيدة منها الفيض من الفضائل والخيرات — كمثل الرجل الخير العاقل المحب المقبل على أستاذه ، المحب الحريص في تعلمه العلم والحكم والمعارف المتخلق بأخلاقه الجميلة وآدابه

الصحيحة مدة من الزمان ، حتى إذا امتلأ من الخيرات والفضائل والعلوم والحكم أخذه عند ذلك شبه المخاض واشتهى وتمنى وطلب من يفيض عليه من تلك الخيرات والفضائل ويفيده إياها .

فاذا وجد تلميذا يعلم أنه يقبل منه تأديبه ويفهم علمه وحكمته أقبل عليه بالفيض والافادة طمعاً في إصلاحه وحرصاً فى تعليمه ورغبة في تأديبه تشبهاً بأستاذه في أفعاله وصنائعه ، مثل ما كان يفعل أستاذه به ، تشبهاً بأستاذه ومعلمه ومخرجه الأول الذي أدبه وخرجه وهذب جوهره وصفى عنصره

فاذا فرغ من تعليمه وتثقيفه بتأديبه أقبل عند ذلك على عبادة ربه وطلب الخلوات لمناجاة باريه وتمنى اللحوق بأسلافه وأقاربه والدخول في زمرة ملائكته . وهكذا سيرة الأنبياء صلوات الله عليهم، وكذلك أيضاً كانت سيرة الحكماء والقدماء الربانيين . كل ذلك تشبهاً بالله تعالى في اظهار حكمته وفيض فضائله على بريته إذ أوجدهم بعد أن لم يكونوا فأفاض عليهم من فنون نعمه وألوان الخيرات والبركات مما لا يحصى عددها إلا الله . فافهم يا أخي هذه الاشارات والتنبيهات لعل نفسك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة

فصل

حكي في بعض الاخبار أن نبياً من أنبياء الله تعالى قال في مناجاته معربه : يارب لم خلقت الخلق بعد أن لم تكن خلقته ؟ فقال له ربه ، على سبيل الرمز : كنت كنزاً مخفياً من الخيرات والفضائل ولم أكن أعرف فأردت أن أعرف

معناه لو لم أخلق الخلق لخفيت هذه الفضائل والخيرات التى أفضتها وأظهرتها من عجائب خلقي ومصنوعاتي المحكمات التى كلت الألسن عن البلوغ الي كنه صفاتها وحارت عقولهم عن كنه معرفتها بحقائقها .

وأنت يا أخي فاحذر من سوء الفهم من كلام العقلاء والحكماء ولطيف أقاويلها واشاراتها الى المعاني الدقيقة ! فان سوء الفهم يؤدي صاحبه الى سوء الظن بالحكماء : فمن ذلك مايتوهمه كثير من الناس في حق الحكماء أنها تقول بقدم

العالم وأزليته ، وهذا هو سوء الظن منهم لسوء فهمهم لأقاويلها واشاراتها ، وذلك أنهم لما سمعوا قول الحكماء : ان العالم لم يخلق في زمان ولاهو في مكان ، ظن من سمع هذا القول منهم أنهم يقولون بقدم العالم ولم يفهم ماأرادوا وانما أرادوا بقولهم : لازمان ولامكان أفضل لأن الزمان عدد حركات الفلك والمكان سطحه الخارج ، فاذا لم يكن فلك فلازمان ولامكان ، بل لما أبدع الباري تعالى الفلك وأداره وأوجد المكان والزمان معاً بعد وجود الفلك

ومن ذلك أيضاً قولهم : ان الجوهر جوهر لنفسه ، والعرض عرض لنفسه فظن من سمع هذا القول ولم يفهم المراد أنهم يقولون أنها ليست بجعل جاعل أو بصنع صانع اذ كان لنفسه ! وليس الأمر على ماظنوا وتوهموا وانما قالت الحكماء هذا القول لما تأملت الموجودات وتصفحت أحوالها وجدت بعضها صفات وبعضها موصوفات مختلفات وعرفت أن علة اختلاف الموصوفات هي من أجل اختلاف الصفات ، وأما اختلاف الصفات فهي لانفسها لان الله تعالى أبدعها مختلفة بأعيانها لا لعلة فيها .

والمثال في ذلك اختلاف حال الأسود والأبيض : فانه من أجل اختلاف السواد والبياض في ذاتيهما لا لعلة أخرى

فمن ظن أن السواد والبياض لهما علة أخرى تمادى الى غير النهاية ! وذلك أن الأسود هو موصوف وإنما كان أسود لكون السواد فيه ، فهكذا الابيض إنما كان أبيض لكون البياض فيه ، فأما السواد والبياض فانهما في أنفسهما مختلفان لا لصنعة فيهما بل بذاتيهما مختلفان ، لأن الله تعالى أبدعهما هكذا مختلفي الذاتين فهذا معنى قول الحكماء : إن السواد سواد لنفسه لا لصفة فيه ، ولم يريدوا أن السواد ليس بجعل جاعل ولا بصنع صانع ، كما توهم كثير من الناس الذين هم غير مرتاضين بالحكمة ولا متحققين بالشريعة

ثم اعلم أن العجز هو من أحد الأسباب التي تعوق الفاعل عن إظهار أفعاله والصانع عن إحكام صنعه ، ولكن ربما يكون من الفاعل لضعف قوته ولقلة معرفته ،

وربما كان من عدم الأدوات والآلات التي يحتاج اليها الصانع في إحكام صنعته أو من عدم المكان والزمان والحركات وماشا كلها ، أو ربما يكون العجز من قبل الهيولى وعسر قبولها الصورة من الصانع الحكيم . مثال ذلك تعسر قبول الحديد من الحداد أن يفتل من الحديد البارد حبلا طويلا كما يفتل الحبال من القنب ، فليس العجز من الحداد ولكن من الحديد لعسر قبوله للفتل . ومثل الهواء لا يقبل كتابة الكاتب فيه لسيلان عنصره ، ومثل النجار لا يقدر أن يعمل سلما يبلغ السماء لعدم الخشب ،لا لعجز فيه . ومثل رجل حكيم لا يقدر أن يعلم الطفل لا لعجز في الحكيم بل لان الطفل غير مستعد لقبول ذلك في حال الطفولية . وعلى هذا القياس يوجد العجز من الهيولى وعسر قبولها للصور لا لعجز في الصانع الحكيم.

ثم اعلم أن كثيراً من العلماء لا يعرفون كيفية العجز من الهيولى ولا يعتبرونه فينسبون العجز كله الى الفاعل القادر الحكيم ، ذلك أنهم ربما يظنون ويتوهمون ذلك على الله تعالى فيقولون إنه يعجز عن أشياء كثيرة مثل قولهم : إنه لا يقدر أن يخرج إبليس من مملكته ولا يعتبرون (١) أن العجز من عدم ما ليس من مملكته ليس من عدم القدرة من الله تعالى !! ويقولون : إنه لا يقدر أن يدخل الجمل في سم الخياط ولا يعتبرون العجز من الابرة ! ويقولون : ان الله لا يقدر أن يجعل أحداً قائماً قاعداً في وقت واحد ولا يدرون أن العجز من الواحد منا إذ ان القيام والقعود لا يكون في وقت واحد معا ! ثم يطلقون القول بأن هذه الأشياء لا يصح القول بها في مقدوره . فاذا سئلوا ما معنى قوله : « والله على كل شيء قدير » ؟ قالوا : هذه خصوص لا على العموم خلاف ما قال الله تعالى لانه ذكره على العموم مطلقا فقال : « على كل شيء قدير » ! ثم إنهم يدخلون الشبهة على من يقول انه عموم بقولهم : أترى أنه قادر على أن يخلق مثل نفسه ولا يدرون أن هذا العجز هو من عدم وجدان المثل ، لا في قدرته ، لان العجز هو العدم لا الوجود

فصل

في ما العلة ؟ هي السبب الموجب لكون شيء آخر — ما المعلول ؟ هو الذي

(١) المراد عدم وجود مملكة أخرى يخرج اليها

لكونه سبب من الأسباب — كم العلل ؟ أربعة أنواع : فاعلية وهيولانية وصورية وتمامية — كم المعلول ؟ أربعة أنواع وهي : المصنوعات كلها : فمنها مصنوعات بشرية حيوانية ، ومنها طبيعية وهي المعادن والنبات والحيوان ، ومنها نفسانية بسيطة وهي الأفلاك والكواكب والاركان ، ومنها الروحانية الالهية وهي الهيولى والصورة المجردة والنفس والعقل — ما الصنعة ؟ هي اخراج الصانع ما في نفسه من الصور ونقشها في الهيولى ، وكل صانع حكيم فله في صنعته غرض ما ، والغرض هو غاية تسبق في علم العالم أو في فكر الصانع ومن أجله يفعل ما يفعله ، فاذا بلغ اليه قطع الفعل وأمسك عن العمل

ثم اعلم أن كل مصنوع فله أربع علل : علة فاعلية وعلة هيولانية وعلة صورية وعلة تمامية ، مثال ذلك السرير فان علته الفاعلية النجار ، والهيولانية الخشب ، والصورية التربيع ، والتمامية القعود عليه . وكل صانع بشري يحتاج في صناعته الى ستة أشياء حتى يتم صنعته : هيولي ما ، ومكان ما ، وزمان ما ، وأدوات ما ، كاليد والرجل ، وآلات ما كالفأس والمنشار ، وحركات ما . وكل صانع طبيعي يحتاج الى أربع منها : وهي الهيولى والمكان والزمان والحركة . وكل صانع نفساني يكفيه اثنان منها : هيولى وحركات ما ، والباري (تعالى) لا يحتاج الى شيء منها لأن فعله إبداع واختراع لهذه الاشياء ، أعني الهيولى والزمان والحركات والآلات والأدوات

واعلم أن كل صانع حكيم من البشريين يجتهد أن يحكم صنعته إحكاما أجود ما يقدر عليه ، ولكن ربما عرض له عوائق إما لعلة المادة أو لعسر الهيولى عن قبول الصورة أو لعدم الأدوات والآلات أو ضعف القوة والنسيان والغفلة والسهو وقلة المعرفة بالحذق في الصنعة ، والله (تعالى) منزه عن جميع ذلك كله

فصل

ثم اعلم أن الموجودات كلها نوعان : كليات وجزئيات ، فالكليات رتبها

الباري من أشرفها الى أدونها كما بينا في رسالة المبادىء والجزئيات ، ابتـدأها من أدونها الى أتمها وأكملها رتبة ، كما بينا فى رسالة الطبيعيات

ثم اعلم أنه ربما يكون فى المسألة الواحدة عدة أجوبة ولـكن ليس كل جواب يصلح لـكل واحد : وذلك أن فى الناس خواص وعوام . أما جواب الخاص اذا سأل عن حدوث العالم وعلته الموجبة لجوابه على ماسنذكره ونشرحه من بعد . وأما جواب العامة اذا سألوا لم خلق الله العالم بعد أن لم يكن ؛ فجوابه أن فى خلقه العالم حكمة وخيراً ، وفعل الحـكمة عن الحـكيم واجب ! فلو لم يخلق العالم لـكان تاركا للمحكمة وفعل الخيرات ، وهذا هو الجواب . فان قال لم خلق فى وقت دون وقت ؟ فيقال : لانه كان عالماً أنه سيخلق فى الوقت الذي خلق فيه فلو خلق قبل ذلك لـكان فعله مخالفاً لعلمه تعالى عن ذلك علواً كبيراً . فان قيل : لم خلق الله تعالى العالم على هذه الصورة التى هو عليها الآن ولم يخلقـه على غيرها من الصور ؟ فيقال : لان هذا أحكم وأتقن . فان قيل : بل غيره أحكم وأتقن! فيقال له بين كيفية ذلك ؛ فان الحـكماء الربانيين قالوا لايجوز ولايمكن أحكم من هذا ولا أتقن منه . فان قال أوليس زيد الزمن قد كان يمكن أن يكون أحكم بنية وأحسن صورة مما هو عليـه الآن ؟ فيقال : سألتنا عن صورة العالم بكليتـه لاعن صورة حروف أجزائه بل ماذا تقول فى صورة الانسانية : هل يجوز أن تكون أحكم وأتقن مما هي عليه الآن

ثم اعلم ان الله تعالى خلق الانسان في أحسن تقويم بالقصد الأول . فأما صورة زيد الزمن وعمرو المفلوج للأسباب الفلـكية والعلل الطبيعية ، ويطول شرح ذلك : وذلك أن الحـكماء بحثوا عن علل الاشياء وخبروا عن أسبابها ، فانما كان ذلك عن علل الـكليات . فأما علل الجزئيات فلايبلغ فهم البشر معرفتها بل تقصر عقولهم عن معرفتها وعن عللها وأسبابها الدقيقة الخفية .

ونريد أن نذكر عن تلك العلل والأسباب التى أدركها الحـكماء بدقة نظرهم وشدة بحثهم وجودة فكرهم واعتقادهم ، طرفاً ليكون دلالة على الباقية وقياساً

لما نريد النظر فيها والحث عليها والاعتبار لها تشبهاً بهم واقتداء بمذاهبهم . وإذ قد ذكرنا مايحتاج اليها فنريد الآن أن نبين طرفاً من كيفية السؤال والجواب عن علل الأشياء وماهية الحكمة فيها

فصل

وكيف إذا قيل لم خلق الله تعالى العالم بعد أن لم يكن ؟ فيقال : لأن الله حكيم وخلقه العالم حكمة ، وفعل الحكمة عن الحكيم واجب ، وبواجب الحكمة إذاً خلق العالم . وإذا قيل : لم خلق الله في وقت ولم يخلق قبل ذلك ؟ قيل : لعلمه السابق أنه سيخلق في هذا الوقت لاقبل . فان قيل : لم خلقه على هذه الصورة التى عليها الآن ولم يخلقه على صورة غيرها ؟ فيقال : لعلمه أن هذه الصورة أحكم وأتقن ففعل كما علم ليكون فعله موافقاً لعلمه . وإذا قيل : كيف خلق الله العالم وكيف ابتدأه من اوله الى آخره ؟ فقد أوردنا لهذا العالم أربع رسائل : رسالتين في المبادىء ، ورسالتين في العالم بينا فيها كيف أبدع البارى تعالى الموجودات وجميع الكائنات وكيف رتبها ونظمها بعضها يتلو بعضاً فى الوجود والبقاء كترتيب العدد عن الواحد الذى قبل الاثنين

وينبغي لمن يريد النظر في هذه الرسالة أن يكون قد نظر في رسالة الاربعة الموصوفات قبل هذا ، لأن معرفة كيف هو قبل معرفة لم هكذا — كما بينا في رسالات أجناس السؤالات التسعة وأجوبتها للحكماء

ثم اعلم أن لله تعالى عالمين : أحدهما جسمانى والآخر روحاني ، فالعالم الجسمانى هو الفلك المحيط ومايحويه من سائر الافلاك والكواكب والأركان والمولدات الثلاثة والعالم الروحانى هو عالم العقل ومايحويه من النفس والصور التى ليست بأجسام ذوات الابعاد الثلاثة التى هي ظل ذي ثلاث شعب

ثم اعلم أن العالم الروحانى محيط بعالم الافلاك كما أن عالم الافلاك محيط بعالم الاركان الذي دون فلك القمر ، وقد جعل الله تعالى عالم الافلاك كريات الاشكال مستديرات الحركات ، لان هذا الشكل هو أفضل الاشكال من عدة

وجوه ومعان ، والحركة المستديرة أفضل الحركات من جهات شتى . وقسم الله تعالى الفلك اثنى عشر قسما لان هذا العدد أفضل الاعداد ، وذلك أنه أول عدد زائد ، وجعل عدد الافلاك تسعة مطابقة لاول عدد فرد مجذور ، وجعل عدد الكواكب السيارة سبعة مطابقة لاول عدد كامل وجعل فيها نيرين ، واثنين سعدين ، واثنين نحسين ، وواحد ممتزج . وجعل أيضا في الفلك عقدتين ، وجعل بعض البروج منقلبة وبعضها ذا جسدين وبعضها ثابتة وبعضها نارية وبعضها ترابية — كل ذلك — لما فيه من وجوه الحكمة واتقان الصنعة — لا يبلغ فهم البشر كنه معرفتها الا من ألهمه الله تعالى وهدي قلبه وشرح صدره بنور حكمته كما ذكر بقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » . فاذا قيل : لم جعل الباري تعالى عالم الاجسام قسمين اثنين أحدهما علوي وهو عالم الافلاك ومافيها من أصناف الاكر والكواكب ، والآخر سفلي وهو عالم الاركان ومافيها من أجناس الخلائق ؟ فيقال له : لعلل شتى وأسباب عدة ، ولما فيه من اتقان الحكمة واحكام الصنعة مالا يبلغ فهم البشر كنه معرفتها ، ولكن نذكر منها طرفاً فنقول :

ليكون في ذلك تبصرة للعقلاء وبيانا لأولى الابصار فان لله (تعالى) دارين اثنين إحداهما هي الدنيا التى هى عالم الأجسام ومسكن الأجرام ، والاخرى هى دار الآخرة التى هي عالم الأرواح ومحل النفوس . فان قيل لم جعل الباري (تعالى) في عالم الافلاك نيرين وسعدين ونحسين وعقدتين وقدفان فى واحد واحد كفاية ؟ قيل له : ليكون ذلك دلالة على تحقيق ما قلنا وصحة ما وصفنا من أن له دارين اثنين وهما الدنيا والاخرة . وذلك أن حالات أحد النيرين تشبه حالات أمور الدنيا وأبنائها وهو القمر ، والآخر تشبه حالاته حالات الآخرة وأبنائها وهى الشمس النير الاكبر . وذلك ان امور الدنيا وحالات أبنائها تعد من أنقص الوجوه وأدون المراتب مرتبة إلى أتمها واكملها ، فاذا بلغت إلى غاياتها أخذت في الانحطاط والنقصان إلى أن تضمحل وتتلاشى ، وهذا حال القمر من أول الشهر

ثم إلى نصفه ، ومن نصف الشهر إلى آخره تشاهد في كل سنة اثنتى عشرة مرة . وهكذا حكم السعدين ودلائلهما : أحدهما تدل على سعادة أبناء الدنيا والآخر يدل على سعادة أبناء الآخرة . وذلك أن الزهرة التي هي السعد الأصغر اذا استولت على مواليد ابناء الدنيا دل لهم على حسن الرتبة والعز والكرامة والسرور واللذة والنعمة والرفاهة واللعب واللهو والغناء وما يتنافس فيه أبناء الدنيا من هذه الخصال ويعدونها سعادة وليست هي سعادة بالحقيقة بل هي محنة وشقاء وبلوى . وأما اذا استولى المشتري الذي هو السعد الاكبر على مواليد الناس دل لهم على حسن الأخلاق وجودة النفس ومحبة الخير والعمل به والعدل والانصاف في المعاملات والتمسك بالدين وكثرة العبادة وذكر الميعاد وترك اللذات والشهوات الدنياوية والتفكر في أمر الآخرة والتقلب بعد الموت وما شاكل هذه الخصال المتضادة لما يدل عليه أبناء الاخرة . وهكذا حكم النحسين وذلك أن أحدهما يدل على محنة ومنحسة أبناء الدنيا وهو زحل اذا استولى على المواليد دل على الفقر والبؤس والشدائد والذل والهوان والعلل والامراض والتعب والعناء والمصائب والغموم والأحزان ونوائب الحدثان التي هي أكثر من أن تحصى وأبناء الدنيا مرهونون بها لا ينفك أحد منها . واذا استولى المريخ على المواليد وتقوى فدلالته على أنواع الشرور : على الفسق والفجور وقتل الأنفس وقطع صلة الرحم وإهراق الدماء وهتك الحرم وانتهاك المحارم والخروج عن الطاعة والحمية الجاهلية والسرعة والعجلة وترك النظر في العواقب وقلة الورع والانكار لأمر المعاد والمنقلب بعد الموت !! ومن كانت هذه حاله في الدنيا فليس له في الآخرة الا العذاب . وأما كون عطارد ممازجا للكواكب ففيه دلالة على أن أمور الدنيا معلقة بأمور الآخرة ممازجة لها ، وهكذا حكم البروج المنقلبة يدل على تقلب أمور الدنيا وحالات أهلها والبروج الثوابت تدل على ثبات أمور الآخرة وحالات أهلها ، والبروج ذوات الجسدين تدل على أن أمور الدنيا متصلة بأمور الآخرة وممازجة لها . وأما كون العقدتين في الفلك اللتين احدهما رأس الجوزهر والأخرى ذنب الجوزهر ، وهما خفيتان

الذات وظاهرتا التأثيرات في الفلك فتدلان على أن في العالم جواهر لطيفة خفيات الذوات ظاهرات الافعال والتأثيرات وهم أجناس الملائكة وقبائل الجن وأحزاب الشياطين وأرواح الحيوانات ونفوسها . فان قيل : لم جعل الكسوف للنيرين دون سائر الكواكب ؟ قيل : لتزول الشكوك عن قلوب المرتابين الذين يظنون أنهما الهين اثنين فانهما لوكانا الهين لما انكسفا

ثم اعلم أن الله تعالى جعل في جبلة الحيوان أربعة أسباب : آلامها ودواعي عطب أبدانها وشقاوة نفوسها وهلاك هياكلها وهي الجوع والعطش والشهوات المختلفة واللذات الذليلة . أما قصد الباري الحكيم في فعله ذلك كلها فهو لبقاء نسلها وصلاح معاشها . وأما الذي يعرض لها من الالام والنكب فليس بالقصد الأول ، ولكن بالعرض من أجل النقص الذي هو في الهيولى ، وذلك أن الله تعالي جعل لها الجوع والعطش لكيما تدعو بها الى الأكل والشرب ليخاف على أبدانها من الكيموس بدل ما يتحال من البدن . لان البدن في التحلل دائماً من أسباب خارجة وأسباب داخلة ، وأما الشهوات فلكيما تدعو الى المأكولات المختلفة الموافقة لأمزجة ابدانها وما تحتاج اليه طباعها . وأما اللذة فلكيما تأكل بقدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان . فان قيل : لم جعل للنفوس من الآلام والأوجاع والأفزاع عند الآفات العارضة لاجسادها ؟ قيل له : لكيما تحرص نفوسها على حفظ أجسادها من الآفات العارضة لها الى وقت معلوم إذ كانت الأجساد لا تقدر على جر منفعة ولا دفع مضرة عنها . فان قيل : لم جعل بعض الحيوانات أكلة لحوم بعض ؟ قيل لكيما لا يضيع شيء مما خلق الله بلا نفع ، وذلك أنه قد تاهت أوهام العلماء وتحيرت عقولهم فى طلب علة أكل الحيوانات بعضها بعضاً وماوجه الحكمة منه اذ كان البارى (تعالى) جعل ذلك فى طباعها جبلة وهيأ بها آلات وأدوات تتمكن بها كأنياب ومخاليب وأظافر حداد التى تقدر بها على القبض والبسط والضبط والخرق والنهش والأكل والشهوة واللذة والجوع وما شاكل ذلك مهما يلحق المأكولات منها من الآلام والأوجاع والفزع عند الذبح والقتل والأمراض !

فلما تفكر في ذلك ولم تسنح لهم العلة ولا ما وجه العلة والحكمة ، اختلفت عند ذلك بهم الآراء والتبست بهم المذاهب حتى قال بعضهم : ان تسلط الحيوانات بعضهم على بعض وأكل بعضها لبعض ليس من فعل الحكيم بل فعل شرير قليل الرحمة ، فلهذا قالوا أن للعالم فاعلين خير وشرير ! ومنهم من نسب ذلك الى النجوم، ومنهم من قال عقوبة لها لما سلف منها من الذنوب في الادوار السالفة — وهم أهل التناسخ ، ومنهم من قال بالعرض ، ومنهم من قال : ان هذا اصلح ، ومنهم من أقر على نفسه بالعجز وقال لا أدري ما العلة في أكل الحيوانات بعضها بعضاً ولا ما وجه الحكمة فيه ! غير أنه قال : الباري الحكيم لا يفعل شيئاً إلا بحكمته ومنهم من قال بل لاحكمة فيه

وكل هذه الاقاويل قالوها في طلبهم الحكمة والعلة وإنما لم يقفوا عليها لأن نظرهم كان جزئياً وبحثهم عن علل الأشياء خصوصياً ، وليس يعلم علل الاشياء الكليات بالنظر الجزئي لأن أفعال البارى إنما الغرض منها النفع الكلي والصلاح العمومي . وان كان قد نقص من ذلك ضرر جزئي ومكاره خصوصية وليس يعلم علل الا شياء الكليات أحياناً

والمثال في ذلك أحكام الشريعة النبوية وحدوده فيها وذلك لحكم القصاص في القتل . قال تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وان كان موتاً وألماً للذي يقتص منه ، وكذلك قطع يد السارق منه نفع عمومي وصلاح الكل وان كان يناله حزن وألم . وكذلك غروب الشمس وطلوعها والامطار كان النفع منها عمومى والصلاح كلي وان كان قد يعرض لبعض الناس والحيوان والنبات من ذلك ضرر جزئي

وهكذا أيضا قد ينال الأنبياء والصالحين وأتباعهم شدائد وجهد وآلام في إظهار الدين وإفاضة سنن الشريعة في أول الأمر

ولكن لما كان الباري تعالى غرضه في إظهار الدين وسنة الشريعة هو النفع

العام وصلاح الكل من الذين يجيئون من بعدهم الى يوم القيامة ولا يحصى عددهم ونفعهم وصلاحهم ، سهل في جنب ذلك وصغر ما نال النبي ﷺ من أذية المشركين وجهاد الاعداء المخالفين وما لاقوه من الحروب والقتال في الغزوات وتعب الأسفار وقيام الليل وصيام النهار وأداء الفرائض وما فيها من الجهد على النفوس والتعب على الابدان

ولما كان نزول الأمر في المنقلب الى الصلاح العمومي والنفع الكلي كانت الشدائد والجهد والبلوى في جنبه أمراً صغيراً جزئيا . فعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يعتبر من يريد أن يعترض : ما العلة وما وجه الحكمة في أكل الحيوانات بعضها بعضا ليتبين له الحق والصواب . ونحن نريد أن نبين ما العلة وما وجه الحكمة في الكل وفي أكل الحيوانات بعضها بعضا ولكن لا بد أن تقدم أشياء لا بد من ذكرها

﴿ فصل ﴾

فنقول اعلم أن عقول القوم انما أنكرت أكل الحيوانات لما ينالها من الآلام والاوجاع عند الذبح والقتل ولو لا ذلك لما أنكروا كما لا ينكرون أكل الحيوان والنبات إذ ليس ينال النبات الآلام والاوجاع فنقول : قصد الله وغرضه في ألم الحيوانات ما جبلت عليه طباعها والاوجاع التي تلحق نفوسها عند الآفات العارضة ليس عقوبة لها وعذابا كما ظن أهل التناسخ ، بل حثا لنفوسها على حفظ أجسادها وصيانة لها كلها من الآفات العارضة لها اذ كانت الاجساد لا تقدر على جر منفعة ولا دفع مضرة عنها ، ولو لم يكن ذلك كذلك لتهاونت النفوس بالأجساد وخذلتها وأسلمتها الى الهلاك قبل فناء أعمارها وتقارب آجالها ولهلكت كلها دفعة واحدة في أسرع مدة

فلهذه العلة جعلت الآلام والاوجاع للحيوان دون النبات وجعل فيها حبا للبقاء إما بالحرب والقتال وإما بالهرب والفرار والتحرز لحفظ جثتها من الآفات

العارضة الى وقت معلوم ، فاذا جاء أجلها فلا ينفع القتال ولا الهرب ولا التحرز بل التسليم والانقياد ولو كان ينالها بعض الآلام والاوجاع . واذ قد ذكرنا ما يحتاج اليه .

فنقول الآن إن الله تعالى لما خلق أجناس الحيوانات التي في الارض وعلم أنها لا تدوم بذاتها أبد الآبدين جعل لكل نوع منها عمراً طبيعياً أكثر ما يمكن منه ثم يجيئه الموت ان شاء أو أبى وقد علم الله تعالى أنه يموت كل يوم منها في البر والبحر والسهل والجبل عدد لا يحصيه الا الله تعالى ثم جعل بواجب الحكمة جثة جيف موتاها غذاء لاحيائها ومادة لبقائها لئلا يضيع شيء مما خلق الله تعالى بلا نفع ولا فائدة وكان في هذا منفعة لاجسادها ولم يكن فيه ضرر على الموتى . وخصلة أخرى لو لم تكن الاحياء تأكل جيف الموتى منها لبقيت تلك الجيف واجتمع منها على ممر الايام والدهور حتى تمتلىء منها الارض وقعر البحار وتنتن ويفسد الهواء والماء من نتن روائحها فيصير ذلك سبباً لكونها وهلاكها للاحياء فأى حكمة أكثر من هذه أن جعل الباري تعالى في أكل الحيوانات بعضها بعضا من المنفعة للأحياء ودفع المضرة عنها كلها وان كانت تنال بعضها الآلام والاوجاع عند الذبح والقتل ؟ وليس قصد القابض من القاتل من ذبحها وقبضها إدخال الالم والوجع عليها بل لينال المنفعة فيها لدفع مضرة بها

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أن الله تعالى لما ابدع الموجودات واخترع الكائنات قسمها قسمين اثنين كليات وجزئيات ورتب الجميع ونظمها مراتب الاعداد المفردات ، كما بينا في رسالة المبادىء وكانت مرتبة الكليات أن جعل الاشرف منها علة لوجود أدونها وسببا لبقائها ومتمما لها ومبلغا الى أقصى غاياتها وأكمل نهاياتها وكانت مرتبة الجزئيات أن جعل الناقص منها علة للناقل (١) وسببا لبقائه ، والأدون خادما للأشرف ومعينا ومسخرا له . وبيان ذلك من النبات الجزئي : لما كان أدون رتبة من الحيوان

(١) لعل الصواب : الكامل كما يقتضيه السياق

الجزئي وأنقص حالة منه جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وجعل النفس النباتية في ذلك خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها . وهكذا أيضا لما كانت رتبة النفس الحيوانية أنقص وأدون من رتبة النفس الانسانية جعلت خادمة ومسخرة للنفس الانسانية الناطقة . وهذه الحكمة التي ذكرناها كافية بينة ظاهرة للعقول السليمة . فنقول على هذا الحكم والقياس : لما كان بعض الحيوانات أتم خلقة وأكمل صورة كما بينا قبل هذا ، جعلت النفس الناقصة منها خادمة ومسخرة للتامة منها الكاملة ، وجعلت أجسادها غذاء ومادة للاجساد الناطقة منها وسببا لبقائها لتبلغ الى أتم غاياتها وأكمل نهاياتها كما جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وسببا لكماله . وكما أنه لما كانت النفس النباتية (اذ هى) أدون رتبة من النفس الحيوانية جعلت خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها في رتبتها غذاء لها ومادة لاجسادها فهكذا جعل حكم نفوس الحيوانات الناقصة خادمة لنفوس الحيوانات التامة الخلقة الكاملة ومسخرة لها لكيما تربي جسمها وتنميها وتسلمها الى الحيوانات التي هي أكمل منها وأشرف ليكون ذلك غذاء لأجسادها ومادة لأبدانها وسببا لبقاء أشخاصها زمانا ما أطول ما يمكن وعلة لتوالد نسلها وبقاء صورتها ، لأن هيولى الاشخاص دائما في الذوبان والسيلان فيحتاج الى بدل ما يتحلل من الاشخاص ، فاذاً قد تبين بما ذكرنا ما العلة في أكل الحيوانات بعضها بعضا . فأما المنفعة العامة والصلاح الكلى فى أكل الحيوانات بعضها بعضا فهو أنه لو لم يكن لامتلأ وجه الارض وقعر البحار وجوف الانهار من جيف الحيوانات المنتنة فى كل يوم على ممر الدهور ، ولفسد جو الهواء وعرض من ذلك الوباء للاحياء منها وهلكت كلها دفعة. وعلة أخرى : وذلك أن الله (تعالى) لما خلق الاحياء . اما لجر منفعة أو لدفع مضرة عنها لم يترك شيئا بلا نفع ولا عائدة . فلو لم يجعل أكل بعض الحيوانات بعضها بعضا لكان بعض الحيوان باطلا بلا فائدة وكان يعرض منها ضرر عام وهلاك كلى كما ذكرنا آنفا فاما الآلام والاوجاع والفزع الذى يعرض لها عند الذبح والقتل والموت والامراض، فلم يجعل ذلك البارى (تعالى) تعذيبا لنفوسها ولاعقوبة ساقها لها — كما ظن ذلك أهل التناسخ — بل جعل ذلك حثا لنفوسها

على حفظ أجسادها من الآفات العارضة لهـا الى أجل معـلوم ، واذا لم يكن كذلك لتهاونت النفس بالاجساد وتركتها هـذه الآفات وأسلمتها الى المهالك والتلف وكانت تهلك جميعا قبل مجيء آجالها وفناء أعمارها وقبل تمامها وكمالها.

واذا قيل : ما العلة فى محبة الحيوانات الحياة وكراهيتها الموت ؟ قيل ذلك لعلل شتى وأسباب عدة أحدها أن الحياة تشبه البقاء والموت يشبه الفناء والبقاء محبوب في جبلة الخلائق كلها اذ كان البقاء قرين الوجود والفناء قرين العـدم والعدم والوجود متقابلان ، والله (تعالى) لما كان هو علة الموجودات وهو باق أبداً صارت الموجودات كلها تحب البقاء وتشتاق اليه : فمن أجل هذا قالت الحكماء ان الله (تعالى) هو المعشوق الاول المشتاق اليه سائر الخلائق ، وعلة أخرى لكراهية نفوس الحيوانات الموت وهو مايلحقها من الآلام والاوجاع والفزع عند مفارقة نفوسها أجسادها . وعلة أخرى أن نفوسها لاتدري أن لها وجوداً خلوا من الاجساد . فان قيـل : فلم لاتدري نفوسها بأن لهـا وجودا خلوا من الاجسام ؟ قلنا لانه لايصلح لها أن تعلم هذه المعاني لانها لوعلمت لفارقت أجسادها قبل أن تتم وتكمل ، واذا فارقت أجسادها قبل ذلك بقيت فارغة عطلاء بلافعل ولا عمل ، وليس من الحكمة أن يكون كذلك اذ كانت علتها التى هى خالقها لم تخل من تدبير ليكون فارغا بلا فعل البتة ، بل كل يوم هو في شأن

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم ان النفوس التامة الكاملة اذا فارقت الاجساد تكون مشغولة بتأييد النفوس الناقصة المجسدة لكيما تتم هذه وتكمل تلك وتتخلص هذه من حال النقص وتبلغ تلك الى حال الكمال وترتقي هذه المؤيدة أيضاً الى حالة هي أكمل وأشرف وأعلى « وأن الى ربك المنتهى »

والمثال في ذلك الأب الشفيق والاستاذ الرفيق فى تعليمهما التلامذة والاولاد واخراجهما اياهم من ظلمات الجهالات الى فسحة العلوم وروح المعارف ليتمم التلامذة والاولاد ويكمل الآباء والاستاذون باخراج مافي قوة نفوسهم من

العلوم والمعارف والصنائع والحكم الى الفعل والظهور اقتداء بالله تعالى وتشبهاً به في حكمته اذ هو العلة والسبب والمبدأ في اخراج الموجودات من القوة الى الفعل والظهور ، وكل نفس هي أكثر علوماً وأحكم صنائع وأجود عملا فهي أقرب تشبهاً بربها وأشد تشبهاً ، وهذه هي مرتبة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون « يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » . ولهذا المعنى قالت الحكماء الحكمة هي التشبه بالله بحسب طاقة البشر

معناه أن تكون علومه حقيقية وصناعته محكمة وأعماله صالحة وأخلاقه جميلة وآراؤه صحيحة ومعاملته لطيفة وفيضه على غيره متصلا ، والله سبحانه تعالى كذلك

ثم اعلم أنه قد اختلف الحكماء في ماهية الانسان وماحقيقة معناه اختلافاً كثيراً والبحث في ذلك القيل والقال ولكن يجمعها كلها ثلاث مقالات : وذلك أن منهم من قال : ان الانسان هو هذه الجملة المرئية المبنية بنية مخصوصة من اللحم والدم والعظم وماشا كل ذلك لاشيء آخر سواها ، ومنهم من قال : ان الانسان هو هذه الجملة المجموعة من جسد جسماني ومن روح نفساني أي روحاني مقترني المجموعة ، ومنهم من قال : ان الانسان بالحقيقة هو هذه النفس الناطقة والجسد لها بمنزلة قميص ملبوس أو غلاف مغشا عليه . فهذه ثلاث مقالات في كلام الحكماء في ماهية الانسان . فأما اختلافهم في ماهية النفس فنبينه أيضاً ويجمعها ثلاث مقالات وذلك أن منهم من قال ان النفس هي جسم لطيف غير مرئي ولا محسوس . ومنهم من قال انما هي جوهرة روحانية غير جسم معقولة وغير محسوسة باقية بعد الموت . ومنهم من قال ان النفس عرض يتولد من مزاج البدن وأخلاط الجسد يبطل ويفسد عند الموت اذا بلي الجسد وتلف البدن ولا وجود لها الا مع الجسم البتة وهؤلاء قوم يقال لهم الجسميون لا يعرفون شيئاً سوى الاجسام المحسوسة والأعراض ذو الابعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق ، والاعراض التي تحلها مثال الالوان والطعوم والروائح والاشكال ذوات

الاضلاع من الاقطار والزوايا وليس عندهم علم من الامور الروحانية والجواهر النورانية والصور العقلية والقوى النفسانية السارية في الاجسام المظهرة فيها ومنها افعالها وتأثيراتها حسب

﴿ فصل ﴾

ثم اعلم أن من العلوم الشريفة والمعارف النفيسة معرفة الانسان نفسه لانه قبيح بكل عالم أن يدعي معرفة حقائق الاشياء وهو لا يعرف نفسه ويجهل حقيقة ذاته وهو يتعاطى الحكمة ، لان مثل ذلك كمثل من يطعم غيره وهو جائع أو يكسو غيره وهو عريان ويهدي غيره وهو ضال في الطريق الأنهج ، وقد علم كل عاقل ذاته في هذه الاشياء بأنه ينبغي للانسان أن يبتدى أولا بنفسه ثم بغيره .

ثم اعلم أن الانسان لا يمكنه أن يعرف نفسه على الحقيقة الا أن ينظر ويبحث وذلك من ثلاث جهات أحدها الجسد بمجرده عن النفس ، والثاني النظر في أمر النفس والبحث عن جوهرها بمجردها عن الجسد ، والثالث النظر والبحث عن الجملة المجموعة من النفس والجسد جميعاً . وقد بينا في رسالة تركيب الجسد هذه الابواب الثلاثة بشرح طويل ولكن نذكر طرفا منها هاهنا مما لا بد منه فنقول:

ان الجسد هو جسم مؤلف من لحم وعظم وعروق وعصب وماشا كل ذلك. وهذه كلها أجسام طويلة عريضة عميقة وجملة ذلك تدرك بالحس ولا يشك فيها عاقل .

وأما النفس فهي جوهرة سماوية روحانية حية بذاتها علامة دراكة بالقوة فعالة بالطبع لا تهدأ ولا تقر عن الجولان مادامت موجودة ، وهكذا خلقها ربها يوم خلقها وأوجدها ، والدليل على ماقلنا وصحة ما وصفنا حسب ما بينا من أمر النفس آنفاً وكذلك نبين أيضاً فيما بعد هذا.

وأما الجملة المجموعة من الجسد والنفس بهذا المحسوس المشاهد المخاطب المتكلم السائل المجيب العالم العارف مادام حياً ، فاذا مات بطل منه ظهور هذه الاشياء لان الموت ليس هو شيء سوى مفارقة نفسه جسدها ، وعند ذلك يعدم

منه جميع فضائله الظاهرة من العلوم والصنائع والكلام والحركات والحواس وما شا كلها .

ثم اعلم أن أكثر العقلاء وكثيراً من العلماء ممن يقر بوجود النفس أو يتكلم فى أمرها يظنون ويتوهمون أنها شيء متولد من مزاج الجسد وليس الامر كما ظنوا وتوهموا لان المتولد من الشيء يتكون من جوهر ذلك الشيء والجسم جسم لاشك فيه والنفس ليس بجسم ولاعرض من الاعراض

والدليل على ذلك أنها ليست بجسم ، وهو أن الجسم لا يعقل الا متحركا أو ساكنا فلو كان متحركا من حيث هو جسم لكان يجب ان يكون كل جسم متحركا ولو كان ساكنا لكان يجب أن يكون كل جسم ساكنا وليس يوجد الامر كذلك ، بل قد يوجد بعض الاجسام متحركا دائما وبعضها متحركا تارة وساكنا أخرى مثل الهواء والماء والنار والحيوان والنبات ، فيدلنا بأن شيئا آخر هو الذى يحركها ويسكنها

وليست النفس بجسم ولا بعرض من الاعراض القائمة بالجسم المتولد منه أو فيه ، لان العرض هو شيء لا يقوم بنفسه وهو انقص حالا من الجسم، والمحرك للشيء المسكن له هو اقوى منه واشرف

ودليل آخر ان العرض لا فعل له لأن الفعل عرض من الاعراض قائم بفاعله ولو كان للعرض فعل لكان يجب ان يكون العرض قائما به ، ولا هو يقوم بنفسه فكيف يقوم بغيره

فهذا دليل على ان العرض لا فعل له . وقد بينا ايضا ان الجسم لا فعل له لأن الفاعل بالحقيقة هو الذى يقدر على اخذ الفعل وتركه لان ترك الفعل اسهل من اخذه فلو كان للعرض فعل لكان يقدر على تركه كما يقدر على اخذه ، فمن ظن ان النفس الناطقة الفاعلة الحساسة الدراكة العلامة الصانعة الحكيمة المتكلمة العارفة المجردة من الكائنات : من تركيب الافلاك واقسام البروج والحركات والمولدات المركبات من الحيوان والنبات والمعادن وانواعها وخواصها ومنافعها ومضارها

انما هي عرض او مزاج متولد من اخلاط البدن من غير دليل على ما زعم او حجة بينة دعته الى ما هو عليه ويتوهم ، فهو جاهل بأمر نفسه لم يعرف حقيقة ذاته فكيف يوثق بقوله انه يعرف حقائق الاشياء ويعبر عن علل الموجودات الغائبات عن الحواس وانه يعلم اسباب الكائنات الخفيات التي لا تعلم الا بدليل عقلي وبراهين حكمية ومقدمات ونتائج منطقية او هندسية ؟! وهذا يظن ان نفسه العالمة الناطقة الصانعة الحكيمة جسم اومزاج او عرض من الأعراض لاقوام لها ولا حس ولا حركة ولا شعور « هيهات هيهات لما توعدون » بعيد عن الحق « ونودي به من مكان بعيد » ضل عن طريق الصواب من يظن بنفسه هذه الظنون « وماقدروا الله حق قدره » اذ من جهل نفسه كيف يتيسر له معرفة الله كما قال النبي ﷺ «من عرف نفسه فقد عرف ربه واعرفكم بنفسه اعرفكم بربه »وقال تعالى« بل الانسان على نفسه بصيرا » وقال : « وفي انفسكم افلا تبصرون » وقال : « واشهدهم على انفسهم الست بربكم » « قالوا بلى شهدنا » . وقال:«ما اشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم » . قال اهل المعارف اشار بقوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم » يعني العارفين بأنفسهم لينتبه الجاهل من نوم غفلته . فان قيل : ما الحكمة في اختلاف أنواع النبات وأوراقها وثمارها وفنونها وألوانها وطعومها وروائحها وطباعها المختلفة ؟ قيل لما فيها من كثرة المنافع للحيوانات المختلفة الصور المتغايرة الطباع المفتنة الاخلاق الكثيرة المتصرفات فان قيل : لم جعل في طباع بعض الحيوانات وجبلتها الالفة والانس والمودة ؟ يقال ليدعوها ذلك الى اجتماع المعاون لما فيه من صلاحها وكثرة منافعها . وان قيل : فما الحكمة في كون النفور والوحشة والعداوة في جبلة بعض الحيوانات يقال لكيما يدعو ذلك الى التباعد في الاماكن والانتشار في البلاد مما فيه من صلاح حالها وسلامتها من الآفات ولكيما تتزاحم في الاماكن ويضيق بها التصرف والفسحة ورغدة العيش ، ثم اجتمع الناس في المدن والقرى وتزاحموا لشدة حاجتهم الى معاونة بعضهم بعضاً لأن الانسان لم يقدر أن يعيش وحده الا عيشاً نكداً

فصل

ما العلة في اختلاف لغات الناس وألوانهم وأخلاقهم وصورهم واحد وكلهم أبوهم واحد فنقول : اختلاف أماكن أبدانهم وألوانهم واختلاف تربها وتغيرات أهويتها وطوالع البروج عليها ومسامتات الكواكب وفنون آرائهم مع كثرة العداوة منهم في ذلك لكيما يدعوهم الى استخراج فنون العلم والاجتهاد في تهذيب النفس أو الانتباه من نوم الغفلة والخروج من ظلمات الجهالة والبلوغ الى التمام والكمال والبقاء على أتم الاحوال ما أمكن واستوى

وأيضاً لما حكم على نفوس الحيوانات كلها بالموت : لتنتقل الى حالة هي أتم وأكمل وأفضل

فصل

ثم اعلم أنه ينبغي لمن يريد أن يعرف حقائق الاشياء أن يبحث أولا عن علل الموجودات وأسباب المخلوقات وأن يكون له قلب فارغ من الهموم والغموم والامور الدنياوية ونفس ذكية طاهرة من الاخلاق الردية وصدر سليم من الاعتقادات الفاسدة ، ويكون غير متعصب لمذهب أو على مذهب ، لان العصبية هي الهوى والهوى يعمي عين العقل وينهى عن ادراك الحقائق ويعمي النفس البصيرة عن تصور الاشياء بحقائقها فيصدها ذلك عن الهوى ويعدل عن طريق الصواب

ونحن نريد أن نبحث في هذه الرسالة عن علل الموجودات وأسبابها فنريد أن نبين من ذلك طرفاً حسبما جرت عادة اخواننا وعلى حسب جهدنا وطاقتنا فيما وهب الله لنا من الهداية ولكن نبدأ أولا بتوطئة أصول لابد من ذكرها مقدمات ينتج عنها ما نريد أن نبين من هذه العلل والاسرار فنقول

ان العلماء الراسخين والحكماء الربانيين قالوا ان الله تعالى لما أبدع الموجودات واخترع المخلوقات رتبها مراتب الاعداد المتواليات ونظمها نظاماً واحداً يتلو

بعضها بعضا في الموجودات الى الاعداد المتناسبات ، اذ كان ذلك أحكم وأتقن . كما بينا في رسالة المبادىء العقلية

وأما فعل الباري تعالى حسب ما ذكرنا : وذلك أنه جعل كل جنس من الموجودات على أعداد مخصوصة مطابقة بعضها لبعض إما بالكمية واما بالكيفية ليكون ذلك دليلا للعلماء وبياناً للعقلاء إذا بحثوا عنها واعتبروا واستدلوا بشاهدها الجلي على غائبها الخفي ، فيبين لهم ويعلموا أنها كلها من صنع باريء حكيم فيزدادون بذلك بصيرة ويقيناً والى لقاء الله تعالى اشتياقا ويعبدون ربهم ليلا ونهاراً

ثم اعلم أن من الاشياء الموجودة ماهي على أعداد مخصوصة ، ومنها ما هي فى البروج والافلاك ، ومنها ما هي في الاركان والامهات ، ومنها ما هي في خلقة النبات ، ومنها ما هي في تركيب جثة الحيوانات ، ومنها ما هي في سنن الشرائع من المفروضات ، ومنها ما هي في الخطاب والمحاورات

فمن ذلك أن الله تعالى أنزل القرآن بلغة فصيحة هي أفصح اللغات وجعل هذا الكتاب مهيمناً على كل كتاب أنزله قبله وجعل هذه الشريعة أتم الشرائع وأكملها وحكم فى سنن المفروضات أموراً مثنويات ومثلثات ومربعات ومخمسات ومسدسات ومسبعات ومثمنات ، وما زاد بالغاً ما بلغ ليكون اذا تأمل أولو الالباب وتفكر فيها أولوالابصار واعتبروا فيها وجدوا فى سننها وأحكامها أموراً معدودة مطابقة لامور من الرياضيات والطبيعيات والالهيات ، ويتعلمون ويتيقنون أن هذا الكتاب هو من عند الصانع الحكيم الذي هو صانع المخلوقات وباريء الموجودات ، وأن هذه الشريعة هي التى وضعها وشرحها فيزول الشك العارض عن قلوب هؤلاء المتعاطين الحكمة من تلك الامور المعدودة وهذه الحروف التى فى أوائل السور ان الله تعالى أورد من جملة الحروف المعجمة الثمانية والعشرين حرفاً أربعة عشر حرفا حسب ، ولم يزد عن أربعة عشر وهى : ا ح ر

س ص ط ع ق ك ل م ن لا ي لجعل منها فى بعض السور حرفا حرفا وفى بعضها حرفين وثلاثة وأربعة وخمسة ولم يزد على ذلك

ثم اعلم أن العلماء المفسرين تناظروا وشرعوا فى القيل والقال فى معانى هذه الحروف التى فى أوائل سور القرآن وما حقيقة تفسيرها والغرض منها ماهو وهى عدة سور فى القرآن أولها «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه» «الم الله لا إله إلا هو» «المص» «الر تلك آيات الكتاب الحكيم» «الر كتاب أحكمت آياته» «الر تلك آيات الكتاب المبين» «المر تلك آيات الكتاب» «الر كتاب أنزلناه» «الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» «كهيعص» «طه ما أنزلنا» «طسم» «طس» «طسم» «الم أحسب الناس أن يتركوا» «الم غلبت الروم» «الم تلك آيات الكتاب الحكيم» الم تنزيل الكتاب من الله» «يس والقرآن الحكيم» «ص والقرآن ذي الذكر» «حم تنزيل الكتاب» «حم تنزيل من الرحمن الرحيم» «حمعسق» «حم والكتاب المبين» «حم والكتاب المبين» «حم تنزيل الكتاب» «حم تنزيل الكتاب» «ق و القرآن المجيد» «ن والقلم وما يسطرون» فذلك تسع وعشرون سورة . منها ما جاء فى أولها حرف واحد مثل ق ص ن . ومنها ماجاء في أولها حرفان مثل طه يس حم . ومنها ماجاء فى أولها ثلاثة أحرف مثل الم طسم الم الر . ومنها ما جاء فى أولها أربعة أحرف المر المص . ومنها ماجاء فى أولها خمسة أحرف مثل كهيعص حمعسق ولا يزيد على خمسة أحرف

فمن العلماء من قالوا إن هذه الحروف قسم أقسم الله تعالى بها ، ومنهم من قال إن كل حرف منها كلمة قائمة بنفسها مثل ألف الله ، لام جبرائيل ، ميم محمد عليه السلام. ومنهم من قال إنها حروف حساب الجمل كما جاء في الخبر أن علماء التوراة ورؤساء اليهود اجتمعوا في المدينة وزعموا أنهم يعلمون حد هذه الأمة كم هو بحساب الجمل ،ولأن لها قصة معروفة مشهورة تركنا ذكرها .ومنهم من قال إن هذه الحروف سر القرآن ولا يعلم تأويل ذلك الا الله . ومنهم من قال ان الراسخين في العلم

أيضاً يعلمون تفسير ذلك لما علمهم الله تعالى كما ذكر بقوله « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » « ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » . ومنهم من قال إن معرفتها أسراراً لا يصلح أن يعلمها كل أحد إلا الخواص من عباد الله الصالحين

ثم اعلم أن كل هذه الاقاويل مقنع لنفوس أقوام دون أقوام وذلك أن في الناس أقواماً عقلاء لا يرضون بالتقليد بل يريدون البراهين والكشف عن الحقائق وطلب العلة ، ولم ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ ولا يغنيهم من جوع ما يتأولون من التفسير في هذا المعنى . بل يطلبون وراء ذلك ما هو أحسن تأويلا وأبين تفسيراً . ونحن نذكر الآن من ذلك طرفاً ونشير اليها إشارة حسبما تحتمل عقول هؤلاء القوم من أهوائها

﴿ فصل ﴾

فنقول اعلم أن من يريد أن يعلم لم ترد من جملة الثمانية والعشرين حرفا إلا أربعة عشر حرفا ولم يزد على خمسة أحرف منها ، وما المراد والحكمة في ذلك ، فينبغي له أن يبحث ويعتبر جميع المحسوسات المفروضات في سنن الشريعة مثل الصلوات الخمس والزكوات الخمس ، وأن شرائط الايمان خمس . إذ بنى الاسلام على خمس والفضلاء من أهل بيت النبوة خمسة ، وواضعو الشريعة خمسة ومراقى منبر النبي خمسة ، وما شا كل هذه المخمسات في أمور الدين والشريعة وأحكامها وما يحققها أيضا من المعدودات المخمسات مثل الكواكب الخمسة السيارة التي لها رجوع واستقامة ، ومثل الحواس الخمس في الحيوانات التامة الخلقة ، ومثل المخمسات فى خلقة النبات وما فى أسماء الايام الخمسة من جملة السبعة والخمسة المسترقة من جملة أيام السنة ، وما شا كل هذه المخمسات فى الموجودات المطابقة بعضها بعضاً . ويعتبر أيضاً خاصية الخمس من العدد لأنها عدد كرى ، ويقال إنها عدد دوائر وأنها تحفظ نفسها وما يتولد منها ، كما بينا فى رسالة الأرثماطيقي والاشكال الخمسة الفاضلة المذكورة فى كتاب أقليدس والنسبة الخمسة الفاضلة

فى الموسيقى وما شا كل هذه الامور من المحسات . فاذا اعتبر اللبيب العاقل هذه الاشياء التى ذكرنا وتأملها فعسى الله أن يفتح قلبه ويشرح صدره ويوفقه لعلمه علل الموجودات وأسباب المخلوقات وما الحكمة في كونها على ما هي عليه الآن .

وهكذا ينبغى لمن يريد أن يعرف سر هذه الحروف التى هي في أوائل السور لم كان منها أربعة عشر من جملة ثمانية وعشرين حرفا ، أن يعتبر الموجودات التى عددها ثمانية وعشرون فانه يجدها تنقسم قسمين حيث ماوجد : فمن ذلك ثمانية وعشرون عدد مفاصل اليدين للانسان فانها في اليد اليمنى أربعة عشر وأربعة عشر فى اليد اليسرى ، وأن عددها مطابق لعدد ثمانية وعشرين خرزة هي في عمود ظهر الانسان ، منها أربعة عشر فى أسفل الصلب وأربعة عشر في أعلاه . وهكذا توجد خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمل والابل والحمر والسباع .

وبالجملة كل حيوان ترضع وتلد منها أربعة عشر في مؤخر الصلب وأربعة عشر فى مقدم البدن ، وهكذا وجد عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها في الطيران فانها أربعة عشر ظاهرة في كل جناح ، وهكذا توجد عدد الخرزات التى فى أذناب الحيوانات الطويلة الاذناب كالبقرة والسباع وكل ماله ذنب طويل ، وهكذا يوجد في عموم صلب الحيوانات الطويلة الخلقة كالسمك والحيات وبعض الحشرات ، وهكذا يوجد عدد الحروف التى في لغة العرب التى هى أتم اللغات وأفصحها ثمانية وعشرون حرفا منها أربعة عشر حرفا تدغم فيها لام التعريف وهي :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
التاء	والثاء	والدال	والذال	والراء	والزاى	والسين
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
والشين	والصاد	والضاد	والطاء	والظاء	واللام	والنون

وأربعة عشر لا تدغم فيها وهي الالف والباء والجيم والحاء والخاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف والميم والهاء والواو والياء . وهكذا يوجد حكم الحروف التى تخط بالقلم قسمين : أربعة عشر منها معلم وهى الباء والتاء والثاء والجيم والخاء والذال والزاي والشين والضاد والظاء والغين والفاء والقاف والنون والياء ، وأربعة عشر غير معلم وهي الالف والحاء والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين والكاف والميم والواو والهاء واللام : وهكذا حكم الحكيم الواضع للخط العربي فانه اقتفى في وضعه الخط العربى حكمة البارى (تعالى) فانه كان حكيما فيلسوفا ، وقد قيل : إن الحكمة هي التشبه بالاله بحسب طاقة البشر ، ومعنى هذه الكلمة أن يكون الانسان حكيما في مصنوعاته محققاً فى معلوماته خيراً في أفعاله . ومن التى عددها ثمانية وعشرون : هي منازل القمر في الفلك فان عددها ثمانية وعشرون منها في البروج الشمالية أربعة عشر ، وفي البروج الجنوبية أربعة عشر . فقد علم مما ذكرنا وصدق بما قلنا أن الموجودات التى عددها ثمانية وعشرون تنقسم قسمين أي موضع وجدت : كل أربعة عشر منها لها حكم ليست للأربعة عشر الاخرى ، فلهذه العلة أورد من جملة الثمانية والعشرين حرفاً حروف الجمل أربعة عشر حرفا ولم يورد أربعة عشر الاخري ، لان لهذه حكما ليس لذلك وهي السر المكتوم الذى لا يصلح أن يعلمه كل أحد إلا الخواص من عباد الله المخلصين .

وإذ قد ذكرنا طرفا من الاشارة الى هذه الحروف ودللنا على أنها سر القرآن ولا يجوز الافصاح عنها اذ لم يأذن لنا الحكماء والانبياء صلوات الله عليهم وفيما ذكرناه كفاية لمن كان له قلب زكي ونفس زكية وأخلاق طاهرة . فلنذكر الآن طرفاً من فضيلة ثمانية وعشرين على سائر الاعداد فنقول

اعلم أنه ما من عدد من الخليقة إلا وله فضيلة ليست لشيء آخر غيره وقد ذكرنا طرفاً من فضيلة الاعداد في رسالة الارثماطيقي : فمن فضيلة الثمانية والعشرين أنه من الاعداد التامة ، والاعداد التامة هي أفضل من الاعداد الناقصة والزائدة ،

أو أنها قليلة الوجود : وذلك أنه يوجد في كل مرتبة من مراتب الاعداد واحدة لا غير كالستة في الآحاد وثمانية وعشرين في العشرات ، وأربعمائة وستة وتسعين في المئات وثمانية آلاف ومائة وعشرين في الألوف فنقول :

انه أيضاً لما كان الاثنان أول عدد الزوج والثلاثة أول عدد الفرد ، والاربعة أول العدد المجذور يجمع بين ذلك ، وكانت السبعة التي هي عدد كامل وعدد الكواكب السيارة مطابقها ، ثم ضرب الثلاثة في الاربعة وكان اثنا عشر الذي هو أول عدد زائد ، وجعل برج الفلك اثناعشر مطابقا له ، ثم ضربت السبعة في أربعة وكان ثمانية وعشرين التي هي عدد تام وجعل منازل القمر مطابقا له وجعل سائر الموجودات الاثنا عشرية مطابقة لعددها مثل الثقب للانسان التي هي اثنى عشر ، والاعضاء الاثنى عشر وشهور السنين الاثنى عشر عددها .

وعلى هذا القياس يوجد أشياء كثيرة اثنى عشريات وسبعيات وستيات وخمسيات وأربعيات وثلاثيات ومثنويات مطابقة بعضها لبعض ، ليدل ذلك على أنها كلها من صنع صانع كريم ، كما قال تعالى « ان في ذلك لعبرة لأولى الابصار » وفقك الله وايانا وجميع اخواننا الى طريق السداد وهداك وإيانا سبيل الرشاد إنه رؤوف بالعباد

﴿ تمت رسالة العلل والمعلولات ويليها رسالة في الحدود والرسوم ﴾

الرسالة العاشرة

من النفسانيات العقليات

فى الحدود والرسوم

هى الرسالة الواحدة والاربعون من رسائل اخوان الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون

اعلم أيها الأخ انا قد فرغنا من بيان العلل والمعلولات وبينا فيها أقاويل جميع الحكماء، حسب ما جرت به عادة اخواننا ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة بيان الحدود والرسوم فنقول :

إن الأنبياء عليهم السلام هم سفراء الله تعالى بينه وبين خلقه ، والعلماء هم ورثة الانبياء والحكماء هم أفاضل العلماء . وقد قيل إن الحكيم هو الذي يوجد فيه سبع خصال محمودة ، احداها أن تكون أفعاله محكمة وصنائعه متقنة وأقاويله صادقة وأخلاقه جميلة وآراؤه صحيحة وأعماله زكية وعلومه حقيقية

واعلم أن معرفة حقيقه الاشياء هى معرفة حدودها ورسومها وذلك أن الاشياء كلها نوعان : مركبات ووسائط

فأما المركبات فتعرف حقائقها اذا عرفت الاشياء التى هي مركبة منها ، والبسائط تعرف حقائقها اذا عرفت الصفات التى تخصها

مثال ذلك اذا قيل لك ما حقيقة الطين ؟ فيقال : ماء وتراب مختلطان ، والسكنجبين ؟ فيقال ؟ خل وعسل ممزوجان ، والسرير ؟ خشب وصورة مركبان،

والكلام ؛ ألفاظ ومعاني مؤلفات ، واللحن ؛ نغمات حادة وغليظة متحدان ، والحيوان ؛ نفس وجسد مقرونان

وعلى هذا القياس تجيب اذا سئلت عن هذه الاشياء المركبة فلا بد من ذكر تلك الأشياء التي هي مركبة ومؤلفة منها . فأما الاشياء البسيطة فتعرف حقائقها إذا عرفت الصفات التي تخصها

مثال ذلك اذا قيل لك ما الهيولى ؟ فيقال جوهر بسيط قابل للصورة ، فان قيل ما الصورة ؟ فيقال ماهية الشيء وله الاسم والفعل والقيامة ، فان قيل فما الجوهر ؟ فيقال هو قائم بنفسه القابل للصفات ، فان قيل فما الصفة ؟ فيقال عرض حال في الجوهر لا كالجزء منه ، فان قيل ما الشيء ؟ فيقال هو المعنى الذي يعلم ويخبر عنه ، فان قيل ما الموجود ؟ قيل هو الذي وجده أحد الحواس أو تصوره العقل أو دل عليه الدليل ، فان قيل ما المعدوم ؟ فيقال ما قابل هذه الاشياء المذكورة في الوجود ، فان قيل ما الوجود ؟ فيقال إيس ، فان قيل ما العدم ؟ فيقال ليس فان قيل ما القديم ؟ فيقال مالم يكن ليس ، فان قيل ما المحدث ؟ فيقال ما كونه غيره فأن قيل ما الاحداث ؟ فيقال تكوين المكون ، فان قيل ما العلة ؟ فيقال هي سبب لكون شيء آخر إيجاداً ، فان قيل ما المعلول ؟ فيقال هو الذي لوجوده سبب من الاسباب ، فان قيل ما العالم ؟ فيقال هو المتصور للشيء على حقيقته ، فان قيل ما العلم ، فيقال صورة المعلوم في نفس العالم ، فان قيل ما الحي ، فيقال المتحرك بذاته ، فان قيل ما القادر ؟ فيقال هو الذى لا يتعذر عليه الفعل متى شاء ، فان قيل ما الفعل ؟ فيقال أثر من مؤثر ، فان قيل ما معنى البارى (تعالى) فيقال علة كل شيء وسبب كل موجود ومبدع المبدعات ومخترع الكائنات ومتقنها ومتممها ومكملها ومبلغها الى أقصي مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها بحسب ما يتأتى في كل واحد منها ، فان قيل ما القدرة ؟ فيقال امكان ايجاد الفعل ، فان قيل ما الصنعة ؟ فيقال هو اخراج الصانع من فكره ووضعه في الهيولى ، فان قيل ما المصنوع ؟ فيقال مركب من هيولى وصورة ، فان قيل ما العقل الفعال ؟ فيقال هو أول مبدع

أبدعه الله (تعالى) وهو جوهر بسيط نوراني فيه صورة كل شيء ، فان قيل ما النفس؟ فيقال جوهرة بسيطة روحانية حية علامة فعالة وهي صورة من صور العقل الفعال، فان قيل ما الارادة ؟ فيقال إشارة بالوهم الى تكوين أمر ممكن كونه وكون خلافه، فان قيل ما العقل الانساني ؟ فيقال التمييز الذى يخص كل واحد من أشخاصه دون سائر الحيوانات ، فان قيل ما الجنس ؟ فيقال صفة جماعة متفقة بالصورة يعمها معنى واحد ، فان قيل ما الشخص؟ فيقال كل جملة يشار اليها دون غيرها مميزة من غيرها بالافعال والصور ، فان قيل ما الخاصة ؟ فيقال صفة مخصوصة لما دون غيره بطيئة الزوال ، فان قيل ما النور؟ فيقال جوهر مرئي يضيء من ذاته ويرى به غيره، فان قيل ما الظلمة ؟ فيقال عدم النور عن الذات القابلة للنور ، فان قيل ما النهار؟ فيقال هو ضوء الشمس ، فان قيل ما الليل ؟ فيقال هو ظل الارض، فان قيل ما الحرارة ؟ فيقال غليان أجزاء الهيولى ، فان قيل ما البرودة ؟ فيقال جمود أجزاء الهيولى ، فان قيل ما الرطوبة ؟ فيقال سيلان أجزاء الهيولى ، فان قيل ما اليبوسة ؟ فيقال تماسكها ، فان قيل ما اللون ؟ فيقال هو بروق شعاعات الأجسام ، فان قيل ما الرائحة ؟ فيقال بخارات ذوات كيفيات تنحلل من الاجسام المركبة، فان قيل ما الصوت؟ فيقال قرع في الهواء من تصادم الاجسام ، فان قيل كم الحركات ؟ فيقال ستة أنواع : هى الكون والفساد والزيادة والنقصان والتغير والنقلة ، فان قيل كيف حالتهن في الافعال ؟ فيقال ان الكون هو قبول الهيولى والصورة، وخروجه من حيز العدم والفساد هو خلق الصورة وخلعها من الهيولى ، والزيادة تباعد نهايات الشيء ، والنقصان تقاربها ، والتغير تبدل الصفات على الموصوف ، والنقلة خروج من مكان الى مكان . فان قيل ما المكان ؟ فيقال انه كل موضع تمكن فيه المتمكن وهو نهايات الجسم ، فان قيل ما الزمان ؟ فيقال عدد حركات الفلك وتكرار الليل والنهار ، فان قيل ما الفلك ؟ فيقال انه جسم شفاف كري محيط بالعالم ،فان قيل ما العالم فيقال جميع الموجودات المتكونات التي يحويها الفلك ، فان قيل ما الكواكب ؟ فيقال أجسام منيرة مستديرة كالجامدة من دوام ثباتها في

موضع معروف بها ، فان قيل ما الجسم فيقال ماله طول وعرض وعمق ، فان قيل ما الجسم الشفاف يقال كل جسم يرى ما وراءه فان قيل ما النار ؟ فيقال نير حار يبدد الاشياء ويفرق أجزاءها ويردها الى ذاتها البسيطة ، فان قيل ما الهواء ؟ فيقال جسم لطيف خفيف سيال شفاف سريع الحركة الى الجهات الست وهي فوق وتحت وغرب وشرق وجنوب وشمال ، فان قيل ما الماء ؟ فيقال جسم سيال قد أحاط حول الارض ، فان قيل ما الارض ؟ فيقال جسم غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام وتواقف في مركز العالم ، فان قيل ما الجهات . فيقال ستة أنواع : شرق وغرب وجنوب شمال وفوق وتحت ، وذلك أن الشرق حيث تطلع الشمس والغرب حيث تغيب والشمال حيث مدار الجدي والجنوب حيث مدار سهيل والفوق هو مما يلي المحيط والاسفل هو مما يلي الارض فان قيل ما الطين . يقال ماء وتراب . فان قيل ما الزبد يقال ماء وهواء . فان قيل ما البخار . يقال ماء ونار . فان قيل ما الدخان . يقال نار وتراب . فان قيل ما البرق . يقال نار وهواء . فان قيل ما المعادن يقال ما الغالب عليه الترابية . فان قيل ما النبات . يقال ما الغالب عليه المائية . فان قيل ما الحيوان يقال ما الغالب عليه الهوائية . فان قيل ما الانسان . يقال ما الغالب عليه النارية . فان قيل ما الملائكة يقال ما الغالب عليها طبيعة الفلك . فان قيل ما الجن فيقال ما الغالب عليها النارية والهوائية . فان قيل ما الشياطين . يقال ما الغالب عليها الترابية والنارية . فان قيل ما الرياح يقال هي تموج الهواء وسيلانه الى احدى الجهات فان قيل ما الطبيعة الفاعلة يقال هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية سارية في الاركان فان قيل ما الاثير ، يقال الهواء الحار الذى يلي فلك القمر . فان قيل ما النسيم يقال هو الهواء المعتدل الذي يلي وجه الارض .

فان قيل ما الزمهرير ؟ يقال هو الهواء الذى هو فوق كرة النسيم ودون الاثير وهو بارد مفرط البرودة ، فان قيل ما الشعاع ؟ يقال نور الشمس والقمر والكواكب السيارة فى الهواء نحو مركز الارض ، فان قيل ما انعكاس الشعاع ؟ يقال هو رجوع تلك الانوار من سطح الارض والبحار والانهار والجبال في الهواء ، فان قيل

ما البخار؟ يقال هو أجزاء مائية رطبة ترتفع في الهواء مع تلك الشعاعات الراجعة من سطوح المياه، فان قيل ما الدخان يقال هو أجزاء أرضية لطيفة ترتفع في الهواء مع الحرارة، فان قيل ما الغيم والسحاب؟ يقال الاجزاء المائية والترابية اذا كثرت في الهواء وتراكمت، والغيم منها هو الرقيق والسحاب هو المتراكم،

فان قيل ما المطر؟ يقال تلك الاجزاء المائية اذا التأم بعضها مع بعض وبردت وثقلت ورجعت نحو الارض، فان قيل ما الرياح؟ يقال تلك الاجزاء الارضية اذا بردت ورجعت نحو مركزها، فان قيل ما البرق؟ يقال هو النار تنقدح من احتكاك تلك الاجزاء الدخانية في جوف السحاب، فان قيل ما الرعد يقال هو الصوت الذي يدور في جوف السحاب ويطلب الخروج، فان قيل ما الصاعقة؟ يقال هي صوت يحدث من خروج تلك الرياح دفعة واحدة مع تلك البروق، فان قيل ما الصوت؟ يقال هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الاجسام بعضها بعضا

فان قيل ما الضباب؟ يقال هو البخار الرطب يثور من وجه الارض بعقب الامطار، فان قيل ما الهالة؟ يقال دائرة تحدث فوق سطح الغيم من انعكاس شعاع الشمس والقمر والكواكب، فان قيل ما قوس قزح؟ يقال هو نصف محيط تلك الدائرة اذا حدثت في كرة النسيم منصبة، فان قيل كم عدد الألوان المتناهية من ذلك باصباغها؟ يقال أربعة: الحمرة في اعلاها والصفرة دونها والخضرة دون الاصفرار والزرقة دون الخضرة.

ونحن قد ذكرنا طرفاً في كيفية حدوث هذه الاشياء في رسالة الآثار العلوية بشرحها. فان قيل ما الثلوج؟ يقال قطر صغار تجمد في خلل الغيم تنزل برفق فان قيل ما البرد؟ يقال قطر تجمد في الهواء بعد خروجها من سلك السحاب، فان قيل ما الغيم؟ يقال ما كان بسيطاً رقيقاً يقال له الغيم وما كان متراكما بعضه فوق بعض كأنه جبال من قطن يقال له السحاب، فان قيل ما السيول؟ يقال مياه أودية تجري من كثرة الامطار، فان قيل ما مدود الانهار؟ يقال من ماء العيون الذي ينزل من أصول الجبال فينصب ويجري في بطون الاودية — زيادتها من كثرة

السيول ، فان قيل من أي موضع تجري الانهار كلها ؟ يقال تبتدىء من عيون في رؤوس الجبال أو أسافلها وتلال في البراري وتمر بجريانها نحو الآجام والغدران والبطائح ، فان قيل ما الزلازل ؟ يقال هي حركة بعض بقاع الارض من رياح محتبسة في جوف الارض ، فان قيل ما الخسوف ؟ يقال هي سقوط سطح بقاع الارض على أهوية تحتها اذا انشقت وخرجت منها تلك الرياح المحتبسة ، فان قيل ما الجبال ؟ يقال أوتاد الارض ومسنيات الرياح والبحار . فان قيل ما الجزائر . يقال بقاع من الارض في وسط البحار . فان قيل ما البراري . يقال هي بقاع من الارض ليس فيها نبات ولا بناء ، فان قيل ما الآجام والبطائح ؟ يقال بقاع فيها مياه ونبات ، فان قيل ما الغدران ؟ يقال مواضع تجتمع فيها مياه الأمطار ، فان قيل ما الأرض ؟ يقال جسم كري الشكل واقف في الهواء باذن الله (تعالى) بجميع ما عليها من الجبال والبحار ، فان قيل ما الهواء ؟ يقال ما هو محيط بالأرض من جميع الجهات ، فان قيل ما الفلك ؟ يقال هو محيط بالهواء مثل ذلك ، فان قيل ما مركز الأرض ؟ يقال نقطة في وسط عمقها ومن ذلك النقطة الى ظاهر سطحها ثلاثة ونصف من اثنين وعشرين ــ المحيط ، فان قيل ما البحار ؟ يقال هي مستنقعات على وجه الارض حاصرة للمياه المجتمعة فيها ، فان قيل ما زيادة البحر ؟ فيقال هي انصباب مياه الانهار والاودية فيها ، فان قيل ما العلة في مد بحر فارس وجزره في اليوم والليلة يقال علة كون المد عند طلوع القمر فانه يؤثر في غليان أجزاء المياه في قعره وثوران انتفاخها ورجوع تلك الانهار المنصبة الى خلف فيظهر المد فعله كون الجزر هي عند مغيب القمر ورجوع تلك الأجزاء الى قرارها ويؤثر بازالة الغليان وهو الفوران والانتفاخ السكون فيظهر الجزر فان قيل ما العلة في أن مياه البحار كلها مالحة مرة غليظة ومياه الامطار والانهار وأكثر الآبار عذبة لطيفة وقد ذكرنا طرفا من علك وأسبابها في رسالة لنا قد تقدم ذكرها ، فان قيل ما الطبائع الاربع يقال هي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة ، فان قيل ما الاركان الاربعة يقال هي النار والهواء والماء والارض ، فان قيل ما الاخلاط الاربعة

يقال هي الصفراء (١) والسوداء والدم والبلغم ، فان قيل ما المولدات الكائنات يقال هي المعادن والنبات والحيوان ، فان قيل ما المعادن يقال ما يكون في عمق الارض من الجواهر وغيرها مما يجرى مجرى الموات ، فان قيل ما النبات يقال ماهو ظاهر ويظهر على وجه الارض من نبت الاشجار وما ينجم ، فان قيل ما الحيوان يقال كل جسم متحرك حساس مؤلف من نفس حيوانية وبدن موات وتكوينها على ضربين

فمنها ما يتكون ويتولد في الرحم ، ومنها ما تخرجه البيض ومنها ما يتولدمن أشياء ومنها ما يجتمع من الطرفين يتوالد ويتولد ، فان قيل ما الارادة يقال هي اشارة بالوهم الى تكون شيء ما يمكن كون ذلك ويمكن الكون في غير ، فان قيل ما القدرة يقال هي امكان شيء من الافعال اختياراً ، فان قيل ما الاختيار يقال هو قبول أحد الامرين بالوهم من ذوات الباطن وذوات الظاهر بالحس ، فان قيل ما الجهل يقال تصور الشيء بغير صورته ، فان قيل ما الاعتقاد يقال هوعقد الاحتمال على تحقيق شيء ، فان قيل ما الوهم يقال هو قوة من قوى النفس الحيوانية متخيلة بها الاشياء ، فان قيل ما الايمان ، يقال هو التصديق مما يخبر به المخبر ، فان قيل ما الاسلام يقال هو التسليم بلا اعتراض ، فان قيل ما الدين يقال هو الطاعة من جماعة لرئيس ينتظر منه نيل الجزاء ، فان قيل ما الكفر يقال هو الغطاء ، فان قيل ما الشرك يقال هو اثبات ربوبية اثنين ، فان قيل ما الجحود يقال هو انكار الحق ، فان قيل ما المعصية يقال هي الخروج عن الطاعة ، فان قيل ما الطاعة يقال هي الانقياد لأمر الآمر ونهي الناهي ، فان قيل ما المعاد يقال هو رجوع النفوس الجزئية إلى النفس الكلية ، فان قيل ما الثواب يقال هو ما تجد كل نفس من الراحة واللذة والسرور والفرح بعد مفارقتها للجسد ، فان قيل

(١) الصفراء أجزاء لطيفة تحركت من طبخ الطبيعة للكيموس والسوداء هي أجزاء غليظة محترقة احترقت من طبخ الطبيعة للكيموس والدم أجزاء معتدلة بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والغلظة واللطافة والبلغم أجزاء غليظة فجة لم تنضج من طبخ الطبيعة للكيموس .

ما العقاب يقال هو ما ينالها من الخوف والحزن والآلام بعد المفارقة للأجسام وكل نفس بحسب ما اكتسبت تنال من الخير إن كان خيراً أو من الشر إن كان شراً فان قيل ما المعروف يقال هو فعل ما جرت به العادة ولم تنه عنه الشريعة والسنة ، فان قيل ما المنكر يقال فعل مالم تجر به العادة لا في السنة ولا في الشريعة، فان قيل ما أجرة الاجير يقال هي جزاء لما يستحق كل عامل بما يعمله

فصل

الشكل هو صورة جسمانية واللون صورة روحانية وهما جميعاً موجودان في الاشياء كلها اذا تأملها المتأمل فيكونان في جنس الثمار يعني في شكل الثمرة موجود لنضجها واستحالة الرطوبة اللطيفة الرقيقة الى ما قد بدت لها إما من ذوات الرطوبة السيالة وذوات الرطوبة المكتثرة فتقدم السيالة لانحفاظ كالآلة تقوم مقام لحاء الشجر لحفظ رطوبتها وتمنع أن يلحقها الفساد والذوات الدهانة في ترتيبها أن نفس الثمرة تقبلها وتحفظها لئلا يلحقها الفساد ، و « ذلك تقدير العزيز العليم » ليطبخ الحرارة الغريزية الكائنة في جميع الثمار وبلاغاً لها فهي لتصير من لا هيئة غير نافعة الى هيئة نافعة ، لأن غرض الطبيعة انضاج كل شيء تطبخه بالحرارة الغريزية لرطوبات الهيولى على ما هي مرتبة ترتيب الاله للمنافع التي من أجلها صار كذلك

فاذا لم تقدر على ذلك لعرض يعرض لذلك إما ما لكون الرطوبات غالبة على الشيء فتتولد فيه العفونة فيكون دليلا لفساد ، وإما لكون الرطوبات في الشيء ناقصة فيصير ما يتولد فيه اليبوسة والخشن فيكون من ذلك الفساد وبذور النبات عند ظهورها وبذور الزرع والشجر كلها حارة رطبة لأن الحرارة في ذلك أكثر من الرطوبة والرطوبة التي فيها مانعة للحرارة ، فلذلك يحدث الطراوة في بدئها .

ألا ترى الى فعل الانفحة التي تجمد اللبن الحليب بفضل حرارته واتباع اللبن

لها القبول منها لأن فى الحرارة قوى جاذبة تجذب الرطوبات اليها لتتغذى بها وتعيش مادامت المادة من ذلك باقية

فاذا ازدادت البرودة والرطوبة عليها اختفت الحرارة في باطن الاجسام فأحرقتها لأن الحرارة هي الفاعلة والرطوبة هي الهيولى القابلة للصورة ، والحرارة أيضا بتمدد الحركة الى فوق تكون في مخرجها نحو اليمين والقدام والى فوق من ناحية القلب لان القلب أفضل أجزاء البدن وليس بأفضل من البدن ، وعروق الشجرة أفضل أجزائها وليس أفضل منها ، فالصغار بكثرتها تقاوم الكبار لقلتها ومن أجل أن المحرك الاول واحد صار لكل كائن فعله في مثله مماثلا للأول الواحد ، وكل مبديء واحد أول ما ينبعث من القلب في بدن الحيوان فانه يبدو منه عرقان اثنان واحد لأعلى البدن والآخر لاسفله

ومن بدن النبات يبدو عرقان أحدهما ينزل الى أسفل ويتناول المادة من الارض والماء بحسب ما يكون سبب حياته ، والآخر يرقبه الى فوق ليتغذى به فتكون منه تربية البدن والورق والثمر

فصل

ثم اعلم أن العدد هو أحد الرياضيات الحكيمة ، وذلك ان الوحدة الموجودة في الواحد الموهوم هي أصل العدد ومنشؤه وهو لاجزء له والعدد هو كثرة الآحاد المجتمعة وهو صورة تطبع في نفس العاد من تكرار الوحدة

والمعدودات هى الاشياء التى تعد ، والحساب هو جمع العدد وتفريقه ، والمحسوبات هى الاشياء التى عرفت مقاديرها

فالعدد منه أزواج ومنه أفراد ، والزوج هو كل عدد له نصف صحيح ، والفرد هو كل عدد يزيد على الزوج بواحد . والعدد منه صحيح ومنه كسور فالعدد الصحيح هو كلما يشار اليه باحدى عشرة لفظة أصلية وهى اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة مائة ألف، وما تركب منها وهي هذه :

عشرون ثلاثون أربعون خمسون ستون سبعون ثمانون تسعون مائة مائتان ثلاثمائة أربعمائة خمسمائة ستمائة سبعمائة ثمانمائة تسعمائة ألف ألفان ثلاثة آلاف أربعة آلاف خمسة آلاف ستة آلاف سبعة آلاف ثمانية آلاف تسعة آلاف

وعلى ذلك تكرار اللفظ بالغا ما بلغ ، والعدد المكسور هو كلما يشار اليه اليه بتسعة الفاظ مشتقة من نفسه وهي هذه : النصف والثلث والربع والخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر ، أو ما تركب منها مثل : نصف وثلث وربع ربع وخمس خمس وسبع سبع وماشا كلها من الالفاظ المركبة من هذه التسعة . والعدد الذي مبدؤه من واحد في جميع أموره ومنتهاه الى أربعة وهذه صورة ذلك ١ ٢ ٣ ٤ وهذه الاربعة ثبات أصله وما يتولد منه في كيفية فرعه ثم الباقي مركب منها كما بينا في رسالة الارثماطيقي ، وللعدد مراتب أربع : مراتب آحاد ومراتب عشرات ومراتب مئات ومراتب الألوف ، وله أيضاً نظام وترتيب ذو فنون تجدها عند التصرف فيها .

فمنها نظم طبيعي مثل ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠

ومنها نظم الازواج على الولاء مثل هذه ٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ١٢ ١٤ ١٦ ١٨ ٢٠

ومنها نظم الافراد على الولاء مثل هذه ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١

ومنها نظم ذوج الفرد مثل هذه ٦ ١٥ ١٤ ١٨

ومنها نظم ذوج الزوج والفرد مثل هذه ١٢ ٢٥ ٢٨

ومنها نظم زوج الزوج مثل هذه ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢

ومنها نظم الأفراد الأول الأول مثل هذه ٣ ٥ ٧ ٩

ومنها المجذورات مثل هذه ٤ ٩ ١٦ ٢٥

ومنها نظم المكعبات مثل هذه ٦ ٢ ٢ ٤ ٦

ومنها نظم المربعات غير المجذورات مثل هذه ٦ ١٥ ١٤ ١٨ ٢٥ ٦٢

ولكل نوع من هذه الكيفية نشوء وكمية أنواع ، ولتلك الانواع خواص قد ذكرنا طرفا منها في رسالة العدد . والنسبة هي قدر أحد العددين عند الآخر ، والنسبة المتصلة هي التي تكون قدر الأول الى الثاني كقدر الثاني الى الثالث ،

والمنفصلة هي التي تكون قدر الأول الى الثاني كقدر الثالث الى الرابع ، والضرب هو تضعيف أحد العددين بقدر ما في الاول من الآحاد ، والقسمة عكس الضرب ، والجذر هو العدد المضروب فى نفسه والمجذور هو المجتمع من ذلك ، والمكعب هو المجتمع من ضرب المجذور فى الجذر .

ثم اعلم أن الهندسة أصل الرياضات الحكمية وعلم الهندسة هو معرفة الابعاد والمقادير : فالأبعاد ثلاثة أنواع الطول والعرض والعمق ، والمقادير ثلاثة أنواع خطوط وسطوح وأجسام ، فالخط هو مقدار ذو بعد واحد ، والسطح هو مقدار ذو بعدين ، والجسم ذو ثلاثة أبعاد ، والخطوط ثلاثة أنواع : مستقيم ومقوس ومنحنى وهو المركب منهما ، والسطوح ثلاثة أنواع : البسيط والمقعر والمقبب ، والأجسام كثيرة الأنواع فمنها من كثرة السطوح ومنها من جهة كثرة الأشكال ومنها من جهة الجميع .

فأما التي اختلافها من جهة كثرة السطوح فنذكر منها ثمانية أنواع : أولها الكرة وهي جسم يحيط به سطح واحد ، ونصف الكرة يحيط به سطحان ، وربع الكرة يحيط به ثلاثة سطوح ، والشكل الناري يحيط به أربعة سطوح ، والشكل الأرضى وهو المكعب يحيط به ستة سطوح ، والشكل الهوائى يحيط به ثمانية سطوح ، والشكل المائي يحيط به عشرون سطحاً ، والشكل الفلكي يحيط به اثنا عشر سطحاً .

والسطوح كثيرة الانواع : تارة من جهة الأضلاع ، وتارة من جهة الزوايا وتارة من الجميع . ولكن يجمعها كلها أربعة أنواع : المثلث والمربع والمدور والكثير الزوايا ، فالسطح المثلث ما يحيط به ثلاثة خطوط وله ثلاثة زوايا والسطح المربع ما يحيط به أربعة خطوط وأربعة زوايا ، والدائرة سطح يحيط به خط واحد فى داخله نقطة كل الخطوط المستقيمة الخارجة منها اليه متساوية من المركز الى المحيط مساو بعضها لبعض والشكل الكثير الزوايا مثل المخمس والمسدس والمسبع ومازاد بالغاً ما بلغ ، والزوايا ثلاث : قائمة وحادة ومنفرجة ، فالزاوية

القائمة هي التى بجنبها مثلها ، والحادة أصغر من القائمة ، والمنفرجة أكبر من القائمة .

فصل

النبات هو كل جسم يتغذى وينمو والحيوان كل جسم متحرك حساس ، والانسان حي ناطق مائت ، وهو جملة مركبة من نفس ناطقة وبدن مائت ، والجسم جوهر لطيف طويل عريض عميق ، والصوت قرع يحدث في الهواء من تصادم الاجسام ، واللفظ كل صوت له هجاء ، والكلام كل لفظ يدل على معنى . وان قيل ما الصدق ؟ فيقال ايجاب صفة الموصوف هي له أو سلب صفة عن موصوف ليست له ، والكذب ؟ فهو عكس ذلك . ويقال أيضاً الصدق والكذب في الأقاويل ، والصواب والخطأ فى الضمائر ، والخير والشر في الأفعال والحق والباطل فى الاحكام ، والضر والنفع في الاشياء المحسوسة .

والدنيا هي مدة بقاء النفس مع الجسد الى وقت افتراقها الذى يسمى الموت ، والموت هو ترك النفس استعمال البدن والآخرة هي نشوء ثان بعد الموت .

ويقال أيضاً الموت هو بقاء النفس بعد مفارقة الجسد وخلوها في عالمها والجنة هى عالم الارواح وجهنم هي عالم الاجسام ، والجنة أيضاً هى المرتبة العليا وجهنم أيضاً هي المرتبة السفلى .

فجنة نفس النباتية صورة الحيوانية ،وجنة نفس الحيوانية صورة الانسانية وجنة نفس صورة الانسانية صورة الملائكة ولصورة الملائكة مقامات ودرجات عند الله تعالى وبذلك يكون بعضهم أشرف من بعض كالمقربين منهم وغير المقربين والبعث هو انتباه النفوس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، والنوم هو اشتغال النفس عن الجسد بغيره مع شمول عنايتها به ، والقيامة قيام النفس من قبرها وهو الجسد الكائن الذي كانت فيه فزهدت وأبعدت عنه .

والحشر هو جمع النفوس الجزئية نحو النفس الكلية واتحاد بعضها ببعض إذ الجزء أحد أجزاء الكل ،والكل مجمع الاجزاء المنفصلة منه

وقولنا الاتحاد امتزاج الجواهر الروحانية كامتزاج صوت الزير والبم ، والحساب موافقة النفس الكلية النفوس الجزئية بما عملت عند كونها مع الاجساد والصراط هو الطريق المستقيم القاصد الى الله تعالى

فصل

الالوان المفردة هى البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة والزرقة والكدرة ، والاشياء البيض إنما تراها بيضاء لاسباب ثلاثة أحدها لان النور محبوس فيها لغلبة الرطوبة والرطوبة لونها كاللبن ، والثانى لان النور مولج فيها لكثرة التخلخل كالملح ، والثالث لان النور محبوس فيها لجمود رطوبتها كالفضة

على أن النور من وراء الاجسام المشفة يرى أبيض ، فان عرض له عارض يرى اصفر ، والاشياء الصفر ترى صفراء لأسباب تمنع النور أن يرى صافياً كالنار يراها صفراء لان حرارتها تسد مسام البصر فلا تقدر قوة الباصرة إدراكها على التمام .

ومنها ما يرى أصفر لان الحرارة تسد مسامها كالأشياء البيض إذا طبخت أصفرت

فأما علة رؤية الاشياء حمر فلشيئين : أحدهما الاسباب المعفنات ، والآخر الاسباب المذوبات ، فالمعفنات لكثرة الرطوبة ، والمذوبات لكثرة الحرارة كالشمس تراها حمراء عند كثرة البخارات الصاعدة اليها من جملة المياه والرطوبات وعند النضج والازهار والثمار تؤدي من شدة الحرارة المذوبة .

فقد تبين بهذا ان البصر إذا رأى النور من وراء الاجسام المشفة وغلبها أحد الاسباب الثلاثة رآها حمراء .

وأما الخضرة فهي من أجل غلبة الرطوبة الارضية على النور ومنع البصر اياها أو منع النور أن يصير الى البصر صرفا

وأما السواد فهو منع الرطوبة الارضية وصول النور الى البصر أو منع البصر الوصول الى النور ، لان السواد يجمع البصر والبياض يفرقه .

وكل الالوان الباقية متوسطة بين هذين الطرفين وفعلها في البصر بحسب غلبة أحد هذين عليها .

والطعوم تسعة أنواع : وهي العفوصة والقبوضة والحموضة والحلاوة والملاحة والمرارة والحرافة والعذوبة والدسومة .والحلاوة تجعل اللسان أملس والمرارة تجعل أجزاءه متفرقة خشنة والحريف يزيد في ذلك والمالح يفرق ويجفف والعفوصة تجمع وتقبض والحموضة تفرق وتقبض.

ثم اعلم أيها الأخ بانك قاصد الى ربك منذ خلقت نطفة فى الرحم وربطت بها نفسك تنقل كل يوم من حالة هى أدون إلى حالة أتم وأكمل وأشرف ، ومن مرتبة هى أنقص الى مرتبة أخرى هى أعلى وأشرف والى منزلة هي أرفع الى أن تلقى ربك وتشاهده ويوفيك حسابك وتبقى عنده نفسك ملتذة فرحانة مسرورة مخلدة أبد الأبدين ودهر الداهرين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا إلى السداد وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد إنه رؤوف بالعباد .

تم القسم الثالث فى العلوم النفسانيات العقليات من كتاب اخوان الصفاء وخلان الوفاء ويتلوه القسم الرابع في الناموسيات الالهيات أوله رسالة فى الآراء والديانات .

الرسالة الاولى

فى الاراء والديانات

في العلوم الناموسية الالهية والشرعية

﴿ وهي الرسالة الثانية والاربعون من رسائل اخوان الصفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون

اعلم ايها الاخ أنا قد فرغنا من رسالة الحدود والرسوم التي هي آخر رسائل النفسانيات العقليات حسب ما وعدنا في فهرست صدر كتابنا هذا فنريد الآن أن نذكر في هذا القسم الرابع الكلام في الالهيات وهو الغرض الأقصى والغاية القصوى فنبدأ أولا بالرسالة الاولى منها في الآراء والديانات فنقول :

اعلم أن الناس مختلفون في آرائهم ومذاهبهم كما هم مختلفون في صور أبدانهم وأخلاق نفوسهم وأعمالهم وصنائعهم

واعلم أن سبب اختلاف أخلاقهم هو من أربع جهات : احداها من جهة اختلاف تركيب أبدانهم ومزاج أخلاطها ، والأخرى من جهة اختلاف ترب بلادهم وتغيرات أهويتها والازمان التي تنشأ فيها ، والأخرى من جهة نشوئهم على عادات آبائهم في سنن دياناتهم وعلى عادات من يربيهم ويؤدبهم ، والاخرى من جهة أشكال الفلك ومواضع الكواكب في أصول مواليدهم ومساقط نطفهم وقد بينا طرفاً من هذا العلم في رسالة الاخلاق، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة

طرفاً من فنون اختلافات العلماء الذين هم أصلوا الآراء والمذاهب وفرعوا منها أنواع المقالات والأحكام ، وكم هي تلك الآراء والمذاهب ، وما هي تلك الاسباب التى أدت بالعلماء الى الاختلاف ، وكم هي . ولكن قبل ذلك نحتاج أن نذكر أجناس الأشياء التى اختلفوا فيها : كم هي وما هي فنقول :

إن الاشياء المختلف فيها ثلاثة أنواع : أولها في الترتيب هي الامور المحسوسة وبعدها الامور المعقولة ، وبعدها الامور الالهية المبرهنة

أما الامور المحسوسة فهى صور في الهيولى تدركها الحواس المباشرة لها وتنفعل عنها كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس

وأما الامور المعقولة فهى رسوم تلك المحسوسات التى أدتها الحواس الى القوة المتخيلة إذا بقيت مصورة فى الاوهام بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لها كما بينا في رسالة العقل والمعقولات

وأما الامور الالهية المبرهنة فهى أشياء لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام ولكن الدليل والبراهين الصادقة باعثة للعقول الى الاقرار بها والقبول لها — كما نبين ذلك فى كتب الهندسة وبيان المنطقية جميعاً

مثال ذلك أنه قد قام البرهان في كتاب إقليدس على أن كل مقدار ذي نهاية أى مقدار كان جسماً كان أو سطحا أو خطاً فانه يمكن أن يوجد منه ظل دائما أبداً لا يفنى ، وهذه الحكمة مما لا تدركها الحواس ولا تتصورها الاوهام البتة وأمثال هذه الحكمة كثيرة فى هذه الكتب وفى غيرها من كتب الهندسة ، وهكذا أيضاً قد قام البرهان بطريق المنطق الحكمى الفلسفى على أن خارج العالم لا خلاء ولا ملاء ، وهذه الحكمة أيضاً مما لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام ، وأمثال هذه الاشياء كثيرة معروفة عند العلماء بخاصة إقرار الموحدين لله والعارفين به بأن الله تعالى حى قادر عالم حكيم خالق لا يوصف بالقيام ولا بالقعود ولا الدخول ولا الخروج ولا الحركة ولا السكون ، وما شاكل ذلك من الاوصاف مما يوصف بها النفس والعقل الفعال والصور المجردة من الهيولى وما

شاكلها من الجواهر البسيطة المسمين الملائكة والروحانيين . وذلك أن الحواس لا تدركها ولا تتصورها الاوهام بوجه من الوجوه ولا سبب من الاسباب

فأما أوصاف الجاهلين بالله فهي أنهم يصفون الله تعالى بصفات المخلوقين بعد أن نزه الله تعالى نفسه عن ذلك بقوله « سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين » . فقد تبين اذن مما ذكرنا أن الامور المبرهنة التي لا تدركها الحواس ولا تصورها الاوهام ولكن البرهان الضروري والحجة القاطعة يضطران العقول الى الاقرار بها مقررة

ثم اعلم أن البراهين هي ميزان العقول كما أن الكيل والذرع والشاهين موازين الحواس ، وكما أن الناس اذا اختلفوا في حزر شيء وتخمينه من الاشياء المحسوسة رجعوا الى حكم الكيل والذرع ورضوا بها وارتفع الخلف من بينهم ، فهكذا العقلاء الذين يعرفون البراهين الضرورية اذا اختلفوا في حكم شيء من الاشياء التي لا تدرك بالحواس ولا تتصور بالاوهام رجعوا عند ذلك الى دليل وبرهان وما ينتج من المقدمات الضرورية وأقروا بها وقبلوها وان كانت لا تدركها الحواس ولا تتصورها الاوهام لانهم يرون الاقرار بالحق أولى من التمادي في الباطل ، وقد تبين مما ذكرنا أن الامور المختلفة فيها ثلاثة أجناس حسب ، التي هي المحسوسة أو المعقولة أو المبرهنة . ونريد أن نذكر الآن كمية أسباب اختلاف الناس في ادراكهم من كم وجه يكون

فصل

في بيان اختلاف كمية ادراك المعلومات

فنقول : اعلم أن اسباب اختلاف الناس في ادراك هذه الامور الثلاثة التي تعلم وتعرف من ثلاث جهات : احداها دقة المعاني ولطافتها وخفاها ، والثانية خنون الطرق المؤدية اليها الاسباب المعينة على ادراكها ، والثالثة تفاوت قوى نفوسهم الدراكة لها في الجودة والرداءة وهي الاصل والسبب في اختلافهم في

الآراء والمذاهب وسائرها فروع عليها ونحتاج أن نشرح هذا الباب فنقول :

لما كان الانسان انما هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية صار يقوي نفسه الروحانية بدرك المعقولات كما أن بأعضاء جسده الجسماني يعمل الصنائع لأن كلية العلوم موضوعة بازاء قوي نفوس جميع الناس ، كما أن كلية الصناعات البشرية موضوعة بازاء قوى أجساد جميع الناس وذلك لأنه لا يتهيأ لانسان واحد بقوته الجزئية الاستنباط بجميع العلوم والاحتمال لسائر الصنائع ، وذلك أن لنفسه قوى كثيرة وله بكل قوة منها أفعال عجيبة كما أن لجسده مفاصل كثيرة وأعضاء طريفة ، وله بكل عضو من جسده حركات مختلفة — كما بينا طرفا من هذ االفن في رسالة تركيب الجسد

ولكن نريد أن نذكر هنا ثمانية أنواع منها : وهي القوة الدراكة للمعلومات ونبدأ أولا بذكر القوى الحساسة الخمسة اذ كانت هي أول قوى النفس التي ينال بها الانسان العلوم والمعارف ، ثم نذكر القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ، ثم القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ ، ثم القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ

ثم اعلم أن الناس متفاوتون في الدرجات في هذه القوى بين الجودة والرداءة في إدراكهم المعلومات تفاوتاً بعيداً وهي أحد أسباب اختلافهم في الآراء والمذاهب ، وذلك أن من الناس من يكون حاد البصر يرى الاشياء الصغيرة البعيدة ، ومنهم من يكون دون ذلك ، ومنهم من لا يبصر شيئاً البتة

وهكذا تجد حالهم في القوة السامعة : وذلك أن منهم من يكون جيد السمع يسمع الاصوات الخفية ويميز بين النغمات الموزونة والمتزحفة ، ومنهم من يحتاج في ذلك الى مفاعيل العروض ، ومنهم من لا يحس بشيء من ذلك

وعلى هذا القياس يكون حكمهم في سائر قوى حواسهم من الذوق واللمس والشم وهكذا حكمهم في ذكاء نفوسهم وجودة قرائحهم وصفاء أذهانهم وذلك انك تجد كثيرا من الناس من يكون جيد التخيل دقيق التمييز سريع التصور ذكورا

حفوظاً ، ومنهم من يكون بليداً بطيء الذهن أعمى القلب ساهي النفس ، فهذا أيضاً أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب لأنه اذا اختلفت ادراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك

فصل

فى بيان علة اختلاف إدراك القوى العلامة

فنقول اعلم أن هذه التفاوتات التى ذكرنا من هذه القوي الداركة العلامة ليست هى من أجل أنها مختلفة في ذواتها بين الجودة والرداءة ولكن من أجل اختلاف أحوالها في إدراكها صور المعلومات ، وأن علة اختلاف أفعالها هو من أجل اختلاف أدواتها واختلاف آلاتها فى الجودة والرداءة ، وذلك أنه لما كان كل عضو من الجسد هو آلة وأداة لقوة من قوي النفس وكانت أعضاء الجسد مختلفة الهيئات المتفاوتة فى الجودة والرداءة فى بعض الناس أو في بعض الاحايين اختلفت أفعال هذه القوي بحسب تلك الاختلافات . مثال ذلك الحدقتان فانهما عضوان من الجسد وهما أداتان للقوة الباصرة ، فاذا كانتا سليمتين من الآفات العارضة صحيحتين صافيتين مجليتين تراءت فيهما صور المرئيات المقابلات لهما كما يتراءى في المرايا صور الاشياء المقابلة لها ، فأدركت هذه القوة تلك المبصرات على حقائقها . فأما إذا كانتا على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات — عاقت القوة الباصرة عن إدراكها محسوساتها . وهكذا أيضاً القوة السامعة وذلك أنه متى كانت أدواتها التى هى صماخا الأذنين مفتوحتين نقيتين من الأوساخ سليمتين من الآفات العارضة طنت فيهما الاصوات بهيأتها فأدركتها القوة السامعة بحقائقها واذا كانت على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات عاقت عن ادراكها المسموعات. وهكذا أيضاً القوة الشامة متى كانت خياشيم المنخرين مفتوحة نقية من البخارات الغليظة سليمة من الآفات العارضة أدركت القوة الشامة الروائح وميزت بينها وعرفتها أو متى عرض هناك بخار أو زكام أو آفة عوقت عن إدراكها وتمييزها

وهكذا أيضاً القوة الذائقة متى كانت الرطوبة المستبطنة التى في جرم اللسان معتدلة سليمة من الآفات العارضة أدركت طعوم الأشياء المذوقة بحقائقها وعرفت التمييز بينها ، ومتى غلب على تلك الرطوبة خلط أو مزاج خارج عن الاعتدال عوقت عن إدراكها الطعوم والتمييز على حقائقها . وهكذا أيضاً القوة اللامسة فانه متى عرضت آفة للاعصاب المنتسجة بين خلل اللحم والجلد عوقت عن ادراكها الملموسات . وهكذا أيضاً حالات القوة المتخيلة فانه متى كان مقدم الدماغ معتدلا سالما من الآفات تخيلت فيه رسوم المحسوسات التى أدتها اليها القوة الحساسة بحقائقها وقبلتها بهيآتها ومتى عرضت آفة كما يعرض في الأمراض الحادثة المفرطة — كما ذكر في كتب الطب — عوقتها عن فعلها وتخيلها رسوم المحسوسات كما يعترض للمبرسمين (١) وصاحب الماليخوليا . وهكذا أيضاً حكم القوة المفكرة المستبطنة وسط الدماغ متى كان معتدلا على الأمر الطبيعي سالماً من الآفات العارضة ، كان فكر الانسان ورؤيته وتمييزه وفهمه على ما ينبغي ، ومتى عرضت هناك آفة لعارض من الاعراض أو خروج عن الاعتدال عوقت النفس عن أشراف أحوالها وأفعالها التى هى الفكر والتمييز والروية والتحصيل وماشا كلها لان هذا العضو من أشرف الاعضاء بعد القلب . وهكذا أيضاً حكم القوة الحافظة المستبطنة مؤخر الدماغ في التذكار والنسيان . وانما ذكرنا في هذا الفصل هذه الأشياء لأن من هذه القوى تكون معارف الحيوان كلها ، ومن تعاون أدوات هذه القوى بالمعاونات اللائقة تزيد في قواها ، ومن تفاوتها يكون اختلاف معارفها في الجودة والذكاء أكثر وأقل وهي الاصل في جميع العلوم والمعارف ، ومن تفاوت أفعال هذه القوى يكون أكثر اختلاف الناس في معلوماتهم ومنازعات العلماء في آرائهم ومذاهبهم . وخصلة أخري أيضاً أن كثيراً من العلماء ممن ينظر في علوم النفس ويتكلم في أحوالها يظن أن لها قوى وأفعالا وأخلاقاً مختلفة تفعل بها اختلافات مختلفة ولا يدرون اختلاف أحوالها وأخلاقها انما هو

(١) يقال : برسمه أحدث فيه البرسام وهو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب والمريض بهذا مبرسم

من جهة اختلاف أدواتها فى الهيأة والجودة والرداءة التى كل واحد منها عضو من الجسد — كما بينا ذكرها — وخصلة أخري أن كثيراً من العلماء الطبيعيين والمنطقيين لما اعتبروا هذا الرأي الذى ذكرنا من أن النفس انما هى مزاج البدن لما رأوا من تغيير أفعال الحيوان وأخلاقها عند تغيير مزاج الاعضاء واختلاف هيئاتها ، وخاصة تغيير أفعال الانسان وأخلاقه عند الأمراض وعند تغيير مزاج هذه الاعضاء واحداً واحداً .

فأما الالهيون فيرون خلاف ذلك وقد ذكرنا أقاويلهم فى خلال رسائلنا الاحدى والخمسين وذكرنا البراهين عليها في الرسالة الجامعة فهذا الذى ذكرنا فى هذا الباب هو أحد اسباب اختلاف الناس فى معارفهم ومعلوماتهم المؤدية بهم الى اختلاف الاراء والمذاهب .

وأما السبب الثاني الذي هو من جهة دقة المعاني ولطافتها وجلائها وظهورها فهو مثل التفاوت الذي بين الامور الجسمانيـة الظاهرة المدركة بالحواس وبين الامور الروحانية الخفية عن ادراك الحواس التى لا تعلم الا بدلائل العقول ونتائج البراهين — كما تقدم ذكرها . وهذا الباب هو أكثر أسباب اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم

وأما الوجه الثالث من الاسباب المؤدية للناس الى اختلافهم فى معلوماتهم فهو استعمالهم القياسات المختلفة وطرقات استدلالاتهم المتفاوتة ، وهـذا الباب هو أكثرها تفرعا وتشعبا وهو اكتساب منهم وعليه يجازون من الذم والمدح والثواب والعقاب .

وأما الوجهان الأولان فليس باختيار منهم ولا اكتساب لهم فيه

فصل

في بيان كمية القوى العلامة

وإذ قد تبين مما ذكرنا أسباب اختلاف الناس في مدركاتهم من الامور المختلفة فيها من كم وجه يكون وكان أحد الوجوه تفاوت القوى الداركة العلامة

التى هي أربعة أنواع الحساسة والمتخيلة والمفكرة والحافظة. وقدتقدم شرح تفاوتها فى الجودة والرداءة قبل هذا فنريد أن نذكر فى هذا الفصل الأسباب المعينة لها على ادراكها مدركاتها والمعوقة لها عن ذلك ونبدأ أولا بذكرالقوى الحساسة ثم نذكر القوى المتخيلة ثم المفكرة ثم الحافظة.

فأما بيان ماتحتاج كل حاسة من الشرائط فى ادراكها محسوساتها حسبمانبين ها هنا فنقول أن كل حاسة من الحواس الخمس تحتاج في ادراكها محسوساتها الى شرائط معدودة لازايدة ولاناقصة فمتى عدم واحدة من تلك الشرائط أو بعض أو زاد أو نقص على المقدار الذي ينبغي عوقها عن ادراك محسوساتها على حقائقها .

مثال ذلك القوة الباصرة فانها تحتاج في ادراكها المبصرات الى ضوء ماوالى بعد ما والى محاذات ما وإلى وضع ما فمتى عدم شيء منها عاقها ذلك عن ادراك المبصرات بحقائقها ، وذلك انه لايمكنها ادرك الضياء المفرط والنور الباهر كما لايمكنها ادراك المبصرات في الظلمة الظلماء ، وذلك ان الانسان لايمكنه النظر الى عين الشمس نصف النهار في يوم صائف ، كما لايمكنه رؤية الاشياء الصغار في الظلمة الظلماء ولارؤيتها في البعد الابعد ، ولافى القرب الاقرب اذا وضعت يده مثلا قرب الجفن ، ولارؤيتها من غير محاذات ولارؤية الاشياء المتحركة الشديدة الحركة كالنبل المار متى رمى عن قوس شديدة

وعلى هذا القياس حكم سائر الحواس فانها تحتاج في ادراكها محسوساتها الى شرائط معدودة ، فمتى عدمت واحدة منها أو نقصت عن المقدار أو زادت عليه عوقها عن ادراك محسوساتها

فصل

في بيان مالكل حاسة من المحسوسات بالذات

فاعلم ان لكل حاسة محسوسات مختصة لها بالذات ومحسوسات بالعرض وهى لاتخطيء في المدركات التى هي لها بالذات ولكن في التى لها بالعرض.

مثال ذلك البصر فان المبصرات لها بالذات هي الانوار والضياء والظلم .

وأما الالوان فان ذلك لها بتوسط النور والضياء .

وأما سائر الاجسام وسطوح أشكالها وأوضاعها وأبعادها وحركاتها فهو بتوسط اللون : وذلك أن كل جسم لالون له لايرى ولايدركه البصر

ثم اعلم أن البصر هو أشرف الحواس وأشدها تحقيقا لمدركاته كما يقال : ليس الخبر كالمعاينة، وبين الحق والباطل اربع أصابع يعنى بين العين والأذن ولكن مع شرفه وتحقيقه لمدركاته عظيم الخطأ كثير الزلل وذلك ان الانسان ربما يرى الشيء الصغير كبيراً أو الكبير صغيراً أو القريب بعيداً أو البعيد قريباً كما يرى الدرهم في قعر بركة صافي الماء قريبا كبيراً

وهكذا يرى في ماوراء البخار الرطب يرى الشيء أعظم مما هو ،فكذلك ربما يرى الانسان الشيء المتحرك ساكناً والساكن متحركا ، كما يرى من يكون فى الزورق اذا نظر الى الشطوط فانه يرى الاشخاص الساكنة متحركة ويرى نفسه ومن معه ساكنا

وهكذا ربما يرى الشيء المستقيم معوجا والمنتصب منكوساً كما يرى العود المنتصب في الماء ، وربما يرى الشيء المرتفع منخفضا والمنخفض مرتفعا كما يرى سقف الرواق وأرضه فى البعد متقاربين وماشا كل هذه الفنون — كماذكر عللها في كتاب المناظر بشرح طويل واذا كان الخطأ والزلل الذي يدخل على الانسان العاقل المميز من جهة مدركات البصر الذى هو أشرف الحواس وأجل القوى الداركة — هذا القدر فما ظنك ياأخي بما دونها من سائر الحواس والقوى الداركة على هذا المثال

فصل

في بيان الحواس التى لا تخطيء في ادراكاتها المدركات التى هي لها بالذات

فنقول اعلم ان لكل حاسة مدركات بالذات ومدركات بالعرض وهي لاتخطيء

في مدركاتها التى لها بالذات ، وانما يدخل عليها الخطأ والزلل في المدركات التى لها بالعرض

مثال ذلك البصر فان الذى له من المدركات بالذات هي الانوار والظلمة وهى التى لا تخطىء في ادراكها في جميع الاوقات البتة

فأما ادراكها الالوان والاشكال والاوضاع والابعاد والحركات وما شاكلها فهي تدركها بتوسط النور والضياء على الشرائط التى ذكرناها ، وقد يدخل عليها الخطأ والزلل في ذلك اذا نقصت الشرائط التى تحتاج اليها

وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الحواس ومحسوساتها فتعقل يا أخى فى هذا الباب فان الذين دفعوا حقائق الاشياء وكيفياتها والنظر فيها وأنكروها من هذا الباب أتوا

أما القوة السامعة التى لها بالذات هى بالأصوات والنغمات حسب ، والتى للذائقة هى الطعوم حسب ، والتى للشامة هى الروائح حسب ، والتى للامسة فهى عدة أشياء قد ذكرناها في رسالة الحاس والمحسوس فاعرفها من هناك

ثم اعلم أن لكل قوة من هذه الحواس الخمس خاصية ليست للأخرى ولكن الخاصية التى تعمها هى انها لا تخطىء فى مدركاتها اذا تمت شرائطها ولم يعرض لها عائق وخاصة أخرى أنها لا يدرك كل واحد منها محسوسات أخواتها التى لها بالذات

مثال ذلك البصر فانه لا يدرك الاصوات ولا الروائح ولا الطعوم ! وهكذا أخواتها ولكن بما تشترك في المحسوسات اللاتى لهن بطريق العرض مثل الحركة فانها تدرك وتعلم بالبصر واللمس بالسمع جميعاً

﴿ فصل ﴾

في بيان زيادة القوى التى في حواس الانسان

فنقول اعلم ان الله تعالى خلق في حواس الانسان زيادة قوة وجودة تمييز ما لم يجعل في حواس سائر الحيوانات ، وبخاصة في القوة اللامسة فضله عليها

وكرمه بها كما جعل في قوة يديه من الصنائع العجيبة وفي قوة لسانه من اللغات المختلفة ما لم يجعل في أيديها ولا في ألسنتها كما هو بين ظاهر جلي لا يخفى على أحد من العقلاء ، وقد يظن كثير من الناس العقلاء أن بعض الحيوانات يفهم معاني الكلام ويمتثل الامر والنهي ، ولكن لا يقدر على الكلام كمثل الفيل والفرس الجواد والجمل والغنم والبقر والكلب والسنور والقردة والببغاء وأمثالها من الحيوانات المسخرة للانسان المستأنسة به المنقادة لخدمته

ولعمري أنها تفهم معاني بعض الكلام كالزجر والامر والنداء وما شاكلها التي هي بعض أقسام الكلام

فاما أن تفهم معاني الخبر والسؤال والجواب والاستفهام فلا — وقد بينا علة ذلك في رسالة الحيوانات

ثم اعلم أن الانسان مع استماعه الاصوات وتمييزه بالنغمات يفهم معاني اللغات والأقاويل والكلمات كما أنه عند نظره الى الخطوط والكتاب يفهم ما يتضمنها من معاني الكلام والعبارات ما لا يفهم عليها غيره من الحيوانات

ثم اعلم أن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الانسان التي ينفرد بها دون سائر الحيوانات

واعلم أن بني الانسان في هاتين القوتين متفاوتو الدرجات تفاوتاً بعيداً جداً وذلك أن من الناس من لا يفهم الا لغة واحدة ولا يعرف أيضا من معاني تلك اللغة من الاشياء والالفاظ والاقاويل الا شيئا قليلا ، ومن الناس من يفهم عدة لغات ويحسن أن يقرأ عدة كتابات ويفهم من كل لغة اسماء وألفاظ وأقاويل كثيرة ويفهم معاني دقيقة ما لا يفهم غيره من الناس . وهذه أحد أسباب اختلاف الناس في المعارف واختلاف العلماء في الآراء والمذاهب

فأما بيان كمية معلومات الانسان حسبما نذكره ها هنا فنقول : إنه لما كان جميع معلومات الانسان من جهة الزمان ثلاثة أنواع فحسب ، فمنها ما قد كان

مع الزمان الماضى ، ومنها ما سيكون فى المستقبل ، ومنها ما هو كائن في الوقت والزمان والحاضر

ولما كان أحد الطرق التى تعلم الانسان الامور الماضية مع الزمان استماع الاخبار وكان رب مخبر كذاب ورب مستمع له مصدق . وهكذا أيضا مخبر صدوق ورب مستمع له مكذب

وعلى هذا القياس أيضا حكم الأخبار عن الكائنات قبل كونها وعن الاشياء الموجودة في الزمان الغائبة بالمكان . فهذا أيضا أحد أسباب اختلاف الناس فى المعلومات واختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب

﴿ فصل ﴾

فى بيان ما يخص الانسان من المعلومات

فنقول : ان الله لما خلق الانسان الذي هو آدم ابو البشر عليه السلام وفضله على كثير ممن خلق قبله تفضيلا جعل أحد فضائله كثرة العلوم وغرائب المعارف وجعل له اليها عدة طرقات : فمنها طرق الحواس الخمس التى بها يدرك الامور الحاضرة في المكان والزمان — كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس ، ومنها طريق استماع الاخبار التى ينفرد بها الانسان دون سائر الحيوانات يفهم بها الامور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعاً — كما ذكر الله تعالي ومن به عليه فقال « خلق الانسان علمه البيان » ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الانسان معاني الكلام واللغات والاقاويل بالنظر فيهما ممن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان أومن هو غائب عنه بالمكان — كما قال الله ومن به على الانسان فقال لنبيه محمد عليه السلام « أقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » وبهذه الفضيلة شارك الانسان الملائكة الكرام كما قال الله تعالى « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون »

واعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والاقاويل كما أن فهم الكلام والاقاويل معرفتها إنما هي متأخرة عن فهم المحسوسات —

كما هو بين ظاهر لا يخفى على العقلاء ، وذلك أن الطفل اذا خرج من الرحم فانه في الوقت والساعة تدرك حواسه محسوساتها فيحس بالقوة اللامسة الخشونة واللين ، وبالقوة الباصرة النور والضياء ، وبالقوة الذائقة طعم اللبن ، وبالقوة الشامة الروايح ، وبالقوة السامعة الأصوات ولكنه لا يعلم معانى الكلام والاصوات إلا بعد حين : فأول شيء يحس باللمس فيتألم لان حساسة اللمس أعم الحواس ، ثم يحس بالطعم فيميز لبن أمه من غيره ، ثم يميز بين الروائح فيعرف الشم ، ثم يميز بين الصوت الشديد الجهير ، وبين الصوت الضعيف الخفيف ، ثم يفرق بين الصور . ثم يميز على ممر الاوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب والأخوة والاخوات والاقرباء وغيره . ثم شيئا بعد شيء على التدريج وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها الى أن تتم سن التربية ويغلق باب الرضاع ويفتح الكلام والنطق . ثم بعد ذلك تجيء أيام الكتابة والقراءة والآداب والصنايع والرياضيات واسماع الاخبار والروايات ، والفقه فى الدين والنظر في العلوم والمعارف ، وطلب حقائق الموجودات ، والبحث عن الكائنات ، والاستدلال بالحاضرات على الغائبات ، والمحسوسات على المعقولات ، وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الالهيات التى هي الغاية القصوى في العلوم والمعارف والسعادة الابدية والدوام السرمدية . بلغك الله وايانا الى هذه الغاية وشرح صدرك وفتح قلبك ونور فهمك وصفى نفسك وحسن أخلاقك وأصلح شأنك وزكى أعمالك وأنعم بالك وأكرمك مما أنعم به على أوليائه وأنبيائه بما علمهم من البيان والكتاب — كما قال تعالى — « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا »

فصل

في بيان القوة المتخيلة

فنقول انا قد ذكرنا طرفا من أحوال القوة الحاسة وكيفية التفاوتات التى بينها في ادراكها محسوساتها وما الأسباب المعينة لها على ذلك والمعرفة لها عنها

فيما تقدم فنريد أن نذكر طرفا فى هذا الفصل من أحوال القوة المتخيلة التى مسكنها الدماغ إذ كانت التالية للقوى الحساسة فى تناولها رسوم المحسوسات منها . ونذكر أيضاً بعض الأسباب المعينة على أفعالها والمعوقة عن ذلك . ونذكر تفاوت درجات الناس فى هذه القوة إذ كان ذلك أحد أسباب اختلافهم في العلوم والمعارف والآراء والمذاهب ، ولكن من أجل أن هذه القوة أكثر القوى الحساسة متخيلات وأعجبها أفعالا احتجنا أن نذكر علة ذلك فنقول : إن لهذه القوى خواصا عجيبة وأفعالا ظريفة فمنها تناولها رسوم سائر المحسوسات جميعاً وتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها ، ومنها أيضاً أنها تتخيل وتتوهم ماله حقيقة وما لا حقيقة له بعد أن عرف بسائطها بالحس إذ لهمن من القوة ما يقدر أن يواف الصور التى أداها الحس الى النفس في هيولاه كيف شاء لانه كان يجدها مجردة عن الهيولى التى هى ماسكة للصور ومختفية بعضها دون بعض ، فاذا أخذها مجردة لا إمساك لها ولا ربط ، أمكنه أن يؤلف بينها كما شاء ويركبها ويصل بعضها ببعض مالم تكن متصلة بالهيولى . مثال ذلك أن الانسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جملا على رأس نخلة أو نخلة ثابتة على ظهر جمل أو طائراً له أربع قوائم أو فرسا له جناحان أو حماراً له رأس انسان وماشا كل هذه مما يعمله المصورون والنقاشون من الصور المنسوبة الى الجن والشياطين وعجائب البحر مما له حقيقة ومما لاحقيقة له . وانما يستوي للانسان بهذه القوة المتخيلات والتصور لها لعلتين اثنتين : إحداهما من أجل أن هذه المتخيلات يجتمع عندها مواد كثيرة من رسوم المحسوسات مع اختلاف أجناسها وفنون أنواعها وسائر أشخاصها فهي يمكنها بهذا السبب أن تركب منها ضروب التراكيب مما له حقيقة في الهيولى ومما لا حقيقة له .

والعلة الاخرى من أجل شرف جوهر النفس ولطافتها وشدة روحانيتها وسهولة قبولها رسوم المعلومات في ذاتها وتصورها لها ، وذلك أن كل هيولى تكون ألطف جوهراً وأشد روحانية فانه يكون لقبول الصور أسرع انفعالا وأسهل

قبولا . مثال ذلك الماء العذب فانه لما كان ألطف جوهراً من التراب صار لقبول الطعوم والاصباغ أسرع انفعالا وأسهل قبولا لنظافته وعذوبته وسيلانه . وهكذا لما كان الهواء ألطف جوهراً من الماء وأشد سيلانا صار قبوله للاصوات والروائح أسرع انفعالا وأسرع قبولا . وهكذا لما كان الضياء والنور ألطف من الهواء صار قبولها للالوان والاشكال أسرع وأشد روحانية ، فكيف لطافة النفس وروحانيتها ولعل هذا الباب يخفى على كثير ممن ينظر في دقائق العلوم من المحسوسات فكيف بالنظر في الامور الروحانية وذلك أن جوهر النفس ألطف وأشد روحانية بكثير من جوهر النور والضياء . والدليل على ذلك قبولها رسوم سائر المحسوسات والمعقولات جميعاً فلهاتين العلتين صار الانسان بالقوة المتخيلة يقدر على أن يتخيل ويتوهم ما لا يقدر عليه بالقوى الحساسة لان هذه روحانية وتلك جسمانية ، ولانها تدرك محسوساتها في الجواهر الجسمانية من خارج .

وأما القوة المتخيلة فهي تتخيلها وتتصور فى ذاتها . والدليل على صحة ماقلنا أفعال الصناع البشريين : وذلك أن كل صانع يبتدىء أولا يتفكر ويتخيل ويتصور فى وهمه صورة مصنوعة بلاحاجة الى شيء من خارج ، ثم يقصد بعد ذلك الى هيولا ما ، في مكان ما في زمان ما ، فيصور فيها ما هو مصور فى فكره بأدوات ما وبحركات ما كما بينا في رسالة الصنائع العملية .

ومن خاصة هذه القوة أنها تعجز عن تخيل شيء لم تؤد اليه حاسة من الحواس وذلك أن كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيل الالوان وما لا سمع له فلا يتخيل الاصوات ولا يتوهمها لان التخيل أبداً فى تصوره للاشياء تبع للادراك الحسى والعقل في استنباطها تبع الدليل النفسى . فأما الانسان فانه لما كان يفهم الكلام أمكنه أن يتخيل المعانى اذا وصفت له

﴿ فصل ﴾

في عجائب هذه القوة المتخيلة وتفاوت الناس فيها

فنقول اعلم أن الناس فى هذه القوة متفاوتو الدرجات تفاوتاً بعيداً جداً والدليل

عليه أنك تجد كثيراً من الصبيان يكون أسرع تصوراً لما يسمعون وأجود تخيلا لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين ، وذلك أن كثيراً من العلماء والعقلاء والمرتاضين فى العلوم والآداب تعجز نفوسهم عن تصور أشياء كثيرة قد قامت الحجة والبراهين على صحتها .

ثم اعلم أن العلة فى تفاوت درجات الناس فى هذه القوة ليست من اختلاف جواهر نفوسهم ولكن من أجل اختلاف تركيب أدمغتهم واعتدال أمزجتها أو فسادها وسوء مزاجها — كما ذكر ذلك في كتب الطب — ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضاً وما يتأتى للانسان أن يعمل بها أعمالا عجيبة ما يحكى عن قوم من الكهنة من أهل الهند أنهم يؤثرون فى غيرهم بأوهامهم أشياء عجيبة ينكرها أكثر الناس . فأما حكماء بلاد اليونان وفلاسفتها فيرون ذلك يمكن ويتأتى للانسان فى نفسه ، فأما في غيره فبعيد جداً ونحن قد بينا ذلك فى رسالة الزجر .

ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضاً أنها تركب القياسات وتحكم بها على حقائق الاشياء بلا روية ولا اعتبار ، مثل ما يفعل الصبيان والجهال وكثير من العقلاء أيضاً . مثال ذلك أن الصبي الطفل اذا نشأ ورأى والديه وتأملهما وميز بينهما ثم رأى صبياً آخر مثله حكم بتوهمه بأن لذلك الصبى والدين أيضاً قياساً على نفسه، وان يكن له أيضاً أخ أو أخت يظن ويتوهم بأن لذلك الصبى مثل ماله قياساً على نفسه من غير فكرة ولا روية ولا تأمل.

وأنت يا أخي ماتقول فى هذا هل هذا قياس صحيح أو خطأ ؟ حتى أنه ربما رأى فى دار والديه دابة أومتاعا أو أصابه حر أو برد أو جوع أوعطش أو وجع أو غم ، ظن وتوهم أن سائر الصبيان قد أصابهم مثل ذلك قياساً على أحوال نفسه من غير فكر ولا روية فى صوابه وخطائه ، حتى اذا كبر وتفكر وميز تبين له صوابه من خطائه في قياسه .

ثم اعلم أنك تجد كثيراً من الناس العقلاء ومن يتعاطى العلم هذا حكمهم فى قياساتهم ، وذلك أن كثيراً من الناس من إذا رأى فى بلده ليلا أو نهاراً أو شتاء

أو صيفاً أو حرا أو بردا أو ريحا أومطرا ظن وتوهم بأن سائر البلاد مثله في ذلك الوقت قياساً على ما وجد فى بلده ، فاذا نظر في علم الرياضيات من الهندسيات والطبيعيات تبين له أن قياسه كان خطأ أو صوابا . وهكذا تجد كثيرا من المرتاضين بهذه العلوم يتوهمون ويظنون بأن خارج العالم فضاء بلا نهاية قياساً على مايجدون خارج بلدانهم من بلادهم من سعة الارض ومن ورائها سعة الهواء ومن ورائها سعة الافلاك .

وهكذا أيضاً اذا فكروا فى كيفية حدوث العالم وخلق السموات والارض ظنوا وتوهموا أن ذلك كان فى زمان ومكان قياساً على افعال البشريين واذا سمعوا من أهل البصائر قولهم بان العالم لافى مكان لايتصورون كيفية ذلك ، فاذا قيل لافي زمان ظنوا وتوهموا أنه قديم بلاحجة ولابرهان

﴿ فصل ﴾

في بيان فضيلة هذه القوة

فنقول اعلم انا قد ذكرنا أن لهذه القوة المتخيلة عجائب كثيرة ووصفنا خواص احوالها من أجل أنها من أعجب القوى الداركة وان أكثر العلماء تائهون فى بحر هذه القوة وعجائب متخيلاتها وذلك أن الانسان يمكنه بهذه القوة فى ساعة واحدة أن يجول في المشرق والمغرب والبر والبحر والسهل والجبل وفضاء الافلاك وسعة السموات وينظر الى خارج العالم ويتخيل هناك فضاء بلانهاية وربما يتخيل من الزمان الماضى وبدء كون العالم ويتخيل فناء العالم ويرفع من الوجود أصلا وماشا كل هذه الاشياء مما له حقيقة ومما لاحقيقة له

وهذا الباب أحد الاسباب من جهة اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم في المعلومات : وذلك انك تجد كثيراً من العقلاء اذا تفكروا وتخيلوا بهذه القوة شيئاً ما ظنوا أن ذلك حق وحكموا عليه حكما حقاً بلا حجة ولا برهان

وأيضاً أن كثيراً منهم اذا سمع شيئاً من العلوم فلم يتصوره — لعجز هذه القوة ونقصان فعلها فيه — أنكر وجحد ولم ينظر الى الدليل والبرهان البتة.

فاما العقلاء المنصفون في الحكومة الطالبون للحق غير المعجبين بانفسهم اذا سمعوا بالاخبار عن شيء متوهم وتخيلوا شيئاً غالبا لم يحكموا على صحته وعلى بطلانه الا بعد الحجة والبرهان على تحقيقه أو بطلانه كما يفعل المهندسون والمنطقيون

وإذ قد ذكرنا طرفا من خواص هذه القوة المتخيلة وعجيب أفعالها نريد أن نذكر طرفا من خواص القوة المفكرة التالية في تناولها رسوم المحسوسات المتخيلات منها التى هي أشرف افعالا وأكثرها عجائب

﴿ فصل ﴾

في بيان أفعال القوة المفكرة

فنقول اعلم أن للقوة المفكرة خواصا كثيرة وأفعالا عجيبة تستغرق فيها أفعال هذه القوة المتخيلة وأفعال سائر القوى الحساسة الدراكة، وذلك ان افعال هذه القوة نوعان: فنها مايخصها بمجردها، ومنها ماتشترك هي مع قوة أخرى من قوى النفس، فمن ذلك الصنائع فان أكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوة المفكرة التى آلتها وسط الدماغ وبين القوة الصناعية التى آلتها اليدان، ومنها الكلام والاقاويل واللغات أجمع فانها أفعال مشتركة بين هذه القوة وبين القوة الناطقة التى آلتها اللسان، ومنها تناول رسوم المحسوسات المتخيلات فانها أفعال مشتركة بين هذه وبين المتخيلة التى آلتها مقدم الدماغ، ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة فانها المشتركة بين هذه وبين القوة الحافظة التى آلتها مؤخر الدماغ.

وأما الافعال التى تخصها بمجردها فهي الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس البرهاني، ولها أيضا الفراسة والزجر والتكهين والخواطر والالهام والوحي ورؤية المنامات وتأويلها

أما بيان ذلك فنقول: أن الانسان بالتفكر يستخرج غوامض العلوم بالروية ويمكن له تدبير الملك والسياسة، وبالاعتبار يعرف الامور الماضية مع الزمان،

وبالتصور يدرك حقائق الاشياء ، وبالتركيب يستخرج الصنائع ، وبالتحليل يعرف الجواهر البسيطة والمركبة ،وبالجمع يعرف الانواع والاجناس ، وبالقياس يدرك الامور الغامضة الغائبة بالزمان والمكان، وبالفراسة يعرف ما في الطبائع ، وبالزجر يعرف الحوادث وتصاريف الاحوال ، وبالتكهن يعرف الكائنات بموجبات الاحكام الفلكيات ، وبالمنامات وتأويلها يعرف الكائنات والبشارات والانذارات ، وبقبول الوحي والالهام يعرف الوضع للنواميس الالهية وتدوين الكتب المنزلة .

فأما فضائل هذه القوة وقضاياها على ما بين ههنا وذلك ان هذه القوة المفكرة من بين سائر القوى الحساسة والمتخيلة ومدركاتها كالقاضي بين الخصماء ودعاويهم وذلك ان من سنة القاضي أن لا يحكم بين الخصوم الا على سبيل معرفة شرعية وضعية معروفة بينهم أو مقاييس عقلية متفق عليها بين الخصمين ، ولا يقبل الدعاوي الا بالشهود والصكوك وموازين ومكاييل معلومة معروفة بين الخصماء

فهكذا حكومة هذه القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ وقضاياها بين مدركات الحواس ومتخيلات الأوهام فيما يدعي العقلاء بينهم من المنازعات والخصومات في الآراء والديانات والمذاهب ، فهي لا تحكم لأحد بين الخصمين بالصواب ولا بالخطأ الا بعد ما شهد شاهدان من الحواس الخمس أو نتائج مقدمات جزئية من أوائل العقول

مثال ذلك في رجلين اختلفا في الحكومة في لون الشراب : يحكم أحدهما بأن ذلك لون الماء والآخر أبى ، ثم تحاكما الى القوة المفكرة فلم تحكم هي لاحدهما بالصواب ولا بالخطأ إلا بعد شهادة شاهدين من الحواس : وهما القوة الذائقة والباصرة .

وهكذا لو انهما اختلفا في رؤية الماورد أو خل مصاعد[1] أو نفط أبيض أو

---

(١) الصواب أن يقول خل مصعد ، لان المصعد من الاشربة : ما عولج بالنار حتى تحول عما هو عليه طعما ولونا والا كان ما في الاصل تحريفا وكان الانسب أن يقال: أو خل مصاعداً والله أعلم ... فتنبه

ماشا كلها من الاجسام التى يشبه لونها لون الماء ولمسها لمس الماء، فان القوة المفكرة لاتحكم لاحدهما إلا بعد ماتشهد القوة الذائقة والشامة بماهيتها .

وعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يكون سائر قضايا القوة المفكرة بين الناس فيما يختلفون فيه من الحكومة على المحسوسات والمتخيلات في الحكومات والقضايا جميعا .

فتفقد ياأخى هذا الباب واعتبر فانه أول طريق العلوم وأول الاختلافات التى وقعت بين الناس في المدركات من المحسوسات والمتخيلات .

وإذ قد ذكرنا طرفا من أسباب الاختلافات التى وقعت بين الناس في المدركات من المحسوسات والمتخيلات أجمع ، فنريد أن نذكر طرفا من أسباب الاختلافات التى وقعت بين العقلاء في الاشياء التى تعلم بأوائل العقول إذ كان هذا الباب تالى المحسوسات في النظام والترتيب ، وذلك ان المعقولات التى هي في أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الاشخاص المجتمعة في فكر النفس المسمى أنواعا وأجناسا — كما بينا في رسالة القاطيغورياس

ثم اعلم ان العقلاء متفاوتو الدرجات في معرفتهم هذه الاشياء التى تعلم باوائل العقول تفاوتاً بعيداً جداً . والدليل على ذلك بما قلنا أنك تجد كل انسان يكون أكثر تأملا من المحسوسات وأجود اعتباراً للمتخيلات فان الاشياء التى تعلم بأوائل العقول تكون في نفسه أكثر عدداً وأشد تحقيقا من غيره من الناس مثل المشايخ والمجربين للامور المحسوسة.

والدليل على ذلك قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً » وقال : « علم الانسان مالم يعلم » وقال : « وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آبائكم » وقال : « وفوق كل ذي علم عليم » وقال : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »:

﴿ فصل ﴾

في بيان ما يعلم بأوائل العقول

فنقول اعلم أن الاشياء التى تعلم بأوائل العقول بعضها ظاهر جلى لكل العقلاء وبعضها غامض خفي يحتاج الى تأمل قليل ، وبعضها يحتاج الى تدقيق النظر وتأمل شديد . مثال ذلك قولهم : الكل أكثر من الجزء إن هذا عند الحكماء ظاهر في أوائل العقول السليمة

وأما قولهم أن الاشياء المختلفة إذا زيدت عليها أشياء متساوية كانت كلها في جميع أوائل العقول السليمة مختلفة يحتاج فيها الى تأمل قليل

وأما قولهم إذا كانت أربعة مقادير على نسبة واحدة فان في الاول من أضعاف الثاني مثل ما في الثالث من أضعاف الرابع ، فهذا أيضاً من الأشياء التى تعلمها بأوائل المعقول ، ولكن يحتاج الى بحث أشد ونظر أدق ، وعلى هذا المثال يكون تفاوت المعقولات والأشياء التى تعلم بالعقول الثاقبة

ثم اعلم أن كثيراً من العقلاء يظنون أن الاشياء التى تعلم بأوائل العقول مركوزة فنسبتها لما تعلقت بالجسم فهي تحتاج الى التذكار ويسمون العلم تذكراً ويحتجون بقول أفلاطون : التعليم تذكر وليس الامر كما ظنوا وإنما أراد افلاطون بقوله : العلم تذكر ان النفس علامة بالقوة فتحتاج الى التعليم حتى تصير علامة بالفعل فسمي العلم تذكراً ثم إن أول طريق التعاليم هي الحواس ، ثم العقل ، ثم البرهان فلو لم يكن للانسان الحواس لما أمكنه أن يعلم شيئاً لا المبرهنات ولا المعقولات ولا المحسوسات البتة

والدليل على صحة ما قلنا أن كل ما لا يدركه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيله الاوهام ، وما لا تتخيله الاوهام لا تتصوره العقول

واذا لم يكن شيء معقول فلا يمكن البرهان عليه لأن البرهان لا يكون الامن نتائج مقدمات ضرورية مأخوذة من أوائل العقول والاشياء التى هي في أوائل العقول إنما هي كليات أنواع وأجناس ملتقطة من أشخاص جزئية بطريق الحواس

والدليل على ذلك الصبي لولا أنه قدر أن عشر جوزات أكثر من خمس ، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى لها ستة أذرع فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكثر من الجزء

وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات فانها مأخوذة أوائلها من الحواس . والدليل على ذلك أيضاً أنك تجد من كان أكثر محسوسات ولها أكثر تأملا وللمتخيلات أجود اعتباراً ، فان الاشياء المعقولة عنده أكثر عدداً ونفسه لها أكثر تحققاً . فقد تبين بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الاشخاص مجموعة في فكر النفس المسمى أنواعاً وأجناساً ، وأن العقل للانسان — اذا تبين — ليس هو شيء سوى النفس الناطقة إذا تصورت رسوم المحسوسات في ذاتها ميزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها وعرفت جواهرها وأعراضها وجربت أمور الدنيا واعتبرت تصاريف الايام بين اهلها

ثم اعلم أن كل من كان أكثر تأملا للمحسوسات وأدق نظراً في أمور الموجودات وأجود بحثاً عن الخفيات وأكثر تجارب للأمور الدنياوية وأحسن اعتباراً لأهلها كان أرجح عقلا من أبناء جنسه وأكثر علما من أهل طبقته

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في عقولهم تفاوتاً بعيدا جدا لا يقدر قدره إلا الله تعالى الذي خلقهم وفضل بعضهم على بعض كما اقتضت حكمته وسبق علمه في خلقه

ثم اعلم أن لتفاوت الناس في درجات عقولهم عللا شتى وأسباباً عدة فمن إحدى تلك العلل كثرة فضائل العقول ومناقب العقلاء التي لا يحصى عددها الا الله تعالى ، ولا يمكن أن تجتمع تلك الفضائل في شخص واحد موفرة كما بينا من امتناع ارتياض النفس الواحدة بجميع أصناف العلوم مع قصر العمر واعتراض العوائق ، ولأن كلية العلوم موضوعة بازاء قوى جميع الناس ، كما أن كلية الصناعات موضوعة بازاء قوى جميع الصناع

ولكن يجب للانسان أن يختار الأولى والأشرف والأفضل وذلك أن العقلاء هم أفاضل الناس والانسان أفضل من الحيوانات والحيوان اشرف من النبات ، والنبات الاركان ومخ طبائعها ، والانسان صورة مختصرة من جميع صور الحيوان وهو المجموع فيه أمزجة قوى النبات وخواص المعادن وطبائع الاركان والمولدات الكائنات منها أجمع

وهذه كلها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد فتفرقت في جميع الاشخاص هذه الصور فتكثر وتقل حتى عمرت الدنيا بهم ، فهذا أحد أسباب اختلاف طبائعهم واختلاف طبائعهم أحد أسباب اختلاف تفاوت عقولهم

والعلة الثانية في تفاوت الناس في درجاتهم في عقولهم هي خواص جواهر نفوسهم التابعة في إظهار أفعالهم لامزجة أبدانهم ، والثالثة هي كثرة غرائب علومهم ومعارفهم التي لا يمكن أن يحويها كلها انسان واحد ، الرابعة عجائب أفعالهم وفنون أعمالهم واختلاف صنائعهم وتصاريفهم في طلب معاشهم وأحكام تدبيرهم في سياستهم كثيرة لا تحصى ولا يمكن أن ينهض بها كلها انسان واحد ، والخامسة اختلاف أخلاقهم المتضادة في الحسن والقبح ومجاري عاداتهم بين الجودة والرداءة مما لا يمكن أن تجتمع كلها في انسان واحد ، والسادسة نشوءهم على اختلاف سنن دياناتهم وتباين مذاهب آبائهم وآراء استاذيهم ومعلميهم

ثم اعلم أن هذه الخصال والمناقب كلها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد ، فمن أجل هذا فرقت في جميع أشخاص الانسان كلها مع كثرتها ولا تخرج من صور الانسان البتة التي هي احدى الصور التي تحت فلك القمر وهي صورة الصور ، فلأجل ذلك تراه في غاية الاعتدال في حال الفطرة ثم تخرجه عن ذلك عاداته الحسنة والرديئة فتصير كالطبع له ، والعادة توأم الطبيعة ، وقيل طبيعة منتزعة ، وقيل صعب عادة منتزعة ، كما قيل صعب طلب ما ليس في الطبع

ثم اعلم أن هذه الصورة هي خليفة الله في أرضه متحكمة فيها مع كثرتها على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها حكم الارباب على خولها اذ سجدوا لها بجملتها وهي

صورة واحدة وان كانت أشخاصها كثيرة فان حكم جميع الاشخاص في هذه الصورة كحكم جميع أعضاء بدن الانسان الواحد لصورة نفسه وهي المتحكمة فى جميع البدن على عضو عضو ومفصل مفصل وحاسة حاسة من يوم الولادة الى يوم الفراق — كما بينا فى رسالة تركيب الجسد ، فهكذا حكم هذه الصورة فى جميع أشخاص البشر الاولين والآخرين من يوم خلق الله تعالى السموات والارض . وآدم أبو البشر الترابى له الحكم فى هذه الارض والربوبية على جميع ما فيها الى يوم القيامة الكبرى «فسجد الملائكة كلهم أجمعون» كما بينا فى رسالة البعث والقيامة . وإذ قد تبين مما ذكرنا طرفاً من علل تفاوت العقلاء فى درجات عقولهم نريد أن نذكر أيضاً كيف تبين فيهم رجحان العقول والمعقول وكيف يعرف ذلك فيهم

فصل

في بيان رجحان العقول للعقلاء

فنقول ان ذلك يتبين فيهم ويعرف منهم بحسب طبقاتهم فى أمور الدنيا ومراتبهم فى أمر الدين وهي كثيرة لايحصى عددها الا الله تعالى . ولكن نجمعها كلها فى هذه التسعة الاقسام للتقرب من الفهم ونحصرها للحفظ فنقول : ان منهم أهل الدين والشرائع والنبوات وأصحاب النواميس ومن دونهم من الموسومين بحفظ أحكامها ومراعاة سننها والمعروفين بالتعبد فيها ، ومنهم أهل العلم والحكماء والادباء وأصحاب الرياضات الموسومين بالتعاليم والتأديب والرياضات والمعارف ومنهم الملوك والسلاطين والامراء والرؤساء وأرباب السياسات والمتعلقين بخدمتهم من الجنود والاعوان والكتاب والعمال والخزان والوكلاء ومن شاكلهم ، ومنهم البناء والزارعون والأكرة والرعاة للشاة وساسة الدواب ورعاة الحيوان أجمع ، ومنهم الصناع وأصحاب الحرف والمصلحون للأمتعة والحوائج جميعاً ، ومنهم التجار والباعة والمسافرون والجلابون للأمتعة والحوائج من الآفاق ، ومنهم

المتعيشون الذين يعيشون فى خدمة غيرهم وقضاء حوائجهم يوماً بيوم ، ومنهم الضعفاء والسؤال والمكديون ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين

ثم اعلم أن كل انسان من أهل هذه الطبقات — كائناً من كان — لا يخلو من أن يكون فيها رئيساً سائساً لغيره أو يكون مرؤوساً مسوساً فيها بغيره ورجحان عقل كل رئيس سائس يتبين فيها ويعرف منه فى حسن سياسته وتدبير رياسته وحسن عشرته مع ابناء جنسه ما لم يخرج من سنة شريعته وحكم الناموس ورجحان عقل كل مرؤوس مسوس يتبين فيه ويعرف منه فى حسن طاعته لرئيسه وسهولة انقياده لأمر سائسه وحسن عشرته مع أبناء جنسه ما لم يكن ذلك قدحاً فى دينه أو نقصا لاعتقاده ، ورجحان عقل كل متدين يتبين فيه ويعرف منه فى حسن قيامه بواجبه عليه فى أحكام شريعته وسنة دينه وحسن عشرته مع أبناء جنسه ما لم يكن تاركا للافضل ولا غالياً فى دينه ولا متقلبا فى مذهبه ، ورجحان عقل كل عالم أو أديب أو حكيم يتبين فيه ويعرف منه فى حسن كلامه وتحصيل أقاويله وجودة تأديبه وحسن عشرته مع أبناء جنسه مالم يدع ما لا يحسنه او ينكر فضل غيره ، ورجحان عقل كل صانع وصاحب حرفة يتبين فيه ويعرف منه فى محكمات صنعته وحسن عشرته مع ابناء جنسه ما لم يتعاط مالا يحسنه او يتكلف ما ليس فى صناعته ، ورجحان عقل كل تاجر بائع مشتر يتبين فيه ويعرف منه فى صحة معاملته وحسن عشرته مع ابناء جنسه ما لم يكذب فى بيعه وشرائه ، ورجحان عقل كل فقير مسكين او ضعيف او مبتلا يتبين فيه ويعرف منه فى حسن عشرته وقلة جزعه وإجماله فى الطلب وحسن عشرته مع ابناء جنسه مالم يلح فى السؤال ويستخط عند الحرمان

﴿ فصل ﴾

في بيان فضل الفقراء والمساكين وأهل البلوى

فنقول اعلم أن هذه الطائفة هي رحمة للاغنياء وموعظة للمترفين ولمن كان معافاً ولارباب النعم ليكون كل عاقل معافى اذا فكر بهم واعتبر بأحوالهم علم

بان الذي أعطاه وعافاه هو الذي منعهم وابتلاهم ، ويعلم ان لم يكن للغنى المعافى عندالله يد واحسان جازاه بها ولا لواحد عند الله اساءة كافاه عليها . فاذا فكروا في هذه الاحوال واعتبروا أحوال الفقراء وأهل البلوى عرفوا حسن موقع النعم عندهم فيزدادوا لله شكراً يستوجبون به المزيد — كما قال الله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » فبهذا الوجه والاعتبار صاروا هم رحمة للاغنياء وموعظة لمن كان معافى ، وخصلة أخرى أيضاً أن أهل الدين ومن يؤمن بالآخرة اذا نظروا الى هؤلاء واعتبروا أحوالهم يزدادون يقينا من الآخرة ويعلم كل عاقل أن من بعد هذه الحياة الدنيا داراً أخرى يجازى بها هؤلاء المبتلون بما صبروا على مصائبهم من أمور الدنيا — كما قال تعالى — « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ».

ثم اعلم أن لهذه الطائفة — أعنى الفقراء وأهل البلوى — فضائل كثيرة ولله تعالى في ايجادهم حكمة جليلة تخفى على كثير من العقلاء والمترفهين من أبناء الدنيا فنها أنهم أشد الناس يقيناً بالآخرة من غيرهم من المترفين ، وأنهم أسرع الناس إجابة لدعوة الانبياء عليهم السلام من غيرهم من المترفين من أرباب النعم والاغنياء وأنهم أقل من غيرهم من الاغنياء وأنهم أخف مؤنة وأقل حوائج وأقنع باليسير وأرضى بالقليل من غيرهم من الناس ، وأنهم أكثر ذكراً لله تعالى في السر والعلانية وأرق قلوبا في الفكرة والتذكر ، وأخلص في الدعاء لله في السراء والضراء ، وخصال أخر كثيرة لو عددناها لطال الكلام ويخرج بنا عما نحن فيه . وانما ذكرنا طرفاً من فضائلهم لان كثيراً من العقلاء المترفين اذا نظروا اليهم يظنون بالله ظن السوء : فنهم من يرى أن الذي نالهم من ذلك من سوء اختيارهم وشؤمهم وخذلانهم ، ومنهم من يرى أن الصواب لو أنهم لم يخلقوا لكان ذلك خيرا لهم ، ومنهم من يرى أنهم معاقبين بما سلف منهم في الادوار الماضية من الذنوب ، وهذا رأي أصحاب التناسخ . ومنهم من يرى أن الله تعالى ليس يفكر بهم ولا يهمه أمرهم والا كان قادراً على أن يغنيهم أو يميتهم ويريحهم مما هم فيه من الجهد والبلوى ، ومنهم من يرى أن هذا ليس يجري بعلم عالم أو حكم حكيم بل هو بحسب سوء

اتفاق رديء، ومنهم من يرى أن هذه موجبات أحكام الفلك من غير قصد قاصد ولا صنع صانع. ومنهم من يرى أن هذا انما يفعل بهم ليجازوا به ويثابوا عليه. ومنهم من يرى أن هذه الحال أصلح لهم وأنفع من غيرها. ومنهم من يرى أن هذا كان في سابق العلم والقدر المحتوم لم يكن بد من كونه. ومنهم من يرى أنه اظهار القدرة وتحكم في الملك وانفاذ المشيئة. ومنهم من يرى أن هذه موعظة ووعيد وتهديد وتخويف لغيرهم. ومنهم من يرى أن هذا هو الأحكم والاتقن وان كان لا يدري ما وجه الحكمة في ذلك فليس إلا الايمان والتسليم والصبر والرضا بما يجري به القضاء والمقادير — كما قال تعالى — «ولنبلوكم أيكم أحسن عملا» وقال «أحسبتم أن تدخلوا الجنة» وانما ذكرنا في شرح هذا الباب لأن هذا البحث والنظر من احدى أمهات الخلاف بين العلماء المتفرع منها فنون الآراء والمذاهب وهي محنة لعقول ذوي الألباب، ورجحان عقل كل صاحب مذهب يتبين فيه ويعرف منه في نصرته لدينه بحجج متقنة ومساعدة لاهل مذهبه مما يتعلق به وحسن عشرته مع أبناء جنسه مالم يكن معتقداً للرأيين المتناقضين، فانه عند ذلك يكون مخالفاً لنفسه في مذهبه ومناقضاً لمذهبه باعتقاده، وهذا من أكبر العيوب عند العقلاء ومن أشنع اعتقادهم عند العلماء

ثم اعلم أنه ليس على العقلاء كثير عيب في مخالفة بعضهم بعضاً لان ذلك من أجل تفاوت درجاتهم كما ذكرنا قبل.

وأما مخالفة الانسان الواحد في نفسه في رأيه ومذهبه فانه يدل على قلة التحصيل ورداءة التمييز وسخف الرأي التى بأضدادها يفتخر العقلاء بعضهم على بعض. وخصلة أخرى في عذر العقلاء فيما يختلفون في الفروع: وذلك أنه عسر جداً اجتماع العقلاء على رأي واحد كلهم في شيء واحد. وانما يتفقون في الاصول ويختلفون في الفروع. فأما انسان واحد فليس يعسر أن يعتقد في شيء رأيا واحداً وأن لا يعتقد رأيين متناقضين. واذ قد تبين مما ذكرنا طرفاً من كيفية رجحان عقول العقلاء في تصرفاتهم في أمور الدين والدنيا وكيف يعرف ذلك

منهم فنريد أن نذكر طرفا من أحوال العلماء الذين هم أفضل العقلاء ونبين مراتبهم في العلوم والصنائع والمعارف وكيفية معلوماتهم التى فى أوائل العقول المتفق عليها بين أهل كل صناعة وعلم ومذهب فيما يخصهم وما يتميزون به عن غيرهم

فصل

في الفرق بين أصول الصنائع والعلوم وفروعها

فنقول اعلم أن لكل علم وأدب وصناعة ومذهب أهلا ولأهلها فيه أصولا فهم فيها متفقون كلها في أوائل عقولهم ولا يختلفون فيها وان كانت عند غيرهم بخلاف ذلك ، وان لتلك الأصول أيضاً فروعا وهم فيها يختلفون ، ولهم فى كل أصل قياسات عليها يتفرعون وموازين بها يتحاكمون فيما يختلفون — وهى كثيرة لايحصى عددها الا الله الواحد القهار ، ولكن نذكر منها طرفا ليكون ارشاداً لمن يريد النظر فيها والباحثين عنها فنبدأ أولا بصناعة العدد التي هي أول الرياضيات فنقول :

ان الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم لماهية العدد وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الاثنين وعلمهم بأن العدد ليس هو شيء سوء كثرة الاحاد يتصورها الانسان فى نفسه من تكرار الواحد في التزايد بلانهاية ، وعلمهم بأن تلك الكثرة كم بلغت لاتخلو من أن تكون أزواجا وأفراداً آحاداً وعشراتها ومئاتها وألوفها بالغاً مابلغ

وهذا هو الأصل المتفق عليه بين أهل صناعة الارثماطيقي الذين لايختلفون فيه .

وأما كمية أنواعها وخواص تلك الانواع فهم في معرفتها متفاوتو الدرجات كل ذلك بحسب تفاوتهم فى قوى نفوسهم وجودة بحثهم ودقة نظرهم وحسن تأملهم وكثرة اعتبارهم .

وهكذا أيضاً صناعة الهندسة فان الاصل المتفق عليه بين أهلها ومعرفتهم

بالمقادير الثلاثة التى هى الخط والسطح والجسم ، والابعاد الثلاثة التى هي الطول والعرض والعمق ومايعرض فيها من الزوايا والأشكال والاوضاع وما شاكلها ، فان هذه الاشياء كلها كانت في أوائل عقولهم وان كانت عندغيرهم بخلاف ذلك .

فأما أنواع هذه الأصول وخواص تلك الانواع ومايعرض فيهامن المناسبات العجيبة وماينتج عنها من المباحث الدقيقة ، فهم فيها متفاوتو الدرجات بحسب تفاوت قوى نفوسهم فيها وجودة بحثهم عنها ودقة نظرهم فيهاوشدة تأملهم لها.

وهكذا أيضاً حكم صناعة التنجيم الذي يسمى علم الهيئة فان الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بأن السماء كرية الشكل ، وأن الارض كرية أيضا موضوعة في وسط السماء ،وأن المركزواحد مشترك بها وان الارض ثابتة والسماء متحركة حولها على استدارة كدورة الدولاب في كل يوم وليلة دورة تامة .

وتركيب الافلاك التسعة وتخطيط الدوائر العظام وقسمة البروج الاثنى عشر ، والكواكب السبعة السيارة والثابتة الباقية ، وكيف تكون الارض فى مركز العالم . فان هذه الاشياء كلها كأنها في أوائل عقولهم إما تسليما أو استبصاراً أو برهانا وان كان عند غيرهم بخلاف ذلك

فان هذه الاشياء أوائل فى هذه الصنعة لتقررها واتفاق أهلها عليها سواء كانوا في اعتقاد صحتها مقلدين لغيرهم مسلمين لهم أو مستبصرين في ذلك يعلمونه ببراهين وان كان عند غيرهم بخلاف ذلك .

وأما معرفتهم بكيفية تركيب أفلاك التداوير والأفلاك الخارجة المراكز والأوج والحضيض والجيب والميل والعرض والطول وما توصف به البروج من الاوصاف المختلفة وما توصف به الاقاليم السبعة وأحوالها في الطول والعرض واختلاف الليل والنهار فيها وماشاكل هذه المباحث ، فانهم في معرفتها متفاوتو الدرجات ، كل ذلك بحسب تفاوت قوى نفوسهم وجودة بحثهم عنها ودقة معرفتهم فيها وشدة تأملهم لها

وأيضاً حكم صناعة التأليف الذي يسمى الموسيقى فان الاصل المتفق عليه بين

أهلها هو معرفتهم بالنسب التي هي العددية والهندسية والتأليفية: وذلك أن كل مصنوع مركب من أشياء مختلفة لانه لايخلو تركيب أجزاءه وتأليف بنيته من إحدى هذه الثلاث فما كان منها تأليفه على النسبة الافضل فانه يكون أحكم اتقانا وأجود هنداما وأحسن نظاما وما كان على النسبة الأدون فهي بخلاف ذلك ، وما كان بينهما فهو متوسط .

والناظرون في هذا العلم والصناعة هم في معرفته متفاوتو الدرجات بحسب تفاوت قوى نفوسهم وجودة قرائحهم وصفاء أذهانهم وكثرة رياضاتهم وطول دربتهم ونظرهم وبحثهم عنها وتأملهم لها

وهكذا أيضاً حكم علم الطبيعيات يعنى بها الاجسام وما يعرض فيها من الاعراض المتفننة وما يوصف بها من الصفات المختلفة ،وهى كثيرة الفنون ولكل فن منها أصول ولها فروع ولكن الأصل الاول فيها كلها المتفق عليه بين أهلها هو معرفة خمسة أشياء وهي الهيولى والصورة والمكان والزمان والحركة لأن هذه الاشياء الخمسة محتوية على كل جسم — فلكياً كان ذلك الجسم أومادونه من الاركان .

فأما الذي يتفرع من هذا الأصل فنوعان : أحدهما عالم السموات والافلاك والآخر عالم الكون والفساد الذى هو تحت فلك القمر والاصل المتفق عليه بين أهل هذا العلم هو معرفتهم بأن حكم العالم بجميع أفلاكه وطبقات سمواته والقوى السارية فيها تجري مجرى جسم انسان واحد وحيوان واحد يتحرك عن محرك واحد بحركة واحدة.

وأما كيفية تركيبها وفنون حركاتها وما يختص كل واحد منهافهم في معرفتها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم وشدة بحثهم عنها وجودة نظرهم فيها وشدة تأملهم لها.

وهكذا حكم الكون والفساد فان الأصل المتفق عليه بين أهلها فيها هو معرفتهم بالطبائع الاربع التى هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والاركان

الاربعة التي هي النار والهواء والماء والارض ، وكيفية استحالة بعضها الى بعض في بعض الازمان و بعض المكان .

وأما فنون الكائنات منها في تلك الاماكن وفي تلك الازمان وفى تلك الأجناس فانهم في معرفتها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم وجودة بحثهم ونظرهم وتأملهم .

واعلم يا أخي ان الكائنات التي هي من استحالة هذه الاركان أربعة أنواع : فمنها حوادث الجو وتغيرات الهواء ، ومنها الكائنات التي في باطن الارض المسماة المعادن ، ومنها الكائنات على وجه الارض التي تسمى النبات ، ومنها الكائنات التي تسمى الحيوان ، وكل جنس من هذه الاربعة فان النظر فيه هو صناعة قائمة بنفسها .

فاما الاصل المتفق عليه في حوادث الجو بين أهل هذه الصناعة فهو معرفتهم بطبيعة كرة النسيم وكرة الزمهرير وكرة الاثير والبخارين الصاعدين : الرطب واليابس من البحار والبراري .

فأما كيفية حوادث الكائنات منها والرياح والأمطار والبروق والرعود والبرود والثلوج والهالات والشهب وذوات الاذناب في هذه الأكر وبين سطوحها المشتركة فانهم في معرفتها متفاوتو الدرجات ، كل ذلك بحسب تفاوت قوى نفوسهم وجودة بحثهم ونظرهم وتأملهم .

وهكذا الأصل المتفق عليه في كون المعادن وهو معرفتهم بالزئبق والكباريت اللذان هما عنصران ولباب جواهر المعدنية كلها .

وأما علة اختلاف بقاع الارض والمواضع المخصوصة لها وفنون انواعها مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والاسرب والحديد والكحل والزرنيخ والشبوب والزاجات والاملاح والنفط والقار والاسفيذاج وماشا كلها وخواصها وتصاريفها فهم في معرفتها وعلمها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم وجودة تأملهم لها .

وهكذا أيضاً حكم النبات فان منه ماله حب أو بذر يزرع، ومنه ماهو أشجار تغرس ومنه ماهو حشائش تنبت، وكذلك حكم الحيوان فان منها مايتولد فى الارحام ومنها مايخرج من البيض ومنها مايكون من العفونات، فهذا هو الاصل المتفق عليه بين أهلها .

وأما معرفتهم بعلة اختلاف انواعها وخواصها واختلافها وأفعالها ومتصرفاتها ومنافعها ومضارها فان أهلها فيها متفاوتو الدرجات ، كل ذلك بحسب قوى نفوسهم فيها وجودة بحثهم عنها ودقة نظرهم وتأملهم فيها.

وأما علوم المنطق فهي نوعان : لغوى وفلسفي . فاللغوي مثل صناعة النحو والأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالاسماء والافعال والحروف وأعرابها من الرفع والنصب والخفض ، ومثل صناعة الخطب التى الأصل فيها هو معرفة السجع والفصاحة وضرب الامثال والتشبيهات ، ومثل صناعة الشعر التى الأصل فيها معرفة المفاعيل والاسباب والأوتاد والحروف المتحركات والسواكن

فأما النظر فى فروعها ومعرفة المزحفات منها والعويص وعللها فهم فيها متفاوتو الدرجات بحسب نفوسهم وطول دربتهم ودوام رياضتهم .

وهكذا أيضاً المنطق الحكمى هو فنون شتى منه : صناعة البرهان ، ومنه صناعة الجدل ، ومنه صناعة السفسطا أي يعنى المغالطين.

فأما صناعة البرهان فان الاصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بمعاني الستة الألفاظ التى في ايساغوجي ، والعشرة التى فى كتاب قاطيغورياس والعشرين كلمة التى في باريمينياس ، والسبعة التى فى أنولوطيقا.

فأما مايتفرع من فنون المعاني ومايعرض فيها من غرائب المباحث فبحر عميق قد تاه فيه افهام كثير من الناظرين فيها وتحيرت عقول كثير من المباحثين عنها لدقة المعاني لهذه الصناعة وعجيب أصولها وكثرة فروعها وبعد مرامي أهلها لان من هذه الصناعة نعرف آداب الفلسفة وأدب الحكم وميزان العقل ومقاييس الحقائق التى تسمى البرهان .

فقد تبين مما ذكرنا أن لكل علم وصناعة أصول منفقق عليها بين أهلها وكأنها في أوائل عقولهم ظاهرة بينة وان كان غيرهم بخلاف ذلك مثال ذلك قول المهندسين : ان كل ضلعين من أضلاع المثلث مجموعين هما أطول من الباقي أي من الضلع الثالث ، فان هذه الحكومة عندهم كأنها في أولية عقولهم ظاهرة بينة . وأما قولهم إن الضلع الاطول من كل مثلث يوتر الزاوية العظمى فهو أدق وأخفى قليلا فيحتاج فيه الى تأمل . وأما قولهم أن الزوايا الثلاث من كل مثلث مساوية لزاويتين قائمتين فيحتاج فيه الى برهان ومقدمات .

وهكذا أيضاً صناعة المنطق فان فيها أشياء كأنها في أوائل عقولهم ظاهرة بينة ، وهو قولهم : الضدان لايجتمعان في شيء واحد في زمان واحد ، فان هذه الحكومة بينة ظاهرة .

وأما التي هي أدق من هذا ويحتاج فيها الى البرهان فهي مثل قولهم : كون كل شيء فساد لشيء آخر .

وعلى هذا المثال يكون حالهم في المقولات عند أهل كل صناعة وعلم وأدب ومذهب . يوجد أشياء كأنها في أوائل عقولهم وأشياء أخر مثل ثوان وثوالث وروابع بالغاً مابلغ . مثال ذلك أن الحكومات التي في كتاب المجسطي على هيئة الافلاك في تركيبها هي بعد النظر في علم المناظر ومعرفة الأبعاد والأجرام ، وعلم المناظر بعد علم الهندسة والنظر في كتاب اقليدس ، وعلى هذا المثال أوائل كل صنعة مأخوذ من صناعة أخرى قبلها ، وان علم البرهان بعد المعقولات والمحسوسات .

واعلم أن كل صناعة مأخوذة من صناعة أخرى كما تقدم ذكره وأن أهل كل صناعة أو علم أو مذهب هم بصناعتهم وأصولها وفروعها أعلم وأعرف من غيرهم ، وانما ذلك لتعلمهم لها ودربتهم فيها وطول تجاربهم اياها .

فأما سبب اختلافهم في فروعها فهو من أجل تفاضلهم فيها وأن المتعلم المبتدي بها لا يمكنه أن يسأل الفاضل الكامل فيها ويعارضه ويطالبه بالدليل والحجة

ويناقضه من غير بصيرة ولا بيان ، وهـذه البلية العظمى فى الصنايع والعـلوم والمحنة على أهلها الفاضلين فيها ولـكن من أشد بلية على الصناعة وأعظم محنة على أهلها هو أن يتكلم عليها من ليس من أهلها ويحكم فى فروعها ولا يعرف أصلها فيسمع منه قوله ويقبل منه حكمه ، وهذا الباب من أجل أسباب الخلاف الذي وقع بين الناس فى آرائهم ومذاهبهم ، وذلك أن قوما من القصاص وأهل الجدل يتصدرون في المجالس ويتكلمون في الآراء والمذاهب ويناقضون بعضها بعضاً وهم غير عالمين بماهيتها فضلا عن معرفتهم بحقائقها وأحكامها وحدودها فيسمع قولهم العوام ويحكمون بأحكامهم فيضلون ويضلون وهم لا يشعرون

واعلم أن الجدل هو أيضاً صناعة من الصنائع ولـكن الغرض منها ليس هو إلا غلبة الخصم والظفر به كيف كان ، ولذلك يقال : الجدل فتل الخصم عما هو عليه إما بحجة أو شبهة أو شعبة وهو الثقافة في الحرب ، والحرب كما قيل خدعة وهو يشبه الحرب والمعركة اذ الحرب خدعة

فصل

ثم اعلم أن الاصل فى هذه الصناعة المتفق عليها بين أهلها هو معرفة الدعاوي والسؤالات والجوابات والدليل .

فأما كيفية السؤالات وأجوبتها والاستدلالات بالشاهد على الغائب وبالظاهر على الباطن وبالمحسوسات على المعقولات والحكم على الكل باستقراء الأجزاء فى أى شيء يجوز وفي أي شيء لا يجوز ، وكيف اطراد العلة فى معلولاتها وكيفية قياس الفروع على الاصول ومعارضة الدعوى بالدعوى ، والدليل بالدليل ، وقلب المسألة على الاصـل ومناقضة أصلها لفروعها ، ومقايسة الاصل بالاصل والفرع بالفرع ، ولوازم الشناعات وما يعرض فيهـا وفى معرفتها لاهلها من الانقطاع والشكوك والحيرة فهم فيها متفاوتو الدرجات كل ذلك بحسب قوى توسمهم وجودة ذكائهم ودقة نظرهم وبحثهم ومكابرتهم ووقاحتهم وشغبهم

ثم اعلم أنه ليس من صناعة ولا علم ولا أدب يعرض لاهله فيها من الحيرة والدهشة والشكوك والظنون والخطأ والعدوان والبغضاء بينهم ما يعرض لاهل صناعة الجدل فيما يعتقدون فيها ويجادلون عنها . والعلة فى ذلك أسباب شتى : منها أن جميع الصنايع والعلوم والمذاهب والآراء موضوعة لهم يتكلمون عليها ويعارضون فيها ويجادلون عنها قبل النظر والبحث عنها والعلم فيها ، وعلة أخرى أنه يمكن أن يداخلهم فى صناعتهم من ليس منهم بالسؤال لهم والمعارضة فى دعاويهم والمناقضة لاجوبتهم ، لان السؤال أسهل من الجواب والمعارضة دعوى تحاذي دعوى ، والمناقضة أسهل من اثبات الحجة لأنها افساد ، والافساد أسهل من الاصلاح فى أكثر الاشياء ، وخصلة أخرى أنهم ربما يكونون مقلدين فى أصول ما يجادلون فيه من المذاهب فيبصرون الفروع ، ومن يكون فى الاصل على التقليد كيف يمكنه أن يبصر الفروع على تبصرة وخصلة أخرى ، إن أكثرهم ربما جادل فيصر الرأي والمذاهب لا على سبيل الورع والتدين وطلب الحق لكن على سبيل التعصب والحمية ، والتعصب والحمية يعميان عن الحق ويضلان عن الصواب .

ثم اعلم أنه ليست من طائفة تتعاطى العلم والأدب والكلام أشر على العلماء ولا أضر على الانبياء ولا أشد عداوة لاهل الدين وأفسد للعقول السليمة من كلام هذه الطائفة المجادلة الظلمة . وخصوماتهم فى الآراء والخصومات والمذاهب وذلك انهم ان كانوا في أزمان الانبياء عليهم السلام وعند مبعثهم فهم الذين يطالبونهم بالمعجزات ويعارضونهم بالخصومات ، مثل ما قالوا للنبى عليه السلام : «لمن نؤمن لك حتى تفجرلنا من الأرض ينبوعاً» وقالوا لنوح عليه السلام « وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا» وهم الذين اذا مروا بالمؤمنين يتغامزون وقال تعالى في ذمهم « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » فهذه حال من كانوا يعارضون أهل الدين في أزمان الانبياء عليهم السلام

فأما اذا كانوا في غير أزمان الانبياء فهم الذين يعارضون أهل الدين والورع بالشبهات وينبذون كتب الانبياء عليهم السلام وراء ظهورهم يفرعون الآراء

والمذاهب بعقولهم الناقصة وآرائهم الفاسدة ويضعون لمذهبهم قياسات مناقضة واحتجاجات مموهة ويعارضون بها العقلاء من الاحداث والعامة فيضلونهم عن سنن دياناتهم النبوية ويعدلون بهم عن موضوعات الشرائع الناموسية

ثم اعلم انه ليس من صناعة بين اهلها من التفاوت ما بين اهل هذه الصناعة، وذلك انك تجد فيهم من يكون له جودة عبارة وفصاحة كلام وسحر بيان يقدر معه على ان يصور بوصفه البليغ الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق وهو مع ذلك جاهل القلب عن حقائق الاشياء بعيد الذهن عن المعارف

وروى عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم « اخوف ما اخاف على امتي رجل منافق عليم اللسان غير حكيم القلب يغيرهم بفصاحته وبيانه ويضلهم بجهله وقلة معرفته » .

وتجد فيهم ايضاً من يجادل ويحتج ويناظر ، كلامه ينقض بعضه بعضاً ولا يدري بذلك ، فاذا نبه عليه لم يشعر به ، وتجد فيهم ايضاً الرجل العاقل الذكي المحصل في اشياء كثيرة من امور الدنيا فاذا فتشت اعتقاده في اشياء بينة ظاهرة في العقول السليمة من الآراء الفاسدة وجدت رأيه واعتقاده في تلك الاشياء اسخف واقبح من رأي كثير من الجهال والصبيان

والعلة في ذلك اسباب شتى : منها شدة تعصبه فيما يعتقده بقلبه من غير بصيرة وأخرى اعجابه بنفسه في اعتقاده واخرى اعتقاده الاصول خفي فيها خطؤه بين ظاهر الشناعة في فروعها ، فهذا يلزم ذلك الشناعات في الفروع مخافة ان تنتقض عليه الاصول ويطلب لها وجوه المراوغة عن الزام الحجة عليه ، تارة يشغب وتارة يموه وتارة يروغ في الجواب والاقرار بالحق ويأنف ان يقول لا ادري والله ورسوله اعلم ! كما كان في زمان النبي ﷺ اذا سئلوا عما لا يدرون قالوا الله ورسوله اعلم اقتداء بامر الله كما قال : وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله وقال : « ولو ردوه إلى الله ورسوله وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

ولكن كثيراً من المجادلة يعتقد أن لا رجوع له إلى الله على الحقيقة ، ولا يرجو لقاءه ولا يجوز رؤيته لما نظر بعقله الناقص أداه اجتهاده الى هذا الرأي فترك ما ذكر الله فى كتابه في عدة مواضع وذلك قوله : «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق» وقوله : « الى الله مرجعكم جميعاً ثم يحكم بينكم يوم القيامة » وقوله : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون » وقال « من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت » وقال « ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم » « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق » . وقال المسيح عليه السلام «أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » وآيات كثيرة في هذا المعنى

ولكن من هؤلاء من يحتج ويقول معنى الرجوع الى الله أي الى ثوابه ، ولو انهم اعتبروا سنن الديانات النبوية والموضوعات الناموسية الالهية كيف فرض فيها واضعوها في كل سبعة أيام يوماً لترك الاعمال والاشتغال لامور الدنيا والفراغ للعبادة والاجتماعات في بيوت العبادات من المساجد والبيع والكنائس والهيكل بالصوم والصلاة والقرابين في الاعياد والبروز الى الصحراء والمنابر والخطب والسكوت والاستماع للمواعظ والتذكار للأمر المعاد بأن هذه كلها اشارات ومرامي أحوال القيامة التي في سبعة آلاف سنة تعرض للنفوس الجزئية المتجسدة لدى النفس الكلية لفصل القضاء ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، فلو تركوا جدالهم واشتغلوا بما ينفعهم من أعمالهم الصالحة والتخلق بالاخلاق الجميلة وطلبوا الآداب المحمودة لكان خيرا لهم من الجدال والخصومات والغضب والتعصب والعداوات

ولكن لاستيلاء المريخ عليهم فى مواليدهم يحثهم على ذلك وقوة المرارة تنمي الى أمزجتهم فيقيمهم على مثلها فتطول صحبتهم مع استاذيهم ورسائلهم معودون ذلك ودوامهم فيما يتدربون به فيصير عادة لهم لا يصبرون عنها !

فلا تطمع يا أخي في صلاحهم وانما أكثرنا ذكر هذه الطائفة المجادلة لان كثيرا من أسباب الخلاف فى الاراء والمذاهب من قبلهم يقع وهم السبب فيه

لأنهم يتكلمون الكلام والجدال والحجاج في دقائق العلوم ويتركون تعلم أشياء واجب عليهم تعلمها وهي بينة ظاهرة جلية وهم يجهلونها جملة

فصل

في بيان آداب الجدال

فنقول اعلم أن كل مسألة تنازع فيها اثنان أو جماعة فلا يخلو من أن يكونوا من أهل تلك الصناعة التي المسألة منها أو يكونوا من غير أهلها فان كانوا من غير أهلها فكلامهم فيها على غير أصل مقرر منهم ، وكل كلام ومنازعة في شيء على غير أصل مقرر منهم فلا تحصيل لكلامهم فيه ولا حجة لدعاويهم ، وإن كان أحدهما من غير أهلها فان منازعته لصاحبه تعد منه وظلم ، وكلام صاحبه معه أيضا تخلف منه اذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته ، وان كان من أهل تلك الصناعة فلا يخلو من ان يكونا متساويى الدرجة فيها أو متفاوتين ، فان كانا متفاوتين فحكمهما مثل ما تقدم ذكرها من ذكر حكم الاولين وان كانا متساويى الدرجة فى تلك الصناعة فسبيلهما أن يؤاخذا فيما اختلفا فيه الى قوانين تلك الصناعة وأصولها ويقيسان عليها تلك المسألة وان كانت من فروعها

وان لم يكن فى قوة نفوسهم استخراجها فسبيلهما أن يتحاكما الى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما

وان لم يجدا من يحكم بينهما فيرضيان بحكمه ولا في قوة نفوسهم استخراجها من الاصول فليس لهما الا الترك لتلك المسألة والسكوت عنها ، فان لم يفعلا ما وصفنا في الجدال والخصومة فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما كلما ازدادوا الحاحا ازدادوا خلافاً على خلاف وعداوة على عداوة وبغضا الى يوم القيامة وتكون تلك حالهم ، وهذا من أحد أسباب اختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب

فأما بيان فنون القياسات فاعلم حسب ما نبين هاهنا . وذلك أن الامور التى

يعلمها الانسان ثلاثة أنواع : ماض ومستقبل وحاضر ، فعلمه بما هو حاضر في الوقت موجود في طريقة احدى الحواس ، والحواس قد تخطيء وتصيب في ادراكاتها محسوساتها لعلل شتى قد بينا طرفاً فيما قد تقدم ذكره

وعلمه بما كان من الامور ومضى مع الزمان وانقضى مع الايام أو غاب عنه بالمكان فهو بطريق السمع والاخبار ، والمخبر قد يكون صدوقاً وقد يكون كذوباً وهكذا أيضا رب مستمع مكذب بالصدق ، ورب مستمع مصدق بالكذب . فأما علمه بما سيكون أو غائب عنه بالمكان فقد يكون بعضا بالقياس ، والقياس قد يكون صحيحا وقد يكون سقيما

وهكذا المستعمل للقياس قد يكون جاهلا باستعماله كما بينا في قياس الصبيان والجهال والعوام وكثير من الخواص . وهذا أيضا أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب

ثم اعلم أنك اذا اعتبرت ودققت النظر تبين أن أكثر علم الانسان انما هو بطريق القياس ، والقياسات مختلفة الانواع كثيرة الفنون كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها

مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الاطباء ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين ، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين وهكذا قياسات المنطقيين في الرياضات لا تشبه قياسات الجدليين ولا تشبه قياساتهم في الطبيعيات ولا في القياسات والالهيات

وهكذا الحكم في سائر الصنائع والعلوم . وسنذكر طرفا من ذلك في موضعه ولكن نقول أول ما القياس ؟ وذلك أن القياس هو الحكم على الامور الكليات الغائبات بصفات قد أدركت جميعها في بعض جزئياتها

مثال ذلك : لما أدرك الانسان ان النيران الجزئية حارة حكم بأن كل نار حارة أيضا الغائبة قياسا على ما ادرك حسا وهكذا حكم على رطوبة الماء من جزئياتها على كلياتها بالحس جزئية والعقل كليا

واعلم ان هذا الحكم وهذا القياس لا يطرد في كل شيء ولا في كل مكان وذلك ان يكون في كثير من البلدان اناس عقلاء لا يجدون من الماء الا عذبا ، فاذا حكموا بما ادركوا على ان كل ماء في الارض عذب فقد اخطأوا وهم لا يشعرون وعلى هذا المثال يكون الخطأ والصواب في القياس الذي يطرد في كل شيء

واذا تأملت يا اخي وجدت اكثر اختلاف العلماء وخطائهم انما في استعمال القياس من هذا الفن ، يكون ويخفى وهم لا يشعرون . وان علموا ايضا لا يحسنون كيف يميزون من الاشياء التي يطرد فيها

والقدماء الحكماء قد تعبوا في استخراج هذا حتى عرفوه ووضعوه في كتبهم بخطب طويل لا يصبر على طلب معرفته كل احد من الناس الا المحبون للحكمة الطالبون للحقائق ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في رسائلنا المنطقية ، ولكن نذكر منها طرفا في هذا الفصل مثالا واحداً

إعلم يا أخي ان القياس الذي يطرد الحكم فيه بالجزء على الكل انما هو في الصفات الذاتية للشيء لا في الصفات العرضية ، والصفات الذاتية هي التي اذا بطلت بطل الموصوف ، واذا ثبتت ثبت الموصوف : وهي الصورة المقومة ، والصفة العرضية هي التي اذا بطلت لم يبطل الموصوف

والمثال في ذلك رطوبة الماء وعذوبته فان الرطوبة اذا بطلت لا يكون الماء موجودا

فأما العذوبة فليس من الضروري اذا بطلت بطل الماء فالرطوبة هي الصورة المقومة للماء والعذوبة هي الصورة المتممة له

فعلى هذا المثال ينبغي أن يعتبر الحكم في القياس لا يصيب ولا يخطيء

واعلم ان الحكماء الاولين لما اثبتوا الذي ذكرنا وعلموا ان اكثر علمهم انما هو بطريق القياس وقد يدخل الخطأ والزلل في القياس — كما بينا — طلبوا لذلك حيلة يأمنون بها الخطأ والزلل في القياس وسموها البرهان وميزان العقل من أجل طلب الحقائق وإصابة الصواب وتجنب الزور والغرور بما لا حقيقة له . لكن منهم مصيب ومنهم مخطيء « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »

ثم اعلم أن كثيراً من أهل الجدل يظنون ويحكمون بحكمهم وظنونهم أن الله سبحانه وتعالى كلف عباده طلب الحقائق واصابتها جميعاً ، وجعل لهم وعيداً إن أخطؤا ، او لم يصيبوا وليس الامر كما ظنوا لانه قال «لا يكلف الله نفساً الا وسعها» والوسع دون الجهد والطاقة ، واصابة الحق ليس فى وسع الطاقة فكيف ؟! ولا فى وسعها وانما كلف الله العباد طلب الحقائق والجهد فى الطلب .

فأما اصابتها فالله يهدي من يشاء اليها — كما وعد جل جلاله — « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا » وانما شرط بقوله فينا لان من الناس من لا يكون جهده في الطلب لوجه الله ولكن لأسباب أخر يطول شرحها . فمن أجل ذلك لا يستحق الهداية ولا يستأهل الاصابة

ثم اعلم أن هذه المسألة من احدى مسائل أمهات الخلاف : وذلك أن كثيراً من الناس من يقول أو يظن انه مستغن عن العلوم فى طلب الحقائق بما رزقه الله تعالى من الفهم والتمييز والذكاء والاستطاعة ، فيتكل على حوله وقوته وينسى ربه والاستعانة به والسؤال له والتوفيق ، فيخذل ويحرم التوفيق كما قال الله تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم »

فصل

فى بيان أنواع القياسات

فنقول اعلم أن الموازين التى وضعها الحكماء ليعرف بها الخطأ والزلل في القياس مختلفة الفنون ، وذلك بحسب الصنائع والعلوم والقوانين كما هو موجود فى اختلاف موازين أهل البلدان النائية ومكاييلهم معروفة بينهم بحسب موازين أهل البلدان فى موضوعاتهم ، ولكن مع اختلافها كلها فالغرض المطلوب منها هو اصابة الحق والعدل والانصاف فيما يتعاملون بينهم في الاخذ والاعطاء ، فهكذا أيضاً غرض الحكماء فى استخراج البرهان الذي يسمى ميزان العقل ، وهو طلب الحقائق واصابة الصواب وتجنب الزور والخطأ باستعمال القياسات ، ولكن منهم من يصيب ومنهم

من يخطىء أيضا فى استعمال هذه الموازين ، وذلك من احدى ثلاث خصال : إما بجهله بحقيقة هذه الموازين وكيفية استعمال هذا الميزان ، أو لغرض من الاغراض فى موازين الناس ومكاييلهم المعروفة بينهم والمستعملين لها كيف يدخل الخطأ والزلل عليهم واما بجهلهم بصحة الميزان وبكيفية استعمالهم له أو لغرض من الاغراض فأما واضعوها فما قصدوا فى وضعها إلا لطلب الحق والصواب والعدل والانصاف

واعلم أن الموازين التى وضعها الحكماء فى طلب حقائق الأشياء فى العلوم والصنائع كثيرة لا يحصى عددها الا الله الواحد القهار ، ولكن كلها لا تخرج عن ثلاثة أنواع : إما أن يستعمل بالايدى أو باللسان أو بالضمير ، والتى تستعمل بالايدي كالقبان والشاهين والمكاييل والموازين والاذرع وماشا كلها . وبالجملة كل مقياس يستعمله الناس في معاملاتهم في الاخذ والاعطاء فى طلب العدل والانصاف بينهم .

ومنها ما يستعمله المنجمون وأصحاب الرصد وقسام المياه كالبركار والاصطرلاب وآلات الرصد ، كل ذلك في طلب معرفة أجزاء الزمان ومقادير الاوقات .

ومنها ما يستعمله المساح والقسام والمهندسون في طلب معرفة الأجرام والابعاد كالذراع والباب والأشل وذوات الشفتين وماشا كلها .

ومنها ما يستعمله الصناع في صنائعهم كالبركار والمسطرة والكونيا والشاقول والزاوية وماشا كلها ، كل ذلك لمعرفة الاستواء والاعوجاج .

ومنها ما يستعمله أهل كل صناعة على حدتها . فأما الذى يستعمله باللسان فمثل العروض التى يستعملها الشعراء والخطباء والنحويون والموسيقون ، فاما التى تستعمل بالضمير فهو مثل ما يستعمله الفقهاء الحكماء عند تفكرهم في المعلومات المحسوسات والمشاهدات واستخراجهم بها الخفيات المعقولات وصحة القياسات فى ادراك المبرهنات

ثم اعلم أن هذه المقاييس كلها طرقات الى المعلومات ، وهذه الموازين حكام

وعدول نصبها البارى تعالى بين خلقه ليتحاكموا اليها في طلب العدل والانصاف والحقائق والاستواء ويجتنبون الزور والخطأ والظلم والجور ويرفعون بها الخلاف والمنازعة من بينهم بحزر الظنون وتخمين الرأى

ثم اعلم أنه قد يقع الخلاف والمنازعة بين المستعملين للقياس والموازين أيضاً من جهات أربعة : إما بقصد من المستعملين لها دغلا وغشاً لاغراض لهم ، وإما بسهو منهم ، وإما بجهلهم بكيفية استعمال الميزان ، وإما أن يكون القياس والميزان معوجاً غير مستو ، أجل هذه الوجوه يقع الخلاف والمنازعة بين أهلها فهذه أيضاً أحد أسباب الخلاف بين العلماء فى آرائهم ومذاهبهم

ثم اعلم أن هذه الموازين والمقاييس التى تقدم ذكرها كلها دلالات ومثالات واشارات الى الموازين التى ذكرها الله تعالى بقوله : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا »

ثم اعلم أن هذا الميزان هو آخر الموازين كلها فمن رجحت حسناته فى هذا الميزان فقد أفلح وربح سعادة أبدية وفاز فوزاً عظيما ، ومن خفت موازينه فقد خاب وخسر خسراناً مبيناً

فانظر لنفسك ياأخى وبادر واعمل عملا صالحاً وتزود فان خير زادك التقوى وحاسب اليوم نفسك قبل أن تحاسب فهو أيسر لحسابك ، وكن وصيها تأمن تفريط وصيك بعدك ، وزن اعمالك اليوم ولا تغفل قبل أن تحاسب بموازين الغد فهو أثقل لوزن حسناتك — ان كنت تحسن هذا الوزن وهذا الحساب كيف يكون وإن كنت لاتدري ولا تحسن فهلم الى مجلس اخوانك نصحاء أصدقاء كرام فضلاء ليعرفوك كيفية محاسبة نفسك ووزن حسناتك فانهم أهل هذه الصناعة وقد قيل «استعينوا في كل صنعة باهلها»

وقد وضعنا هذا الحساب وهذا الميزان فى رسالة البعث والقيامة فاعرفها من هناك ، إذا وقفت على جبل الاعراف مع أهل المعارف الذين ذكرهم الله تعالى ووصفهم بقوله : « وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . ونادوا أصحاب

الجنة سلام عليكم بما صبرتم » ثم وصفهم بقوله : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »

فلا تغتر يا أخي بقول من يقول ويظن بان هذا يعرف بعد الموت هيهات هيهات أولئك ينادون من مكان بعيد كيف يعرف بعد الموت والله تعالى يقول: « ومن كان في هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا »

نبهك الله أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وأحيا قلبك بنور المعارف وجعلك من الذين ذكرهم بقوله : « أفمن كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وظلمات الجهالات المتراكمات بعضها فوق بعض على قلوب الغافلين كما ذكر في كتب النبوات من المعارف الشريفة والاسرار المكنونة التى لا يمسها الا المطهرون من ادناس الشهوات الطبيعية والغرور باللذات الجرمانية الذين ذمهم الله بقوله : « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » وقال : « يريدون عرض الدنيا » وقال : « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » وقال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً » وآيات كثيرة في القرآن في ذم المريدين للدنيا ومدح المريدين للآخرة وفقك الله لافادة الدار الآخرة وجعلك من أهلها وجميع اخواننا

وإذ قد تبين بما ذكرنا طرفاً من مقاييس أهل الصنائع والعلوم وموازين الحكماء فيها نريد أن نذكر طرفاً من مذاهبهم وآرائهم وبخاصة ما كان فى أمر الدين اذ كان هذا الفن من المباحث والمطالب ومن أشرف الصنائع البشرية والطف العلوم الانسانية وأعجب المعارف وأعرف الادراكات وأهلها أعقل الناس ومدركاتهم أكثر من المعلومات ، وذلك ان هذه الدرجة احق درجة يبلغ اليها العقلاء في طلبهم العلوم والمعارف وهذا البحر من العلم أوسع أقطاراً وقعره ولجه أعمق اغماراً وجواهره أنفس أقداراً وسالكوه أبعد مراما وربحهم أكثر تزايداً وأحزانهم أعظم مصيبة من سائر ماتقدم ذكره لان من أرشد في هذا الطريق فسيرته سيرة الملائكة ومن ضل عنه سلك به مسلك الشياطين والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وسنبين صحة ماقلنا وحقيقة ماوصفنا عند ذكرنا الآراء الحكمية والمذاهب البدعية الفرقية والديانات النبوية والمنهاجات السنية والسير الملكية والمقاصد الربانية •

فصل

في أجناس الآراء والمذاهب

فنقول : اعلم أن الاراء الفاسدة واختلاف العلماء فيها منها ماهو من أمر الدين والشريعة وسننها ومايتعلق بها من العلوم والأحكام

ومنها ماهو فى الآداب والرياضيات والعلوم والصنايع مما ليس له تعلق بامر الدين مثل الحساب والهندسة والنجوم والنحو والطب وماشا كلها.

فأما التى لها تعلق بأمر الدين فهي كثيرة لايحصى عددها الا الله ولكن يجمعها كلها نوعان : حكمية ونبوية ونريد أن نذكر أصول هذه الاراء والمذاهب وبعض فروعها مختصراً أوجز مما يمكن وإذكان الشرح والاستقصاء يطول فنبدأ أولا في بيان الآراء الحكمية ومذاهبها إذ كنا قد بينا طرفاً من الآراء النبوية في رسالة النواميس الالهية والمذاهب الربانية ولكن نريد أن نذكر من ذلك مالابد في هذا الفصل جملا قبل ذكرنا الآراء الحكمية والمذاهب البدعية ليكون الناظر فيها يحفظها ويعتقدها ويتعلق بقلبه قبل نظره فى الآراء الحكمية والمذاهب البدعية والبحث عنها والاحتجاجات عن اهلها المفسدة للعقول السليمة الغير المرتاضة •

فأما بيان ماهية الخصال المانعة للانسان عن الشرور حسبما نبين ههنا وذلك أن الناس مختلفون فى طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم وعاداتهم وعلومهم وصنائعهم ذوو فنون شتى لايحصى عددهم الا الله تعالى ولكن منهم خير وشرير فنقول أشر الناس من لادين له ولا يؤمن بيوم الحساب .

والعلة في ذلك ان الانسان لما خلق مستطيعاً لعمل الخير ممكنا به وهو بذلك

الاستطاعة بعينها يقدر أن يعمل الشر لاسباب شتى ويمنعه عنه علل عدة وقد بيناها في رسالة الاخلاق ولكن أمنع الخصال للانسان عن الشر وأقمعها عنه الدين وتوابعه من الورع والتقى والحياء والمروءة والرحمة والخوف وماشاكلها من خصال الدين والايمان ، فمن لايؤمن بيوم الحساب ولا يرجو الثواب ولا يخاف العقاب فهو لايمتنع عن الشر جهده وطاقته ، سيما إذا دعته اليه الاسباب وأمكنه تجنبها في الظاهر مخافة للناس فهو لايتجنبها في السر .

واعلم أن الدين هو شيئان اثنان أحدهما هو الأصل وملاك الأمر وهو الاعتقاد في الضمير والسر ، والآخر هو الفرع المبنى عليه القول والعمل في الجهر والاعلان . ونحتاج أن نشرحهما جميعاً حسب ما جرت عادة إخواننا الكرام الفضلاء فنبدأ أولا بذكر الاعتقادات اذكانت هي الاصول والقوانين فيما هو غرضنا ومقصودنا في هذا المقام ، كما قيل « انما الاعمال بالنيات ولكل امريء ما نوى »

فصل

في بيان ماهية أجود الآراء وخير الاعتقادات

فنقول اعلم أن اعتقادات الناس كثيرة لا يحصى عددها الا الله تعالى ، ولكن لا تخرج كلها من ثلاثة أنواع : فمنها ما يصلح للخاص دون العام ، ومنها ما للعام دون الخاص ، ومنها ما بين الخاص والعام

ونريد أن نذكر في هذا الفصل ما يصلح للخاص والعام جميعا أن يعتقدوه اذكان القسمان الآخران كثيرى الانواع والفروع التى يطول شرحها فنقول :

اعلم أن من أجود الآراء وأنفع الاعتقادات وما يصلح لجميع الناس من الخاص والعام ان يعتقدوها ويقروا بها هو القول بحدوث العالم ، وأنه مصنوع وأن له باريء حكيم ، وصانع قديم ، وخالق رؤوف رحيم . وأنه قد أحكم أمر عالمه وأتقن أمر خلقه على أحسن النظام والترتيب ولم يترك فيه خللا واعوجاجاً البتة .

فانه لا يجرى في عالمه أمر ولا يحدث حدث صغير ولا كبير دقيق ولا جليل الا هو يعلمه قبل كونه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، وان له ملائكة هم خالص عباده وصفوة بريته نصبهم لحفظ عالمه ووكلهم بتدبير خلائقه لا يعصونه طرفة عين مما نهاهم عنه ويفعلون ما يؤمرون . وان له خواصا من بنى آدم اصطفاهم وقربهم وجعلهم وسائط بين الملائكة وبين خلقه. من الجن والانس وسفراء له وأنه أمر عباده بأشياء إذا فعلوها فهو خير لهم وأنفع للجميع ، ونهاهم عن أشياء إن لم ينتهوا عنها صرفهم عن الانفع وفاتهم الأفضل وأنه لم يأمرهم شيئا لا يطيقونه ولا يفعلون شيئا مما هو لا يعلمه ، وانهم قاصدون نحوه متوجهون اليه منذ يوم خلقهم ينقلهم حالا بعد حال من الانقص الى الأتم والأدون الى الأكمل ومن الأدنى الى الأفضل الى يوم يلقونه ويشاهدونه فيوفيهم حسابه

ثم اعلم أنه ليس الي معرفة هذا الرأي سبيل ، والى هذا الذى ذكرنا وحقيقة ما وصفنا طريق الا شيئان اثنان : احداهما الاستبصار والمشاهدة بعين البصيرة واليقين بالقلب الصافى من الشوائب للنفس الزكية النقية من الذنب بعد تأمل شديد للمحسوسات ودقة نظر في المعقولات ودراية بالرياضيات وبحث عن القياسات كما فعلت القدماء الحكماء الموحدون الربانيون ، واقرار باللسان وايمان بالقلب وتسليم بالقول كاقرار الملائكة بها الهاماً وتأييداً ، وكاقرار الانبياء للملائكة وحيا وانباء أو كاقرار المؤمنين للأنبياء إيمانا وتسليما ، وكاقرار العامة والأتباع للخواص والعلماء تقليداً وقولا ، أو كاقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليما وتلقينا .

فهذا الذي ذكرناه هو أحد أركان الدين وهو الاعتقاد الصحيح . وأما الركن الآخر الذى هو الطاعة فهو الانقياد من المأمورين والمرؤوسين للآمرين الناهين

ثم اعلم أن الاوامر والنواهي تختلف بحسب مراتب الآمرين والمأمورين في أحوالهم . فمن ذلك طاعة الاولاد للاباء والامهات فيما يأمرونهم به مما فيه صلاحهم وينهونهم عنه مما فيه فسادهم وهلاكهم «فقل لهما قولا كريما وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما» ومنه طاعة الصبيان للمعلمين في

قبول التأديب فيما هو صلاح لهم ، ومنها طاعة التلامذة للاستاذين في قبولهم تعليم الصنائع لهم ، ومنها طاعة الازواج لبعولتهن فيما يأمرونهن من لزوم المنزل والتصون الذى فيه صلاحهن

ومنها طاعة المرضى للاطباء في الحمية وشرب الادوية مما فيه صلاحهم وبرؤهم ومنها طاعة الجهال للعلماء فيما يأمرونهم بالتمسك بأمر الدين واجتناب المحارم بما هو صلاح لهم ، ومنها طاعة الرعية للسلطان العادل فيما يأمرهم به من المعروف وينهاهم عن المنكر ومنعهم من ظلم بعضهم بعضا مما فيه صلاحهم ، ومنها طاعة السلاطين والامراء والملوك لخلفاء الانبياء عليهم السلام فيما يولونهم من البلدان وجباية الخراج ومحاربة الخوارج والاعداء وحفظ الثغور وتحصين البيضة فيما فيه صلاح لهم وصلاح الرعية منهم

ومنها طاعة الخلفاء للانبياء عليهم السلام فيما رسموا لهم من حفظ الشريعة على الامة وإقامة السنة على أهل الملة

ومنها طاعة الانبياء عليهم السلام للملائكة فيما تلقى اليهم من الوحي والانباء في تدوين الكتب المنزلة ووضع الشريعة وايضاح السنة وجمع شمل الامة وتأليف قلوب الجماعة بابلاغ الوصية وباظهار الدعوة فيما فيه صلاح الكل ونفع الجميع ، ومنها طاعة الملائكة لرب العالمين فيما قضت من عبادته ووكلت به من تدبير بريته وحفظ خليقته ، مما فيه صلاح للجميع ونفع للعموم وبقاء للعالم ودوام الخليقة والبلوغ بها الى أقصى مدى غاياتها التي هي السعادة العظمى

فهذا هو الدين النبوي الحنيفي والمنهاج السني والسيرة الملكية ، وهو أن يكون كل مرؤوس ينقاد لطاعة رئيسه ولا يعصيه فيما يأمره به وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع

واذ قد تبين مما ذكرنا ما الدين الحنيفي والمذهب الرباني والاعتقاد الجيد والرأي الصواب والطريقة المختارة التي تصلح أن يتدين بها كل الناس ويعتقدها كل أحد من الخاص والعام جميعا نريد أن نذكر طرفا من المذاهب المختلفة

والآراء الذائعة وما الاسباب الداعية لأهلها اليها ومن أين انحرفوا عن الطريقة المستقيمة وضلوا عن الصواب ووقعوا في الأباطيل ونبدأ أولا بذكر الاراء الحكمية والمذاهب البدعية ثم نذكر علل اختلاف أهل الديانات والنواميس الالهية في فروعها من السنن والاحكام

فصل

في بيان الآراء الحكمية وهي نوعان دهرية أزلية ومحدثة معللة

فنقول اعلم أن من هذين تفرعت سائر الآراء الحكمية ومذاهبها فلنبدأ أولا بذكر الدهرية ، ثم نقول هؤلاء كانوا أقواماً قد كان لهم من الفهم والتمييز قدراً ما فنظروا الى الموجودات الجزئية المدركة بالحواس وتأملوا واعتبروا لها أحوالها فوجدوا لكل مصنوع أربع علل : علة هيولانية ، وعلة صورية ، وعلة فاعلية ، وعلة تمامية

فلما فكروا في حدوث العالم وصنعته طلبوا لها هذه الاربع العلل وبحثوا عنها وهى هذه ترى من عمله ؟ ومن أي شيء عمله ؟ وكيف عمله ؟ ولم عمله ؟ وأيضاً متى عمله ؟ فلم يبلغ فهمهم الى ذلك ولم يتصوروه لقصور نفوسهم عن فهم دقة معانيها لأن الباحث عنها يحتاج إلى نفس زكية فاضلة في العلم والعمل ، ويحتاج الى ذهن صاف خلو عن الغش أو الدغل ونظر دقيق وبحث شديد ليدرك هذه العلل ومعانيها وحقائقها — كما بينا في رسالة المعارف

ولما نظروا في هذه المباحث ولم يعرفوها دعاهم جهلهم وإعجابهم بآرائهم الى القول بقدم العالم وأزليته وأنكروا العلة الفاعلية لما جهلوا الثلاث الباقية ولم يعرفوها

ثم اعلم أن كل ناظر في مصنوع متأمل له يطلب بتأمله وفكره أربع علل : من عمل ؟ ومتى عمل ؟ وكيف عمل ؟ ولم عمل ؟ فانما يطلب هذه المباحث لأنه يرى ويعاين بأول نظرة في ذلك المصنوع أشياء ثلاثة ظاهرة جلية من أثر الصنعة لا تخفى على كل عاقل سليم العقل من الآفات العارضة للعقول ، وهي الثلاثة

المخصوصة والشكل والنقش والتصاوير والاصباغ وما شاكلها فلولا أن هؤلاء الذين زعموا وقالوا بقدم العالم قد رأوا هذه الأشياء بنظرهم الى هذا العالم وبتأملهم بنيته وشكله وما فيه من أنواع التصاوير والنقوش والأصباغ لما طلبوا الفاعل له ولا بحثوا عنه كيف عمل ؟ ومتى عمل ؟ ومن أي شيء عمل ؟ ولما عمل وأيضاً لو انهم حين لم يعرفوا هذه العلل ولم يفهموا رجعوا الى قول من هو أعلم منهم وأعرف بماهياتها وحقائقها وأقروا على أنفسهم بالعجز لما قالوا هذا القول ولا اعتقدوا هذا الاعتقاد ، ولكنهم لاعجابهم بأنفسهم واتكالهم على بحثهم ودقة نظرهم دعاهم الى القول بقدم العالم

وذلك أنهم تكلفوا مالم يطيقوا وتعاطوا ما لم يكن من صناعتهم فوقعوا فيها وتحيروا فيه ، وأصابوا ما أصاب القرد من النجار

فهذا الباب من اختلاف الناس ، وأعظمها بلية أن يتعاطى الصناعة من ليس من أهلها

فصل

في بيان مناقب العقلاء والآفات العارضة للعقول

فنقول اعلم أن هؤلاء القوم لم يرتابوا ولم يضلوا من قلة العقل ولا رداءة التمييز ولا من ترك النظر ولكن من الآفات العارضة للعقول ، وذلك أن العقل وان كانت له مناقب كثيرة فان له أيضاً آفات كثيرة تعرض لها ، وقد ذكرنا طرفا منها في رسالة الاخلاق ولكن لا بد أن نذكر في هذا الفصل طرفا منها فنقول: أولا ما العقل الانساني ؟ وذلك أن العقل الانساني ليس هو شيء سوي النفس الناطقة إذا هو كبر وشاخ بعد أيام الصبا وذلك أن النفس يوم ربطت بالجسد أعني الجنين في الرحم كانت ساذجة لا علم لها من العلوم ولا خلق من الأخلاق ولا رأى ولا مذهب ولا تدبير ولا سياسة ولا رياضة في أدب كما ذكر الله تعالى «والله اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً» وانما كانت جوهرة روحانية حية بالذات علامة بالقوة فعالة بالطبع ، فاذا حصلت فيها رسوم المحسوسات التى

تسمى أنواعا وأجناسا مصورة بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها فميزتها وتأملتها ونظرت فيها وعرفت أعيانها ومنافعها ومضارها وجربتها واعتبرتها سميت عند ذلك عاقلة علامة بالفعل كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس .

فأما مناقب العقل وأفعاله فكثيرة لا يحصى عددها الا الله الواحد القهار ، وقد ذكرنا طرفا في رسالة العقليات وشرحا ، ولكن نريد أن نشير اليها في هذا الفصل اشارة فنقول : إن جميع الافعال البشرية المحكمة وجميع الآراء والمذاهب المختلفة العقلية والوضعية من افعال العقل الانساني ، لكن له مع هذه الفضائل والمناقب كلها آفات عارضة كثيرة ، فمن تلك الآفات الهوى الغالب نحو شيء ما والعجب المفرط من المرء برأي نفسه ، والكبر المانع عن قبول الحق والحسد الدائم للاقران وأبناء الجنس والحرص الشديد على طلب الشهوات ، والعجلة وقلة التثبت في الأمور والبغض والعداوة عند الحكومة والخصومات ، والميل والتعصب لمن يهوى والحمية الجاهلية عند الافتخار والانفة من الانقياد للطاعة وحب الرياسة من غير استحقاق وما شا كل هذه الآفات العارضة للعقلاء المضلة لهم عن سنن الهدى المانعة عن الانتفاع بفضائل العقل ومنافعه

ثم اعلم انه ليس من مرتبة في الدنيا أرفع ولا فضيلة أحسن من الرياسة في العقلاء لذوي السياسات والتدبير ، ولا نعمة ألذ ولا رتبة أحسن من انقياد العقلاء للرئيس وطاعتهم له، ولا محنة أعظم ولا بلية أشد من عصيان العقلاء للرئيس الفاضل وعدواتهم له ، وهذه الخصال من إحدى أمهات الخلاف والمعاصي وهي كبر ابليس وحرص آدم عليه السلام وعجلته حين بادر وحسد قابيل.

فأما الكبر فهي الخصلة التي سنها أبليس فرعون آدم كفراعنة الانبياء الذين هم جنوده يوم أمر بالسجود لآدم والطاعة والانقياد لأمره .

والخصلة الاخرى التي هي أيضاً احدى أمهات المعاصي حرص آدم وعجلته حين بادر وطلب ماليس له تناوله قبل حينه واستحقاقه ، فلما ذاقها بدت له عورته وسقطت مرتبته وانحطت درجته وانكشفت عورته وشمتت به أعداؤه !

فلولا انه كانت سبقت كلمة من ربه تفضلا منه عليه ورحمة منه لكان لزاما له العقوبة وكل من عصى من ذريته كأن يتعاجل بالعقوبة من ساعته، ولكن أمهل الى وقت ما ، فلما تاب وندم استحق الغفران والعفو « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

فاما ابليس فانه لما أنكر السجود والانقياد للطاعة واستكبر وتمرد ولم يندم ولم يرجع ايس من الرحمة ، ولكن أنظر أيضاً وأمهل وأخرت العقوبة والعذاب الى يوم الوقت المعلوم « قال رب فأنظرني الي يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين »

وهذه سنة الفراعنة وحالهم فى الدنيا والدين الذين هم جنود ابليس أجمعون الذين يأنفون من الدخول تحت أمر الانبياء والطاعة لهم ويؤخرون ويمهلون إلى يوم يموتون ، فاذا ماتوا قامت قيامتهم وأخسئوا بالعذاب فلا يزال ذلك دأبهم الى يوم يبعثون ، كما قال تعالى : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

فقد تبين بما ذكرنا أن القائلين بقدم العالم لم يرتابوا ولم يضلوا عن الصراط من قلة العقل والبلاهة أو ترك النظر والبحث ولكن من الآفات العارضة والاخلاق الرديئة للنفوس والاسباب المختلفة والامور المشكلة والقصور عن التمام وتركهم ما كان أخذه عليهم أوجب ، وفعله بهم أولى ، وتعاطيهم مالم يكن من صناعتهم وتكلفهم مالم يكن من قوة نفوسهم

فصل

وأما الآخر من الخطأ الذي يطرىء عليهم

وذلك أنهم ارادوا أن يعرفوا العلة الفاعلة قبل معرفتهم المعلول، وإنما يعرف الصانع المحتجب الغائب عن ادراك الحواس إذا عرف المصنوع المكشوف الظاهر وإنما يعرف المصنوع بالنظر الى الهيولى واعتبار أحوالها لان في معرفة حقيقة الهيولي ومعرفة أحوالها معرفة المصنوع ، وفى معرفة المصنوع معرفة الصانع

وقد بينا في رسالة سمع الكيان ماهية الهيولى وحقيقتها وأحوالها ، ولكن نذكر هاهنا من أمرها مالا بد منه.

ثم اعلم أن الهيولى وحقيقتها هو جوهر ساذج لا كيفية له ولا النقش ولا الصورة ولا الاشكال ولا الاصباغ ولا الاعراض ،بل هو متهيىء لقبولها ولا يقبلها إلا بقصد قاصد وجعل جاعل .

مثال ذلك الخشب فانه متهيىء لقبول صورة الألواح والسرير والكرسي والباب وغيرها ولكن بقصد من النجار وعناية منه

وهكذا قطعة من حديد فانها لاتقبل الصورة إلا بعد قصد قاصد من الحداد ، وكذلك سائر الهيواليات الموضوعة فى سائر الصنائع البشرية .

وهكذا أيضاً الهيولى الطبيعية التى هي الاركان الاربعة التى لاتجمع ولا يكون منها المعدن والنبات والحيوان إلا بقسر قاسر أو صنع صانع .

والعلة الفاعلة لها هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية باذن الله تعالى .

وهكذا الجسم المطلق الذي هو جوهر طويل عريض عميق حسب ،لا يصير على الأشكال كريات مدورات بعضها ببعض وبعضها كواكب صغار وكبار و بعضها أركان مختلفة الطبائع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وخفيف وثقيل ولطيف وغليظ ، و بعضها متحرك وبعضها ساكن وبعضها أسرع حركة وبعضها أبطأ حركة وما شاكل هذه الحالات التى هي موجودة عليها إلا بقصد قاصد وجعل جاعل ، وهو الله العزيز الغفار الواحد القهار تعالى وتقدس .

وكفى بهذا دليلا وبياناً وحجة للعقول الغريزية على أن العالم مصنوع والمصنوع يقتضى الصانع وهذه قضية موجبة فى أوائل العقول بينة ظاهرة جلية لاتخفي على كل عاقل متأمل سليم القلب والعقل من الآفات العارضة وان لم يعلم من عمله ومتى عمله وكيف عمله ولم عمله.

فأما النظر فى أمر الهيولى والدليل والحجة على حدوثه فيحتاج الى نظر أدق من هذا وبحث أشد وتأمل أجود وتمييز الطف ، كما بينا في رسالة المبادىء العقلية

واذ قد تبين بما ذكرنا بطلان قول القائلين بقدم العالم نريد ان نذكر طرفا من أقاويل القائلين بحدوثه وفنون مذاهبهم واختلاف طبقاتهم والاسباب المؤدية لهم اليها وفيماذا أصابوا وفيماذا أخطأوا

فصل

فى بيان العلة الداعية الى القول بحدوث العالم عن علة واحدة

فنقول اعلم أن القائلين بحدوث العالم طائفتان احداها تعتقد أن العالم محدث مصنوع وله علة واحدة مبدعة مخترعة وهو حي قادر حكيم ، وهذا رأي الانبياء عليهم السلام وأتباعهم وبعض القدماء الموحدين والحكماء منهم ، والاخرى ترى وتعتقد أن العالم محدث مصنوع ، ولكن ترى وتعتقد أن له علتين اثنتين قديمتين أزليتين ، وهذا الخلاف من احدى أمهات الآراء والمذاهب المتفرعة بها ، ونحتاج أن نذكر الاعتبار والقياس الذي أداهم الى هذا الرأي والاعتقاد كيف كان فنقول :

اعلم أن السبب فى ذلك هو نظرهم الى الشرور التى تجرى في عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر ، وذلك أنهم رأوا من القبيح الشنيع أن يكون صانع العالم واحداً ثم يترك عالمه مملوءاً من الشرور والفساد ولا يمنع من ذلك ولا بغيره ، وان كان لا يقدر عليه فقد وجب علة أخرى لان الشرور أفعال ، والفعل لا يكون الا من فاعل ومنفعل .

هذا كان نظرهم والى هاهنا كان مبلغهم من العلم والى هذا أداهم اجتهادهم فى البحث والتمييز والقياس .

وهذه المسألة أعنى طلب علة كون الشرور في العالم هو من احدى أمهات أسباب الخلاف من العلماء فى الآراء والمذاهب ، وذلك أنه منذ كان الناس فى الدنيا والعلماء مختلفون في علة كون الشرور في هذا العالم لمن هو ؟ ومن الفاعل لها بالحقيقة ؟ ومن أين كان أصلها ؟ وسنذكر بعد هذا الفصل ماقالوه وتكلموا فيه

فصل

في بيان أسباب العلة الداعية للقائلين بالأصلين

فنقول اعلم وفقك الله أن القائلين بالاصلين طائفتان : احداهما ترى وتعتقد أن لهما فاعلان من احداهما نور خير ، والآخر ظلمة شرير . وهذا رأي زاردشت وماني وأتباعهما وبعض الفلاسفة ، والطائفة الاخرى ترى وتعتقد أن احدى العلتين فاعل والاخرى منفعل ، يعنون به الهيولى . وهذا رأي بعض الحكماء اليونانية ، والذي دعاهم الى هذا الرأى هو نظرهم الى الشرور التى تجرى بين كل اثنين متنازعين من الناس والحيوان من القتل والحروب والخصومات والعداوات وما يحدث بينهما من الاسباب والاحوال ، فبهذا الاعتبار قالوا وبهذا القياس حكموا بان حدوث العالم كان سببه من فاعلين اثنين متنازعين ، لكن أحدهما خير والآخر شرير ، فهذا كان قياسهم والى هذا الموضع كان مبلغهم من العلم والى ههنا أداهم اجتهادهم ، ولهم أيضا في كيفية حدوث العالم كلام وأقاويل يطول شرحها الا أنها مذكورة فى كتبهم ، فلذلك تركناها اذ لا فائدة في بيان ذلك.

فأما القائلون بان أحد الاصلين فاعل والآخر منفعل فانما دعاهم الى هذا الرأي ما رأوا أنه يلزم القائلين بالفاعلين من الشنعة والقبح وما يوجب لهما من العجز والنقص من فعالها وتناقضهما ، وما يقتضى دون ذلك من قلة النظام في تركيب العالم وخلق السموات ، وما يعرض من الفساد العام والبوار الكلي .

وقد يوجد الامر بخلاف ما يلزم من هذه الحكومة . وذلك أنهم قد تبينوا نظام العالم وعرفوا اتقان خلق السموات مع سعتها وكبر أجزائها وكثرة خلائقها التى هناك وليس فيها شيء من الفساد والشرور البتة ، وأنها كلها على أحسن النظام وأجود الترتيب والهندام ، وأن الشرور لا توجد الا فى عالم الكون والفساد التى تحت فلك القمر ، ولا توجد الشرور أيضا في عالم الكون والفساد الا في النبات والحيوان دون سائر الموجودات ، ولا في كل وقت أيضا ، ولكن

فى وقت دون وقت وأسباب عارضة لا بالقصد الاول من الفاعل بل من جهة نقص الهيولى وعجز فيه عن قبول الخير في كل وقت أو على كل حال .

وقياسهم فى ذلك أعنى كون الشرور من قبل الهيولى واعتبارهم الموجودات فى الشاهد وذلك أنهم قالوا انا نجد في ود كل صانع أن تكون مصنوعاته على أتقن مايمكن ولكن ربما لايتأتى فى ذلك المادة والهيولى الموضوع فى صناعته الا على قدر ما فهو يفعل فيها بحسب ما يتأتى فيها ويعمل عليها ما يجيء عنها وليس العجز منه بل هو من الهيولى الناقص العسر القبول .

ومثال ذلك أن الحكيم منا في الشاهد في وده أن يعلم كل علم وكل حكمة يحسنها لاولاده وتلامذته وأن يجعلهم حكماء فضلاء مثله في أسرع ما يكون ، ولكنهم لايقبلون ذلك الا على التدريج وفي ممر الايام والاوقات شيئا بعد شيء لنقص فيهم لا لعجز في الحكيم ، والنقص في الكمال يسمى شراً وليس الشر سوى عدم الخير والتمام والكمال ، فهذا كان مبلغ علمهم والى ههنا أدى اجتهادهم .

فأما القائلون بالعلة الواحدة وأنها واحدة قديمة فانهم نظروا أدق من نظر أولئك وبحثوا أجود من بحثهم وتأملوا غير تأملهم فرأوا من القبيح الشنيع أن يكون محدث العالم قديمين ، واعتبارهم وقياسهم كان في ذلك هكذا :

قالوا لا يخلوا الاصلان القديمان من أن يكونا متفقين فى كل شيء من المعانى ، أو مختلفين فى جميع المعانى ، أو متفقين فى شيء ومختلفين في شيء . فان كانا متفقين في جميع المعانى فواحد لا اثنين ، وان كانا مختلفين فى المعانى فأحدهما عدم وان كانا متفقين فى شيء ومختلفين في شيء فالشيء الثالث ، وقد بطلت المثنوية فيجب أن يكون أصل العالم ثلاثة ، والقائلون بالثلاثة أو أكثر لازمة لهم هذه الحكومة والشنيعة أيضاً . فأما العلة الواحدة فتتفق عليها بأن من يقول بالاثنين وأكثر فقد قال بالواحد ، ثم ادعى الى مادة الزيادة

فهرست الجزء الثالث

من رسائل اخوان الصفاء

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة